وزارة الثقافة
الهيئة العامة السورية للكتاب



الفردوس المفقود

تأليف: جون ملتون
ترجمة: حنا عبود

مختارات من الشعر العالمي ٢

الفردوس المفقود

الرسوم للفنان: غوستاف دوريه

تصميم الغلاف: فراس نعوف

الفردوس المفقود

تأليف: جون ملتون

ترجمة: حنا عبود

منشورات الهيئة العامة السورية للكتاب

وزارة الثقافة - دمشق ٢٠١١م

العنوان الأصلي للكتاب:

John Milton

Paradise Lost

الفردوس المفقود/ تأليف جون ملتون؛ ترجمة حنا عبود، دمشق: الهيئة العامة السورية للكتاب، ٢٠١١.- ٧٦٠ ص ؛ ٢٠ سم.

(مختارات من الشعر العالمي؛ ٢)

١- ٨٢١ إن م ل ت ف ٢- العنوان

٣- ملتون ٤- عبود ٥- السلسلة

مكتبة الأسد

مختارات من الشعر العالمي

«٢»

المدخل إلى الفردوس

منطلق:

دائماً نبحث عن نقطة انطلاق في أي أثر أدبي. فهناك بؤرة ينطلق منها الكاتب أو الشاعر ويبني عليها بأدواته المعرفية والأسلوبية واللغوية تكويناً جميلاً بشكل من الأشكال الوطيدة والمعروفة التي أرساها التقليد الأدبي على مر التاريخ، ساعياً أن يضيف ما أمكنه من عناصر جديدة أو فريدة. فالتقاليد الأدبية ليست ابتكاراً بل هي رسوخ المفيد والجميل، والإبداع إضافة الفرد بما هو عام يرتقي إلى مستوى القانون الأدبي.

وعلى هذا لا تكون ثمة أي فائدة من استخدام الأدوات المعرفية والأسلوبية واللغوية، مهما كانت وطيدة وسامية من دون تلك البؤرة التي أشرنا إليها، من دون نقطة انطلاق، من دون تصوّر معين، أي من دون موقف أدبي. فالموقف الأدبي هو نواة البناء الفني، والبحث عن الموقف الأدبي في كل عمل هو أساس فهم هذا العمل، أما ما تبقى... من أدوات وأساليب تعبير، فهي كلها في خدمة الموقف الأدبي...

ونقول الموقف الأدبي حتى نميزه من بقية المواقف، كالموقف السياسي أو الديني أو الأخلاقي... إنه أدبي... أي ملتزم بنوع من الجمالية المعتمدة على اللغة والأسلوب والخيال البشري الموروث منذ آلاف الأجيال... ومهما برعت المواقف الأخرى في استخدام اللغة والفصاحة والبلاغة، فإنها تصبح لعباً كهنوتياً فارغاً ما دامت تخلو من الموقف الأدبي.

لا بد من موقف أدبي نستند إليه حتى نعرف كيف نسير في شعاب عمل كبير كـــ «الفردوس المفقود». ونظن أن نقطة الانطلاق في فهم هذه الملحمة هي «العالم الجديد» كما أظهره العصر الذي عاش فيه ملتون، والعزلة التي ارتضاها بعد دمار كل شيء في أعقاب موت كرومويل، والضعف الذي ظهر على ابنه ريتشادر.

لكن الوصول إلى ذلك ليس سهلاً، بل يحتاج إلى مقاربة البيئة أو المناخ أو الجو أو الظروف... المادية والفكرية والنفسية والزمانية والمكانية... بل يحتاج إلى معرفة أدوات الخيال الأدبي التي صنعها أو استخدمها... وهناك الكثير من العوامل من دين وفن وسياسة واقتصاد وحرب وفتنة وحرب أهلية... كلها تفعل فعلها في تكوين الموقف الأدبي، الناشئ من وحدة العام والخاص، من روح العصر وروح الفن وروح الذات.

وعلى هذا لا بد من تحديد العصر أو المناخ، ومن ثم تحديد الموقف الأدبي قبل الحديث عن الأدوات المستخدمة.

مناخ القرن السابع عشر:

يعتبر القرن السادس عشر أكبر ثورة في التاريخ الاقتصادي للبشرية، ففيه حصل الاجتياح الكبير للعالم بشقيه القديم والجديد، وتحقق التراكم الأولي في أوروبا، مما هيأ التربة المادية لدفعها إلى الاستيلاء على العالم، سلطة ونهباً وسلباً. ولم تكن هذه الاكتشافات تحصل لولا وصول البارود إلى أوروبا على يد العرب. إنه اختراع شرقي من الصين، ولكن طبقة الفرسان طلبت من الإمبراطور الإبقاء عليه للاحتفال بعيد الإمبراطورية والإمبراطور فقط، لأن اختراع أي سلاح منه يقضي على طبقة الفرسان، بل إن هذا السلاح سوف يقضي على كل الأباطرة، لأنه سلاح غدر يمكن أن يطال الإمبراطور من بعيد، ولو كانت معه كل حاشيته وحراسه.

بهذا السلاح الناري الخطير تشجع الغرب على اجتياح العالم، كل العالم، جديده وقديمه. وهكذا بالثروة الجديدة رسخت الدولة الحربية والجيوش الجرارة كيانها، وبالأسلحة النارية غزت الدنيا. وكل ذلك جاء مترافقاً مع التناقضات التي خلقها «العالم الجديد».

كانت أخبار العالم الجديد تأتي بسرعة، نظراً لإقبال الناس الشديد على النزوح إلى العالم الجديد، فتحمل أنباء المجازر والقتل

والسلب والنهب. كان كريستوف كولومبس يجبر السكان الأصليين في هايتي أن يعملوا في مناجم الفضة ليلاً ونهاراً بلا طعام، حتى إذا قضى فوج نحبه، أجبر فوجاً آخر، مما جعلهم يهربون من الجزيرة، إلى حيث لا يدري التاريخ اليوم كيف تلاشوا، وإلى أي البلاد هربوا... وكان جنود هذا الفاتح البابوي يجربون أسلحتهم بسكان أول قرية يدخلونها في مسيرتهم، مع أنهم كانوا يستقبلونهم بأماليد الزهر وخبز الذرة الصفراء تعبيراً عن ترحيبهم بهم كمنقذين بحسب نبوءة قديمة بأن البحر سيأتيهم بالمنقذ. وفي الوقت نفسه كان هذا الفاتح يراسل البابا ويؤكد له أنه إنما جاء للحصول على الثروة التي تجهز جيوشاً تستعيد قبر المسيح... كما كان يفخر بقتله أطفال السكان الأصليين ليخلصهم من وثنيتهم، مكرراً في رسائله أنه يشك في أن يكونوا بشراً، بل هم مخلوقات أخرى من نوع آخر.

وصلت أخبار كل الفاتحين والمدمرين الكبار للعالم الجديد: كولومبس وهيرناندو كورتيس وبيدرو دي ألفارادو... ومعها أخبار المجازر المريعة، حتى أنهم قضوا على معظم القبائل التي تقودها النساء في غابات البرازيل واللواتي أطلقن عليهن اسم «الأمازونات» لشبههن بأمازونات الإغريق، كما أطلقوا على النهر اسم «نهر الأمازون»... كل ذلك يحدث تحت الشعارات الدينية في التسامح وإنقاذ النفوس من الضلال... كانت تلك القبائل تعيش في

بيوت مصنوعة من الشجر والأعشاب. إنها عرائش مثل العريشة التي جعل ملتون آدم وحواء يسكنانها في الجنة. العريشة رمز العفوية والبراءة، والبعد عن التصنع. أي شيء تضيفه إلى الطبيعة تجعلها معقدة، ولكنك، في الوقت نفسه، تجعل النفس البشرية نفسها معقدة، تلجأ إلى الكذب والمواربة. إنك بتغيير الطبيعة تغيّر نفسك أيضاً. إن ثمن البراءة كبير جداً.

كل شيء كان ضخماً في القرن السابع عشر: الجيوش والميزانيات والمذابح والمؤامرات والملوك والصعاليك (الذين صاروا يقبلون في الجيش بعد اختراع الأسلحة النارية، وكان الجيش من قبل حكراً على أبناء النبلاء، وفقاً لمبادئ الفروسية التي سادت في القرون الوسطى) والحروب الأهلية والثروات الخاصة. إن خزائن الذهب والفضة والأحجار النادرة التي كانت عند الأزتيك والإنكا صارت في أوروبا. عذبوا ملك الأزتيك حتى مات من دون أن يرشدهم إلى خزينة الدولة، وأما خليفته فقد صلبوه على شجرة وصاروا يستهزئون به، إلى أن جاء من أرشدهم إلى الخزنة الهائلة. وروي أن الجنود الأسبان عندما انهار الجسر الذي كانوا ينقلون الذهب فوقه، غرقوا في النهر، ولم ينج منهم سوى من ترك الذهب من بين يديه. إن التراكم الأولى الذي تحقق لأوروبا جعلها سيدة العالم حتى القرن العشرين عندما تفوقت عليها أمريكا.

هذا هو المناخ العام للقرن السابع عشر. أهم ما فيه اكتشاف «العالم الجديد» في الخارج، وظهور «عالم جديد» في الداخل، وبخاصة في إنكلترا وألمانيا.

العالم الجديد والخامس من نوفمبر:

اكتشف الكاثوليك «العالم الجديد» واستولوا عليه، وصار عليهم أن يتابعوا السيطرة على العالم الأوروبي، وهم يعتقدون أنهم يخلصونه، فهب البروتستانت لإنقاذ هذا العالم من شرور الفاتحين الغزاة، بعد أن أدانوهم بأشياء كثيرة، فكأن البشر، في هذا القرن، انقسموا بين الخير والشر، بين الملائكة والشياطين بين البراءة والخطيئة... وقد تجلى هذا الصراع في إنكلترا نفسها، بل في أسرة ملتون نفسها. فجده طرد أباه لأنه اعتنق البروتستانتية الكالفينية المناهضة جداً للكاثوليك، فاضطر الأب إلى العمل بعيداً عن مجمع عائلته، فنشأ ملتون وهو يعي هذا الواقع، واقع انقسام البشر بين الخير والشر. كلهم بشر ولكن ليسوا كلهم أخياراً، تماماً مثلما انقسم الملائكة بين الخير والشر... واقتتل الطرفان لحسم من يستولي على العالم الجديد، وحتى اليوم لم تحسم المسألة.

كانت الحمى الدينية جارفة، سواء في العصر أو في أسرة ملتون نفسها، وهل هناك حمى أكثر من طرد الأب للابن لأنه بروتستانتي؟ ولكن مما زاد في حدة الصراع الديني أن الكاثوليك دبروا مؤامرة يطلق عليها اسم «مؤامرة البارود» *Gunpowder*

Plot خلاصتها أن الكاثوليك استخدموا كميات كبيرة من البارود لتفجير البرلمان عام ١٦٠٥ (قبل ولادة ملتون بثلاث سنوات) وكان الملك جيمس سيحضر جلسة البرلمان مع عائلته، وطبعاً كان سيقضى عليه مع من معه من أسرته وأعضاء برلمانه. كانت المؤامرة ستنفذ في الخامس من تشرين الثاني (نوفمبر). بعد أن فشلت مؤامرة الكاثوليك صارت الجامعات تحتفل بهذه المناسبة في كل عام. وشارك ملتون في عام ١٦٢٦ وهو في العشرين بهذه المناسبة فنظم قصيدة *In Quintum Novembris* أي «في ذكرى الخامس من نوفمبر» وفي ذهنه صورة أليمة عن هذه الذكرى، مثل كل زملائه الجامعيين. فقد ألقي اللوم كله على الكاثوليك، ليس كاثوليك بريطانيا وحدهم بل على البابا والفاتيكان وكاثوليك أوروبا من أدناهم إلى أقصاهم، فهم أبالسة الدنيا الذين يريدون إفساد «العالم الجديد» في الداخل كما أفسدوا العالم الجديد في الخارج. إنهم أصحاب صكوك الغفران و«مطرقة السحرة» التي قضت على مئات آلاف الأبرياء، وهم الذين وضعوا نظرية «ذخائر القديسين» أي إن القديسين لهم من الفضائل ما يزيد عن حاجتهم، فراحوا يبيعون هذه «الكنوز» بالإضافة إلى عصمة البابا والمحارق المرعبة التي كان يوضع فيها المدان على الخازوق ويحرق، لأن الله لم يأمر بإراقة دماء... لم يترك طلاب الجامعة في هذه الذكرى تهمة سيئة ومريعة إلا ألصقوها بالكاثوليك، كل

الكاثوليك، وجعلوهم الشياطين الذين يفسدون العالم الجديد الذي يبنونه، مثلما أفسدوا العالم الجديد الذي اكتشفوه. جاءت مؤامرة البارود لصالح البروتستانت، ولم تكن مقتصرة على الاحتفالات الجامعية، بل عمّت البلاد تقريباً، وكان الناس يتسامرون بسيرتها وخطورتها وكيف أن الله يحمي الأتقياء والمنعم عليهم ببركته. ولولا العناية الإلهية لدمر العالم الجديد، ولظل الفساد قائماً في هذه الدنيا.

قبل المؤامرة كان الحديث عن الأخيار والأشرار والأبالسة والملائكة خاضعاً للنقاش والأخذ والرد... كان موضوعاً بوليميكياً، كما يقال، يحتمل العديد من الآراء المختلفة، ولكن بعد المؤامرة اتضح كل شيء وكشف كل شيء وتمايز كل شيء وصار هناك معسكران متصارعان عملياً، بعيداً عن أي نقاش أو جدال أو مساومة... وربما كانت هذه المؤامرة سبباً في عدم قيام أي محاولة مصالحة بين أبيه وجده، فلم يلتق الاثنان في مكان، ولا تخاطبا بكلمة، بل لم تجمعهما مقبرة واحدة، وربما اعتقد كل منهما أنهما لن يلتقيا في الآخرة، لأن الله أعدّ لكل واحد مكانه.

عام ١٦٢٦ حاسم في موقف ملتون العام، فقد اعتقد أن كل شيء بالنسبة إليه بات واضحاً. عاش بعد ذلك حياته الأدبية يكتب القصائد والأشعار والمشاهد في مناسبات عديدة. فقصيدته «كاموس» عبارة عن حوار مع الطبيعة، بين كاموس الذي يمثلها

(وهو شخصية رعوية كثر ذكرها في الأدب القديم) وبين تلك الفتاة التي ضلت الطريق في الغابة، فضاعت عن زميلاتها وزملائها... وهي قصيدة هامة لأن ملتون لم يكن فيها من أنصار ترك الطبيعة البشرية تأخذ مجراها. لا بد من مجالدة النفس للوصول إلى السمو والرفعة والارتقاء الحقيقي. وهذه الفكرة سوف تتردد في ملحمته الكبيرة.

حرب العمائم واللحى:

«العالم الجديد» هو أساس «الفردوس المفقود» والمنطلق الأول. ولكن العالم الجديد الذي يمتاز بالبراءة والبساطة والانقياد الهادئ الرزين لقوانين الطبيعة، صار مصدر نزاع. من يحكم هذا العالم الناشئ، سواء في الداخل الأوروبي، أو الخارج الأمريكي، من ركام التاريخ السابق؟ هل تقوم حكومة مدنية أم حكومة القساوسة؟ أو فيما يتعلق ببريطانيا: هل يحكم المطارنة أم يحكم الشيوخ (الشيوخ *Presbyterians* بحسب المفهوم البروتستانتي)؟

طبعاً يعرف القارئ أين يقف ملتون. إنه دائماً مع الجمهورية والليبرالية، وأبعد ما يكون عن قساوسة الكاثوليكية. ففي عام ١٦٣٧ ظهرت قصيدته «ليسيداس» يرثي فيها صديقاً كان زميله في الجامعة وغرق في البحر الإيرلندي، فعرج في هذه القصيدة على علاقة الكهنوت بهذا العالم الجديد الذي ظهر من «الكاوس» الكاثوليكي. يتحدث عن صديقه بأنه راع (واسم ليسيداس هو

بالأصل اسم يستخدم في الأدب القديم للراعي) فيبين كيف يجب أن يكون الراعي، وكيف يجب أن تكون العدالة. ويتهم الله في هذه القصيدة بأنه غير عادل فيما يخص الموت وأشياء أخرى، ويتحدى العدالة المقدسة المنحرفة (وهذا ما سوف يتكرر في «الفردوس المفقود») ويثبت أن ما يجري من أحداث كبرى لا ينسجم مع التعاليم الحقيقية للمسيحية.

في عام ١٦٣٩ اندلعت حرب المنشورات بين المطارنة وسميت حرب الكهنوت *Bellum Episcopal* وأدت إلى حرب حقيقية بين معسكرين متعارضين في المفاهيم المدنية، والدينية أيضاً، فاعتبرت حرباً فاصلة، تحدد مصير العالم الجديد. وتجددت هذه الحرب بعد فترة همود في عام ١٦٤٠ وكانت في المرة الثانية أعنف من الأولى. عشرات الآلاف تشتبك في معارك مخيفة... من أجل السيطرة على «العالم الجديد».

هذا الانقسام الأولي لا بد أن يسبق حرب المطارنة، فلا يمكن نشوب حرب من دون هذه القسمة فيما يخص الموقف من «العالم الجديد». وهذا الانقسام هو ما سوف يحصل في السماء قبل خلق «العالم الجديد» وقبل الاقتتال عليه. ولولا هذا العالم لما كان ثمة أي مسوّغ لنشوب حرب أو قيام صراع أبدي. وسوف يرى القارئ الملائكة في الملحمة ينقسمون مثل انقسام المطارنة،

ويتبادلون التهم الكثيرة، المحقة وغير المحقة، في غمار صراع جدلي كبير ومتشعب.

معالم الراعي الحقيقي للعالم الجديد كانت جاهزة عند ملتون منذ ١٦٣٧ في قصيدته عن زميله الراحل إدوارد كنغ. إنه يعدد الصفات التي يجب أن يحوزها كل راع، سواء راعي خراف أم راعي بشر. وبهذا المعنى كان موقفه محسوماً منذ البداية فيما يخص «العالم الجديد».

دفعت حرب المطارنة ملتون إلى النثر في عام ١٦٣٩ حتى يدعم أنصار الحكم المدني في السيطرة على «العالم الجديد» فكتب الكثير من النشرات تتعلق بالقضايا الحامية على الساحة العامة في تلك الفترة من أمثال الإصلاح والحكم والديمقراطية وحرية الفكر وحرية الرأي الفردي وأصول الدين وغير ذلك مما كان قد طرحه من قبل أبطال النهضة منذ فاتحة القرن الرابع عشر، وبخاصة دانتي في ملحمته الكبرى «الكوميديا الإلهية».

والمشكلة في الحرب أنها تبدأ حول قضية محددة ثم تشمل كل قضية، صغيرة كانت أم كبيرة. والسبب في ذلك يعود إلى أن انقسام البشر (كانقسام الملائكة في الملحمة الملتونية) يؤدي إلى إساءة ظن كل فريق بالفريق الآخر، بحيث لا تكون هناك نقطة مضيئة واحدة يمكن أن يلتقي عليها الطرفان. ولذلك كان ملتون

يكرر بأن الحزب الآخر يلجأ إلى المكائد والأشراك، وهذا دأبه منذ «مؤامرة البارود» فهو يستخدم أي وسيلة غير شريفة من أجل تحقيق مآربه. وهنا يدور نقاش حول إمكانية استخدام وسيلة غير شريفة من أجل غرض شريف. هل يمكن باستخدام وسائل غير شريفة أن نحقق غايات شريفة؟

حرب الأفكار «الأهلية»:

ليست الحرب الأهلية (١٦٤٢- ١٦٤٨) سوى محاولة لحسم حرب الأفكار «الأهلية» التي عمت إنكلترا واسكتلندا وأيرلندا وكانت تشتد وتهدأ هنا وهناك. إنها التعبير عن عجز النقاش والجدل في حسم المسائل العالقة. فقد اندلعت الحرب الأهلية لأن حرب الأفكار لم تنته إلى حل. وظل انقسام الشعب كما هو، إن قبل الحرب الأهلية أو بعدها. والأفكار المطروحة التي كان يجري الحرب حولها في السجال والنقاش كثيرة، ولكن أهمها الحق الإلهي للملوك، وهو حق يستند إلى التوكيل العام الذي كان يعطيه الله. وأهم حق في هذا المجال هو التوكيل العام الذي أعطاه الله لابنه، بحيث صار وكيله في كل شيء، حتى في هندسة الحكومة للعالم الجديد. وسوف نرى كيف أن ملتون في الملحمة حصر هذا الحق بكرومويل، باعتباره مختاراً وليس طامحاً في الحكم ولا من جملة المتحمسين، بل من جملة من حلت عليهم النعمة الإلهية.

ويرى ملتون هذا الرأي لأن هذه الحصرية تمنع القساوسة والمطارنة من التدخل في شئون الحياة. لا بد أن يكون هناك «شيوخ» للحكم المدني، ولا يجوز أن يكون هناك إكليروس وكهنوت أبداً. وهذا يخالف بالطبع تلك الأفكار الدينية التي تربط الملوك بالله وبكل ما يخص الله، من كهنة وتقاليد دينية، نص عليها الكتاب أم لم ينص.

ومن الأفكار المتصارعة مشكلة الخطيئة الأصلية، وهل يمكن البناء عليها أم يجب أن تبعد عن الحكم المدني؟ ثم إذا أقررنا بالخطيئة الأصلية وفعلها الدائم سقط قولنا بحرية الرأي والفكر والنشر والطباعة... لأننا بذلك نكون مروجين لإشاعة الخطأ. فما دامت الخطيئة الأصلية موجودة وفاعلة، فكل ما يصدر عن الإنسان خطأ... هذا يستدعي وجود المؤسسة الدينية المرتبط بالله والتي بارتباطها تعتبر معصومة عن الخطأ فتقوم هي بالإشراف على القضايا البشرية، بعيداً عن أي حرية تفكير أو تعبير أو تأليف... لأن كل ذلك يصدر عن مخلوق يحمل الخطيئة الأصلية. فالمؤسسة الدينية وحدها تكون المسئولة حتى لا يكون هناك خطأ أو خطيئة. وقد رفض ملتون هذا الرأي طبعاً، كما سيرى القارئ في فردوسه.

ومن الأفكار التي اشتركت في «الحرب الأهلية» مسألة الثواب والعقاب. هل يصبر الله على الخاطئ المدمر حتى يوم القيامة

ليحاسبه؟ وماذا لو صارت الخطيئة «أربح» وتخدم مصلحة المرء أكثر من البراءة، وانجرف العالم إليها... هل يسكت الله، أم أن هناك عقاباً جمعياً حتى تعتدل الكفة وتصبح الحياة مقبولة؟

من رأي ملتون أن هناك حكمة إلهية تمنع التطرف، بحيث يميل الناس إلى الجانب المقابل حتى تتكافأ كفتا الحياة. فكل خطيئة تولد عقابها من ذاتها، لأنها تولد أعداء لصاحبها، فإذا شاعت الخطيئة كثر أعداؤها وانقلبوا عليها عندما تميل الأمور إلى تجاوز عتبة الاحتمال.

طبعاً هناك الكثير من الأفكار التي شاركت في «الحرب الأهلية» قبل اندلاع الحرب الأهلية الحقيقية. فهناك الليتورجيا وكيف يجب أن تكون وكتاب الصلوات وكتاب الإيمان وعلاقة المؤمن بربه من دون وسيط وغفران الخطايا على الأرض... وعلاقة الكنيسة بالدولة والدولة بالفرد والفرد بالأسرة، وكيف من خلال هذه الارتباطات يمكن أن يحصل الفرد على شيء من الحرية... ولا شك أن مسألة البابوية وسلطتها كانت دائماً مطروحة في حرب الأفكار الأهلية.

والقرن السادس عشر، الذي عرف أشد أنواع القمع للمرأة على يد محاكم التفتيش، جعل القرن السابع عشر يطرح في بريطانيا مسألة المرأة: هل هي خاطئة بالطبيعة أم بالإغواء؟ فإن كانت بالطبيعة فالله هو الذي خلقها وكوّنها، وبالتالي لا يجوز أن تكون

مسئولة عن خطيئتها. وإن كان بالإغواء فالأصل في محاكم التفتيش أن تقبض على المغوي قبل أن تقبض على الضحية وتضعهما على المحرقة، لا أن تعاقب الضحية فقط.

حتى أفكار غاليلي ونظريته الجديدة طرحت للمناقشة في القرن السابع عشر وشاركت في حرب الأفكار الأهلية. وكان ملتون قد عرف الرجل في رحلته إلى إيطاليا وصادقه واعتنق أفكاره، وهو المفكر الوحيد الذي أشار إليه بالاسم في فردوسه. بل ربما كانت الأفكار العلمية الحديثة في الكولكب والمدارات من أهم الأفكار التي اشتدت الحرب الكلامية حولها، فليس سهلاً لجمهور هائل يؤمن بوجود سماء ثابتة وكون خـُلق من أجل هذه الكرة الصغيرة التي اسمها الأرض، أن يغيّر إيمانه بسهولة، ويعتنق التصور الجديد للمدارات التي تحدث عنها غاليلي.

ولو رحنا نعدد الأفكار «الحربية» التي طرحت في القرن السابع عشر، والتي كان كل فريق يعتقد أن أفكاره أنسب وأصح وأدق للعالم الجديد، لما انتهينا. وتقدم مؤلفات ملتون النثرية صورة عن أهم هذه الأفكار «المقاتلة» وتشمل: السلطة المدنية، السلطة الكنسية، الطلاق، التاريخ، الدين، التمثيل النيابي والديمقراطية، الكومنولث... كان لا بد من قيام حرب أفكار أهلية حتى يتضح الطريق الذي عليه سوف يسير العالم الجديد.

العالم الجديد الكبير والصغير:

في الوقت الذي كان العالم الجديد في الخارج يُكتشف ويجري الاستيلاء عليه بالعنف والحرب والتدمير، كان هناك في بريطانيا عالم جديد ينشأ بعد سيطرة المسيحية بفرعها الكاثوليكي أكثر من أربعة عشر قرناً. هذا العالم رسمت معالمه البروتستانتية، بحسب مفهوم ملتون. فهناك عالمان جديدان، في إنجلترا (والقارة) وفي العالم المكتشف، وكان لهذين العالمين مصيران مختلفان، فالعالم الجديد الخارجي، وهو العالم الجديد الكبير، صمد بعض الوقت أمام هجوم الأوروبيين، بينما صمد العالم الجديد الداخلي، وهو العالم الجديد الصغير، صموداً قوياً جعله يتوطد ويستمر. ولم يكن النصر حاسماً في العالم الجديد الصغير، فقد كان بين مد وجزر، وكذلك في العالم الجديد، حيث كان السكان الأصليون أحياناً يصمدون أمام الهجمات المريعة للجيوش المقتحمة. المعركة لم تحسم في عهد ملتون، فالأمريكيون صاروا يسترضون السكان الأصليين للوقوف إلى جانبهم ضد الإنكليز. ولم يقضوا عليهم وينتزعوا أراضيهم إلا بعد أن طردوا الإنكليز، فوجهوا الحملات للاستيلاء على أراضيهم التي كانت تحميها اتفاقيات ورقية هشة، وطردوهم في مسيرات آلام لم يشهد التاريخ مثيلاً لها. ولا ندري لو شهد ملتون هذا المصير لأناس أبرياء ماذا كان سيفكر أو يقول

في ملحمته الكبيرة؟ هل يبقي الجريمة ملصقة بالكاثوليك أم يدين البروتستانت أيضاً؟

أمضى ملتون حياته من دون أن يشاهد أحد الطرفين يحسم المعركة لصالحه، وهذا ما جعله في قلق فكري: لماذا لا يتغلب عنصر الخير؟ أو لنقل لماذا لا يتغلب جيش الحق على جيش الضلال والجريمة والخطيئة والتمرد؟ وإلام يبقى هذا العالم الجديد مسرحاً لقتال فريقين أو جيشين قويين ومسلحين بالعتاد المادي والمعنوي، فكل يفخر بكينونته المبنية على العزة والكرامة والحق والخير... وهكذا.

كما لم يُحسم الأمر في أيام ملتون على أرض الواقع، كذلك لم يحسم في ملحمته، فمن انتصر؟ هل انتصر الملائكة بقيادة ميخائيل؟ لا أبداً، فعلى الرغم من حمايتهم وحراستهم وتسيير العسس الليلي والمراقبة النهارية تمكن الشيطان، المتمرد الأكبر من اختراق خطوط الحماية وإفساد العالم الجديد. هل ستظل الحرب أبدية، من غير أن يحقق طرف النصر على الطرف الآخر؟ فإذا كانت أبدية فإن قوة الخير وقوة الشر متكافئتان في الصراع، لا تستطيع الواحدة أن تسحق الأخرى، فما جدوى الحديث عن عنصر الخير إذا كان من يحميه أو يمثله غير قادر على ضمان استمراره؟ هل معنى هذا أن الوجود مبني على الخير والشر معاً، فلا وجود لصالح أو طالح، وإنما هو «وجود» يتآزر

فيه الطرفان؟ ثم إذا كان الخير سائداً، أو الشر، سيان، فلا حاجة إلى العدالة، لأن العدالة تفريق بين الخير والشر، فأي غياب لأي طرف يعني سقوط العدالة. ومع ذلك نلاحظ في الملحمة أن العدالة غير سائدة لا في طرف الملائكة ولا في طرف الشياطين. كانت صرخة ملتون:

أيتها الأرض، كم تشبهين السماء،

إن لم تفضليها عدالة (٩: ٩٩- ١٠٠)

تعبيراً عن حيرته في هذا الوجود، وفي عالم القيم حيث تتعايش الأضداد بصورة غريبة يعجز الفكر البشري عن استيعابها... يبدو أن القلق الفكري عند كل الذين طرحوا مسألة القيم ناجمة من السؤال الكبير: هل يمكن اقتلاع ما نسميه شراً؟... لا أحد يتصور كيف يكون الوجود في هذه الحالة. فحتى في عالم الخير الصرف، عالم الملائكة حدث التمرد الكبير. فكيف سمح الله بهذا التمرد؟ هل كان أعجز من أن يقمعه، أم نحن أعجز من أن نفهمه؟

مشانق الموتى:

كرومويل عند ملتون قدوة ومثال، فهو المحافظ على العالم الجديد، بل هو خالق العالم الجديد، والكومنولث البرلماني، ومُسقِط حق الملوك المقدس، والبروتستانتي المتحمس، والمعارض العنيد للكاثوليكية، والمنتصر على خصوم الجمهورية في الحرب

الأهلية، والمنظم لعلاقة الجزيرة بالقارة والمدبّر لدورة الاقتصاد في الداخل... وعندما طالب بمحاكمة الملك شارل الأول ظهرت معارضة قوية، على اعتبار أن الملوك لا يحاكمون، فانبرى ملتون للدفاع عن حق الشعب في محاسبة الحاكم ولو ملكاً... الخلاصة أن معظم آراء كرومويل، إن لم نقل كلها، كانت تجد صداها عند ملتون. وبعد أن عينه مجلس العموم رئيس ديوانه، تحت اسم سكرتير اللغات الأجنبية *Secretary of Foreign Tongues* لم يراجعه كرومويل بأي نشرة أصدرها باللاتينية، أو الإيطالية أو الفرنسية أو الأسبانية وهي لغات أتقنها مثل أهلها... أو حتى الإنكليزية. كان يعبر بلسانه عن سيد البلاد وحاكمها.

كانت خطة كرومويل أن يمتد «العالم الجديد» الداخلي من إنكلترا ليشمل العالم بأسرة، فلماذا يستولي الكاثوليك على العالم الجديد في أمريكا، وهم أدوات الفساد في رأي البروتستانت؟ لماذا لا يستولي صانعو العالم الجديد الداخلي على العالم فيظهر العالم البريء من الخطيئة؟ وهكذا اتجه كرومويل بأنظاره إلى العالم القديم (أوروبا) والعالم الجديد (أمريكا) وبالفعل نجح في تمتين البروتستانتية في العالمين، وصار شمال أوروبا كله بروتستانتيا تقريباً. واستطاع البروتستانت الإنكليز أن يثبتوا أقدامهم في أمريكا الشمالية بعد أن فاتهم الاستيلاء على أمريكا الجنوبية.

عالم جديد يولد وتجب حمايته، وكرومويل ليس فقط الوصي على الدولة *State Protector* بل على العالم البريء، فيحميه من شر البابوية والقساوسة. كان يعتبره الباني الأول لأسوار العالم الحديث، بعد أن حصنه بالجمهورية والحرية والتقيد بنظام الدولة أو العالم الجديد... وإذا كان رأي ملتون في كرومويل متطرفاً، فإن آراء المؤرخين في أهمية هذا الرجل في صياغة العالم الحديث لا تبتعد كثيراً عن آراء شاعره.

ولا حاجة اليوم للرجوع إلى ما قاله كرومويل، ففي النشرات التي أصدرها ملتون بسط بليغ ومسهب لهذه الآراء، سواء في الحكم أو الحياة المدنية أو النظرة إلى الكاثوليكية أو هندسة العالم الجديد.

لكن الرجل الذي كان وراء إعدام الملك شارل الأول في عام ١٦٤٩ مات. بلى، مات في عام ١٦٥٨ بنوبة في الكلية، ويرجح بعض المحققين أن هذا المرض في الكلية هو نفسه الذي ذهب بحياة ملتون، وليس النقرس كما يزعم بعضهم.

استمر ملتون على الرغم من العمى الذي ابتلي به في الدفاع عن نظرية، أو نظريات الراعي الأكبر للعالم الجديد. ولكنه شاهد، هذه المرة بأذنيه وليس بعينيه، كيف ينهار صرح كلف الكثير من الجهد والتعب بأيام قليلة. لم يكن ابن كرومويل على قدّ المسئولية، بل كان أقرب إلى النساك في الصوامع، يدعو إلى المحبة العمياء أو الهلامية التي لا تميز بين فريق وفريق في الصراع على العالم

الجديد. وفي عام ١٦٦٠ عادت الملكية وعاد الملك شارل الثاني، وهو ابن الملك «الشهيد» الذي شبه أنصاره إعدامه بصلب المسيح من أجل خطيئة البشر. واستلم السلطة بعد أن عاد من الشاطئ الإنكليزي بعشرين ألفاً من أنصاره المسلحين. وجرى بعد عودة الملكية ما كان يجري من قبل عندما لا تجد الكنيسة الكاثوليكية مجالاً لمحاكمة المرتد أو المحتج فترجئ أمره إلى الوقت السانح، الذي ما إن يحل حتى تنبش القبور وتستخرج الجثث وتحاكمها وتشنقها أو تحرقها أو ترميها في النهر، كما فعلت بجثمان جون ويكليف، فقد نبشت قبره وحاكمته وأحرقته وذرت رماده في النهر. وهكذا أسرع الملكيون ونبشوا المقابر وأخرجوا جثامين كل من كان يقف ضد الملكية، أو من يطلقون عليه قاتل الملوك *regicide* ومنهم كرومويل، ونصبت المشانق وعلقت الجثامين وسط أفراح وتهاليل أنصار الملكية.

هكذا انهار كل شيء، واعتقل ملتون وأمضى ثلاثة أشهر في السجن، وكان سيقدم إلى المحاكمة لولا بعض النواب الذين احتجوا على اعتقال عجوز أعمى. وأطلق سراحه ولكنه ظل ينافح ويكافح، ولم يتخل عن أفكاره. ولكن شيئاً ما أصاب اليقين الذي كان في داخله... أهكذا يا ملتون تتلاشى الآمال وتنهار أركان عالم جديد بذلت ما بذلت من أجله؟... هل الخير والشر شيئان يتوالدان ذاتياً أم أن الواحد يخرج من الآخر؟

لنفرض أنه لا يوجد شر، من أين يأتي الصلاح؟ إذا لم يكن هناك خلل فماذا نصلح؟ ألا يدلنا الشر على الخير؟ أليس من الخير يخرج الشر؟ أليست الجحيم مزروعة بالنيات الحسنة؟... إذن!... عليك ألا تحسم الأمور بهذه البساطة في ملحمتك، وحسناً فعلت، فقد تركت مساحة، تشبه تماماً تلك المساحة التي تسمى ميدان المعركة بين الجيشين المتحاربين... ولو أن العالم الجديد (الأرض في الملحمة) تكرس للملائكة لما كان ثمة فرق بينه وبين السماء، ولما كان ثمة حاجة إلى خلق هذا العالم. كان شيئاً مقنعاً أن الأخيار أنفسهم غير قادرين تماماً على الإمساك بالخير وتثبيته، والأشرار غير قادرين تماماً على الإمساك بالشر وتثبيته. إن النسق الثلاثي أداة أنسب للملحمة، وبذلك يكون الصراع أبدياً وليس محصوراً في بقعة أو عالم أو مرحلة أو حقبة... يبدو أنه نسق كوني فاعل... ولو كان هيغل عاش قبل ملتون لقلنا إنه استفاد من نسقه الثلاثي الذي بنى عليه كل نظريته في تطور «العقل المطلق»... ولو كان كانط عاش قبله لقلنا إنه لم يوافق على ثنائية كانط في التفريق بين العقل العملي والعقل المحض، ولا يجوز أن يكون هناك حصر صرف لهذا العقل من دون ذاك. إن ملتون وحداني تماماً، أو واحدي في نظرته من هذه الناحية، وما النسق الثلاثي الذي اتخذه لجعل الصراع أبدياً سوى أداة من جملة الأدوات التي جره إليها عمق النظرة وجسامة التجربة،

وانهيار الآمال... قبل «الفردوس المفقود» لم يكن يقدم لنا هذا الموقف المرهف والدقيق. كانت الأمور عنده إما بريئة أو مدانة، إما شريرة أو خيّرة. ومما يذكر أنه دافع عن إعدام الملك شارل الأول، فقدم العمل على أنه خير مطلق... قتل الملوك خير مطلق... وحتى يقنع القراء أورد كل ما يوجب إعدام الملك، حتى أنه قال من جملة الاتهامات أن الملك معجب بشكسبير... ولكن لما عاد الملك شارل الثاني أدرك أن هناك من يرى في العمل الإنساني غير ما يراه هو. لو لم يقتنع الآخرون بأن قتل الملك جريمة لما وقفوا إلى جانب ابنه وأعادوه إلى الحكم، ومنذ ذلك الوقت والإنكليز يرتعبون كلما سمعوا بملك يعدم.

مولود ناضج:

بعد عام ١٦٦٠ لم تتغيّر نظرة ملتون إلى الأمور ولكنها نضجت، وتخلصت من الحسم الذي كانت تلجأ إليه في الأعوام التي خدم فيها كسكرتير المجلس للغات الأجنبية. صار ينظر إلى الكون بدهشة أكثر، وليس بثقة أكبر. يتحدث عن الشر ولكنه معجب به، وبتوليده لأعمال الخير، ويتحدث عن الخير ولكنه ضجر منه لأنه لو استمر لما تقدمت الحياة، ولعاش المرء على الطعام والشراب فقط. لم يعد هناك رأي قاطع في أي شيء، لذلك قال وليم بليك إن ملتون يقف إلى جانب الشيطان وهو يهاجمه.

كانت التجارب مريرة، وليس سهلاً أن ينهار العالم الجديد ويعتلي العرش من طرد منه، ويدير القانون من لا قانون له.

هذا الصراع غير المحسوم حول العالم الجديد هو الذي نجده في «الفردوس المفقود». صارت نظرته أعمق، وحماسته أقل، فكان يعجب بالشياطين ويسخر من الملائكة، بحسب المواقف الذي يضع فيها شخوصه الملحميين.

منذ عودة الملكية اعتزل ملتون الحياة العامة، مع أنه أصدر بعض الكتب التي تدافع عن الموقف الكرومويلي، وانكب ينظم «الفردوس المفقود».

لو انكب على تأليف هذه الملحمة قبل هذا التاريخ لخرجت بغير ما هي عليه الآن... أو ربما لم تكن لترى النور أبداً... فقد كانت السياسة تجرف الرجل حتى كان أحياناً يتأخر كثيراً في عمله ولا يعود إلى منزله إلا في الليل. عودة الملكية هي عودة وعي جديد ألهمه «الفردوس المفقود» والوعي الجديد هو «الشك» أو على الأقل عدم الركون إلى اليقين. في هذه الملحمة كتب قصة «العالم الجديد» ولكنه ترك الأمر غير محسوم، وقد جرى ما جرى، واختلطت الآراء وتمازجت الأفكار، فبريطانيا بعد ذلك لم تخلع ملكاً ولم تؤيد جمهورياً، ولكنها حافظت على البروتستانتية بمظهرها الأنكليكاني، كما حافظت على ملوكها، بل زادت في احترامهم وتبجيلهم، وعندما أعدم الملك لويس السادس عشر في

فرنسا، بعد أقل من قرن ونصف القرن، أصاب الهلع البلاد، واستنفرت، ووقفت تقريباً وقفة واحدة ضد «قتل الملوك».

أدرك ملتون أن الملك ليس عائقاً أمام قيام العالم الجديد، بل طريقة التعامل مع هذا العالم هي التي تنعشه أو تميته. أشياء وأشياء أحدثتها عودة الملكية في نفس ملتون، أهمها عدم اليقين، أو عدم الحسم في المسائل التي كان يعتقد أنها محسومة، وهذا ما جعل من ملحمته « أعظم أثر أدبي في العالم الإنكليزي»

إن «الفردوس المفقود» هي المولود الناضج، أو الأشد نضجاً من كل ما ألف ملتون وكتب. وما كتبه بعدها في المطولات الشعرية: «الفردوس المستعاد» و«آلام شمشون» الأولى ملحمة والثانية تراجيديا، لا يرقى أبداً إلى مستوى «الفردوس المفقود» لأنه أقرب إلى ذاتية ملتون، وأبعد ما يكون عن النظرة الريبية التي تنعشنا في «الفردوس المفقود».

هذه النظرة هي التي تكمن وراء عظمة هذه الملحمة اللاهبة. إن ملتون لا يسرد قصة آدم وحواء، المسرودة مئات آلاف المرات بأقلام جهابذة المتأدبين والمختصين، من أدباء ورجال دين. بل إن أي طفل في مدارس الأحد، بل في الصفوف الأولى من مدارس الأحد، يسرد لنا قصة آدم وحواء والخطيئة الأولى، أو السقوط، ربما بدقة أكثر مما نعرفها نحن، أو يعرفها ملتون نفسه.

لا، ليس غرض ملتون أن يروي لنا ما هو مروي ملايين المرات، بل غرضه «الموقف الأدبي» وهو موقف خطير ودقيق، وليس بالموقف السهل، لأنه لا يحسم الأمور كما يفعل العلم والعلماء (بل إن النظريات العلمية تبطل ويحل الأحدث محلها) بل يبقي على القارئ مشاركاً في المسائل المطروحة. هذا هو الموقف الأدبي الذي يتخطى الزمان، ولا تطاله ريشة التصحيح أو الإلغاء كما تطال النظريات العلمية.

بل نذهب إلى أبعد من ذلك لنقول إن قصة آدم وحواء، وما تجر من قصة الطوفان والفلك ونوح وغير ذلك موجودة لدى الشعوب الأخرى، والفلك الذي شاده ديوكاليون لا يختلف عن فلك نوح، ولا تختلف قصة هذا عن قصة ذاك... كلها نجدها في أي ميثولوجيا من ميثولوجيات الشعوب، فقصة الخلق والتكوين أساس بداية الفكر البشري، وهو السؤال الأول: كيف خلق الكون وكيف ظهر الإنسان؟ إن ملتون يقدم خلاصة موقفه، بعد حياة تعتبر من أصخب الحيوات البشرية، وبعد تجربة تعتبر من أعمق التجارب الأدبية... ولا يكابد كل هذا العناء ليقدم لنا قصة مكررة ومعروفة، بل وممجوجة في سردها العادي... إنما القصة أداة من أدوات الفن الأدبي الكثيرة، يتخذها كنوع من التعبير عن الموقف الأدبي، وليس لسردها، وهي التي تكرر سردها على مدى الأزمان. إن

الموقف الأدبي هو ما يمنح الأثر الأدبي الخلود، وليس تكرار سرد قصة، صار سردها ببغاوياً عندما يخلو من الفن الأدبي الجميل.

لا تجوز المقارنة بين «الفردوس المفقود» وسواها من مؤلفات ملتون، لأنها تشبه مقارنة طفل سليم معافى بأطفال معاقين.

الأدوات:

حتى يبين ملتون موقفه الأدبي بعد هذه الحياة الصاخبة بتجاربها العميقة لا بد أن يختار الأدوات اللازمة مما ثبتت فاعليته في التقليد الأدبي، فاختار الحديث عن «السقوط» والسقوط عند ملتون سقوطان: سقوط الملاك المتمرد، وهو السقوط الأول، وسقوط حواء في الخطيئة وعقابيل ذلك على نسلها هو السقوط الثاني. إن «الفردوس المفقود» لا تشبه «الإلياذة» ولا «الأوديسة» من حيث يتخذ الراوي صفة الحياد التام، إنها ملحمة صناعية تعكس موقف صاحبها على نحو شبه مباشر. وأهم الأدوات التي استخدمها:

١- الكتاب المقدس، وقد استفاد منه في كثير من المواضع، وجاء بأعلام وردت سيرتهم أو بعض سيرتهم في هذا الكتاب. وجد قصة السقوط جاهزة فبنى عليها مستفيداً من ثقافته الدينية الواسعة، ومن موقفه الكالفيني الواضح، فمرت هذه القصة بتصفيات عديدة مما جعل شخصيته الفكرية تبرز من خلال الملحمة. على أن قصة السقوط لم تكن وحدها محط عناية

الشاعر، بل وسع المشهد الملحمي ليحدثنا عن «السقوط الأول» الذي سبق «السقوط الثاني». والسقوط الأول هو تمرد الشيطان وأنصاره، أما الثاني فمحصور بجدتنا حواء وزوجها الذي زف إليها من دون حفلة أو زغرودة كأنه زفاف يعقب دفناً، فيتم بصمت. والأصح أن نقول إن هذه الأداة أكبر من أن تحصر في الكتاب المقدس، فهناك الكثير من الروايات التي شاعت في الثقافة الدينية سيصادفها القارئ في طريقه.

٢- الموقف الديني ظل أداة من الأدوات التي يعتمد عليها ملتون، فهو لم يذهب مع بعض الفرق «الألفية» في حساباتها يوم الساعة بالمنعطفات الألفية. ظل محافظاً على الموقف الكالفيني وبخاصة في النعمة والمختارين. بعد عودة الملكية غلبت عليه النغمة الحزينة، وصار يعتقد بينه وبين نفسه (كان قد عزل نفسه عن العالم تقريباً) أن أيام كرومويل هي أيام جنة عدن، وأن الملكيين أشبه بجيش الشياطين الذي هاجم الجنة البريئة. وإذا أردنا التعرف على ملتون الشاعر، فإننا نجده أوضح في آثاره التي ظهرت بعد عودة الملكية. ومع كل حزنه لم يغيّر موقفه من «المخلص» الذي كان يتحدث عنه وفي ذهنه «كرومويل». وإذا أردنا معرفة الموقف الديني فإننا نجده في الطائفة التي احترمها وهي طائفة الكويكرز.

٣- التراث الأدبي: اعتمد على التراث الأدبي كثيراً، ولكننا نرجئ الحديث عنه إلى ما بعد الحديث عن الأدوات، لأهميته في العملية الإبداعية، وعند الأدباء بكل أنواعهم وألوانهم واتجاهاتهم، في كل العالم.

٤- التراث السياسي: سيجد القارئ موقفاً سياسياً، لا يجده مباشرة، ولكنه يلمسه في موقف ملتون من أي شيء يخص الحكم والإدارة، فهو النصير المتحمس للجمهورية ولليبرالية، ويكفي أن يحتفظ القارئ بكلمتين: الجمهورية والليبرالية حتى يحدد كل مواقف ملتون السياسية الأخرى، فهو من أشد المعادين للنزعة المطلقة بأي شكل من الأشكال، حتى لو كانت مقيدة بعقد اجتماعي على غرار ما كتب معاصره توماس هوبز. فالحكم المطلق لا يمكن أن يتقيد بأي عقد. وهو في ذلك لا يخرج عن شعار كرومويل: الحرية بما لا يسيء للكومنولث، والجمهورية بما لا يسيء للإدارة.

٥- النظرة الفلسفية: لم يكن ملتون صاحب فلسفة ولكنه لم يعتنق ثنائية معاصره ديكارت في تفريقه بين البدن والنفس، كما أنه لم يكن من أنصار أفلاطون الذي جعل هذا العالم انعكاساً للعالم المثالي، فهو ليس مثالياً من هذا الطراز، ولكن بالمقابل لم يكن من أنصار الميكانيكية والحتمية التي روّج لهما توماس هوبز. إنه

وحداني بمعنى أنه ينظر إلى الكون في وحدته، تماماً كما ينظر إلى الإنسان في وحدته المتكاملة والمتآزرة، أي لا يوجد أي فارق بين الروح والجسد، ولا بين المخلوق والخالق ولا بين الدماغ والنفس، ولا حاجة إلى العقدة الصنوبرية كما عمد ديكارت لتفسير الظواهر النفسية. كله مندمج في كله. وإذا أردنا اختصار نظرته الفلسفية قلنا إنها هي نفسها نظرة الوحدانيين الإحيائيين من قدماء فلاسفة اليونان كطاليس وأناكسيمينس وهيراكليت. وقد أطلق على مذهبهم فيما بعد *Hylozoism* أي المادة الحية، أو حيوية المادة، فلا فرق بين العالم وروح العالم، ولا بين الإنسان ونفس الإنسان، فكل شيء حي، وكل حي شيء... وهكذا. وهذا تخمين نخمنه، وليس هناك تأكيد أنه اطلع على هذا المذهب بعمق وشكل القناعة الكافية. إن الضرر والفائدة إنما يكونان في الأعمال، بينما الخير والشر يكونان في النيّة والقصد، أي يصدران من النفس، ولكن النفس الواعية، لا تعي إلا من خلال الجسد ومصالح الجسد، فالعمل مهما كان فكرياً ومعنوياً يظل ناجماً من المادة ومصالحها. ولم يكن كانط موجوداً في عصر ملتون حتى نقول إنه استفاد من نظريته السديمية، من حيث أن الكون كله نشأ من كتلة غازية، فعناصره واحدة، وإنما تختلف النسب فقط. إن ملتون ليس سياسياً فحسب، بل هو أيضاً صاحب تفكير فلسفي عميق، وهو ما يجب على

القارئ أن يضعه في الحسبان، فالآراء التي يبثها في ملحمته ليست آراء يصادفها أو تصادفه، بل ناجمة عن تمحيص ونظرة فلسفية، بالإضافة إلى تجربته المريرة.

التراث الأدبي:

نظرة ملتون الدينية، من جهة، وتعمقه في دراسة اليونانية واللاتينية، من جهة أخرى، شكلا مرشداً له في استلهامه الأدبي. إنه يعتمد على تراثين: اليوناني واليهودي، من غير أن يفرق بين النظرة اليونانية الأدبية والنظرة اليهودية الدينية. إن النظرة الأدبية هي التي تنسجم مع دعوته إلى الحرية، بينما لا توجد نظرة دينية في الشرق الأوسط وأوروبا تقترب من النظرة الأدبية. إن نزعته الدينية جعلته يجلب أحمالاً ثقيلة من الديانة القديمة للعبريين. إن أعظم أدوات الخيال الأدبي والمرشد الأكبر له هو التراث الأدبي. ولكن ملتون استخدم الدين العبري والدين المسيحي كنوع من الأدب المقابل للتراث الإغريقي، مع أن كثيراً من الليتورجيات والتصورات والمفاهيم لا تنسجم مع التراث الإغريقي. فهو في فاتحة الكتاب الأول يناشد ربة الشعر، على غرار ما فعل الإغريق، ولكنه يجعلها «الروح القدس»:

فاصدحي يا ربة الشعر السماوية، التي على قمة

جبل حوريب السرّية، أو في سيناء، ألهمت

ذلك الراعي ، فكان أول من علم البذور المختارة

فليس هناك أي انسجام في هذه الصورة. فالروح القدس عند المسيحيين وعند اليهود لا يلهم الشعر. ويبدو أن الشاعر لم يقتنع بهذا الصورة فبدلها بصورة أخرى أخذها من التراث الإغريقي، ففي الكتاب السابع يناشد «أورانيا» اليونانية وليس الروح القدس اليهودي أو المسيحي:

اهبطي من السماء يا أورانيا إن كان ذاك الاسم

ما تسمين به، فصوتك المقدس،

اتبعته، وحلقت فوق هضبة الأوليمب...

والأرجح أن يكون الموضوع الذي اختاره ليظهر فيه موقفه، وهو موضوع ديني من التراث اليهودي، هو ما جعله يقلل من التراث الإغريقي، وما تلاه من التراث الروماني، ويكثر من الملف الديني اليهودي الضخم في هذه الملحمة.

ولكن من جهة أخرى نرى أن تديّن الشاعر، وإن كانت تبدو منه بعض ملامح الاستنكار والجحود بالمعطيات والمسلمات الدينية، هو ما جعله يختار الموضوع من التوراة، ويغرق في الأدوات الدينية اليهودية. ففي «الفردوس المستعاد» يدور حوار بين المسيح والشيطان حول التراث الإغريقي الأدبي والتراث اليهودي الديني، فيناصر المسيح الأعلام التوراتية من أمثال

أصحاب المزامير والأنبياء كأرميا وأشعيا... بينما يناصر الشيطان الأدباء الإغريق ويفضلهم على العبريين. وهذا شيء غريب عن أدب ملتون، وإن لم يكن غريباً عن البوليميك الديني الذي انخرط فيه دفاعاً عن البروتستانتية وكالفن وكرومويل... فدائماً نجده يلجأ إلى التراث الأدبي الإغريقي. كما أن أسلوبه لا يشبه الأسلوب العبري الذي يلف ويدور ويرجم السامع بآلاف الكلمات التي تصب في معنى واحد، فالمزامير، كلها، من أول مزمور حتى المزمور الخمسين بعد المئة، لا تعني أكثر من «يا يهوه، أنا عبدك، وأسبح بحمدك، فانصرني على أعدائي» وكل التنويعات فيها عبارة عن تنويعات لفظية تعيد المعنى الواحد. وأسلوب ملتون في «الفردوس المفقود» لا يشبه الأسلوب العبري إلا عندما يدور السجال الطويل حول الخطيئة وأصول العبادة، أما ما تبقى فهناك الكثير من الميثولوجيا اليونانية التي استخدمها ملتون في هذه الملحمة. كما أن أسلوبه أقرب إلى الأسلوب اليوناني من حيث الابتعاد عن الإبهام والغموض في المعنى.

ولا نريد القارئ أن يمكث عند التراثين اليوناني والعبري، فقد كان ملتون موسوعي الثقافة، ويتقن اللغات اليونانية واللاتينية والإيطالية والفرنسية والأسبانية... مما جعله يتفاعل مع التراث الكبير لأوروبا، فأخذ بعض الكلمات من تشوسر وسبنسر وشكسبير من أمثال *erst...frore... lore... grisly... ken* وهناك

كلمات غريبة غير مستخدمة من اليونانية واللاتينية استخدمها بلا أي مسوّغ لغوي أو جمالي من أمثال *dulcet... nocent...* ولو لم يضع الناشرون الإنكليز ما يقابل هذه الكلمات أو المصطلحات، وهي كثيرة في الملحمة، بالإنكليزية الحديثة لما أمكن ترجمتها بدقة ووضوح.

هذا من حيث اللغة والاستخدام الأسلوبي، أما من حيث الأدب فإن الرجل مطلع على آداب العصور الوسطى، مما يجعل القارئ غير المطلع يضيع أحياناً في رحاب رحلة الملحمة. وحتى في الجغرافيا نجد الشاعر يكثر من ذكر الأماكن التي لا لزوم لها في بعض الأحيان.

ولا ضرورة نرى في تعداد التراث الأدبي الموجود في هذه الملحمة فهو كثير جداً يشمل القدماء والعصور الوسطى والمحدثين، بل جاء بشيء من المعاصرين... فهناك تراث يمتد من هومر وفرجيل ودانتي ويصل إلى ادموند سبنسر وشكسبير، مروراً بالعصور الوسطى والملك أرثر. لكن ما أخذه جاء منسجماً مع التقليد الأدبي، مما جعل الملحمة شديدة الثراء بالثقافة الأدبية.

الأدب والدين:

قبل «الفردوس المفقود» لم يكن هناك ملتون الأديب. كان هناك ملتون السياسي المتحمس والبروتستانتي المندفع. ولو كتب ملحمته بروحه السياسية والدينية لسقطت وسقط معها، ولكنه كتبها بروح

الأدب، ولم يهاجم الشيطان بأكثر مما انتقد الرحمن، ولم يعترض على أفعال هذا أكثر مما احتج على أفعال ذاك. إنه الموقف الأدبي المنقذ من ضلال الدين والمنزلقات السخيفة. إن الموقف الأدبي يحول الدين إلى ميثولوجيا راقية وعظيمة، بينما التعصب يحول الميثولوجيا إلى دين منغلق. لقد فتح ملتون الباب واسعاً أمام الميثولوجيا الدينية، فانتقلت من الثيولوجيا إلى الأدب.

لم يكن أحد يذكر ملتون قبل «الفردوس المفقود» ولو أنه كتب عشرات الكتب من أمثال «الطلاق» و«حرية الفكر» و«آلام شمشون» و«الفردوس المستعاد» لما ذكره أحد، أو لذكره من استساغ موقفه. بعد «الفردوس المفقود» عرف العالم ملتون وانكب عليه الأدباء في كل أرجاء العالم، مع أنه كتب في موضوع ديني. ولكنه تمسك بالموقف الأدبي ولم ينزلق إلى الورطة التي ينزلق إليها المتدينون المتزمتون، الذين بتزمتهم يقضون على كل ما يكتبون.

ومع ذلك جره الموضوع الديني إلى طرح قضايا لا لزوم لها، من أمثال حب الملائكة وتلاقيهم، فعندما يسأل آدم الملاك:

ألا تحب الأرواح السماوية، وكيف تعبر

عن حبها، بالنظرة فقط، أم تختلط

بإشعاعاتها، باللمس الوهمي أم المباشر؟

يجيب الملاك:

نظر الملاك ببسمة متوهجة
بالتورد السماوي، وبمسحة الحب اللائق،
وأجاب. يكفيك أن تعرف أننا
سعداء، ومن دون حب لا توجد سعادة.
كل النقاء الذي تستمتع به في الجسد
(وقد خلقت نقياً) نستمتع به
في رفعة، ولا نجد عائقاً
من الأعضاء، والمفاصل أو الأطراف، القضبان الساجنة:
أسهل من الهواء مع الهواء، إذا تعانقت الأرواح،
فكلها تختلط، ويتحد النقاء بالنقاء
في رغبة؛ ولا يوجد عوائق في التواصل
كما يختلط الجسد بالجسد،أو النفس بالنفس. (٨: ٦١٥ وما بعد)

عندما سار ملتون في هذا الدرب وجده مسدوداً، فلم يكمل واكتفى بهذا الكلام العام، إذ لو سار لكان عليه أن يجيب عن أسئلة عويصة بل مستحيلة: هل حب الملائكة وتلاقيهم الجسدي كما يقول يؤدي إلى الزواج فالإنجاب؟ معنى ذلك أن هناك ذكراً وأنثى؟ أم ترى يكون الحب الذكري هو الحب الوحيد المتاح؟ وإذا كان هناك حب فزواج فهناك إنجاب وما يتبعه من تغذية وطرح، فكيف يتخلصون من الفضلات، وأين يلقون بالمشيمة؟

إن استخدام النكتار والأمبروزا ليس كافياً للخلاص من الورطات الدينية. إن تمسكه بمذهبه البروتستانتي دفعه إلى طرح مسائل لا حاجة أدبية ولا جمالية لها، وعشقه للإغريق لا ينقذه من هذا الانزلاق الديني، فالمواءمة بين الطرفين توقع في التناقضات، أكثر مما تحلها. أراد بالنكتار والأمبروزا أن يحل المسألة محتفظاً بكل ما هو يهودي، فلم تحل معه. لم يكمل الطريق اليوناني، مما جعل شيئاً من التناقض يظهر في بعض لوحاته الدينية. والغريب أنه لو تابع معاملة هذه اللوحات كما عامل الله والشيطان، لكان تخلص من التناقضات التي تربك القارئ.

بقي أن نقول إننا في كل ما كتب عن ملتون، وفي كل ما كتبه ملتون، لا نقرأ أبداً أن الرجل دخل كنيسة أو حتى شوهد في باحتها أو أدى صلاة، أو دعا إلى صلاة، أو اجتمع مع رجال دين، أو جمعته مائدة مع رجال دين...على الرغم من هذه الحماسة الدينية التي تظهر أحياناً متطرفة جداً. إن شهرته من أدبه وليست من دينه، أو مذهبه. ويكاد المرء يقول إن الدين من جملة الأدوات المستخدمة ليس أكثر، فسلوك الرجل نقيض كلامه.

التصور الكوني والعالم الجديد:

أهم ما يمسك به القارئ أن القرن السابع عشر قدم لملتون المادة الأساسية لمعالجة الموضوع الديني، فالمجتمع القديم ظهر

فيه العالم الجديد الذي يمثله البروتستانت، والعالم الأوروبي القديم اكتشف عالماً جديداً هو أمريكا فاجتاحه وامتلكه وأفسده، رغم كل محاولات ملتون وأنصاره في ذلك القرن وعلى رأسهم كرومويل.

احتفظ ملتون بموقفه الأدبي مما جعله يقدم لوحات رائعة تجعل قراءة قصة آدم وحواء تتخذ منحى آخر. إن الموقف الأدبي جعله لا يستسلم للنجاح، فكل نجاح مغرور ينقلب إلى فشل، كما جعله لا يستسلم للفشل، فكل فشل مدروس يؤدي إلى نجاح، وهكذا تقلبت المواقف في الملحمة بين النجاح والفشل، في حركة جدلية تلخص تاريخ هذا المخلوق البائس الذي اسمه الإنسان.

قد ينزلق ملتون إلى موقف يبعد قليلاً أو كثيراً عن الموقف الأدبي ولكنه بعبقريته وثقافته العميقة يغطيه بما يراكم فوقه من آداب العصور السابقة، كموقفه الكالفيني الذي لا مساومة فيه أو عليه وهو أن الله يصطفي أولياءه ومؤمنيه، ولا شيء يؤثر أو يغير أو يبدل أو يعدل في هذا القرار. فكيف نثبت أن الله يصطفي؟ من الكتاب المقدس. وكيف نثبت أن الكتب المقدسة من الله وليست من البشر؟ إن الله يقول إنها كتبه المقدسة. وكيف نثبت أنه هو الذي يقول إنها كتبه المقدسة؟ الكتب المقدسة تقول إنه هو الذي يقول إنها كتبه المقدسة... فهو، الغائب إلا عن لسان مستخدميه، يشهد للكتب المقدسة، وهي، الكتب المقدسة، تشهد له،

فكل واحد يحضر في الآخر، ويشهد له... وهكذا ينتهي الأمر إلى دائرة مغلقة في التصور الديني، في حين تنفتح كل الأمور وتصبح بؤرة قلق وشك واهتمام في التصور الأدبي.

لكن يبقى «العالم الجديد» وهو الأرض في الملحمة وأمريكا في الواقع، ويبقى العالم القديم منحصراً في السماء والعماء أو الكاوس أو الهوة، أي في أوروبا والعالم السابق على أمريكا في الواقع. وكما يتنازع الطرفان في هذه الدنيا على السيطرة على «أمريكا» كذلك يتصارع الطرفان: الشيطان والله على السيطرة على جنة عدن.

في الملحمة نرى «العالم الجديد» مرتبطاً بالسماء أي بقوى الخير، ولكن هذا لم يمنع الشيطان، أي قوى الشر، من الهيمنة عليه، تماماً كما هيمن الكاثوليك على أمريكا، فهب البروتستانت لحماية «براءة» العالم الجديد.

إن كل المواد الأولية للتصور الكوني موجودة في القرن السابع عشر، وفي مقدمتها «العالم الجديد» الذي لمس كيف يُقمع سكانه ويبادون، فالتقطها الشاعر وصاغ هذه الملحمة واتخذ موقفاً أدبياً من الشخصيات الكبرى لا يمكن أن ينسى، لما اشتمل عليه من قلق وشك وعمق في النزعة الريبية.

وحتى لا يؤخذ كلامنا على غير ما قصدنا نوضحه بطريقة أخرى:

لا نعني الابتعاد عن التعامل أدبياً مع الدين، فهذا مستحيل، فحتى في هذه الأيام البعيدة جداً عن أيام ملتون وصخب القرن السابع عشر الديني، نلاحظ مدى ما يشغل الدين من حيّز في السياسة والأدب والاجتماع، وإنما نعني الحفاظ على الموقف الأدبي في مقاربة الدين. وصار لدى الأدباء خبرة في ذلك، فتراهم يقولون «القدر الغاشم» ولا يقولون «الرب الغاشم» لتجنب ثقافة الدهماء وأذى الغوغاء.

حمص ١٥/٥/٢٠١١

حنا عبود

* * *

الكتاب الأول

الخلاصة:

في البداية يطرح الكتاب الأول كامل الموضوع، وهو عصيان الإنسان، الذي نجم عنه خسارة الفردوس حيث كان مستقراً فيه: ثم يلامس السبب الأساسي لسقوطه، وهو الأفعوان، أو بالأحرى الشيطان الذي تجسد في الأفعوان؛ والذي خرج عن طاعة الرب، وضم إلى جانبه فيالق حاشدة من الملائكة، فطرد بأمر الله، من السماء مع كل حشده إلى الهوة العميقة. بعد أن يصف الكتاب هذه الحادثة يسرع إلى وسط الأحداث، فيقدم الشيطان مع ملائكته وقد سقطوا الآن في الجحيم، الذي يصفه هنا ليس على أنه في المركز (فالمفترض أن السماء والأرض لم يخلقا بعد، ولم تحل اللعنة) بل في موضع الظلام المطلق، والأفضل أن نسميه العماء الكاوس *Chaos*: فهنا استلقى الشيطان مع ملائكته على البحيرة الملتهبة، وقد صرعوا وذهلوا، وبعد مدة معينة استفاق، كأنه صحا من التشويش، ودعا إليه من يليه في الرتبة والكرامة؛ وتداول معه قضية سقوطهم البائس. ثم أيقظ الشيطان كل فيالقه

الذين استلقوا بالطريقة المرتبكة ذاتها؛ فيصف نهوضهم وأعدادهم واحتشادهم للمعركة، وأسماء القادة، وهي أسماء مأخوذة من الأوثان التي اشتهرت فيما بعد في بلاد كنعان والبلدان المجاورة. وإلى هؤلاء يوجه الشيطان خطابه، فيعزيهم على أمل أنهم سيستعيدون السماء، ولكن يخبرهم بأن عالماً جديداً وهو نوع من الخلق الجديد سوف يخلق بحسب ما تقول النبوءة القديمة أو بحسب أمر صدر في السماء؛ لأن أولئك الملائكة خلقوا قبل هذا الخلق المرئي بمدة طويلة جداً، حسبما يرى الكثيرون من الآباء[1]. وللتحقق من صدق هذه النبوءة وما يجب تقريره بهذا الصدد دعا إلى انعقاد مجلس عام. ويصف السفر ما يسعى إليه رفاقه. وفجأة ينهض البنديمونيوم[2] *Pandemonium* قصر الشيطان، من قلب الهوة: وفيه يعقد الأسياد الجهنميون مجلسهم.

* * *

---

(1) يجعل ملتون النبوءة على ذمة الآباء الأوائل، حتى لا يتحمل مسئولية أدبية. والمقصود بالآباء الأوائل من جاء ذكرهم في التوراة أنهم مؤسسو الديانة اليهودية.

(2) Pandemonium مؤلفة من مقطعين أساسيين وهما Pan وتعني الجميع و Demon وتعني الشيطان. وقد ركب ملتون هذه الكلمة تركيباً ليطلق هذا الاسم على عاصمة الجحيم أو قصر الشيطان. وصار الاسم يطلق أيضاً على الجحيم بصورة عامة.

من العصيان الأول ، ومن ثمرة
تلك الشجرة المحرمة، المهلكة المذاق
جاء الموت إلى العالم، وجاءت كل مصائبنا[١]
وضاعت جنة عدن، إلى أن جاء إنسان عظيم[٢]
فأعادنا وأعاد إلينا مقعدنا المبارك
فاصدحي يا ربة الشعر السماوية[٣]، التي على قمة
جبل حوريب[٤] السرّية، أو في سيناء، ألهمت
ذلك الراعي ، فكان أول من علم البذور المختارة[٥]
في البدء[٦] كيف أن السماء والأرض

---

(1) في الكتاب الرابع من «الإنياذة» يقول اينياس مثل هذا الكلام بعد احتفالات الزفاف التي أقامتها ديدو متوهمة أنه سيمكث عندها.

(2) المقصود بـــ «الإنسان العظيم» المسيح.

(3) الأرجح أن تكون الربة السماوية الروح القدس، الذي يعتقد المسيحيون أنه مصدر الإلهام والوحي.

(4) يرجح أنها قمة في جبل سيناء تلقى فيها موسى الوحي، كما تشير أسفار التوراة كالتثنية والخروج.

(5) أي شعب إسرائيل.

(6) الكلمة الافتتاحية في سفر التكوين.

نهضتنا من العماء: أو إن كانت هضبة صهيون[1]
قد أبهجتك كثيراً، ونبع سلوام الذي يتدفق
مسرعاً في جوار معبد الله؛ فلذلك
أطلب مساعدتك لي في نشيدي المغامر،
الذي لا يريد التحليق عالياً
فوق الجبل الأونياني[2] ليلاحق
أشياء لم يتطرق إليها نثر ولا شعر.
وبالأخص أنت أيها الروح، يا من تفضل
على كل المعابد القلب المستقيم والنقي،
علمني، لأنك تعرف؛ فأنت من ذ البداية
كنت حاضراً، تفرد جناحيك القويين
مثل حمامة[3] تحضن الهوة الهائلة

---

(1) قمة تتردد عليها ربات الفنون بالقرب من النبع القشتالي على جبل البرناس، ويشير بها ملتون إلى جبل صهيون ونبعيه قدرون وسلوام، وكأنه جبل برناس التوراة.

(2) هو جبل هيليكون Helicon المقدس عند ربات الفنون.

(3) تشبيه الروح بحمامة يدل أنه يقصد الروح القدس، فانتقل من مناجاة الربة اليونانية التي تلهم في الأشياء التي لم يتطرق إليها شعر أو نثر إلى الروح القدس الذي يعرف كل الأشياء لأنه كان معها منذ البدء.

وتجعلها حبلى؛ وفَأَيزْ في نفسي ماهو
مظلم، وما هو خامد أثره وادعمه؛
حتى في قمة هذا الغرض العظيم
قد أبرهن على العناية الإلهية،
وأبرر سبل الرب للناس.
فقل لي أولاً، فالسماء لا تخبئ عنك شيئاً
ولا حتى في آخر الجحيم، قل أولاً
ما الذي دفع بجدّينا وهما في تلك الحالة السعيدة
وقد فضلتهما السماء على الآخرين، إلى التمرد
على خالقهما، وخرق إرادته
في محظور واحد[١]، في حين هما سيدا العالم؟
من أول من أغواهما إلى هذا التمرد الأحمق؟
الأفعوان الجهنمي؛ إنه هو، الذي بمكره
وقد حرضه الحسد والانتقام، إلى خداع

(1) منع أكل ثمرة شجرة معرفة الخير والشر.

أم البشرية، في حين أن كبرياءه
قذفت به من السماء، مع كل حشده
من الملائكة المتمردين، الذين بمساعدتهم
يجعل نفسه أرفع مجداً من نظرائه
وقد يضمن مساواة الرب الذي هو أعلى منه
إن عارض، وبهدف طموح
ضد العرش وحكم الله
شن حرباً عاصية في السماء ومعركة كبرياء
في محاولة يائسة. فإياه قذفت القوة الجبارة
بسرعة من السماء الأثيرية فسقط ملتهباً
وقد أصابه خراب شنيع وهبط بعنف إلى
الجحيم الذي لا غور له، وهناك سكن
في سلاسل لا فكاك منها وعوقب في النار،
لأنه تجرأ على مقارعة القوة الجبارة بالسلاح
ومسافة تسعة أيام وليال



فإياه قذفت القوة الجبارة بسرعة من السماء الأثيرية فسقط ملتهبا (١: ٤٥)

بحسب مقاييس البشر، رمي مع حشده البغيض

فارتمى مدحوراً، يتقلب في الخليج الناري

وقد أصابه الذهول مع أنه خالد: لكن قدره

جعله في غضب كبير؛ إذ الآن فكرة

فقدان السعادة والألم الدائم
تؤلمه؛ فرمى حوله بناظرتيه الشاحبتين،
ناظرتيه اللتين شهدتا محنته وخيبته
وقد امتزج فيهما الكبرياء العنيدة والحقد الدفين:
وبسرعة أدرك، كما يدرك الملائكة،
الوضع البائس والخراب والوحشة
في قبو موحش مخيف، من كل الجهات
وفرن عظيم يلتهب، ومع ذلك فإن اللهب
لا يضيء، بل ظلام واضح
لا يفيد إلا في اكتشاف مناظر الكرب
وأقاليم الحزن، وظلال الكآبة، حيث لا يسكن
السلام ولا الراحة، ولا يأتي أبداً الأمل
الذي يأتي للجميع؛ وإنما عذاب بلا نهاية
يثيره طوفان ناري، ويغذيه
كبريت ملتهب لا ينفد:
هذا المكان أعدته العدالة الأبدية
لأولئك المتمردين، فهنا سجنهم المعد

في ظلام مطلق، وحصتهم محسوبة
بمقدار ما يبتعدون عن الله ونور السماء
ثلاثة أمثال بُعد مركز الأرض عن آخر القطب.
ألا كم يختلف المكان عن المكان الذي منه سقطوا
وهناك تجمع رفاقه الذين سقطوا معه
بطـُـوفان ودوامات من النار العاصفة،
وبسرعة، وبالقرب من جانبه، ميّز
أحدهم ممن يليه في السلطة، ويليه في الجريمة،
وبعد مدة طويلة صار معروفاً في فلسطين باسم
بعلزبوب. وإليه توجّه العدو الأكبر
الذي سمي في السماء «الشيطان» بكلمات جريئة
قاطعاً الصمت المخيف مبتدئاً على النحو التالي:
إن كنت أنت هو، فقل كيف سقطت وكيف اختلفت
عنه، ذاك الذي في ممالك النور السعيدة
مجللاً بالنور المتألق البراق الذي يشع
على الآلاف بالنور: فإن كنت هو من وإياه في تحالف متبادل
وأفكار ومجالس موحدة، وأمل مشترك

ويخاطر في المشروع المجيد
فإني منضم إليك، وقد جمعنا البؤس
في خراب مشترك، فبأي حفرة أنت تقبع
ومن أي ذروة سقطت، بحيث أثبت أنه الأقوى
بصاعقته[1]: وحتى وقتها من يعرف
قوة الذراعين الرهيبين؟ ولكن لا هذا
ولا المنتصر القوي في غضبه
الذي يرمينا به، يجعلني أندم أو أتغيّر،
وإن طردت إلى الخارج؛ فعقلي الوطيد
وازدرائي العظيم، منذ تلك الميزة المؤذية،
جعلاني أنازل الأقوى في الصراع،
ولهذا النزاع الشديد جهزت
قوة لا تحصى من الأرواح المسلحة
الذين تجرؤوا وكرهوا حكمه، وفضلوني عليه،
وجابهوا قوته العظيمة بقوة معادية

(1) هنا يشبه الله بالرب اليوناني زيوس الذي كان قوياً لأن بيده الصاعقة التي صنعها له السيكلوب بإشراف الإله هيفستوس.

في معركة ضارية فوق سهول السماء
فهزوا عرشه. وماذا لو خسرنا المعركة؟
لم نخسر كل شيء. فالإرادة لم تقهر
ومحاولة الانتقام، والحقد الأبدي
والشجاعة لم تخضع أو تستسلم.
فهل هناك شيء آخر لا يمكن التغلب عليه؟
ذلك المجد لا يمكن لغضبه أو قوته
أن ينتزعاه مني؟ وما الانحناء وطلب رضاه
بالركوع الضارع، والانصياع لسلطته،
وهو من ارتعد رعباً من هذه الذراع
التي هزت إمبراطوريته، وترنحت فعلاً
فليس سوى الخزي والعار الذي
لا يدانيه هذا السقوط؛ وما دام القدر منح الآلهة[1] القوة
وجعل هذا الجوهر الإمبريالي لا يسقط،
وما دمنا خضنا تجربة هذا الحدث العظيم

(1) كأن الشاعر ينسى نفسه فيتحدث عن «آلهة» كأنه في العصر اليوناني. ربما عامل الملائكة باعتبارهم آلهة.

بسلاح ليس رديئاً وببصيرة متقدمة جداً،
يمكن لنا بالأمل المتفائل أن نعلن
شن حرب أبدية[1] بالقوة أو بالخديعة
حرب لا صلح فيها، على عدونا القوي
الذي انتصر الآن، وفي غمرة الفرح
تفرد بحكم السماء حكماً استبدادياً طاغياً
هكذا تكلم الملاك المرتد، ومع أنه يتألم
راح يصيح، ولكن بيأس دفين؛
وعلى الفور جاءه الجواب من رفيقه الشجاع.
أيها الأمير، يا زعيم القوات المتوجة العديدة،
أنت قدت السيرافيم[2] الأشداء إلى الحرب
تحت إمرتك، وفي أفعال مخيفة
وجريئة، هددت ملك السماء الأبدي؛
فوضعت على المحك سلطته العليا
التي حازها عن طريق القوة، أو المصادفة أو القدر،

---

(1) بمجرد قوله عن الحرب إنها أبدية فإنه يقر بأنه لا يوجد فيها منتصر ولا مندحر.

(2) صنف من أصناف الملائكة.

وأنا أرى جيداً هذا الحدث الرهيب،
الذي انتهى بالغلبة الحزينة والهزيمة الحمقاء
فأفقدنا السماء، وكل هذا الحشد الجبار
لقي الدمار المرعب وهكذا سقطوا،
كما أن آلهة السماء وعمالها
هلكوا: إن الفكر والروح لا يمكن
أن يقهرا، كما أن القوة تستعاد سريعاً،
وإن اجتثت أمجادنا، وحالتنا السعيدة
ابتلعها البؤس الذي لا حد له.
ولكني أسأل لماذا قاهرنا (الذي أومن
الآن بجبروته، ما دام لا أحد استطاع
أن يقمع قوة كقوتنا سواه)
ترك لنا هذه الروح وهذه القوة الكاملة؟
هل حتى نكابد وتزداد آلامنا،
وبذلك يروي غليل غضبه الانتقامي،
أم أن ذلك يجعله الأقوى فيجعلنا عبيده بموجب
الحرب، فمهما كان شغله هناك يجعلنا

هنا في قلب الجحيم نعمل في النار
أو ننفذ مشيئته في الهوة المظلمة؟
ثم ما جدوى ما نشعر أننا
قوة جبارة، أو أننا كائنات سرمدية
ما دمنا نخضع لعقاب أبدي؟
وبكلمات سريعة جاء ردّ الشيطان الأكبر:
أيها الشيروبي[1] الهابط، أن تكون ضعيفاً يعني
أن تكون بائساً سواء عملت أو كابدت: ثق بهذا،
فعمل الخير لن يكون من مهمتنا،
وإنما عمل الشر وحده يبهجنا
لأنه مخالف لإرادته العليا
التي نقاومها. فإن قضت عنايته الإلهية
على الشر الذي نقوم به ليكون هناك خير
فإن علينا أن نعمل على منع ذلك،
فنعثر في قلب الخير على وسائل للشر؛
قد تنجح أحياناً، فربما

(1) الشيروبيم صنف من الملائكة، والمفرد شيروبي.

يؤلمه ذلك، إن لم يخب ظني، ويفسد
مقاصده فلا تصل إلى أهدافها.
ولكن أنظر، المنتصر الغاضب استدعى
وزراء الانتقام والمطاردة،
فعادوا إلى بوابات السماء: فالوابل الكبريتي
الذي أطلق علينا في عاصفة عاتية قد انتهى
والموجة النارية التي من الهاوية
السماوية كفت عنا، والصاعقة
المسلحة بالبرق الأحمر وبالغضب الطائش
قد نفدت نبالها، وتوقفت الآن
عن الهبوب عبر الأعماق الهائلة.
علينا ألا نفوّت هذه الفرصة، سواء كانت بسبب
الاستخفاف بنا، أو لأن خصمنا قد أشبع غضبه.
أترى ذلك السهل المخيف، المهجور والبري،
مقعد العزلة، البعيد عن النور،
سوى ما يبرق من تلك اللهب الشاحبة
التي تتدفق بوهن وخوف؟ فلنأو إلى هناك

هرباً من قذائف هذه الأمواج المرعبة،
وهناك نستريح، إن وجدنا مرفأ للراحة هناك
فنجمع من جديد قواتنا المنهكة
ونتشاور فيما يمكن أن نهاجم به
عدونا، وما يمكن أن نصلح به خسارتنا،
وكيف نتغلب على هذه المصيبة الأليمة،
وأي قوة يمكن أن نستمدها من الأمل
إن لم نتخلص من اليأس!
هكذا تحدث الشيطان إلى أعز أترابه
برأس مرفوع فوق الأمواج، وبعينين
تقدحان شرراً، وبقية أعضائه في الجانب
مالت فوق الغمر، طويلة ممتدة ضخمة
تستلقي عائمة على مدى قصبات، بجثة ضخمة
مثل ضخامة الوحش الذي تسميه الخرافات
طيطاناً[1] أو ابن الأرض، الذي حارب زيوس[2]

(1) الطيطان Titan العملاق. مخلوق ضخم الجثة كما جاء في الروايات الميثولوجية، وقد حاربت مجموعة الطياطين الأوليمب وفشلوا.
(2) كبير أرباب آلهة الأوليمب.

من أمثال برياروس[١] أو تيفون[٢] الذي كان عرينه
في طرسوس القديمة، أو ذاك الوحش البحري
لوياثان[٣]، الذي خلقه الله من بين الجميع
ليكون الأضخم الذي يسبح في مياه المحيط:
وهو يغفو مرتاحاً فوق زبد بحر النرويج[٤]
فبحار أحد القوارب الليلية الصغيرة
ظنه جزيرة، حسب أحاديث البحارة،
رمى المرساة في قشرة من قشوره
وربطها بجنبه بعيداً عن الرياح، حين كان الليل

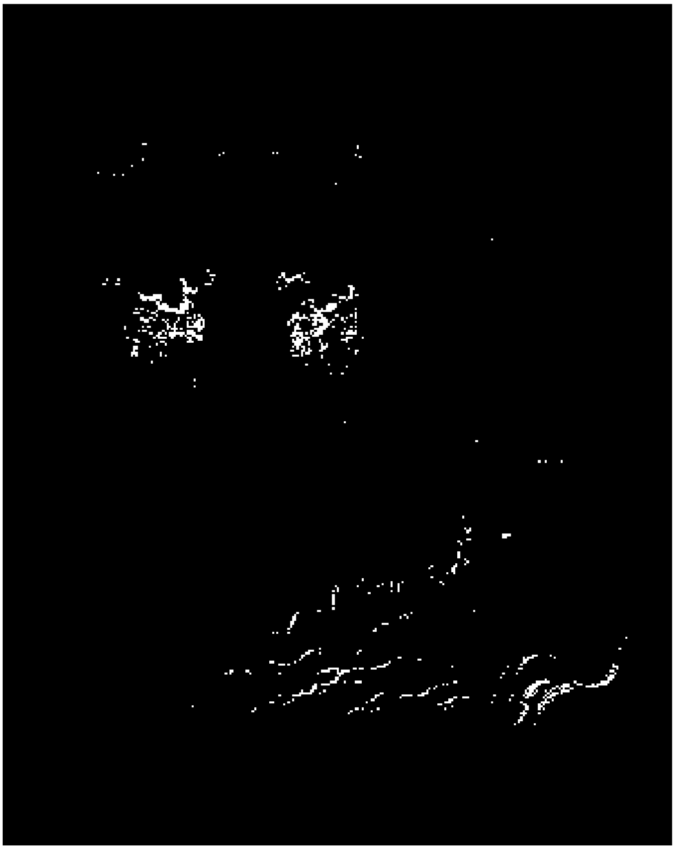
(1) ويكتب أيضاَ Briareus ومعنى اسمه «القوي» وهو من المخلوقات الهائلة الذين لهم مئة ذراع مع خمسين رأس. أمه الأرض.

(2) تيفون Typhon ويقال له أيضاً تيفيوس وهو ابن الأرض هاجم زيوس فرماه بمئة سهم من الصاعقة حتى تغلب عليه.

(3) لوياثان وحش مائي ضخم يرمز إلى الشر في الميثولوجيا اليهودية المسيحية. ذكر في التوراة (سفر أيوب وأشعيا).

(4) ربما قرأ ملتون حادثة البحارة الذين رأوا اللوياثان في بحر النرويج في بعض الكتب.

يفرش ظله على البحر، فراح ينتظر الصباح المتأخر
هكذا تمدد الشيطان الأكبر بكل طوله وضخامته
مكبلاً فوق البحيرة الملتهبة، ولم ينهض
من هناك أو يرفع رأسه أبداً، ولكن إرادة
من يحكم كل السماء وأمره العالي
أطلقت سراحه فعاد إلى خططه المظلمة
فعاد إلى اقتراف الجرائم باندفاع
لتتراكم عليه اللعنات، في حين يبحث
الشر للآخرين، فيغضب وهو يرى
كيف جلبت كل أحقاده
الخير العميم والنعمة والرحمة
للإنسان الذي أغواه، بل عليه تنصب
ثلاثة أمثال من الفوضى والغضب والانتقام.
وعلى الفور نهض وارتفع من البحيرة
بجثمانه الجبار، وعلى كل يد ألسنة اللهب



وعلى الفور نهض وارتفع من البحيرة (١: ٢٢١)

دافعة إلى المنحدر الخلفي قممها المدببة، وتهدر
في أمواج، محدثة في وسطها وادياً مخيفاً.
ثم بجناحين مبسوطين حلق طائراً
في الأعالي متكئاً على الهواء الداكن
حيث شعر بوزنه الهائل، إلى أن على البر الجاف
ترجل، كما لو كان هو البر الملتهب أبداً

بنيران صلبة كالتهاب البحيرة بنيران سائلة
وبألوان متعددة، كما حين قوة ريح
ما تحت الأرض تنقل هضبة
انفصلت عن جبل بيلوروس، الجانب المبعثر
لجبل أتنا[1] العاصف الذي محروقاته



سمعوا فخجلوا، وهبوا ناهضين فوراً (١: ٣٣١)

---

(1) بيلوروس وأتنا جبلان في صقلية. وذكرهما فرجيل في ملحمته.

وأحشاؤه الهائلة التهبت بالنيران
فراحت تنفث المعادن المرعبة، فتساعد الرياح
تاركة قاعاً صفصفاً ليس فيه
سوى النتن والدخان: ومكان الراحة هذا وجد
الأقدام اللعينة التي تطؤه. وتبع الشيطان تربه التالي في المرتبة
وكلاهما ابتهج لهربه من بحيرة ستيجيا[١]
وكأنهما ربان من الأرباب،وبواسطة قوتهما التي استعاداها،
وليس بسبب تسامح القوة العليا.
في هذا الإقليم، في هذه التربة، في هذا الجو
قال الذي كان رئيس الملائكة، أهذا المكان نرضاه
بديلاً عن السماء، أهذا الظلام الكئيب
بديل عن ذلك النور السماوي؟ فليكن، ما دام
من يحكم الآن ويفرض إرادته قد أمر وأراد
بما يراه صحيحاً: فأفضل المواقع أبعدها عنه

(1) في الميثولوجيا اليونانية هناك أنهار في العالم السفلي ومنها نهر ستيكس. وبحيرة ستيجيا هي قسم من هذا النهر، حيث يبدأ الجحيم.



هكذا بدت الأعداد الهائلة من الملائكة الكريهة (١: ٣٤٤)

هذا الذي ساويناه بالعقل، فتفوق بالقوة على
كل نظرائه. فالوداع للحقول السعيدة
[٢٥٠] حيث البهجة مقيمة إلى الأبد: ومرحباً بالرعب
وبالعالم الجهنمي، وأنت أيها الجحيم العميق
استقبل مالكك الجديد: المالك الذي معه
عقل لا يتغير حسب المكان ولا الزمان.

فالعقل هو مكان ذاته الخاص، وفيه يمكن للنفس
أن تصنع سماء في الجحيم، وجحيماً في السماء.
لا يهمني المكان، إن أنا بقيت كما أنا في ذاتي،
أو ما أنا يجب أن أكونه، ولكن لماذا دائماً أقل
من ذلك الذي جعلته الصاعقة الأعظم؟ على الأقل
نكون هنا أحراراً، فالجبار لم يبن هنا مقاماً
لمنافسه، لذلك لن يطردنا منه:
هناك نحكم بأمان، وفي اعتقادي
فالحكم هو الطموح الرفيع وإن كان في الجحيم:
فحاكم في الجحيم خير من عبد في السماء[١].
ولكن لماذا تركنا أصدقاءنا المخلصين،
الذين ساعدونا وشاركونا سقوطنا
يستلقون هناك على بحيرة النسيان منذهلين،
ولم نناد عليهم ليشاركونا هذا المكان
في هذا القسم التعيس، أو نجمع الكثير

(1) هذا الكلام عكس كلام أخيل في الأوديسة «خادم في منزل رجل فقير خير من ملك الملوك بين الموتى» (الأوديسة١١: ٣٦٣- ٣٦٥)

من الجيوش الحاشدة لمحاولة استرداد السماء،
أو تحاشي المزيد من الضياع في الجحيم؟
هكذا تكلم الشيطان، وإليه بعلزبوب وجه
رده: يا قائد الجيوش المشرقة،
التي لم يغلبها سوى صاحب الجبروت،
فلو أنهم سمعوا صوتك، فسوف ينتعش الأمل
في المخاوف والأخطار، وكانوا يسمعونه
في أسوأ الشدائد، وفي أقصى مخاطر
المعركة عندما تحتدم، في كل وقائع البطش
فتنهض عزائمهم، ويستأنفون سريعاً
شجاعة جديدة وتدب فيهم الحيوية، بينما هم الآن
يستلقون ويضطجعون مجندلين على بحيرة النار
مثلنا قبل لحظة من الآن، مندهشين ومنذهلين،
ولا عجب، بعد سقوطهم من ذلك الارتفاع الشاهق.
ما كاد ينهي كلامه حتى نهض الشيطان الأكبر
متجهاً نحو الشاطئ؛ بدرعه الثقيل

الكبير الضخم المستدير المسقي بالنار الأثيرية[1]،
يحمله على ظهره، ومحيطه الواسع
معلق على كتفيه مثل القمر، الذي شاهد محيطه
من منظار زجاجي[2]، الفنان التوسكاني[3]،
ذات مساء من قمة هضبة فيسول[4]،
أو في فالدارنو[5]، ليلمح أرضاً جديدة،
أو أنهاراً أو جبالاً في وجه القمر المبرقش.
أما رمحه فيضاهي أطول أشجار الصنوبر
التي تقطع من التلال النرويجية، لتكون صارية
في سفينة ضخمة، فلا تبدو أمامه أكثر من عصا،
سار متعكزاً عليه بخطوات ثقيلة

---

(1) يتابع ملتون هنا تقليداً أدبياً قديماً وهو أن درع الأبطال يصنع في السماء عند فولكان، كدرع أخيل ودرع إينياس.

(2) التلسكوب.

(3) غاليليو.

(4) مدينة مرتفعة بالقرب من فلورنسا.

(5) وادي أرنو حيث تقوم فلورنسا.

فوق المارل[١]، مختلفة عن تلك الخطوات
في السماء اللازوردية. والجو الخماسيني
يهب عليه بالدخان من كل جانب، وبقذائف النار؛
لم يأبه بل صبر، حتى وصل شاطئ
ذلك البحر الملتهب، فوقف ونادى
فيالقه، الذي على شكل ملائكة، يستلقون في إغماءة
متكدسين كأوراق الخريف المتناثرة على غدران
فولامبروسو[٢]، حيث الظلال الإتروسكانية
ترمي فيئها بعيداً، أو الأعشاب البحرية المبعثرة طافية
على الماء، عندما تهب الرياح النارية العاصفة
على شاطئ البحر الأحمر، التي غمرت أمواجه
فرعون وخيالته الممفيسيون[٣]،
حين لاحقوا بحقدهم الغادر

(1) نوع من التربة تتألف من الطين الممزوج بفحمات الجير، فتكون كتلة غير متماسكة.

(2) واد ظليل في فلورنسا.

(3) نسبة إلى ممفيس، المدينة المصرية القديمة المشهورة.

أهل جاسان[1]، الذين شاهدوا
من شاطئ الأمان الجثامين الطافية
وعجلات العربات المحطمة، متراكمة بكثافة
هكذا أنصاره كانوا ضائعين، يغطون الغمر
منذهلين من التغير اللعين الذي أصابهم.
فنادى عليهم بصوت عال، فرددت صداه
كل ردهات الجحيم: أيها الأمراء، أيها العواهل
أيها الجنود، زهور السماء، التي كانت لكم، ضاعت الآن
إذا تمكن هذا الذهول أن يهيمن
على الأرواح الخالدة، أم أنكم اخترتم هذا المكان
بعد عناء المعركة حتى تريحوا
فضيلتكم المرهقة، فهل الراحة التي تركنون
إليها هنا، كالراحة في وديان السماء؟
أم أنكم أقسمتم في هذا الوضع الخسيس
أن تتصاعوا للغازي؟ الذي يرى الآن

---

(1) الإسرائيليون.

الشيروبيم والسيرافيم[1] متراكمين في الغمر
بأسلحتهم وراياتهم المبعثرة، فعلى الفور
ينقضّ مطاردوه السريعون من بوابات السماء
مستغلين الفرصة، فيدوسوننا بالأقدام
فيهجمون أو بالصواعق
يرموننا حتى أعماق هذا الخليج.
هبوا انهضوا، أو ظلوا هكذا ساقطين إلى الأبد.
سمعوا فخجلوا، وهبوا ناهضين فوراً
على أجنحتهم، كما يهب الناس ليقوموا
بواجبهم، بعد أن وجدهم غافلين من يخشونه،
نهضوا محرضين أنفسهم حتى تيقظوا.
لم يكونوا غافلين عن الشر الذي أصابهم
والذي كانوا فيه، أو الآلام المبرحة التي شعروا بها؛
ولا عن صوت قادتهم الذين لبوهم فوراً
بأعداد هائلة. كما عندما العصا القديرة

---

(1) أيضاً من أصناف الملائكة.

لابن عمرام[١] رفعها في مصر في يوم محنة
فحركت الشاطئ، وجلبت غيمة قاتمة
من الجراد، مدفوعة بالريح الشرقية،
حتى أنها جعلت كل مملكة فرعون اللعين
مثل الليل، وأعتمت كل ديار النيل.
هكذا بدت الأعداد الهائلة من الملائكة الكريهة
وهم يرفرفون بأجنحتهم تحت قبة الجحيم
بين النيران من فوقهم ومن تحتهم ومن كل جانب؛
إلى أن ظهرت إشارة وارتفع رمح
نحو سلطانهم[٢] الأكبر مشيراً إليه
بهذا الاتجاه، فهبطوا بخفة
على الكبريت الثابت، وملئوا السهل
حشد، مثل الحشد الذي اندفع من الشمال[٣]

---

(1) موسى، وعمرام اسم أبيه في التوراة.

(2) هناك جناس بين سلطان وشيطان Satan- Sultan فاستخدم كلمة سلطان وهو يقصد الشيطان.

(3) يشير إلى حشود البرابرة الذين قدموا من الشمال وقضوا على روما.

من صلب مردة الجليد، ليعبروا
الراين أو الدانوب، حيث أبناء البرابرة
جاؤوا مثل طوفان نحو الشمال، وانتشروا
تحت جبل طارق وحتى الرمال الليبية.
وعلى الفور خرج من كل كتيبة ومن كل عصبة
الرؤساء والقادة وحضروا إلى حيث وقف
زعيمهم الكبر، هيئاتهم وأشكالهم تشبه الله
وتشبه البشر الراقين، والشخصيات الرفيعة،
القوات الذين يتربعون في السماء على العروش؛
مع أن أسماءهم في سجلات السماء الآن
شطبت من الذاكرة ومحيت،
بسبب تمردهم، من أسفار الحياة.
كما أنهم لم ينتشروا بعد بين أبناء حواء حتى يعطوا
أسماء جديدة، عندما يتجولون في الأرض
بأمر من الله من أجل اختبار الإنسان،
بالأباطيل والأكاذيب وتضليل القسم الأعظم
من البشرية التي أفسدوها بالتخلي عن

الله خالقهم والخروج عن
مجده الخفي الذي صنعهم، ليحولهم
إلى صورة حيوان، تزينه
الأديان الفاسقة المليئة بالتفاخر والذهب،
وليعبدوا الشياطين بدلاً من الآلهة:
وعندئذ عرفهم الناس بأسماء مختلفة،
وأوثان مختلفة عبر العالم الوثني.
أخبريني، ربة الشعر، بأسماء شهرتهم، من أولهم ومن آخرهم
الذين نهضوا من النوم، على تلك الأريكة النارية،
عندما سمعوا نداء إمبراطورهم، التالي في الأهمية
الذي وحيداً جاء ووقف على الساحل المقفر،
في حين أن الحشد الفاسق لم يقف منعزلاً؟
الرؤساء هم أولئك الذي من حفرة الجحيم
طافوا بحثاً عن فرائسهم في الأرض، فتجرؤوا وأقاموا
عروشهم بعد عرش الله، بزمن طويل جداً،
وأقاموا مذابحهم بالقرب من مذبحه، وعبدوا كآلهة
بين الأمم المحيطة، وجرؤوا على السكنى

مع يهوه المرعد في صهيون، المتوج
بين الشيروبيم، أجل، بل غالباً ما أقاموا
داخل معبده ذاته مزاراتهم
وشرورهم؛ وبأشيائهم اللعينة
دنسوا شعائره المقدسة، وأعياده الوقورة
وتشجعوا على مهاجمة نوره بظلامهم.
الأول مولوخ[١]، الملك المرعبة الغارق بدماء
الأضاحي البشرية، ودموع الآباء والأمهات،
وبسبب ضجة الطبول وصوت الدفوف لم تسمع
صرخات أطفالهم، الذين يرمون في النار
من أجل وثنه الكالح! فله كان العمونيون له
عابدين في «ربعة»[٢] وفي سهلها المروي،
في أرغوب وفي باسان، حتى آخر

---

(1) Moloch الكلمة تعني ملك وقد اختارها ملتون وفضلها على غيرها. راجع مادة مولوخ في الموسوعة الكاثوليكية. وردت في الترجمة العربية مولك.

(2) ربعة Rabba عاصمة العمونيين Rabbah والآن تسمى «عمان» عاصمة الأردن.

نهر أرنون[1]. ولم يرض فقد بهذا
الجوار الجريء، فاستدرج القلب الحكيم
لسليمان عن طريق الخديعة، حتى يبني
معبده تماماً مقابل معبد الله
على الهضبة المناسبة، وجعل أجمته
الوادي الجميل «هنوم» [2]، الذي سمي «توفية»
و«جوهينا» [3] الذي دعي نموذج الجحيم.
والتالي له «كموش» [4] الداعر الخطير بين أبناء مؤاب،
من عرعار[5] إلى نيبو[6] وترية

---

(1) أرغوب وباسان وأرنون أراض في الشرق من البحر الميت، حيث عبد مولوخ، وهي الآن جزء من الأردن.

(2) أرميا ١٩: ٦. وهو الوادي الذي يسميه أرميا وادي القتل، حيث كانت تلقى الضحايا البشرية، والقسم الشرقي منه يسمى توفه.

(3) اسم أطلق على وادي هنوم ومنه خرجت كلمة جهنم.

(4) Chemos معبود المؤابيين الذي بنى له سليمان مقاماً. راجع ملوك أول ١١: ٧.

(5) اليوم تدعى عرعر في الأردن الحديث.

(6) مدينة مؤابية جنوبية، وكذلك اسم الجبل الذي شاهد منه موسى أرض الكنعانيين على أنها أرض الميعاد.

الجنوب الأقصى للعباريم[١]، في حشبون
وحورانيم ومملكة سيون[٢] وراء
الوادي المزهر لسيبما[٣] المليئة بكروم العنب
والعالة[٤] حتى بركة أسفالتيك[٥].
اسمه الآخر فغور، عندما أغوى
إسرائيل في شطيم[٦] لدى خروجهم من أرض النيل
فقدموا له طقوس الدعارة التي جرت عليهم فجيعة.
ومع ذلك توسع في طقوس العربدة الداعرة
حتى تل الدنس[٧]، قرب أجمة

---

(1) هضبة مؤاب الغربية، تطل على الأردن والبحر الميت.
(2) حسيبون وحشبون وهورانيم مدن عمورية. وسيحون Sihon (يقول له ملتون سيون Seon) كان ملك العموريين.
(3) إقليم شرقي الأردن اشتهر بالكرمة.
(4) مدينة قريبة من إقليم سيبما.
(5) أي البحر الميت.
(6) حيث مارس الإسرائيليون مع بنات مؤاب هناك الدعارة. راجع عدد ٢٥: ١- ٣.
(7) يقع التل شرق معبد أورشليم تماماً، عبر وادي كدرون، المسمى عادة جبل الزيتون، حيث بنى سليمان المقامات للمعبودات الوثنية.

مولوخ القاتل فتختلط الشهوة بالحقد،
إلى أن طردهم من هناك إلى الجحيم يوشيا الصالح
ومع هؤلاء جاء مَن مِن حدود الغمر
للفرات القديم حتى بروك[1] التي تفصل
مصر عن الأراضي السورية، اتخذوا أسماء عامة
للبعليم والعشتروت[2]، ذاك مذكر
وتلك مؤنث. لأنه عندما ترغب الأرواح
فقد تتخذ أياً من الجنسين، أو كليهما؛ بصورة ناعمة
وغير معقدة في جوهرها النقي
وغير مرتبطة بالمظاهر البشرية، لا بالمفصل ولا بالطرف
ولا تقوم على قوة العظام الهشة،
مثل اللحم الثقيل، بل في الشكل الذي تختاره
ممدداً أو مكثفاً، منيراً أو قاتماً
وتقضي أوطارها الأثيرية

---

(1) يرى بعضهم أن «بروك» هو نهر بيصور.

(2) البعليم جمع بعل، والعشتروت جمع عشتار. وكان بعل فغور أحد المواقع التي يعبد فيها بعل. وعشتار ربة الخصب والحرب.

وتقوم بأعمال الحب أو العداء.
لأجلهم تخلى عرق إسرائيل عن
قوتهم الحية، وتخلوا هاجرين
مذبحه الأعلى، منحنين بخضوع
للآلهة الهمجية؛ ولأجلهم خفضوا رؤوسهم
في المعركة منحنين أمام رمح
الأعداء الخسيسين. ومع هذا الفصيل
جاءت عشتروت التي سماها الفينيقيون
عشتار، ملكة السماء مع قرنين هلالين؛
وأمام صورتها المضيئة في الليلة القمراء
عذارى صيدا ينحنين لها وينشدن، وهي
أناشيد كانت تؤدى في صهيون أيضاً، حيث انتصب
معبدها على جبل العدوان[1]، بناه
ملك مفتون بزوجته[2]، ومع رحابة قلبه،
فإن عابدات الأوثان قد خدعنه، فسجد

---

(1) هو نفسه تل الدنس الوارد في البيت ٤١٦.
(2) الملك سليمان.

للأصنام الفاسدة. ويأتي بعده تموز،
فيسحر جرحه السنوي في لبنان
الفتيات السوريات فيندبن قدره
بأغاني حب طوال فصل الصيف، طالما نهر
أدونيس العذب يتدفق من صخرته الأصلية
مصطبغاً بالأرجوان[1]، نحو البحر، معتقدات أنه دم
تموز الذي يجرح في كل عام: وقصة الحب
أثر في بنات صهيون بالحرارة ذاتها،
التي عاين انجرافها الشهواني في الرواق المقدس
حزقيال، عندما أرشدت الرؤيا
عينه ليشهد عبادة الأصنام الليلية[2]
ليهوذا المغضوب عليه. يليه واحد
راح ينوح نواحاً مريراً، عندما تابوت العهد
الأسير حطم التمثال الظالم، فقطع رأسه ويديه
في معبده الخاص على طرف العتبة،

(1) التربة الحمراء تصبغ النهر بالأحمر طيلة فترة الصيف.
(2) حزقيال ٨: ١٤.

حيث سقط منبطحاً، وأخزى عابديه[1]:

اسمه داجون، وحش البحر، أعلاه إنسان

وأسفله سمكة: ومع ذلك له معبده العالي

المقام في أشدود وهو مهاب في كل الساحل

[٤٦٥] الفلسطيني، حتى حدود جوت وعسقلان

وعكا وغزة المحصنة.

ويليه رمون[2] الذي كان مقامه

الرفيع في دمشق الفيحاء، على الضفاف الخصيبة

لألبانة وفرفار[3] بجداولهما الرقراقة.

[٤٧٠] وقد وقف أيضاً بكل جرأة ضد بيت الله:

فخسر قلب المجذوم[4] وربح قلب الملك،

---

(1) في صموئيل الأول ٥: ٤ ترد هذه القصة بأن الفلسطينيين أسروا تابوت العهد ووضعوه في معبد داجون (إله البحر عندهم) وفي الصباح وجدوا أن تابوت العهد حطم التمثال فقطع رأسه وبتر يديه.

(2) هو الإله السامي حاداد رب الجو والأنواء والمطر والعواصف.

(3) قال نعمان لأليشع: أليس أبانة وفرفار نهرا دمشق أحسن من جميع مياه إسرائيل؟ الملوك الثاني ٥: ١١

(4) المجذوم هو نعمان وقد نصحه إليشع أن يستحم في الأردن فيشفى.

أحاز، الغازي المخمور، الذي أبطل
مذبح الله ليقيم مكانه
مذبحاً على الطريقة السورية، حيث يحرق
قرابينه المرعبة، ويعبد الآلهة
الذين غلبهم. بعد هؤلاء ظهرت
مجموعة تحت أسماء قديمة مشهورة،
أوزيريس وإيزيس وحورس، وشلتهم
وبأشكال وحوش وشعوذات مهينة
جعلوا مصر وكهنتها المتعصبين، يبحثون عن
آلهة ضالة متنكرة بأشكال
لا تمت للإنسان[١]. ولم تنج إسرائيل
من العدوى عندما جعلوا من الذهب المسروق
عجلاً في جبل حوريب: والملك المتمرد[٢]

(1) يأخذ ملتون بزعم اليونان أن آلهتهم عندما هربت من تيفون الجبار إلى مصر تنكرت بوجوه حيوانات، ومن هنا كانت الآلهة المصرية على شكل حيوانات.

(2) هو الملك يربعام الملوك الأول ١٢: ١٢

فقد ضاعف هذه الخطيئة في بيت إيل ودان
حين شبه خالقه بالثور الذي يرعى،
يهوه الذي في ليلة واحدة عندما مرّ
من مصر واجتازها، بضربة واحدة قضى
على الأبكار وعلى كل أربابها الثاغين[1].
أخيراً جاء بليعال، الذي روحه أشد دعارة
لم يسقط من السماء، وكان أشد فظاظة فأحب
الشر لذاته: لم يبن له معبد
أو مذبح يدخّن؛ ومع ذلك فإنه قائم في
المعابد والمذابح، وعندها الكاهن
ينقلب إلى ملحد، كما فعل بنو عالي، الذي امتلئوا
بالملذات وتجاسروا على بيت الله.
كما أنه يحكم في البلاط والقصور
وفي المدن المترفة، حيث ضجيج

(1) جاء في خروج ١٢: ١٢ «فإني أجتاز أرض مصر وأضرب كل بكر في أرض مصر من الناس والبهائم. أصنع أحكاماً بكل آلهة المصريين». وكلمة الثاغين هنا للإشارة إلى تمثيلهم الآلهة بالحيوانات.

الشغب يهبط فوق أبراجهم العالية،
بكل أذى وبكل غضب. وحين الليل
يعتم على الشوارع، يهيم بنو
بليعال وقد هاموا بالوقاحة والخمر.
أنظر إلى شوارع سادوم، وتلك الليلة
في جبعة، عندما خرجتْ من باب الضيافة
قهرمانة لمنع الاغتصاب الأسوأ[١].
هذه الآلهة كانت الأقوى والأشهر
أما الباقي فيطول الإخبار عنهم، مع أنهم مشهورون
فهم آلهة الأبونيين، من نسل ياوان[٢] فاعتبروا
آلهة، مع أنهم اعترفوا مؤخراً أن السماء والأرض[٣]

---

(1) الاغتصاب الأسوأ هو اغتصاب الذكور. راجع تكوين ١٩: ٤- ١٣ وقضاة ١٩. ويرى ملتون أن اغتصاب القهرمانة، حتى لو ماتت، أفضل من اغتصاب الرجال.

(2) ياوان هو ابن يافث، ويافث هو ابن نوح. هكذا اعتقد ملتون أن الأيونيين انحدروا من هذا الرجل.

(3) في المعتقد اليوناني أن السماء والأرض (على شكل وحشين) تزاوجا، فجاء هؤلاء الآلهة.

هما الوالدان الوحشيان لهم؛ وكان طيطان الابن البكر للسماء
فأنجب سلالة ضخمة، وانتزع حق البكورية
ساتورن الأصغر، ولقي هو من الجبار جوف[١]
وهو ابنه من ريا ما فعله هو بأبيه:
وهكذا حكم جوف بسلطة مغتصبة: اشتهروا في كريت أولاً
ثم في جبل إيدا، وبعدها في القمة الثلجية
للأوليمب[٢] البارد، وحكموا المملكة الوسطى
من سمائهم العليا؛ أو على المنحدر الدلفيني[٣]
أو في دودونا[٤]، وعبر كل أرجاء
البلاد الدورية[٥]، أو الذين مع ساتورن القديم

(1) جوف هو زيوس. والتسلسل هو أورانوس ثم كرونوس ثم زيوس، وكل إله قام بانقلاب على أبيه بتشجيع أمه. ويفضل العودة إلى الميثولوجيا اليونانية لمزيد من الدقة.

(2) جبل في تساليا الشمالية، وهو موطن الآلهة.

(3) نسبة إلى دلفي، وهو معبد خاص بأبوللو.

(4) في دودونا يوجد معبد زيوس

(5) نسبة إلى الدوريين، والمقصود كل بلاد اليونان.

انتشروا فوق البحر الأدرياتيكي حتى حقول هسبريد[1].
وفوق بلاد الكلت وصلوا إلى أقصى الجزر[2].
كل هؤلاء تجمعوا؛ ولكن بمظاهرهم
الزرية والمبللة، ومع أنهم بدوا
متجهمين فقد لمعت فرحة، لأنهم وجدوا زعيمهم
لم يصب بيأس، ولأنهم وجدوا أنهم غير ضائعين
الضياع نفسه؛ الذي بدا على محياه
وفيه لون شبيه بالشك: ولكن كبرياءه المألوفة
عادت سريعاً بكلمات عالية، تحمل
مظهر الجدارة، بلا مضمون، فرفعت
من شجاعتهم الذابلة، وبددت مخاوفهم.
ثم صدرت الأوامر أنه لدى سماع نفير الحرب
من الأبواق والمزامير عليهم أن يرفعوا
رايته الجبارة؛ التي تجلب الشرف الرفيع الذي زعم

---

(1) حقول هسبريد هي بلاد الشمس الغربية، أو إيطاليا.
(2) المقصود الجزر البريطانية.

عزازيل[١] أنه من حقه، فهو من الشيروبيم الطوال:

وعلى الفور نشرت فوق القضيب البراق
العلامة الإمبريالية، الممتلئة بالإباء،
ولمعت مثل مذنب يجري مع الريح
تبرق بريق الذهب والأحجار الكريمة الملتهبة،
وعليها أشكال أسلحة سيرافيمية وتذكارات انتصارات:
وصدحت أصوات الحرب بأصداء رنانة:
فأطلق عندها الحشد الكوني
صرخة مزقت قاع الجحيم واخترقته
لترعب ملك العماء[٢] والظلمة[٣] البهيمة.
وفي لحظة عبر الظلام ظهرت
عشرة آلاف راية ارتفعت في الهواء
ترفرف بألوان شرقية؛ ومعها ارتفعت

(1) كلمة عبرية تعني «كبش الفداء». أما عند كتاب القبالة فإنه أحد الأربعة الذين يقودون جيش الشيطان.

(2) Chaos وفي رأي ملتون أن العماء والظلمة (الليل) هما اللذان حكما «المملكة الأبدية» الفراغ الذي لا شكل له بين الجحيم والسماء.

(3) أي الليل لأن الكلمة مؤنثة استخدمنا هنا كلمة 'ليلة'.

غابة هائلة من الرماح: والخوذات المتجمعة
ظهرت مع صفوف من الدروع في تراص كثيف
بلا حد يحدها: وعلى الفور تحركوا
في كتائب مكتملة على طريقة الدوريين
في النايات والإيقاعات الدقيقة، فارتفعت
إلى مقام أنبل قدامى الأبطال
وقد تسلحوا للمعركة، وفي حالة غضب
وطيد فيتنفسون شجاعة ويثبتون صامدين
فلا يخافون الموت فيفروا أو يتراجعوا مكرهين
ولا يحتاجون قوة حتى يهدؤوا أو يلطفوا
بلمسات وقورة أفكارهم المضطربة، ويطردوا
الكرب والشك والخوف والحزن والألم
من عقولهم البشرية أو الإلهية. هكذا هم
يتنفسون قوة موحدة مع فكرة ثابتة
تحركوا بصمت على أنغم المزامير التي وحدت
خطواتهم القوية فوق التربة الملتهبة؛ والآن
ظهروا للعيون، ثم وقفوا جبهة مخيفة

من الأسلحة الطويلة المخيفة والمذهلة على شكل
المحاربين القدامى بالرماح والدروع المنظمة
في انتظار ما يصدره زعيمهم الجبار
ويأمرهم به: وبين الطوابير المسلحة
رمى بنظرته الخبيرة، وبسرعة جال
على الفيالق، وعلى ترتيبهم
على مظهرهم وقامتهم التي تشبه الآلهة،
وآخر عدد جمعه منهم. والآن قلبه
منتفخ كبرياء، ومعتز بقوّة
أمجاده: لأنه منذ أن خلق الإنسان
لم تلتق مثل هذه القوة الحاشدة، فتسمى مع أولئك الذين
يستحقون أكثر من المشاة الصغار الذين
حاربتهم الكراكي[1]: وكل الذرية العملاقة

(1) في الإلياذة ٣: ١- ٥ يقارن هومر صرخات الطرواديين بالصوت الذي تصدره الكراكي في اندفاعها السنوي نحو البحر، عندما قضوا على الأقزام في طريقهم.

في فليجرا[١] مع العرق البطولي الذي انضم
ليحارب في طيبة إيليوم[٢]، ففي كل جانب
اختلطوا مع الآلهة المساعدين؛ أو ما جاء ذكره
في رومانسة ابن أوثر[٣] أو في خرافته
وقد أحاط به الفرسان البريطانيون والأرموريون[٤]
وكل من اشترك وكان متعمداً أو كافراً
وحارب في أسبرامونت أو مونتالبان
أو دمشق أو مراكش أو تريبيسوند
أو أرسلوا إلى بيزيرت من شاطئ أفريقيا
عندما سقط شارلمان مع جنوده
في فونتارابيا. وهكذا فإنهم أبعد من أن
يقارنوا بالجرأة البشرية، وقد شاهدوا

---

(1) في كتاب التحولات يقول أوفيد ١٠: ٢٣٣ إن العمالقة حاربوا الآلهة في سهل فليجرا في مقدونيا.

(2) إيليوم هي طروادة.

(3) الرومانسة هي رواية العصور الوسطى وابن أوثر هو الملك أرثر الذي حظي بكثير من الرومانسات التي تناولت حياته ومماته.

(4) الأرموريون هم سكان بريتاني في شمال فرنسا.

قائدهم الرهيب: إنه فوق البقية
في الشكل وقامته تبرز بكبريائها
فوقف مثل برج؛ شكله لم يغب عنهم
فلم يتغير ضياؤه الأصيل، ولا ظهر
أقل من رئيس الملائكة المدمر وإن
تراجع مجده: إنه كالشمس حين تشرق من جديد
وتظهر من خلال هواء الأفق الضبابي
مجردة من أشعتها، أو تظهر من خلف القمر
في الخسوف الكامل بتشاؤم مأساوي ينسكب
على نصف الأمم، وقد خشي من التغيّر
الملوك الحيارى[١]. هكذا أظلم، ومع ذلك أشرق
فوقهم كرئيس ملائكة: لكن وجهه
خددته ندوب الصاعقة، وبرز اهتمامه
على خديه الذابلين، وتحت حاجبيه
شجاعة لا تقهر، وكبرياء محترمة

(1) هناك اعتقاد أنه بعد كل خسوف سوف يتغير الملوك والأباطرة ويعتلي غيرهم العروش.

تنتظر الانتقام: وفي العينين قسوة، تنطلق منهما
معالم الندم والشوق إلى رؤية
أنصار جريمته، أو الأحرى أتباعه
(وقد اختلفوا عما رآهم في النعيم) الذين أدينوا
الآن بمكابدة ما قسم لهم من ألم إلى الأبد،
ملايين الأرواح حرموا بسبب هذه الخطيئة
من السماء، ومن الروائع الأبدية بسبب
تمرده، ومع ذلك يقفون مخلصين،
وإن ذبل مجدهم. وكما حين تضرب نار السموات
بلوط الغابة، أو صنوبر الجبل،
تبقى قامتها منتصبة، شامخة بعريها
تقف فوق الأرض البور الخاوية، هو الآن يستعد
للحديث، حيث صفوفهم المتراصة تنحني
من جناح إلى جناح، وكادوا يحيطون به
مع نظرائه: وقد جعلهم اهتمامهم صامتين.
حاول الكلام ثلاث مرات، وفي الثلاث رغم الاستخفاف
ذرف الدموع كما يبكي الملائكة ثم انفجر: أخيراً

امتزجت الكلمات بالتنهدات ووجدت طريقها.
يا آلاف الأرواح الخالدة، أيها الجنود الذين
لا نظير لهم، إلا الجبار، وما ذاك العراك
بمشين، وإن كانت النتيجة أليمة،
كما يشهد عليها هذا المكان، وهذا التغيّر الأليم
الذي أكره ذكره: ولكن ماذا عن قدرة العقل
التي تتنبأ أو تتوقع، من أعماق
معرفة الماضي أو الحاضر، هل تخاف
إذا وحد الآلهة قواهم؟ وكيف يمكن
لمن يقف مثل وقفتكم أن يندحر؟
ثم من يصدق، حتى بعد الخسارة،
أن هذه الفيالق القوية، التي نفيت
ففرغت السماء، سوف تفشل في الارتقاء
فتنهض وتستعيد مكانها الأصلي؟
ولتشهد عليّ كل حشود السماء،
إن كانت آرائي المختلفة، أو الخطر الذي
جلبته قد أضاع الآمال. ولكنه هو الذي يحكم

المملكة في السماء، فحتى ذلك الوقت جلس
آمناً على عرشه، مدعوماً بصيته القديم،
وبحكم الوفاق أو العادة[1]، فاستلم عرشه الملكي
بكامله، ولكنه ظل يخفي قوته،
مما أغرانا بأن نقوم بمحاولتنا، ونكابد سقوطنا.
الآن نعرف قدرته، ونعرف قدرتنا
بحيث لا نثير حرباً جديدة أو لا نخاف
حرباً جديدة إن نشبت، والأفضل لنا يبقى
العمل بتصميم دقيق، فبالمكر أو الخديعة
ننال ما لم تحققه القوة، فقد يدرك منا
أخيراً أن من يتغلب
بالقوة، يحقق نصف انتصار على خصمه.
ربما تولد عوالم جديدة في الفضاء، فقد
انتشرت شائعة في السماء أنه منذ مدة قريبة

(1) موقف ملتون من 'العادة' Custom موقف سلبي، فهو يرى أنها تخمد العقل والتفكير فيسلم بها المرء في الدين والسياسة والاجتماع من غير مناقشة. وهنا يشير إلى أن الله موجود بحكم العادة.

ينوي خلقها، وفيها سوف يزرع
جيلاً يعتبره هو أنه
يساوي أبناء السماء:
فإلى هناك، ولو لمجرد الاطلاع، فربما تكون
انتفاضتنا الأولى، فإلى هناك أو إلى مكان آخر،
فلن نسمح لهذه الحفرة الجهنمية أن تمسك
الأرواح السماوية في العبودية، ولا للهاوية
أن تغطينا تحت الظلام. وهذه الأفكار
بالتشاور المشترك سوف تنضج: يئسنا من السلم
من منا يفكر في الاستسلام؟ فالحرب، إذن،الحرب
علنية أو خفية يجب أن تشن.
تكلم: وتأييداً لكلماته، ارتفعت
ملايين السيوف البراقة وامتشقت من أغماد
على جنوب الشيروبيم الجبابرة، وفجأة أضاءت
بعيداً أرجاء الجحيم بوهجها: وبهيجانهم
راحوا يقرعون بقبضات أسلحتهم
على دروعهم قرعات الحرب،
مرسلين تحديهم نحو قبة السماء.

وهناك قامت هضبة غير بعيدة قمتها
تطلق النار وتنفث الدخان المتراكم، وبقيتها
تظهر وعليها قشور براقة، إشارة أكيدة
أنها خبأت في رحمها فلز المعادن
التي شكلها الكبريت. وإلى هناك هبت مسرعة
فرقة كبيرة. وكما تفعل عصبة
من الرواد المسلحين بالمعاول والمجارف
متقدمين المعسكر الملكي، لحفر خندق للميدان
أن يقيموا متراساً، كذلك كان يقودهم مامون[١].
ومامون أقل الأرواح رفعة، سقط من
السماء، فحتى في السماء كانت معالمه وأفكاره
كلها تتجه إلى الأسفل، تبهره كثيراً
الثروة الموجودة في رصيف السماء، والذهب
الذي تدوسه الأقدام، ولا شيء مقدساً أو محترماً
تبهجه رؤيته أكثر من ذلك: فهو أول
من تعلم الناس منه ومن أفكاره

(1) مامون معناه الثروة. وربما ألمح به ملتون إلى شخصية مامون في ملحمة سبنسر «ملكة الجن».

كيف ينهبون باطن الأرض، وبأيد مدنسة
ينتزعون أحشاء أمهم الأرض
من أجل الكنوز الخبيئة جداً. فأسرع فريقه
وفتح في الهضبة جرحاً عميقاً
واستخرجوا أضلاع الذهب. فلا عجب
أن الثروات تنمو في الجحيم؛ فالتربة
هي الأفضل لصون هذا المهلك النفيس. وهنا،
لو أن المتباهين بالأشياء الفانية والعابرة المعجبين
بأخبار بابل[1] وأعمال ملوك ممفيس[2]،
ليعلموا أن كل النصب العظيمة لشهرتهم
وقوتهم وفنهم يسهل التفوق عليها
من قبل الأرواح الهالكة، وفي ساعة واحدة
يعملون ما أنجز خلال عصر من الكدح
ونفذتها أيد بشرية لا تعد ولا تحصى.
وبالقرب من السهل في العديد من الحجرات المجهزة
هناك في الأسفل عروق من النار السائلة

(1) المقصود بأخبار بابل الإشارة إلى برجها الشهير.
(2) يشير هنا إلى الأهرامات الضخمة في ممفيس.

تتدفق من البحيرة، وحشد ثان
بفنه المدهش استخرج فلزاً ضخماً
فارزاً كل نوع، ومبعداً نفايات السبائك:
وحشد ثالث راح يصوغ داخل الأرض



وشملت الدعوة كل عصبة وكل فيلق رباعي فيحضر
أعلاها مقاماً أو يجري اختيار الأكفأ (١: ٧٥٦ وما بعد)

مختلف القوالب، ومن الحجرات المغلية
نقل نقلاً غريباً وملأ كل ركن أجوف،
كما تهب على الأرغن نفحة ريح واحدة
فتحرّك كل الأنابيب فتصدر الأنفاس الصوتية العريضة
وعلى الفور من الأرض بناء ضخم
ارتفع مثل زفير يرافقه صوت
سيمفونيات جميل وأنغام عذبة،
مبنية مثل بناء معبد، حيث تحيطه التيجان
والأعمدة الدورية الثقيلة وعليها
القناطر الذهبية؛ فلم تعد بحاجة
إلى كورنيش أو إفريز، بالنقوش البارزة
والسقف منقوش بالذهب. فلا بابل
ولا القاهرة العظيمة لها هذه الفخامة
حتى ينافسا بهذه الأمجاد في مذابح
بعل أو سيرابيس، إلهيهم، أو عرش
ملوكهم، عندما كانت مصر تضاهي أشور
في الثروة والرخاء. والكومة المرتفعة

صارت عموداً ثابتاً في ارتفاعه، والأبواب المغلقة
فتحت مصاريعها البرونزية لتكشف الرحابة
في الداخل، والفراغات الفسيحة، فوق
الأرصفة الناعمة والمستوية: ومن السقف المقنطر
تدلى صف سحري منتظم
من المصابيح المنيرة والمشاعل الملتهبة يغذيها
النفط والإسفلت، حتى ليبدو النور
كما لو أنه من السماء. والحشد العجول
أعجب فدخل، بعضهم راح يطري البناء
وبعضهم يطري المهندس: فيده الماهرة مشهورة
في السماء بتشييده الكثير من الأبنية البرجية الشاهقة
حيث اتخذه الملائكة مقراً لهم.
وجلسوا كأمراء، عينهم الملك الأعلى
ورقاهم إلى هذه السلطة، وسمح لهم أن يحكموا،
كل في بطريركيته، وشاع النظام.
فلم يكن اسمه خاملاً أو غير ممجد

في اليونان وفي بلاد أوساسونا[1]
سماه الناس ملسيبير[2]، وكيف سقط من السماء،
فيقولون إن من رماه هو جوف الغاضب
فهوى فوق الأسوار البلورية: من الصباح
حتى الظهيرة وهو يهوي، ومن الظهيرة حتى المساء الندي،
في يوم صيف؛ ومع غروب الشمس
سقط من السمت الأعلى مثل نجم هوى،
فوقع على جزيرة ليمنوس في البحر الإيجي: هكذا رووا
مخطئين؛ لأنه مع هذه الهزيمة التمردية
سقط قبل روايتهم بكثير؛ ولم يشفع له الآن
ما بناه في السماء من أبراج عالية، ولا نجا
عن طريق مبتكراته، بل أرسل بسرعة
مع فريقه الصناعي ليقيموا أبنية في الجحيم.

---

(1) إيطاليا.

(2) Mulciber هو فولكان الروماني أو هيفستوس اليوناني. كان ماهراً جداً بالصناعة والبناء. يقال إنه ولد من هيرا بلا أب، فقذفته لبشاعته. ملتون يأخذ بالرواية الأخرى بأن جوف (زيوس) هو الذي رماه.

في هذه الأثناء كان الرسل المجنحون يحملون أمر
السلطان الأعلى، في احتفال هائل
فصدحت الأبواق في كل الحشود تدعو
إلى مجلس وقور يعقد على الفور
في البانديمونيوم، العاصمة الكبرى
للشيطان وأترابه: وشملت الدعوة
كل عصبة وكل فيلق رباعي فيحضر
أعلاها مقاماً أو يجري اختيار الأكفأ وعلى الفور
حضرت الفصائل بالمئات والآلاف
واجتمعوا: غصّ كل مدخل، وامتلأت البوابات
والعتاب العريضة، وكذلك القاعة الرئيسية الفسيحة
(إنها تشبه الميدان المسقوف، حيث الأبطال الشجعان
اعتادوا الدخول مسلحين، وعند العرش السلطاني
يتحدون أعظم فرسان الوثنية
إلى المبارزة المميتة أو المقاتلة بالرمح)
التجمع كثيف، في الأرض أو في الهواء
حشد بحسيس أجنحة مصطفقة. مثل النحل

في فصل الربيع، عندما تكون الشمس في برج الثور،
فيتدفق الصغار العديدون إلى الخلية
في أسراب؛ يرفرفون بين الندى والزهر
ويطيرون جيئة وذهاباً، أو على اللوح الناعم،
المعتبر ضاحية لقلعتهم المبنية من القش،
الممسوح حديثاً بالباوم[1]، فيطنبون ويتشاورون
في أمور دولتهم. هكذا كان ازدحام الجمهور الهوائي
فتجمعوا وحشروا حشراً، إلى أن أعطيت الإشارة
فترى عجباً! من كانوا يظهرون في البداية
أنهم يتفوقون على أبناء عمالقة الأرض
ظهروا الآن أقزاماً صغيرة، في حجرة ضيقة
تجمعوا بأعداد لا تحصى، مثل عرق البغمة[2]
وراء الجبال الهندية، أو أقزام الجن،
الذين يعربدون في منتصف الليل بالقرب من غابة
أو نبع فيراهم فلاح متأخر في العودة،

---

(1) Baum (البلسم؟).

(2) البغمة الأقزام ويقال إن بلادهم تقع وراء نهر الغانج.

أو يحلم أنه يراهم، بينما فوق رأسه القمر
يجلس حكماً، ويقترب من الأرض
ويقطع بعربته طريقه الشاحب، وهم في مرحهم ورقصهم
يلهون، بموسيقى رقيقة تسحر أذنه؛
فيثب قلبه بمشاعر الفرح والخوف.
هكذا الأرواح المحتشدة تحولوا إلى أصغر الأشكال
وجعلوا هيئاتهم كثيفة، وكان معظمهم
بأعداد لا تحصى لا يزالون وسط قاعة
ذلك البلاط الجهنمي. وبعيداً في الداخل
وبأحجامهم الخاصة التي تنطبق عليهم
جلس عظماء السيرافيم والشيروبيم
وعقدوا مجلساً سرياً
ألف من أنصاف الآلهة على مقاعد ذهبية
محتشدون. وبعد صمت قصر
وبعد قراءة الاستدعاءات بدأ التشاور الأكبر.

* * *

الكتاب الثاني

الخلاصة

بدأ الاجتماع، وناقش الشيطان إن كان من الخطر شنّ معركة أخرى لاستعادة السماء: بعضهم نصحه، وآخرون نصحوا بالعدول: اقتراح ثالث طرح أمام الشيطان، وهو البحث عن حقيقة تلك النبوءة أو الشائعة المنتشرة في السماء حول خلق عالم آخر، ونوع آخر من المخلوقات التي تساويهم أو أقل قليلاً منهم، والبحث عن الزمن الذي يتم فيه هذا الخلق: وكان نقاشهم حول من يذهب للقيام بهذا البحث الشاق: فأخذ الشيطان زعيمهم هذه الرحلة على عاتقه وحده، فكرموه وصفقوا له. انفض المجلس واتخذ كل سبيله منصرفاً ليقوموا بمختلف الأعمال كما تقودهم أهواؤهم، لتمضية الوقت ريثما يعود الشيطان. عبر في رحلته بوابات الجحيم، وجدها مغلقة، ووصف من كان هناك يحرسها، ومن فتحها أخيراً، وكيف اكتشف الخليج بين الجحيم والسماء؛ والصعوبات التي مر بها والتي سببها كاوس (العماء) ملك ذلك المكان، إلى أن رأى العالم الجديد الذي كان يبحث عنه.

* * *

عالياً فوق عرش الدولة الملكية، الأشد
بريقاً من ثروة هرمز[1] والهند
أو حيث الشرق الرائع باليد الأكثر ثروة
بمطر على ملوكه الذهب واللآلئ البربرية
جلس الشيطان ممجداً، وقد رفعته جدارته
إلى هذا السموّ الشرير؛ ومن اليأس



عالياً فوق عرش الدولة الملكية الأشد بريقاً من ثروة هرمز والهند (٢: ١)

---

(1) هرمز جزيرة في الخليج الفارسي.

ارتفع وحلق فتجاوز الأمل، طامحاً
وراء هذا العلو، نهماً لمتابعة
الحرب العبثية مع السماء، ولم تعلمه العاقبة
فراح يفصح عن تخيلاته المتعجرفة:
يا أصحاب السيادة والرئاسة[1]، يا أرباب السماء،
بما أنه لا يوجد داخل الجحيم العميق خليج يتسع
لقوتكم الخالدة، بعد الاضطهاد والسقوط
فإني لا أسلم أن السماء ضاعت. فمن هذا الهبوط
سوف تظهر الفضائل السماوية الرفيعة
أكثر مجداً وأكثر رهبة ممن لم يسقطوا،
وثقوا بأنفسكم بأنكم لن تخافوا بعد الآن قدراً ثانياً:
إني في المكان الصحيح، وقوانين السماء
خلقتني لكم أولاً قائدكم، ثم الإرادة الحرة
كما تبين في المجلس أو في القتال،
ثبتت لي هذه المزية، ثم هذه الخسارة
التي يجب التعافي منها، قد زادت من

(1) هذه الألقاب واردة في رسالة بولس كولوسي ١: ١٦.

تثبيت عرش آمن لا أحد يحسده
حظي بكامل موافقتكم. فالحالة الأسعد
في السماء، التي تلي الكرامة، قد تجر
الحسد من كل من هو أدنى مرتبة، ولكن
من هنا يحسد صاحب تلك المكانة التي
تتعرض دائماً لهجوم صاحب الصاعقة[1]
لدك متراسه والحكم عليه بأعظم حصة
من العذاب الأبدي؟ إذن حيث لا يوجد خير
تناضل من أجله، فلن يكون هناك صراع يتعاظم
من أي طائفة، إذ لا أحد بالتأكيد يريد في الجحيم
الصدارة، ولا أحد قلّت حصته وصغرت
في العذاب الحالي، يدفعه عقله الطموح
أن يشتهي المزيد من العذاب. وبهذه الميزة
نتحد ونوطد الإيمان، ونعزز الوفاق،
أكثر مما كان في السماء، فنعود الآن
للمطالبة بحقنا في ميراثنا القديم،

(1) إشارة إلى زيوس فهو الملقب بصاحب الصاعقة Thunderer أو المرعد.

متأكدين من تقدمنا، فازدهارنا
معتمدين على أفضل طريقة
سواء الحرب العلنية أو الخديعة السرية،
إننا الآن نتناقش، فمن لديه نصيحة فليعلنها.

توقف عن الكلام وتلاه مولوخ ملك الصولجان
فوقف وهو الروح الأقوى والأشرس
الذي قاتل في السماء، فزاده اليأس الآن شراسة:
كان يؤمن أن الأبدي متساو معه
ما دام متساوياً في القوة، وبما أنه صار أقل
فلم يعد يأبه أبداً، وبفقدان هذا الاهتمام
ذهب عنه كل خوف: من الله أو الجحيم أو ما هو أسوأ.
ومن دون اهتمام تكلم بهذه الكلمات.

مشورتي هي الحرب المعلنة: أما المكائد
فلست أتقنها، ولا أفخر بها: لندع تخطيطها
لأولئك الذين يحتاجونها، وليس الآن.
فبينما هم يخططون، هل يجلس الباقون،
وهم ملايين يقفون بسلاحهم، منتظرين بشوق

شارة الصعود، يجلسون[1] هنا
مطرودين من السماء، وبدلاً من مكان سكنهم
يقبلون بعرين العار الحقير المظلم هذا،
بالسجن الذي فرضه الطاغية الذي يحكم
بسبب تأخرنا؟ كلا، علينا أن نختار
التسلح بألسنة الجحيم النارية وبغضبنا معاً
ضد أبراج السماء العالية فنجعلها بلا مقاومة
ونقلب عذابنا إلى سلاح مرعب
ضد معذبنا، فمقابل ضجة
عربته الجبارة سوف يسمع ضجة
الصاعقة الجهنمية، ومقابل البروق يرى
النار السوداء والرعب بغضب مساو
للغضب بين ملائكته؛ وعرشه نفسه
سيختلط بالكبريت الترتاري[2]، والنار العجيبة،

---

(1) حتى يبين ملتون أن المتحدث غير مبال أورد تناقضاً في كلامه بين الجلوس والقيام، بين البيتين ٥٥– ٥٦.

(2) نسبة إلى ترتاروس، وهي أعمق هوة في العالم السفلي حسب تصورات الميثولوجيا اليونانية.

النار التي ابتكرها للعذاب. ولكن ربما
بدا الطريق صعباً وخطيراً على السالكين
ليطيروا ضد خصم أعلى منهم.
فلنفكر في هذا، فإن كانت الجرعة المنومة
من بحيرة النسيان[1] لم تعد تخدرنا،
فإننا في تحركنا قادرون أن نصعد
إلى مكانتنا الأصلية: فالهبوط والسقوط
كريه لنا. من لم يشعر مؤخراً عندما
انقض العدو المتوحش على مؤخرتنا المحطمة
فأهاننا وطاردنا عبر الهوة،
كيف اضطررنا بهروبنا المرير
أن نهبط إلى هذا المنخفض؟ إذن فالصعود أسهل[2]؛
ولكن يخشى منه؛ فهل نستفز ثانية

---

(1) هي نهر ليثي في الميثولوجيا اليونانية، وقد استخدمه دانتي في «المطهر» حتى يتخلص الغاطس من خطاياه.

(2) الصعود أسهل عكس ما جاء في الميثولوجيا اليونانية من أن الصعود أصعب كما حدث لأورفيوس في استعادة زوجته، كما قال فرجيل ودانتي إن الصعود أصعب من الهبوط.

من هو أقوى منا، وهذا سبيل أسوأ حتى غضبه
يدمرنا: فهل في الجحيم
خوف أسوأ من تدميرنا: وهل هناك أسوأ
من السكنى هنا، مطرودين من البركة، ملعونين
في هذه الهوة الكريهة نقبع في الويل الأبدي
حيث العذاب بنار لا تنطفئ جذوتها
فهل علينا أن نعاني بلا أمل حتى نكون
في النهاية خدام غضبه، عندما تدعونا
ساعة المصيبة وساعة العذاب
إلى التوبة؟ إن كان هناك المزيد من التدمير
فلا بد أن يكون الموت الكامل والانتهاء.
إذن ما الذي نخافه؟ وماذا لو أثرنا
أقصى غضبه؟ إنه في سورة غضبه
إما أن يقضي علينا أو يجعل
جوهرنا هذا لا يعني شيئاً، وهذا اسعد بكثير
من بؤس أن نملك كينونة خالدة:
أما إن كان جوهرنا إلهياً حقاً،

لا تنتهي كينونته، فإننا في حالة أسوأ
من أي شيء من هذه الناحية، وبالتجربة نشعر
متى تكون قوتنا كافية لإزعاج سمائه،
وبالغارات المستمرة يمكن تهديد عرشه
المصون، ولو كان ذلك متعذراً:
فإن لم يكن نصراً فليكن انتقاماً.
أنهى كلامه متجهماً، وأفصحت هيئته
عن تصميمه على الانتقام العاجل والمخاطرة بالمعركة
ضد الآلهة التافهين. ومن الجانب الآخر نهض
بليعال[١]، بكل فخامة وتواضع؛
لم تخسر الجنة أجمل منه؛ بدا
صاحب كرامة ومأثرة عظيمة:
لكنه أخرق وأجوف؛ سوى أن لسانه
يقطر مناً[٢]، ويمكن أن يظهر الحجة الأسوأ

(1) تشخيص بليعال Belial من وضع ملتون نفسه، سوى أنه استفاد من كتاب «اكتشاف السحر» لريتالد سكوت.

(2) هي المادة التي أرسلها الله من السماء إلى بني إسرائيل في الصحراء حتى لا يموتوا جوعاً. خروج ١٦:٣.

الحجة الأفضل، فيربك ويحطم
أنضج المشورات: فقد كانت أفكاره وضيعة؛
نزّاع إلى الشر، أما الأفعال النبيلة
فيتقاعس عنها ويهابها، لكنه يسرّ الأسماع،
وهكذا بدأ خطابه بلهجة مقنعة.
كان عليّ مناصرة الحرب المعلنة، أيها
الأتراب، ولست أقلكم حقداً، فإن كان ما أثير
سبباً رئيسياً لشن حرب فورية،
فإن ذلك لا يحفزني كثيراً ويبدو أنه يلقي
شارة شؤم على نجاحنا كاملاً:
إن من ينادي باللجوء إلى السلاح،
مهما كانت مشوراته ومهما كان تطرفه في
عدم الثقة، إنما يبني شجاعته على اليأس
والتشتت المطلق، كما يدل على
ذلك هدفه، بعد أن يحقق انتقاماً رهيباً.
أولاً أي انتقام؟ إن أبراج السماء تغص
بالمراقبين المسلحين، يحيطون بكل الجهات

المحصنة؛ وعادة يصلون إلى تخوم هاويتنا
وتعسكر فيالقهم هناك، أو يطيرون بأجنحة مخفية
فيجولون طولاً وعرضاً في مملكة الليل،
غير آبهين بمن يفاجئهم. أو قد نشق طريقنا
بالقوة، وسوف ننهض في الجحيم على أعقابنا
هبة واحدة في انتفاضة سوداء، لإرباك
نور السماء النقي، ومع ذلك سيظل عدونا
على عرشه، لا يصيبه مكروه
فيجلس غير ملوث، والكيان الأثيري
لا يناله وسخ، وسوف يرد
كل أذى، ويتطهر بالنار الآكلة
منتصراً. وهكذا نخيب، وأملنا الأخير
يصبح يأساً ثقيلاً. فنحن إنما نسخط
المنتصر الجبار ليصب جام غضبه،
وهذا ما يقضي علينا، وفي هذا شفاؤنا،
فننتفي، ويا له من شفاء كئيب، إذ من يتخلى،
وإن كان ممتلئاً ألماً، عن الوجود الفكري،

وجود تلك الأفكار التي تهيم عبر الأبدية،
فتنتهي، فتبتلع وتضيع متلاشية
في رحم الظلمة[1] العريضة التي لم تخلق بعد،
بلا إحساس ولا حركة؟ ومن يعرف بأن
هذا خير، سواء عدونا الغاضب
قدّمه، أو لم يقدّمه؟ أما أنه يستطيع تقديمه
فموضع شك؛ لا أحد على يقين.
فهل يطلق، وهو الحكيم، غضبه دفعة واحدة،
إما عجزاً، أو قلة انتباه،
فيحقق لأعدائه رغبتهم، وينهيهم
بغضبه، أولئك الذين غضبه أنقذهم
حتى يعاقبهم عقاباً سرمدياً؟ فعندها لماذا نتوقف؟
يقول من يشيرون بالحرب، إنه قد حكم علينا
بالبقاء محكومين بالعذاب الأبدي؛
فمهما فعلنا، هل نعاني أكثر،
أم هل نعاني أسوأ؟ وهل هذا هو الأسوأ إذن؟

(1) المقصود الليل. استخدمنا الظلمة تمشياً مع النص الذي يؤنث كلمة ليل.

نجلس ونحن مدججون بالسلاح نتشاور؟
ماذا عندما هربنا بكل قوتنا ملاحقين ومضروبين
بالصاعقة السماوية المبيدة، فلجأنا إلى
الهوة حتى تحمينا؟ فهذا الجحيم بدا
ملجأ لكل أولئك المجروحين: أم عندما كبلنا
ووضعنا فوق البحيرة الملتهبة؟[1] لا شك أن ذلك كان أسوأ
ماذا لو أن الأنفاس التي أوقدت هذه النار الغاضبة
تجددت ونفخت بغضب سبعة أضعاف
وأغرقتنا في ألسنة اللهب؟ أم ترى من الأعلى
يتابع سلاح الانتقام مرة أخرى
بيده اليمنى الحمراء حتى يفنينا؟ ماذا لو جميع
حجراته فتحت، وسماء الجحيم
هذه تدفقت شلالات نارها،
برعب في كل لحظة، تهدد بالسقوط المرعب
على رؤوسنا في أحد الأيام؛ في حين كنا
نصمم أو نهيئ حرباً مجيدة،

---

(1) راجع الكتاب الأول، البيت ٢١٠.

فإذا العاصفة النارية تدفع كل
واحد إذا هو على صخرته مكبل رهين
الزوابع الشديدة، أو إلى الأبد يغرق
في أعماق المحيط الذي يغلي، مقيداً بالأغلال؛
فلا يتكلم هناك إلا بالأنين الأبدي،
دون رحمة ولا شفقة على مدى عصور
لا أمل في نهايتها، وهذا هو الأسوأ.
لذلك فالحرب، علنية أو خفية، سواء بسواء
أصوّت ضد الحرب؛ فما جدوى القوة أو الخديعة
معه، أو هل يخدع عقله، من كانت عينه ترى كل
الأشياء في مشهد واحد؟ إنه من علياء سمائه
يهزأ بكل حركاتنا هذه، فيرى ويسخر؛
إن قوته في مقاومة قوتنا لا تقل أبداً
عن حكمته في إحباط كل مؤامراتنا ومكائدنا.
فهل علينا أن نحيا أذلاء، نحن العرق السماوي
المهزوم والمطرود ليكابد هنا
من الأغلال والآلام؟ فنصيحتي أفضل

من الأسوأ، ما دام القدر سوف يخضعنا
حتماً، وسوف نخضع لقانون قوة
إرادة المنتصر. فمعاناتنا مثل قيامنا بالعمل،
فقوتنا فيهما متساوية، والقانون الذي يقول
بذلك ليس مجحفاً: كان يجب حلّ هذا أولاً،
لو كنا حكماء، في المواجهة مع عدو
كبير، وإن كان الشك في ذلك موجوداً فينا.
أضحك عندما يتجرأ أولئك الذين يحملون الرماح
ويغامرون، فلو فشلوا، أو تقلصوا أو خافوا
فماذا يعرفون عما يجب أن يفعلوه، تحمّل
النفي أم العار أم العبودية أم الألم،
وهذا حكم قاهرهم: وهذا هو الآن
مصيرنا؛ فإذا استطعنا إرجاءه أو تحمله،
فربما عدونا المتفوق مع مرور الزمن يخفف
من غضبه، وربما يزول هذا الغضب
فلا يفكر فينا ولا يهاجمنا، قانعاً
بالعقوبة التي أنزلها؛ وهذه النار الغاضبة

عندما تتوانى، فإنه لا يكون ينفث فيها.
وعندها يمكن لجوهرنا النقي أن يتغلب على
هذا البخار السام، أو لا نعود نشعر به،
أو يتغير فيما بعد، والمكان المصنوع
في جوهره وطبيعته، سوف نألف
حرارته القوية، ونتجنب الألم؛
إن هذا الرعب سوف يخفّ، كما تخفّ الظلمة،
إلى جانب ما نأمل من توالي الأيام التي
لا نهاية لها وما قد تجلبه من حظ وتغيرات
وهذا جدير بالانتظار، ما دام حظنا الحالي قد ظهر
قليل السعادة، فإن السيئ لن يزداد سوءاً،
إن لم نجر بأنفسنا على أنفسنا مزيداً من الألم.
هكذا بليعال أنهى خطابه بكلمات ألبسها ثوب العقل
مشيراً بتحقير التساهل والتكاسل المسالم
ولكن ليس السلم: وبعده قام مامون وتكلم.
إما أننا نريد الإطاحة بملك السماء فنحارب،
إن كانت الحرب هي الأفضل، أو أن نستعيد

حقنا الضائع: خلعه عن عرشه عند ذلك
قد نأمل به عندما يذعن القدر الأبدي
للحظ المتقلب، ويحكم الكاوس[1] في الصراع:
فيأسنا السابق في الانتصار عليه كأملنا اللاحق
في العودة: إذ أي مكان يمكن أن يكون لنا
داخل حدود السماء، إن لم نطح
بالسيد الأعلى للسماء؟ فلنفرض أنه رقّ
ومنح النعمة للجميع، بعد أن نعده
بخضوع جديد؛ فبأي عين يمكن
أن نقف في حضرته بخنوع، وتفرض
قوانين صارمة، فنحتفل بعرشه
بترتيل أناشيد المدح، والغناء لإلوهيته
فنجبر على ترتيل هليلويا، بينما يجلس متغطرساً
فنحسده على حاكميته، ومذبحه يتنفس
شذى أمبروزياً[2]، وتكون قرابيننا الخانعة

---

(1) راجع الفردوس المفقود ١: ٥٤٣.

(2) جاء في الميثولوجيا أن الأمبروزا هو طعام آلهة الأوليمب للحفاظ على خلودهم، وقيل إنه شرابهم والنكتار طعامهم.

من الأزهار الإمبروزية. فهذه هي مهمتنا
في السماء، وهذه هي بهجتنا؛ كم هي ثقيلة
الأبدية حتى تهدَر في عبادة ترفع إلى
من نكرهه. فيجب ألا نتابع
بالقوة المستحيلة، وأن ندع تحصيل
غير المسموح، مع أن دولتنا في السماء
ذات إقطاعية رائعة، وإنما لنبحث
عن خيرنا الخاص من أنفسنا، ومن حياتنا
الخاصة نخدم ذواتنا، وإن في هذا المخبأ الضخم
أحراراً، فلا يحسبنا أحد، مفضلين
الحرية الشاقة على النير السهل
لعظمة العبودية. وسوف تظهر عظمتنا
على نحو جلي، عندما نخلق أشياء عظيمة من الصغيرة
والأشياء المفيدة من الضارة، والنامية من الذاوية
فيمكن في أي مكان من الأمكنة
أن نزدهر في ظل الشر، وأن نعمل الملطف من المؤلم
من خلال العمل والصبر. فهل نخاف من هذا

العالم المظلم المرعب؟ فكيف وسط
الغيوم الكثيفة المظلمة، الملك الأكبر للسماء
يختار مستقره، ومجده لم يظلم،
وبجلال الظلام حوله
يغطي عرشه؛ ومن هناك تزأر الرعود
تقذف غضبه، حتى لتشبه السماء الجحيم؟
فهو يحاكي ظلامنا، ألا نقدر أن نقلد نوره
عندما نريد؟ فهذه التربة الصحراوية
ليست خالية من أحجارها الكريمة وذهبها البراق
ولا نحن تنقصنا المهارة أو الفن فمنها نخلق
الروعة؛ فهل تستطيع السماء أن تقدم أكثر؟
ومع أن عذاباتنا كثيرة ولكن مع مرور الزمن
تصبح عناصر من تركيبنا، وهذه النيران الخارقة
تصبح لطيفة بمقدار حدتها الآن؛ وتتغير طبيعتنا
بحسب طبيعتها؛ فيتغير أيضاً
إحساسنا بالألم. فكل الأشياء تدعونا
إلى مشورة السلم، وإقامة دولة

ذات نظام، وبأفضل الطرق وبكل أمان يمكن
معالجة كوارثنا الحالية، آخذين بالاعتبار
ما نحن عليه وما كنا فيه، متخلين تماماً
عن كل أفكار الحرب: فخذوا بما نصحت.
ما كاد ينتهي حتى ملأت التمتمات قاعة
الاجتماع، كما تردد الصخور الجوفاء
صوت رياح عاتية، استمرت طوال الليل
تهب من البحر، والآن بإيقاع أجش هدهدت
المسافرين بحراً وقد راحوا يراقبون، من زورقهم
الذي قذفته المصادفة أو قاربهم الذي رسا في خليج صخري
بعد العاصفة: هكذا علا التصفيق وسمع
حالما انتهى ميمون، وقد استحسنوا خطابه
الناصح بالسلام: أن أي مجال آخر
كان يخيفهم أكثر من الجحيم: حيث الخوف
من الصاعقة وسيف ميخائيل[١]

(1) الصاعقة إشارة إلى زيوس، وسيف ميخائيل يمثل الخطر لأنه جرح الشيطان، الذي شفي من الجرح سريعاً. أنظر الموسوعة الكاثوليكية على شبكة الإنترنت في مادة 'ميخائيل'.

لا يزال طعمهما فيهم؛ ولم تهدأ رغبتهم
في تأسيس هذه الإمبراطورية تحت الأرض، فيمكن أن
تقوم بالسياسة، وعلى مدى أزمان طويلة
فتكون منافسة معادية للسماء.
عندما لاحظ هذا بعلزبوب، وهو في مقعد
لا يعلوه أحد،عدا الشيطان، فنهض
بسيماء الجد، وبدا واقفاً
مثل عمود بناء؛ وقد ظهرت غضون في جبهته
أفصحت عن الموقف الجاد والاهتمام بقضية الجمهور؛
وقد لاحت على وجهه معالم الإمارة
رفيعة المستوى وإن في الدمار: حكيما وقف
بمنكبين كمنكبي أطلس جاهزين لحمل
هموم جبابرة الملوك؛ وسيماؤه
جذبت المشاهدين وشدت اهتمامهم مثل هواء
ليل أو ظهر صيف، وهو يتكلم، قال.
يا سادة العروش والإمبراطورية، يا أبناء الجنة
المبعدين، أيتها الكائنات الأثيرية؛ هل علينا أن

نتخلى الآن عن هذه الألقاب، ونبدلها بلقب
أمراء الجحيم؟ إذ هذا ما مال إليه التصويت
الشعبي، فهنا يريدون أن يبقوا، وهنا يريدون بناء
إمبراطورية كبيرة؛ من دون شك، فهذا حلمنا،
ولكنهم لا يعرفون أن ملك السماء قضى
أن يكون هذا المكان سجننا، وليس ملجأ آمناً
هرباً من ذراعه الجبارة، لنعيش مستثنين
من شريعة السماء السامية، في عصبة
اجتمعت ضد عرشه، شريطة أن نظل
في العبودية الشديدة، على الرغم من البعد
الشاسع عنه، في القيد المحتوم، فنبقى
حشوداً أسيرة: لأنه ولا شك في الأعالي
أو الأعماق، لا يزال الحاكم الأول والأخير
الملك الأوحد، ولم تفقد مملكته أي جزء
بسبب تمردنا، بل امتدت إمبراطوريته
حتى الجحيم، وهو يحكمنا هنا بصولجان حديدي[١]

---

(1) كل ما يتعلق بالحديد يدل على القسوة والاستبداد: العصر الحديدي والستار الحديدي والحكم الحديدي....

كما يحكم بصولجانه الذهبي أولئك الذين في السماء.
لمَ نحن هنا نطرح السلم والحرب؟
الحرب حطمتنا، ونكبتنا بخسارة
لا تعوّض؛ وشروط السلم لا أحد بعد
يحبذها أو يبحث عنها؛ إذا ماذا يجلب لنا السلم
سوى العبودية، سوى العذاب الأكيد،
والضرب والعقاب المستبد
الموجع؟ وبماذا يعود علينا السلم،
سوى الحد من قدرتنا على العداء والحقد
والمقاومة الشرسة، والانتقام المتباطئ
ومع ذلك الغازي يتآمر دائماً على الأقل
حتى يقطف حصاد المغزي، وقد يبتهج
في أنه يفعل ما يجعلنا نشعر بالألم؟
لن ننتهز فرصة، ولن نحتاج
إلى شن حملة عنيفة لغزو السماء،
التي لا تهاب أسوارها العالية أي هجمة أو حصار،
أو كمين من هذه الهوة. ماذا لو وجدنا

[٣٤٥] بعض المشاريع الأسهل؟ فهناك مكان
(إن لم تكن الشائعة القديمة ونبوءة السماء
الجديدة مخطئتين) بأن هناك عالماً أخر، مقراً سعيداً
لعرق جديد يقال له الإنسان، وقد أوشك في هذا الزمن
أن يخلق مثلنا، مع أنه
[٣٥٠] أقل قوة وامتيازاً، ولكنه مفضل علينا
عنده، عند من يحكم في الأعلى؛ هكذا كانت إرادته
التي أعلنها للآلهة[١]، وأقسم يميناً[٢]
هز كل أركان السماء، مما أكد النبوءة.
فإلى هناك علينا أن نوجّه كلّ أفكارنا، لنعلم
[٣٥٥] أي مخلوقات سوف تسكن هناك، وما نمطهم
أو جوهرهم، وما مواهبهم، وما قوتهم،
وأين مكامن ضعفهم، وما أفضل طرق الإيقاع بهم،
بالعنف أم بالدهاء: ومع أن السماء موصدة

(1) الآلهة هنا يقصد بها الملائكة.

(2) يكون اليمين بينه وبين نفسه لأنه ليس من هو أعلى منه ليؤدي له اليمين، كما ورد في تكوين ٢٢: ١٦.

والحاكم الأعلى للسماء يجلس آمناً
بكامل قوته إلا أن هذا المكان قد يكون مكشوفاً
عند آخر حدود مملكته، تاركاً
الدفاع عنه لمن يسكنه: هنا ربما
نقوم بعمل مجد فنحققه
بهجوم مباغت، إما بنار الجحيم
فنقضى على كل خلقه، أو نمتلكه
كله ويصبح لنا، وكما طـُـردنا نـَـطرد
سكانـَـه الضعفاء، فإن لم نستطع طردهم
فنغويهم لينضموا إلى جانبنا، فقد يصبح
ربهم عدوهم، وبيد نادمة
يقضي على كل ما عمل. وهذا يتخطى
الانتقام الشائع، ويفسد فرحته
في تدميرنا، فتزداد بهجتنا
بإزعاجه؛ عندما أبناؤه الأعزاء
يرميهم من الأعلى ليشتركوا معنا، ويلعنوا
أصلهم[1] الهش، وبركتهم المتلاشية،

(1) أصلهم يقصد آدم فقط فالكلمة وردة بالمفرد original وليس بالجمع.

المتلاشية سريعاً. إن كانت نصيحتي جديرة
فحاولوها، أو ظلوا قابعين هنا في الظلام
تفقسون الإمبراطوريات الخاوية. هكذا بعلزبوب
ختم مشورته الشيطانية، التي قدمها أولاً
الشيطان، بل اقترح قسماً منها،
وهل ينبع إلا من مؤلف كل الشرور
هذا الخبث العميق، فيفسد جنس
البشر بجذر واحد[1]، ويخلط الأرض
بالجحيم فيورطها، كل هذا نكاية
بالخالق العظيم؟ إلا أن نكايتهم لا تزال
تزيد مجده ارتفاعاً. هذا التخطيط الجريء
لقي قبولاً من كل رؤساء المقاطعات الجهنمية
فبدت البهجة في عيونهم جميعاً؛ وبإجماع كامل
صوّتوا[2] مؤيدين: وعندها استأنف خطابه مجدداً
حسناً حكمتم، حسناً أنهيتم هذه المناقشة الطويلة،

(1) جذر واحد هو الإنسان أو آدم.

(2) يكثر ملتون من كلمة vote صوّتوا، لأنه كان نصير الديمقراطية والحرية.

يا سنودس[1] الآلهة، وحسناً فعلتم بحل
القضايا الكبرى: التي تصعد بنا من أعمق هوة
إلى الأعالي، على الرغم من القدر،
فنكون أقرب ما نكون إلى مكاننا القديم؛ ربما على مرأى
تلك الحدود المضيئة، وعندها مع القوى المجاورة
وبالانحراف المناسب ربما يحالفنا الحظ
وندخل ثانية إلى السماء؛ أو منطقة معتدلة
نسكنها غير محرومين من ضياء السماء الجميل
وبكل أمان، وعندما يسطع شعاع الشرق
نتطهر من هذا الظلام؛ وبالهواء النقي الناعم
فنشفي جراح تلك النيران المتلفة
ونتنشق بلسمه. ولكن أولاً من سوف نرسله
بحثاً عن ذلك العالم الجديد، ونجد فيه
الكفاءة؟ من سوف يختبر بقدميه التائهتين
هوة الظلام التي لا قاع يحدها

(1) السنودس تعني مجمع الكنيسة. وقد استخدم ملتون هذه الكلمة لإدانة الكنيسة الكاثوليكية.

وعبر ظلام دامس[1] يجد
طريقه المجهول، أو يحلق في الهواء
عالياً بجناحين لا يكلان
فوق المنحدر[2] الضخم، قبل أن يصل
إلى الجزيرة السعيدة[3]؛ فأي قوة، وأي فن
يحتاج، أو أي حيلة تضمن سلامته
خلال عبوره الحراس والمراكز الكثيرة
للملائكة حراس كل الجهات؟ هنا يحتاج
إلى كل حذرنا، كما نحتاج نحن كل حذر
في اختيارنا بالاقتراع[4]؛ إذ على من نرسله
يقع عبء الجميع، وكذلك أملنا الأخير.
قال هذا ثم جلس، فجعله التوقع يبدو

(1) أخذ التعبير من سفر الخروج ١٠: ٢٢.

(2) المنحدر abrupt اسم أطلقه ملتون على الفاصل بين السماء والجحيم قبل أن يتأكد الشياطين من العالم الجديد.

(3) يتبع ملتون التصوّر اليوناني في «الجزر السعيدة».

(4) Suffrage الاقتراع. يختار ملتون الكلمات التي تناسب موقفه السياسي ضد القوى الدينية واليمينية.

بمظهر المتوجس، منتظراً أن يظهر
من يعقبه، أو يعارضه، أو يتعهد
بهذه المحاولة الخطرة؛ ولكن الجميع جلسوا صامتين،
وبأفكار عميقة يقلبون مسألة الخطر؛ وكل واحد
في محيا الآخرين يقرأ رهبته الخاصة
وذهوله الخاص: فلا أحد بين المختارين وأوائل
أولئك الأبطال الذين حاربوا السماء من وجدوا
فيه من الاقتدار ما يجعلهم يفضلونه أو يوافقون
أن يقوم وحده بهذه الرحلة المرعبة؛ إلى أن أخيراً
قام الشيطان، الذي نال الآن مجداً عالياً وعلا
فوق زملائه، بكبرياء ملوكية
مدركاً جدارته العظمى، فتكلم من دون أن يتحرك.
يا ذرية السماء، أيتها العروش الإمبريالية،
لقد جرفنا العقل بصمته العميق وتردده،
مع ذلك يبقى ثابتاً: طويل هو الطريق[1]
وشاق، ويؤدي إلى النور خارج الجحيم:

(1) يكرر ملتون أن الطريق إلى الأعلى شاق وطويل.

سجننا محكم، وهذه الالتفافات من النار
تندفع للافتراس، وتلتف حولنا تسع[1]
لفات، والبوابات من الأدمنت[2] المحترق
منصوب فوقنا يمنعنا من أي خروج.
فإذا اجتازها أحد، إن كان هناك من يجتاز، تلقاه
فراغ عميق من الليل الذي لا جوهر له، تليه
فجوة عريضة، بلا كينونة،
تهدده، فيغرق في ذلك الخليج المجهض[3].
فإن نجا ودخل في عالم من العوالم
أو في إقليم مجهول، فإن ما يبقى أمامه
الأخطار المجهولة ومن الصعب أن ينجو منها.
ولكني ما كنت أستحق هذا العرش، أيها الأتراب
وهذه السيادة الإمبريالية، المزينة بكل
روعة، مسلحاً بالسلطة، لو لم أقم

(1) في الإنيلاذة ٦: ٧٥٠ جاء إن تسع دوائر من نهر ستيكس تلفّ العالم السفلي.
(2) حجر كثيف وناعم يشبه الماس.
(3) Abortive ربما كان قصده بأنه لم يخلق بولادة طبيعية.

وأحكم في القضايا العامة الكبيرة في
الظروف الصعبة، أو أتعرض للخطر
في محاولاتي. لذلك حزت كل هذه
الألقاب، فإذا كنت لم أرفض الملك
فهل أرفض الموافقة على المشاركة
في المخاطر الكثيرة، كشرف لي،
أليس عليه أن يواجه المخاطر بحيث
كلما فاق الباقين بمزيد من المخاطر،
حاز شرف التكريم؟ لذلك عودوا أيها الجبابرة
يا من ترهبون السماء، وإن سقطتم، إلى منازلكم،
بينما سوف يكون هنا موطننا، ونفكر ما الذي يخفف
البؤس الحالي، لجعل الجحيم
أكثر احتمالاً: إن كان هناك علاج أو سحر
يرجئ أو يزيل أو يؤخر ألم
هذا المقام السقيم: لا تغفلوا عن المراقبة
ضد العدو المتيقظ، بينما أخرج أنا
عبر كل شواطئ التدمير المظلم بحثاً عن

الخلاص[١] لنا جميعاً: وفي هذا العمل
لن يشترك أحد معي. قال الملك هذا
ونهض مانعاً أي ردّ على ما قاله،
إنه حصيف، وبالأخص في القرار الذي يمثل
الآخرين فقد يقدم الزعيم الآن
(وبالتأكيد سيرفضون) ما يخشون منه؛
وهكذا قد يجعلهم الرفض في الرأي
منافسين له، فيكسبون بثمن بخس شهرة كبيرة
لم يحققها إلا من خلال الأخطار الهائلة. ولكنهم
لا يخشون المغامرة مثلما يخشون صوته
الزاجر؛ وعلى الفور نهضوا معه؛
فكان صوت قيامهم معاً مثل صوت
الرعد يسمع من بعيد. ونحوه انحنوا
منبطحين باحترام مهيب، ومثل إله
مجدوه كما يمجد أعلى من في السموات:
ولم يتأخروا في تقديم الإطراء

(1) يتشبه بالمسيح في قوله إنه مخلص العالم.

فهو من أجل السلامة العامة احتقر
سلامته الخاصة: فحتى الأرواح الملعونة
لا تفقد كل فضائلها؛ وأشرار الناس يتفاخرون
بأفعالهم الخادعة على الأرض، طلباً للمجد
أو الطموح الخفي المطلي بالحماسة.
على هذا النحو انتهت مشاوراتهم المريبة
بالابتهاج بزعيمهم الذي لا نظير له:
مثلما من قمم الجبل ترتفع الغيوم
القاتمة، بينما ريح الشمال غافية، فتنتشر
في وجه السماء البشوش، بينما السماء
المنخفضة تكفهر فوق ثلج المشهد القاتم، أو مطره؛
فإن صادف ومدّت الشمس المشعة في وداعها
شعاع مسائها، فإن الحقول تنتعش،
وتجدد أغانيها، وثغاء القطعان تعبيراً
عن فرحها، تردده الهضاب والوديان.
يا لعار البشر! شيطان ملعون مع شيطان ملعون
اتفقوا بثبات، بينما البشر وحدهم يتشاجرون

من بين المخلوقات العاقلة، مع أنهم يأملون
بالنعمة السماوية؛ والله الذي يعلن السلام،
يعيش في الحقد والعداء والشقاق
بين أنفسهم، ويشنون الحروب الظالمة،
فيفسدون الأرض، من أجل أن يدمر كل الآخر:
كأن الإنسان (وهذا ما يحثنا على الوفاق)
ليس له أعداء جهنميون يحيطون به
في النهار والليل مرتقبين تدميره.
وهكذا انفض المجلس الستيجي[1]؛ وبكل
انتظام حضر الأتراب الكبار من الشياطين:
جاء في الوسط زعيمهم الجبار، وبدا
المعارض الوحيد للسماء، ليس أقل من
إمبراطور الجحيم المخيف، مع ترفع متعجرف،
متشبهاً ومقلداً دولة الله؛ وحوله
مجموعة من السيرافيم، يحيطونه
باللهيب المتوهج وبأسلحة مشرعة

---

(1) نسبة إلى نهر ستيكس، أي نسبة إلى الجحيم عموماً.

فأعلنوا ارفضاض مجلسهم بصرخة عالية
من الأبواق بصوت منتظم يردد النتيجة الكبرى:
وإليهم حضر أربعة ملائكة شيروبيم مسرعين
وفي أفواههم آلات العزف ألخيمية[1]
يعلن الرسل فيها البشرى: فالهاوية الجوفاء
سمعت بطولها وعرضها، وكل حشود الجحيم
رددت بصرخة صماء، صدى ندائهم عالياً.
وبعد أن استراحت عقولهم وتمسكوا
بأمل موهوم زائف، تفرقت القوات
المنتظمة، وهاموا، كل يسلك طريقه
فيواصل سيره كما يقوده هواه أو
اختياره السيئ حائراً، إلى أي مكان
يجد فيه هدنة لأفكاره القلقة ويستقبل
الساعات المضجرة، إلى أن يعود زعيمه الأكبر.

---

(1) ألخيمية، نسبة إلى الكيمياء القديمة التي هي من صنع الشياطين، وقد استخدم ملتون هذه الكلمة وتعني خليطاً من معادن حتى يميز أبواق الجحيم عن أبواق الجنة الذهبية.

قسم منهم على السهل، أو في الهواء الطلق
تحليقاً، أو في منافسة سباق،
في الألعاب الأوليمبية أو الحقول البيثية[1]؛
وقسم امتطوا خيولهم النارية، أو حددوا الهدف
في سباق العربات السريعة، أو في تشكيلات الألوية.
وكما عندما المدن الجائرة تنذرها بالحرب فتشتبك
في السماء المضطربة، وتندفع الجيوش إلى
المعركة في الغيوم، وأمام كل جيش طليعة
يحثون فرسانهم الهوائيين، ويفردون رماحهم
إلى أن تشتبك الفيالق الكثيفة؛ بمآثر الجيوش
من كل أبهاء السماء فتلتهب قبتها، كذلك
آخرون سيطر عليهم الغضب التيفوني[2]
فاقتلعوا الصخور والهضاب وامتطوا الهواء في

(1) كانت الألعاب الأوليمبية أو البيثية ممنوعة منعاً باتاً في أيام ملتون، ولم تستأنف مسيرتها إلا في القرن التاسع عشر، ولذلك يذكرها نكاية بالكنيسة التي حرمتها واعتبرت المشاركين بها يقترفون خطيئة مميتة.

(2) نسبة إلى الوحش تيفون، الذي تكرر ويتكرر ذكره.

الزوابع؛ هكذا كان الجحيم يصدر الضجيج الوحشي.
وكما حين عاد هرقل من أويخاليا[١] متوجاً
بالنصر، شعر بالثوب المسموم[٢]، فمزق
أشجار الصنوبر من جذورها من شدة الألم،
ورمى ليخاس[٣] من قمة جبل أوتنا[٤]
إلى البحر الإيوبي[٥]. وكان الآخرون ألطف
فتراجعوا إلى وادي صامت، يعزفون
النوتات الملائكية للعديدين على القيثارة ويغنون
معددين مآثرهم البطولية، وسقوطهم اليائس
كما حكم عليهم قدر المعركة؛ ويتذمرون بأن القدر

---

(1) اسم أطلق على عدة مدن، والمقصود هنا المدينة التي في تيساليا، حيث بارى هرقل ملكها وكسب، فلم يعطه ابنته ويلي حسب الرهان فقتله وأخذها، فغارت زوجته ديانيرا وأرسلت له الثوب المسموم..

(2) هو الثوب الذي وضع عليه دم القنطور نيسوس وقد نصح ديانيرا زاعماً لها أنه يحتفظ لها بحب زوجها هرقل إن ارتداه.

(3) هو مرافق هرقل وخادمه الأمين ولكن هرقل من شدة الألم رماه من أعلى الجبل.

(4) جبل عال في تيساليا.

(5) إيوبيا جزيرة في القسم الغربي من البحر الإيجي.

جعل الفضيلة الحرة تأسرها القوة أو المصادفة.
كانت أغنيتهم مجتزأة[١]، ولكن الهارمونـي
(كيف إذا كانت الأرواح الخالدة تغنيها؟)
دبت الشوق في الجحيم، فاستولت بسحرها القاهر[٢]
على الجمهور المحتشد. وفي حديث أكثر عذوبة
(فبلاغة النفس تسحر الإحساس)[٣] تجاذبه
آخرون يستريحون بعيداً على الهضبة،
حول أفكار أكثر رقياً وأعلى تفكيراً حول
العناية الإلهية، والمعرفة والإرادة والقدر،
والقدر الثابت، وحرية الإرادة، والمعرفة المطلقة،
فلم يصلوا إلى نتيجة، وهم يمشون بخطوات تائهة[٤].

---

(1) الكلمة الأصلية هي partial ولها معنيان: جزئية أو منحازة، ولكننا اخترنا المجتزأة، لأنه من غير المحتمل إنشاد الأغنية بالكامل.

(2) استخدم هنا صورة الساحرة سيرسي Circe التي كانت تسحر أسراها بالشراب. هنا يكون السحر بالنشيد.

(3) يعامل ملتون هذه الأغنية على اعتبارها زائفة لأنها في الجحيم، أي على النقيض من السماء.

(4) هنا يشبه الخطوات بخطوات آدم وحواء بعد الخطيئة.

ثم تناقشوا حول الخير والشر كثيراً،
وعن السعادة والبؤس النهائي،
والانفعال والكسل والمجد والعار،
وكلها من الحكمة الفارغة والفلسفة الزائفة:
ولكنها شعوذة ممتعة تزيل
الألم والمعاناة لفترة وتثير
الأمل الزائف، أو تسلح الصدر المتعب
بالصبر الصلب كصلابة الفولاذ المثلث القوة.
وقسم آخر توزع إلى مجموعات وعصائب ضخمة
حدثوا عن المغامرة الجريئة لاكتشاف مدى
ذلك العالم الكئيب، عسى أن يأويهم أي إقليم
يكون ملجأ لهم أسهل من سكناهم هذه، فساروا
في أربعة طرق وهم يسرعون، على طول ضفاف
أنهار الجحيم الأربعة التي تصب
جداولها الجميلة في البحيرة الملتهبة؛
ستيكس الكريه نهر الحق المميت،
وأخيرون نهر الأحزان الأسود والعميق؛

وكوسيتوس، وقد سمي بالنواح الصارخ الذي يسمع
على صفحة الماء الجاري؛ وفليجيتون العنيف
الذي أمواجه تغذيها نار الغضب الصاخبة،
وبعيداً عن هذه الأنهار هناك نهر يجري بصمت وبطء
وهو ليثي نهر النسيان يتدفق ماؤه
في متاهة، وكل من يشرب
ينسى وضعه السابق ووجوده الحالي،
فينسى كلا من الفرح والحزن، واللذة والألم.
وخلف هذا النهر هناك قارة متجمدة
تستلقي مظلمة وحشية، تضربها دائماً عواصف
الزوابع والبرّد المخيف، الذي على أرض صلبة
فلا يذوب، بل يتجمع في أكوام، ويبدو خرائب
من بناية قديمة، والباقي ثلج مرتفع وجليد،
خليج عميق كمستنقع سيربونيس[١]
بين دمياط[٢] وجبل كاسيوس القديم،

---

(1) رمال متحركة حول بحيرة سيربونيس عند مصب النيل.

(2) مدينة عند مصب النيل.

حيث تغرق جيوش بكاملها: والهواء الحامي
يلتهب زمهريراً، وتفعل البرودة ما تفعله النار.
إلى هنا ربات الرعب بأقدامهن الهربية[1] تجلب
في دورات سماوية معينة كل المدانين
فيحضرون: يشعرون بتقلبات التغيّر المرير
بين متناقضين، بين طرفين يتغيران بشدة
من قيعان النار الغاضبة ليفنى في الجليد
دفء كيانهم الأثيري الناعم، وينهكون
بلا حراك، فيثبتون متجمدين حولها
فترات من الزمن، ثم يعادون إلى النار.
وفوق نهر النسيان يعبرون بالمعدية[2]
جيئة وذهاباً، فيزيد حزنهم،
وكلما عبروا يتمنون ويناضلون للوصول إلى

---

(1) ربات الرعب Furies ينتقمن من المذنبين. والهربيات كائنات بوجه وصدر امرأة والباقي أعضاء طير ومخالبهن من حديد.

(2) المعدية قارب لنقل الموتى يستخدمه خارون. وقد أخذه ملتون من «جحيم» دانتي.

الجدول الخلاب، وبقطرة واحدة يحل
النسيان العذب كل ألم وحزن،
كل ذلك بلحظة واحدة، وبهذا يقتربون من الحافة؛
ولكن القدر بالمرصاد، فضد مسعاهم هناك
ميدوزا برعبها الغورغوني[1] تحرس
العبارة[2]، ولكن المياه تهرب
فلا يذوقها جسد حي، كما هربت
من شفة تنتالوس[3]. وهكذا يجوبون
مهجورين في مسيرة مضطربة، فيعلو شحوب
الرعب هذه المجموعات المغامرة وعيونهم المتعبة
رأت لأول مرة حظهم المحزن، ووجدت أنه

---

(1) ميدوزا واحدة من ثلاث غورغونات بأشكال شنيعة. شعر ميدوزا أفاع ملتفة تلدغ وجهها، وإذا وقعت نظرتها على أحد حولته إلى جلمود إلى الأبد.

(2) العبارة أو المخاضة هي المكان الذي تخف فيه مياه النهر.

(3) هو الذي حكم عليه في العالم السفلي بعذاب أبدي فكبل في بركة ماء تتدلى فوقها الثمار من كل نوع، فإن حاول أن يشرب انخفضت المياه، وإن حاول أن يأكل ابتعدت الثمار.

لا راحة[1]: وعبر كثير من الوديان المخيفة والمظلمة
عبروا وفوق كثير من أقاليم الألم،
وفوق العديد من الجليد وجبال نارية وصخور وكهوف
وبحيرات وسبخات ومستنقعات وأوكار وظلال موت
كونٌ من الموت، بلعنة الله
صار شراً، لأن الشر يكون خيراً[2]
حيث تموت الحياة يعيش الشر، وتفقس الطبيعة
المخلوقات المنحرفة من وحوش وأشياء بشعة
غير سوية بغيضة وأسوأ من قصص
الخرافات التي دبت الخوف عن
الغوغونات والهيدرا[3] والخيميرا[4].

---

(1) متى ١٢: ٤٣.

(2) المقصود أن الشر طريق إلى الخير، أي يتعلم الإنسان الخير من الشر، وإلا لما أوجده الله حسب رأي ملتون.

(3) الهيدرا حيوان مستنقعات بتسعة رؤوس قضى عليه هرقل.

(4) حيوان أنثى برأس أسد وجسد ماعز وذنب أفعى، تنفث النار، قتلها بيلروفون.

أثناء ذلك عدو الله والإنسان،

[٦٣٠] الشيطان بأفكار تلتهب بالتصميم، بسط
جناحي السرعة، واتجه إلى بوابات الجحيم
ليجرب طيرانه منفرداً؛ في بعض الأحيان



الغورغونات والهيدرا والخيميرا (٢: ٦٢٨)

يطوف الساحل الأيمن، وأحياناً الأيسر،
حيناً يمس بجناحه الهوة، ثم يحلق
مرتفعاً إلى الأعالي الملتفة المقعرة.
وحين يتجه إلى البحر فكأنه أسطول بدا
معلقاً في الغيوم، برياح معتدلة
فيبحر قريباً من البنغال أو من جزيرتي
الترنات والتيدور[١]، عندما يجلب التجار
حبوب توابلهم: وعلى اليمّ التجاري[٢] من
الإثيوبي[٣] الواسع حتى رأس الرجاء الصالح
يمخرون العباب نحو القطب ليلاً. هكذا بدا
هذا الشيطان الطائر وهو يبتعد: وأخيراً بدت له
تخوم الجحيم المرتفعة حتى السقف المرعب،

---

(1) جزيرتان اشتهرتا بالتوابل.

(2) الطريق البحري الذي كانت تنقل عليه التوابل.

(3) لقب للمحيط الهندي.



أمام البوابات هناك انتصب على كل جانب شكل هائل (٢: ٦٤٨)

والبوابات بثلاثة أثلاث؛ ثلاث طبقات من النحاس
وثلاث من الحديد وثلاث من صخر الأدمنت،
لا يمكن خرقها، مسورة على محيطها بالنار،
التي لا تخمد. أمام البوابات هناك انتصب
على كل جانب شكل هائل:
الأول بدا امرأة جميلة حتى وسطها،
ولكنها تنتهي بطية محرشفة[1]

(1) لستخدام شيء من الأفعى في المرأة للتدليل على الخطيئة، كما في «ملكة الجن».

كبيرة وضخمة، أفعى مسلحة
بعاقصة قاتلة: وحول خصرها التفّــت
كلاب الجحيم الصارخة، لا تكف عن النباح
بأشداق سيربيرية[١] واسعة تجلجل صارخة
صراخاً مفزعا: ومع ذلك حين تستفز تزحف
إن أزعج ضجيجها مخرب، إلى كنفها
وتقيم هناك، ولكن تظل تنبح وتعول
في الداخل فلا تظهر. وأقل بشاعة منها
سيلا[٢] التي تستحم في البحر الذي يفصل
كالبريا عن الشاطئ التريناركري:
ليس صوتها أخشن من شمطاء الليل[٣]، عندما
تستدعى سراً، فتمتطي الهواء وهي قادمة
تغريها رائحة دم الأطفال، لترقص مع

(1) نسبة إلى سيربيريوس كلب الجحيم ذي الرؤوس الثلاث.
(2) فتاة جميلة غارت منها الساحرة سيرسي Circe فحولتها إلى وحش وحولها كلاب تنبح.
(3) شمطاء الليل هي ربة العالم السفلي هيكاتي، كانت تخدم الناس ثم تحولت إلى شيطانة معها ثلاثة كلاب تنبح على مفارق الطرق في الليل.

ساحرات لبلاند[1] بينما يعملن على خسوف
القمر بسحرهن. والشكل الآخر[2]،
إن صح أن نقول إنه شكل، لأنه لا شيء
مميّزاً فيه لا عضو ولا مفصل ولا ساق،
أو مادة يمكن أن تقول إنها تبدو شبحاً،
لأنها كلها متشابهة، ينتصب أسود مثل الليل،
عنيف مثل ربات الانتقام[3] مرعب مثل الجحيم
يهز رمحاً مخيفاً؛ وما بدا أنه رأسه
عليه ما يشبه التاج الملوكي.
كان الشيطان الآن قريباً، فأسرع الوحش
من مكانه واتجه إليه مسرعاً
وبخطوات مرعبة، فارتج الجحيم حين خطا.
الشيطان غير الهياب دهش: فما يكون هذا الشكل،

(1) مقاطعة في شمال فنلندا يقال أسطورياً إنها موطن الساحرات.

(2) الشكل الآخر: الموت، وخصه ملتون في البيت ٦٦٦ لأن حروف اسمه تعد ٦٦٦ بحسب رؤيا يوحنا ١٣: ١٨. وسيختار مضاعف هذا الرقم عندما يصف لحظة سقوط آدم.

(3) أسماؤهن في الميثولوجيا ألكتو وتيسيفوني وميغارا.

دهش ولم يخف؛ فباستثناء الله وابنه[1]،
لم يخلق شيء له وزن في نظره
وبنظرة ازدراء بدأ كلامه:

من أنت ومن أين أقدمت أيها الشكل المقيت،
فتجرأت، مع أنك متجهم ومخيف، أن تتقدم
بجبهتك المشوهة وتعترض طريقي
هناك عند البوابات؟ فمن خلالهم سوف أعبر،
كن متأكداً، من دون أن أستأذن منك:
ابتعد، أو تذوّق حماقتك، وتعلم بالبرهان،
يا وليد الجحيم، ألا تصارع ملائكة السماء[2]

وقد امتلأ هذا الغول بالغضب وأجاب،
ألست الملاك الخائن، ألست هو، أول من
حطم السلام في السماء، وهشم الإيمان، وقبلك

---

(1) أي الله والمسيح، فالعقيدة المسيحية تقوم على التثليث، ويضيفون إلى الله وابنه الروح القدس.

(2) الشيطان الآن في الجحيم ولكنه وليد السماء، وعمره قبل الجحيم، أما الموت فإنه وليد الجحيم فقط.

لم يحطم، وبأسلحة التمرد العاصية
وثلث أبناء السماء جرّ خلفه[1]
وأقنعهم ضده، ولهذا أنت
وهم طردكم الله، وقضى أن تكونوا
هنا تقضون الأيام الأبدية في النحيب والألم؟
هل تعدُّ نفسك مِنْ ملائكة السماء، وأنت
محكوم عليك بالجحيم، ثم تتجرأ وتهاجمني وتحتقرني
حيث أنا ملك أحكم، وحتى أغيظك أكثر، فإني
أنا ملكك وسيدك؟ عد إلى ما حكم عليك من عقاب،
أيها الهارب المخادع، وضاعف أجنحة سرعتك،
وإلا فإني ألاحقك بسوط العقارب[2]
لتباطئك، أو بضربة واحدة من هذه النبلة أجعل
رعباً غريباً يركبك، فتتألم ألماً لم تذقه من قبل.

---

(1) ورد في الرؤيا ١٢: ٣- ٤ وظهرت آية أخرى في السماء. هوذا تنين عظيم أحمر له سبعة رؤوس وعشرة قرون وعلى رؤوسه سبعة تيجان. وذنبه يجر ثلث نجوم السماء فطرحها إلى الأرض والتنين وقف أما المرأة العتيدة أن تلد حتى يبتلع ولده متى ولدت.

(2) ورد في الملوك الأول: أبي أدبكم بالسياط وأنا أؤدبكم بالعقارب.

هكذا تكلم الغول المخيف، وفي الشكل
وهو يتكلم ويهدد، تضخم عشرة أمثال فصار
مخيفاً أكثر ومشوهاً أكثر: ومن الجانب الآخر
وقف الشيطان مشحوناً بالسخط
غير هياب، ومثل مذنّــب مشتعل،
ناره بطول أفيكوس[١] الضخم في سماء
القطب الشمالي، وشعره المخيف
ينذر بالحرب والطاعون. فوجّه كل واحد
رمحه إلى هدفه المميت؛ وأيديهما القدرية
لا تثنّــي الضربة، فعبس
كل واحد في الآخر، كما لو أن غيمتين سوداوين
شحنتا بمدفعية السماء، قعقعتا
فوق بحر قزوين ثم وقفتا وجهاً لوجه
تحومان في الفضاء، إلى أن نفخت الريح
بإشارة جعلت مواجهتهما في الجو الأوسط[٢]:

(1) أضخم الأبراج في القطب الشمالي ويقال له حامل الحية.
(2) تلميح إلى اجتماع الشيطان والموت.

عبس المحاربان الجباران، حتى أن الجحيم
أظلمت فعبوسهما، وتساويهما في الصمود؛
لأنهما لن يلتقيا سوى مرة أخرى[1] مثل هذا اللقاء
كعدوين: ووقعت أفعال كبرى بينهما الآن
حتى أن الجحيم ضج من ذلك،
لو لم تهب العرافة الأفعوانية التي تجلس
موثقة في بوابة الجحيم، وبيدها المفتاح المصيري.
وتنهض وتندفع بينهما بصرخة مخيفة.
صاحت: أيها الأب، ما الذي تصنعه يدك، ضد
ابنك الوحيد؟ وأي غضب، أيها الابن[2]،
تلبّسك حتى توجه نبلة مميتة
نحو رأس أبيك؟ ألا تعلم من أجل من؟
من أجل من يجلس في الأعالي ويضحك بينما

(1) عندما يلتقيان بانتصار المسيح. فبالموت انتصر على الشيطان. رسالة إلى العبرانيين ٢- ١٤.

(2) يجعل ملتون في الجحيم ثالوثاً هو الشيطان والموت والخطيئة، على غرار ثالوث السماء، بلهجة ساخرة.

فرض عليك كل قسوته، لتنفذ
ما كان من قبل غضبه، ثم سماه عدالة
ويسعى بغضبه أن يدمركما معاً في يوم ما.
هكذا تكلمت، فتوقف الطاعون الجهنمي،
وإلى هذه التفت الشيطان وقال:
غريبة صرختك، وغريبة كلماتك
تدخلت فأوقفت يدي الفجائية
فمنعتني أن أخبرك بأفعال يدي
ما في نيتي: أخبريني أولاً من أنت،
وأي شيء تكونين، ولماذا أنت من شكلين
ولماذا في هذا الوادي الجهنمي، ولمَ من أول لقاء
دعوتني أباً، ودعوت ذلك الشبح ابناً؟
أنا لا أعرفك ولا رأيت قبل الآن
منظراً مقيتاً أكثر منه ومنكِ.
وعلى هذا ردّت حارسة بوابة الجحيم؛
إذن نسيتني، فأنا أبدو الآن
في عينك شنيعة، بينما كنت جميلة

في السماء عندما في الاجتماع، وأمام
جميع السيرافيم الذين اجتمعت بهم
في مؤامرة جريئة ضد ملك السماء،
وفجأة ألم مفاجئ شديد
حلّ بك، فغامت عيناك واجتاحتك غيبوبة
قاتمة في الظلمة، بينما رأسك نفث لهباً كثيفاً
وبسرعة ظهرت من الجانب الأيسر فتحة عريضة[1]
ومثلك في الشكل والإشراق،
ربة جميلة سماوية مشرقة مسلحة
هي أنا انبثقت من رأسك، وانتزعت الإعجاب
من كل حشود السماء، فارتدوا خائفين
في البداية، وسمّوني الخطيئة، فكنت في البداية

---

(1) خروج الخطيئة من رأس الشيطان يشبه خروج أثينا ربة الحكمة من رأس أبيها، ولكن ملتون يستخدم كلمة الانبثاق مشبهاً الخطيئة بالروح القدس، فكما انبثقت هذه الأخيرة من الأب، وبعض الملل المسيحية تقول من الأب والابن، كذلك «انبثقت» الخطيئة من الأب الذي هو الشيطان. ولكنه يقول إنها انبثقت من الجانب الأيسر، والأيسر عند المسيحيين يدل على الخطيئة، فكل الخطاة يتجمعون إلى يسار الأب يوم الدينونة.

نذيراً؛ ولكن بعد أن اعتادوا عليّ
فرحوا بي، وبنعمي كسبت أشد
خصومي، وبالأخص أنت، يا من رأيتك
ذاتك فيّ وكامل صورتك في صورتي
فصرت محبوبة لديك، وتمتعت معي
في السر، حتى حبل رحمي
بعبء ثقيل. لكن الحرب اندلعت أثناء ذلك،
والجنود تحاربوا في السماء؛ فانتقل
(وهل غير ذلك) لخصمنا الجبار النصر
الواضح، وكان نصيبنا الخسارة والخذلان
سقطوا من كل السماء الإمبرية[١]:
مطرودين من أعالي السماء، إلى أسفل،
إلى هذه الهوة، وفي سقوط الجميع
أنا أيضا سقطت؛ وفي ذلك الوقت وُضع هذا المفتاح
القوي في يدي، على أن أحافظ
على هذه البوابات مغلقة، فلا أحد يعبر

---

(1) سماء الإمبريوم هي السماء العليا.

إن لم أفتح له. وقد جلست هنا متأملة
وحيدة، ولكن لم أجلس طويلاً، فقد حمل
رحمي منك، وراح الآن يكبر
وشعرت بحركة هائلة وجاءني مخاض أليم.
أخيراً خرج هذا الحمل الكريه الذي تراه،
مولودك الوحيد[1]، بطريقة عنيفة
مزق بها أحشائي، فبالخوف والألم
شوهني، وكل شكلي الأسفل تضخم
وتشوه: إلا أنه عدوي الطبيعي
فقد خرج وهو يلوّح بنبلته القاتلة
باغياً تدميري: هربت وصرخت الموت[2]؛
فارتج الجحيم لهذا الاسم الكريه[3] وتنهد
من كل كهوفه، وردد صدى الاسم الموت.
هربت فلاحقني (إلا أنه يبدو أن

(1) يقلد بلهجة ساخرة ما جاء في إنجيل يوحنا ١: ١٤ و ٣: ١٦.
(2) قارن هذا الكلام مع ما جاء في رسالة يعقوب ١: ١٥ ثم الشهوة إذا حبلت تلد خطية والخطية إذا كملت تنتج موتاً.
(3) راجع جحيم دانتي ١: ١٢٩- ١٣٢.

الشهوة ألهبته أكثر من الغضب) فكان أسرع مني
فأمسكني أنا أمه وفوق كل همومي
وعانقني بالإكراه وضاجعني
فأنجب مني، من هذا الاغتصاب
تلك الوحوش الصريحة التي بصيحاتها الدائمة
تحيط بي، كما ترى، وفي كل ساعة أحبل
وفي كل ساعة ألد، والآلام تنهال
عليّ، لأنهم حين يولدون من الرحم
الذي حملهم يعودون ويعولون ويقرضون
أحشائي، كوجبات لهم، ثم ينفجرون
حولي بغضب جديد مخيف
حتى أني لا أجد راحة ولا هدنة.
وأمام عيني يجلس معارضاً
الموت المتجهم، ابني وعدوي، الذي يحرضهم
وبالكامل يفترسني سريعاً، أنا أمه، لو
لم يجد فريسة أخرى، ولكنه يعرف
أن نهايته مرتبطة بنهايتي؛ ويعرف أنني

لقمة مريرة، وأنني أنا هلاكه،
متى يحدث ذلك؛ هذا حكم القدر.
ولكن أنت أيها الأب، فإني أحذرك، اهرب
من سهمه المميت؛ وإياك أن تنخدع بالأمل الزائف
بأنك مصون بهذه الأسلحة البراقة،
وإن سقيت في السماء، فضربة الموت
لا ينجو منها سوى من يحكم العالي، ولا أحد يقاومها.
أنهت كلامها، وبسرعة تعلم الشيطان الذكي
الدرس، فرق وأجاب بلطف.
ابنتي العزيزة، ما دمت زعمت أنني أبوك،
ويدل على ذلك ابني الجميل الذي هنا، فهذا ضمان
أن غزلي[١] حدث معك في السماء، فالمباهج
عذبة هناك، وذكرها سيئ الآن، من خلال التغير الرهيب
بعد سقوطنا الذي لم نتنبأ به، ولم نفكر فيه، فاعلمي
أنني ما جئت عدواً، وإنما حتى أحررك

(1) الكلمة المستخدمة هنا هي dalliance التي تطلق عادة على افتراع آدم لحواء عقب السقوط.

من منزل الألم المظلم الكئيب،
فأنت وهو، وكل حشود الأرواح السماوية
الذين يزعمون أنهم حاربوا معنا
وسقطوا معنا في الأعالي: فمن أجلهم أقوم
بهذه المهمة الشاقة وحيداً، فمن أجل الجميع[١]
أقدم نفسي، بخطوات موحشة أقطع
هذه الهوة التي لا غور لها، وعبر الفراغ الهائل
أبحث بتنقيبي التائه عن مكان قالت النبوءة
إنه قائم، وهناك علامات تميزه، وقد خلق
الآن ضخماً ومستديراً، إنه مكان للبَركة
في تخوم السماء[٢] فهناك سوف يقيم
عرق من المخلوقات المحدثي النعمة، حتى يسدوا
مكاننا الخالي، وإن كان المكان قصياً جداً

---

(1) One for all myself expose الشيطان هنا يقلد تقليداً ساخراً كلام المسيح بأنه سيضحي عن الجميع

(2) يستخدم ملتون هنا كلمة فرنسية هي Purlieues للدلالة على الحدود بين السماء والجحيم حيث ظهر العالم البشري.

فحتى لا تكتظ السماء بالحشود القوية الذين
قد يتجمعون ويهبون في اضطرابات جديدة: فإن
كان هذا أو غيره، وهذا لا يزال سراً حتى الآن، فسوف
أعرفن وحالما أعرف، سوف أعود سريعاً،
وآخذكما إلى المكان حيث أنت والموت
سوف تقطنان بسهولة، وتطيران بحرية وخفية
بأجنحة صامتة بلا مقاومة، في الهواء المضمخ
بالعطور؛ وهناك تأكلان وتشبعان
بلا حساب، فكل شيء سيكون فريسة لكما.
توقف عن الكلام، وبدا الفرح عارماً عليهما، والموت
بصريف مرعب أبدى ابتسامة مروعة، لسماعه أنه
سيسكت جوعه، وبارك حوصلته
التي ستشهد تلك الساعة الطيبة: ولم تكن أقلّ منه
فرحاً أمه الشريرة، فراحت تكلم والدها.
إن مفتاح الهوة الجهنمية، بموجب
أمر من ملك السماء الكلي السلطان
معي، وأنا ممنوع علي أن أفتح
هذه البوابات الأدمنتية؛ وضد كل قوة

يقف الموت ليطلق نبلته،
بلا خوف على أي حي مهما كان قوياً.
ولكن لماذا مجبرة أن أطيع أوامر العالي
الذي يكرهني، وقد رماني إلى الأسفل
في ظلام ترتاروس السحيق،
فأعمل مقيدة هنا، أنا التي
سكنت السماء وولدت في السماء،
هنا في ألم وعذاب دائمين،
مع الرعب والصخب حولي
ممن أنجبتهم، ومن أحشائي أطعمتهم:
أنت أبي، أنت خالقي، أنت
من وهبني الوجود؛ فمن سوف أطيع
إلا أنت ومن أتبع سواك؟ سوف تحملني
سريعاً إلى ذاك العالم الجديد من الضياء والبركة،
بين الآلهة الذين يعيشون برخاء، حيث أحكم
على يمينك[1] بشهوانية فأثبت أنني

(1) هنا أيضاً تقليد ساخر من قضية اليد اليمنى، كما جاء في الميثولوجيا الدينية بأن الأخيار يجلسون عن يمين الأب.

ابنتك وعزيزتك، بلا حدود.

هكذا تكلمت، ومن جانبها أخذت المفتاح

المميت، أداة الشر لكل الامنا

وذهبت نحو البوابة تجر حاشيتها الوحشية،

ثم رفعت البوابة الخارجية[1] الضخمة إلى الأعلى،

وهي التي وحدها وليس أي قوة من الجحيم

تستطيع أن تحركها؛ ثم في الثقب أدارت

أسنان المفتاح، فإذا كل رتاج وكل نجر

من الحديد الضخم أو من الصخر الصلد بسهولة

ينفتح: وفجأة تفتح البوابات كلها

بصوت خشن يقعقع ويصر صريراً

فارتجت الأبواب الجهنمية، وصرخت مفاصلها

كالرعد القوي، حتى أن أعمق أعماق الجحيم

في إريبوس اهتزت. فتحت البوابات ولكن إغلاقها

خارج قدرتها؛ فقط ظلت البوابات العريضة مشرعة،

---

(1) استخدم كلمة Porcullis ليدل على البوابة الخارجية.

حتى أن أكبر أجنحة الحشد المحرومين[1]
براياتهم المنتشرة يأتون ويمرون من خلالها
بخيولهم وعرباتهم بلا انتظام؛
انتصبت عريضة، تشبه فتحة التنور
زافرة الدخان الكثيف واللهب الأحمر.
وأمام أعينهم ظهرت فجأة
أسرار الهوة المخيفة، ظلام
محيط معتم بلا حدود،
بلا أبعاد، حيث الطول والعرض والارتفاع
والزمان والمكان ضائعون؛ حيث الظلمة الكبرى
وكاوس[2]، جدّا الطبيعة، يخلقان
الفوضى الأبدية وسط ضجيج
الحروب التي لا تنتهي، والفوضى العارمة.
أما الحار والبارد والرطب والجاف[1]، فيتصارع أربعة

---

(1) الملائكة الذين حرمتهم السماء من نعمتها وسموا شياطين.

(2) من زواج كاوس (العماء) بالظلمة (الليل مؤنث في لغتهم) ولدت الطبيعة، ونجم الضجيج والصخب.

أبطال أشداء للسيادة عليها، وقد كشفت المعركة
الذرات الجنينية لها؛ حيث التفت حول راية
كل فريق، بحسب عشائرهم المتعددة وحسب سلاحهم
الخفيف أو الثقيل الحاد أو الناعم السريع أو البطيء
بحشد ضخم لا يحصى مثل رمال
برقة[٢] أو سيرينا[٣] ذات التربة المتقدة،
وينضمون إلى الرياح المحاربة باسطين
أجنحتهم الخفيفة. فمن انضم إليه معظمها
فإنه يحكم للحظة؛ ريثما يجلس الكاوس ليحكم،
والقرار الذي يتخذه يزيد من البلى
الذي به يحكم: ويلي الكاوس حاكم أعلى، المصادفة
التي تحكم الجميع. وداخل هذه الهوة البرية،
التي هي رحم الطبيعة، وربما قبرها أيضاً،
لا بحر ولا شاطئ ولا هواء ولا نار،

---

(1) يسخر من نظرية العناصر الأربعة التي تؤلف الكون.
(2) صحراء تمتد من مصر إلى تونس.
(3) سيرينا أو قورينا كما شاع الاسم في شمال أفريقيا، هي طرابلس الغرب عاصمة ليبيا.

بل جميع العناصر مختلطة فوضوياً في حالات
حمل، ولا بد من أن تتحارب أبداً،
إلا إذا الصانع الجبار قضى على
مواده المظلمة أن تخلق مزيداً من العوالم.
في هذه الهوة البرية وقف الشيطان القلق
على رصيف الجحيم ونظر برهة،
متأملاً رحلته: إذ ليس هناك مدخل ضيق
يعبر منه. وكانت أذنه صماء من الضجيج
العالي المدمر الذي ليس أقل (إذا قارنا الأشياء
الكبيرة بالصغيرة) مما تثيره بيلونا[١]
بكل آلاتها الساحقة لتدمير
إحدى العواصم؛ أو أقل من سقوط
هيكل السماء، وتمردت تلك العناصر
على محورها فمزقت
الأرض الثابتة. أخيراً بسط جناحيه العريضين
كالشراع حتى يحلق، فارتفع في وسط الدخان المتلاطم

---

(1) ربة الحرب عند الرومان.

محتقراً سطح الأرض، عدة فراسخ
[٩٣٠] كأنه يمتطي كرسياً من الغيم بجرأة،
ولكن ذلك المقعد سقط سريعاً، فهوى
في فراغ عظيم: ومن غير وعي
صفق بجناحيه عبثاً فهوى نحو الأسفل



فوق المستنقع والمنحدر وعبر المضيق والدغل والوعر
برأس ويدين وجناحين وقدمين يتابع طريقه (٢: ٩٤٩)

عشرة آلاف مسافة، وحتى هذه الساعة
كان لا يزال يهوي، لو لم تدفعه بالمصادفة
السيئة إحدى الغيوم الهائجة
المفعمة بالنار والنترات فرفعته إلى الأعلى
أميالاً: إلى أن هدأ ذلك الغضب
وانطفأ في سبخة سيريس[١]، لا في البحر
ولا في البر الصالح: فراح يضطرب في سيره
فيخوض الصلب الفج، مرة على القدم ومرة
بالطيران؛ فعليه استخدام المجداف والشراع.
مثل الغريفون[٢] في البرية
يعبر بجناحيه فوق الهضاب والوديان الوعرة،
يلاحق الأريماسي[٣]، الذي في غفلة من
عنايته الشديدة سرق منه
الذهب المحروس: هكذا بشوق حلق الشيطان

---

(1) ربما مستنقع سيرت في ليبيا، أو أي سبخة أخرى في شمال أفريقيا.
(2) كائن أسطوري، رأسه وصدره وأماميتاه وجناحاه نسر وخلفيتاه وذيله أسد.
(3) الأريماسيون أو السكيثيون هم سكان شمال أوروبا الذين اعتادوا على سرقة الذهب الذي يحرسه الغريفون.

فوق المستنقع والمنحدر وعبر المضيق والدغل والوعر
برأس ويدين وجناحين وقدمين يتابع طريقه،
فيسبح ويغطس ويخوض ويزحف ويطير[1]
أخيراً جلبة كونية برية
من الأصوات والضجيج المشوش
المنبعث من الظلام الأجوف هاجمت أذنيه
بأعلى قوة: هنا اتجه نحوها،
غير هياب أن يلتقي هناك بأي قوة
أو روح من هوة العالم السفلي
قد تكون مستقرة في تلك الضجة، ويسألها
عن أقرب طريق إلى شاطئ الظلام الذي
يتاخم النور؛ وفجأة أمامه تماماً رأى عرش
الكاوس، وقد بسط سرادقه عريضاً
على الهوة الخراب؛ ومعه على العرش
الظلمة[2] جالسة بثوبها المهيب، وهي أكبر
الأشياء وشريكة حكمه. وبجوارهما وقف

---

(1) ملتون هنا يكثف الصعوبات التي وصفها دانتي في صعود «المطهر».

(2) الظلمة قصدنا بها الليل Night نظراً لأن الكلمة مؤنثة في الميثولوجيا.

أوركس وهاديس[1]، والاسم المخيف
ديموغورغون[2]؛ والشائعة وتليها المصادقة
والجلبة والتشويس، كلها متداخلة،
والشقاق بألف من الأشداق المختلفة.
كل هؤلاء دار عليهم الشيطان بجرأة مخاطباً. أنتم
يا قوى هذه الهوة السفلى ويا أرواحها،
أيها الكاوس أيتها الظلمة القديمة، لم آت جاسوساً
بغرض اكتشاف أسرار مملكتكم
أو تعكير صفوكم، بل جئت مضطراً
بعد أن تهت في هذه الصحراء الربداء، فطريقي
يمر نحو النور من إمبراطوريتكم الرحبة
فأنا وحدي وبلا مرشد، كدت أضيع، فأنا أبحث
عن أنسب طريق يقود إلى حيث تتاخم حدودكم
المظلمة حدود السماء؛ أو أي مكان آخر
كسبه من مملكتكم الملك الأثيري

---

(1) ربان من أرباب الجحيم: الأول روماني والثاني يوناني.

(2) رب من أرباب الجحيم. اشتهر عند الرومان، ويقال إن مجرد التلفظ باسمه يثير الرعب.

وفاز به مؤخراً، فإلى هناك أبغي الوصول
فقطعت طريقي البعيد مباشرة
ولا توجد وسيلة تعود عليكم
بفائدة، إن كان ذلك الإقليم الضائع،
وكل ما هو مغتصب لم يعد
إلى أصله وظلمته وسلطانكم
(وهذا هو الغرض من رحلتي) ومرة أخرى
أنصب هنا راية الظلمة العتيدة؛
فأنتم تستفيدون وأنا أنتقم.

هكذا تكلم الشيطان؛ فالتفت إليه الكاوس
بوجه كالح مقطب وبكلام متهدج
أجاب. أعرفك أيها الغريب، وأعرف من أنت
إنك ذلك الملاك القائد الجبار الذي مؤخراً
حارب ضد ملك السماء، وقد رأيت
سقوطك وسمِعْته، لأن مثل هذا الحشد الضخم
لم يهرب بصمت عبر الهوة المخيفة
بدمار على دمار، واندحار على اندحار

وبتشويش أسوأ من الارتباك؛ تدفقت بوابات
السماء بملايين من عصائبها المنتصرين
للمطاردة. وكنت أنا على حدودي هنا
أحمي المستقر؛ وحبذا لو أني أخدمكم جميعاً،
فما بقي منه سوى القليل الذي ندافع عنه
ونحن ننتهك بسبب تقاتلنا الذي
أضعف صولجان الظلمة العتيدة: فتحت الجحيم
يمتد قبوك بعيداً وواسعاً؛
ومؤخراً السماء والأرض الآن، وعالم آخر
معلق فوق مملكتي، ومربوط بسلسلة ذهبية[1]
بذلك الجانب من السماء الذي منه سقطت فيالقكم:
فإن كان هذا مسلكك فأنت غير بعيد
إن الخطر منك قريب، فاذهب وأسرع؛
فالخراب والفساد والدمار من تحصيلي.
توقف عن الكلام؛ فلم يرد الشيطان

(1) في الميثولوجيا اليونانية أن هناك سلسلة ذهبية تربط الأرض بالسماء (الإلياذة ٨: ١٥- ٢٤)

بل سرّ أنه سيجد على ساحله الآن شاطئاً،
فأنعش نشاطه وحدد قوته
فراح يقفز مثل هرم من نار
في السهل الوحشي، وعبر صدام
العناصر المتحاربة، على كل الجوانب
المحيطة شق طريقه؛ معانياً أخطاراً
أكثر من الأرغو[١] حين تعرضت وهي تمر
عبر البوسفور بين الصخور المتصارعة:
أو عندما عبر أوليسيس[٢] مضيق
خاريبديس محاذياً طريق الدوامة الآخر.
هكذا هو بالصعوبة والمشقة
انطلق وراح يواجه المشقة والصعوبة؛
ولكنه حين مرّ، عقب سقوط الإنسان

---

(1) أرغو سفينة صنعها أرغو في مدينة أرغوس، وقامت برحلة ليجندية لاستعادة الفروة الذهبية، بقيادة جاسون.

(2) بطل الأوديسة. واجه الكثير من الأخطار بعد حرب طروادة، وهو في طريقه البحري إلى وطنه.

رأى تغيراً غريباً! فالخطيئة والموت بقوة
يتبعان أثره، هكذا كانت إرادة السماء،
أن يمهد لمن بعده طريقاً عريضاً ومطروقاً
فوق الهوة المظلمة التي يغلي خليجها
فارتاض على تحمل جسر بهذا الطول المذهل
من الجحيم حتى يصل أقصى مدار
من هذا العالم الهش[1]؛ فتمر عليه الأرواح العاصية
بكل سهولة جيئة وذهاباً
لإغواء البشر أو عقابهم، عدا من شملتهم
عناية خاصة من الله والملائكة الصالحين.
لكن أخيراً يظهر التأثير المقدس
للنور، ومن أسوار السماء
ينطلق بعيداً حتى أعماق الظلمة القاتمة
فجر متوهج؛ هنا يبدأ تخم الطبيعة
الأبعد، ويستريح الكاوس
مثل استراحة خصم محطم بعد عمله المعتاد

(1) العالم الهش هو الأرض.

فيقل الصخب ويخف الضجيج المعادي،
وبقليل من الجهد، وبسهولة ينطلق الشيطان
على موجة أهدأ تحت ضوء مريب
ومثل سفينة حطمها الجو
تبتهج بالميناء، وإن تقطعت أشرعتها وحبالها؛
أو على الخراب الخاوي، الذي يشبه الهواء،
يبسط جناحيه، وبهدوء يرى
من بعيد السماء الإمبريالية، تمتد واسعة
في دائرة، في مربع أو في استدارة لا حدود لها،
بأبراج كريمة وأسوار مزينة
بالياقوت الأزرق المشرق، هنا كان موطنه الأصلي؛
وقد ربط وعلق بسلسلة ذهبية
بهذا العالم المتدلي[1]، في الكبر مثل نجم
من أصغر حجم، قريب من القمر.
إلى هنا، مشحوناً بالانتقام الشديد
وصل ملعوناً، وأسرع في ساعة لعنة.

* * *

(1) المقصود بالعالم المتدلي هنا ليس الأرض بل كل الكون.

الكتاب الثالث

الخلاصة:

الله جالس على عرشه يرى الشيطان يطير نحو هذا العالم، الذي خلقه حديثاً؛ يريه للابن الذي جلس عن يمينه؛ ويتنبأ بنجاح الشيطان في غواية البشرية؛ وينزه عدالته وحكمته عن أي تهمة، لأنه خلق الإنسان حراً قادراً أن يقاوم غوايته؛ ومع ذلك يعلن غرضه من منحه النعمة، على أساس أنه سقط ليس من خبثه، كالشيطان، بل من الغواية. فابن الله يقدم المدائح لأبيه لأنه أعلن غرضه المتسامح تجاه الإنسان؛ ولكن الله أعلن ثانية، أن النعمة لا يمكن أن تمتد إلى الإنسان من دون تحقيق العدالة الإلهية؛ فالإنسان أهان جلال الله بطموحه إلى الإلوهية، لذلك فإن نسله يستحق الموت، ما لم يكن هناك من يتحمل إهانته ويخضع لعقابه. وبكل حرية قدم ابن الله نفسه فداء للإنسان: يوافقه الأب، ويفرض عليه التجسد، معلناً سموّه على كل من في السماء ومن في الأرض؛ ويأمر كل الملائكة أن تمجده؛ فيطيعون ويعزفون على قيثاراتهم بجوقتهم الكاملة،

محتفلين بالأب والابن. أثناء ذلك يحط الشيطان عالياً فوق قبة جرداء على المدار الخارجي الأقصى من هذه العوالم؛ وتجوّل هناك فوجد مكاناً سمي منذئذ ليمبو[١] الغرور؛ وصف الأشخاص والأشياء التي تطير إلى هناك؛ ثم يصل إلى بوابة السماء، ويصف صعوده على السلم، والمياه التي تتدفق عليه من القبة الزرقاء: ثم يكون ممره نحو مدار الشمس؛ فيجد هناك يورئيل[٢] حاكم ذاك المدار، ولكنه قبل ذلك يتخذ شكل ملاك متواضع؛ ويدعي الرغبة الشديدة في رؤية الخليقة الجديدة والإنسان الذي أوجده الله فيها، ويسأله عن مكان سكناه، فيدله، فيطير أولاً إلى جبل نيفاتيس[٣].

* * *

(1) اسم أطلقه دانتي على منطقة لا يطالها عذاب الجحيم، ولكنها محرومة من نعمة السماء.

(2) حرفياً يعني نار الله أو ضوء الله، وهو أحد رؤساء الملائكة الأربعة في التقليد العبري. والثلاثة الباقون هم ميخائيل وجبرائيل ورفائيل، وكل واحد معين على ربع العالم بحسب الاتجاهات الأصلية: شرق غرب شمال جنوب. والاسم لا وجود له في التوراة بل في أسفار الأبوغريفيا.

(3) جبل من سلسلة جبال طوروس، في أرمينيا. يشير ملتون إليه باعتباره قريباً من أشور ٤: ٢٦ ويصبح مشهد إغواء الشيطان للمسيح ١١: ٣٨١. وكل شعب يختار للجبل اسماً.

تحيّة للنور المقدس الذي هو أول أبناء السماء[1]
أم أنه من الشعاع الأزلي المشارك في الأزل
فأعبر عن ذلك دون لوم؟ ما دام الله نوراً
بل لا يدانيه نور
ويسكن منذ الأزل، ويسكن فيك
متدفقاً ينبوعاً من جوهر منير غير مخلوق.
أم تريد أن تنادى بالجدول الأثيري،
الذي لا يدرك أحد نبعه؟ فأنت كنت قبل
الشمس، قبل السموات، ولدى إطلاق
صوت الرب كما لو أن عباءة غلفت
العالم الناهض من ظلمة المياه والهوة،
فكسبت اللانهاية من الخلاء والخراب[2]
بجناح أجرأ أعود إلى زيارتك

---

(1) في سفر التكون ١: ٣ النور أول مخلوق. وهو يفتتح هذا الكتاب بمناجاة النور.

(2) حالة العالم قبل الخلق كما في سفر التكوين ١: ٢ «وكانت الأرض خربة وخالية» ومن الخراب والخلاء اكتسب النور لا نهائيته.

هارباً من البحيرة الستيجية[١]، التي طال مقامي
في ذلك النزل الغامض، بينما في تحليقي
عبر الظلمة العليا والوسطى رنمت[٢]
نوتات موسيقية لا تعزفها قيثارة أورفيوس[٣]
غنيت للكاوس والظلمة الأبدية
فقد تعلمت من العروس السماوية كيف أغامر في
الهبوط إلى الظلام، وكيف أعود إلى الصعود،
وإن كان صعباً وشاقاً: فأعدو إلى زيارتك سالماً،
وأشعر أنني مصباحك الحيوي الحاكم؛ ولكنك
لم تعد تزور عيني، اللتين تدوران بلا طائل
بحثاً عن شعاع نفاذ منك، فلا تجدان فجراً[٤]؛
وبالقطرات المهدئة انطفأ مدارهما،

---

(1) نسبة إلى نهر ستيكس، أي الجحيم.

(2) يشير بالظلمتين هنا إلى شيئين: الجحيم والكاوس.

(3) موسيقي أراد استعادة زوجته يوريديس من العالم السفلي بقيثارته، ولكنه فشل.

(4) أصيب ملتون بالعمى الكامل في عام ١٦٥٢ وهنا يتوحد تقريباً الشاعر مع الراوي.

أو انتشر الحجاب قاتماً. ومع ذلك لم أكف
عن التجوال حيث تهيم ربات الفنون المقدسة إلى
الينبوع الصافي، الأجمة الوارفة، أو الهضبة المشرقة
يستهويهن عشق الأناشيد المقدسة؛ وبالأخص أنت
يا صهيون[١] وتحتك الغدران المزهرة
التي تغسل قدميك، وتتدفق مترنمة،
ليلاً أزورك: متذكراً أحياناً
ذينك الآخرين اللذين جاراني في القدر
آمل أن أجاريهما في الشهرة
الأعمى ثاميريس[٢] والأعمى ميونيدس[٣]
والمتنبئين القديمين تريسياس[٤] وفينيوس[٥]

---

(1) جبل ادعى موسى أنه تلقى فيه تعاليمه من الله. ولا نعلم لماذا فضله على جبل البرناس حيث ربات الفنون اللواتي يستعين بهن.

(2) ثاميريس ورد ذكره في الإلياذة ٢: ٥٩٤ ويقال إنه بارى ربات الشعر فتفوقن عليه ودفع نظره ثمناً لهذا التحدي.

(3) اسم قديم يطلق على شاعر تراقي يقال إنه هومر نفسه.

(4) حكيم وعراف برز في مسرحيتي سوفوكليس «أوديب ملكاً» و«أنتيغوني» وهو من طيبة، تنبأ لأوديب بسقوطه وعماه.

(5) ملك تراقي أعمى وهب نعمة النبوءة.

ثم أتغذى بالأفكار، التي تأتي طواعية
بكثرة منسجمة؛ مثل صداح العندليب
وهو يغني في عتمة الليل، وفي ستر الظلال
أنغام اللحن الليلي. وهكذا في العام
تدور الفصول، ولكن لا تعيد إليّ
نهاراً، أو عذوبة مساء أو صباح،
أو منظر تفتح الربيع، أو ورود الصيف،
أو الأغنام أو الماشية أو وجه بشري مقدس؛
ولكن بدلاً من ذلك، بالرغم من الظلام الدائم
تحيطني الغيوم، فتمنع عني الطرق المبهجة للناس،
ويقدم لي كتاب المعرفة الجميل[1]
بياضاً كونياً
لأعمال الطبيعة التي درست وامّحت
وأغلق عليّ تماماً مدخل الحكمة الوحيد[2]
وهكذا لم يبق سواك أيها النور السماوي،

---

(1) هو كتاب الطبيعة.

(2) يقصد أن الطبيعة هي مدخل الحكمة الوحيد.

أشرق في داخلي، واجعل العقل يشرق بكل
طاقاته، وازرع هناك عينين، وأزل كل ضباب
بتطهيره وتشتيته، حتى أرى وأخبر
بالأشياء المخفية عن أبصار البشر.
الأب الجبار الآن في الأعالي
من الإمبريوم حيث يتربع عالياً
على العرش الأعلى، يرمي ببصره
على أعماله وأعمال مخلوقاته ليرى:
حوله كل مقدسات السماء
تقف مثل نجوم كثيفة، ومن طلعته تتلقى
الغبطة المطلقة؛ وجلس على يمينه
الصورة المتلألئة لمجده وقد جلس
ابنه الوحيد؛ وشاهد على الأرض أولاً
أبوينا الأولين، ولم يكن بعد سوى اثنين
من البشرية في جنة السعادة يسكنان
يتمتعان بالثمار الناضجة للفرح والحب،
فرح مستمر، وحب لا نظير له،

في عزلة مباركة؛ ثم سرح بنظره إلى
الجحيم والخليج الفاصل، وهناك الشيطان
يهبط على سور السماء وعلى هذا الجانب
الظلمة في الهواء العالي الداكن، مستعدة
للانقضاض بجناحيها الكليلين، وقدميها المستعدتين
على الجانب المكشوف من هذا العالم[1]، الذي يبدو
براً ثابتاً مطوقاً بلا جلد[2]، من دون
التأكد إن كان في محيط أم في هواء.
فنظر الرب إليه من عليائه العظيمة
فيعرف الماضي والحاضر والمستقبل والتفت
إلى ابنه الوحيد وتكلم متنبئاً:
ابني الوحيد، ترى ما فعله الغضب
بخصمنا، الذي لا حدود الجحيم
ولا قضبانه، ولا السلاسل

(1) العالم هنا لا يشير إلى الأرض وحدها بل إلى منطقة كبيرة تقع خلف الكاوس أو الخلاء.

(2) الجلد بفتح اللام: القبة السماوية Firmament.

التي عليه هناك، ولا الهوة الكبرى
على ضخامتها يمكن أن تمسكه؛ لذلك
يبدو مصمماً على الانتقام الشديد، الذي سيرتد
على رأسه المتمرد. والآن
يشق طريقه محطماً كل عائق،
بالقرب من السماء، في منطقة النور
متجهاً مباشرة إلى العالم المخلوق حديثاً،
والذي سكنه الإنسان، محاولاً تجربته
إن كان بالعنف يدمره، أم بما هو أسوأ،
بالخداع الزائف؛ وسوف يفسد الإنسان
ويصغي لتملقه الكاذب،
وبسهولة يخرق الوصية الوحيدة[١]،
وتعهده الأوحد بطاعتها: وهكذا سوف يسقط
هو وذريته الكافرة: خطيئة من؟
خطيئة مَنْ سِواه؟ فقد ارتكب عقوقاً معي،
فقد وهبته كل ما يستطيع حمله؛ العدل والاستقامة

(1) وصية آدم وحواء ألا يأكلا من شجرة معرفة الخير والشر.

وما يكفي ليكون حراً في الصمود وحراً في السقوط[1].
وكذلك خلقت القوى والأرواح،
فمنهم من صمد ومنهم من سقط؛
وبكل حرية صمد من صمد وسقط من سقط.
لو لم يكونوا أحراراً فكيف يثبتون
ولاءهم الحقيقي، وإيمانهم الثابت أو حبهم،
أليس يعملون بما يخبرون، وليس
ما يرغبون؟ فأي فضيلة لهم؟
وأي متعة أتذوقها من هذه الطاعة
عندما الإرادة والعقل (والعقل أيضاً خيار)
يكونان عبثاً وبلا فائدة، ولو جردا من الحرية
لصار كلاهما سلبياً، وخدموا الضرورة
بدلاً مني. لذلك هم بالحق خلقوا
وليس من العدل أن يتهموا
خالقهم أو خلقهم أو قدرهم،
كما لو المصير المسبق يحكم

(1) خلاصة رأي ملتون في «حرية الإرادة».

إرادتهم، فرضه قانوني المطلق
المعرفة المسبقة العليا؛ فهم بأنفسهم
قرروا تمردهم وليس أنا: وإذا كنت مسبق العلم
فإن معرفتي المسبقة لم تؤثر على خطيئتهم،
التي أثبتت نوعاً من عدم المعرفة بها.
وهكذا من دون دافع أو ظل من قدر
أو تدخلي عن طريق علمي المسبق
أخطئوا وهم أسياد أنفسهم
فهم يحكمون وهم يختارون؛ وعلى هذا
الأساس خلقتهم أحراراً، وأحراراً يجب أن يظلوا
إلى أن يفتنوا أنفسهم: وإلا علي أن أغيّر
طبيعتهم، وأبطل القانون العالي
الذي لا يتغير، إلى الأبد، وهو يقضي
بحريتهم، فهم بأنفسهم اختاروا سقوطهم.
النوع الأول[1] سقطوا بوحيهم الخاص، وطبيعتهم

(1) النوع الأول هو الشيطان.

الذاتية وفسادهم الذاتي: سقوط الإنسان بالخديعة[١]
التي قام بها النوع الأول: لذلك سيجد الإنسان النعمة،
أما الآخر فلا: بالرحمة والعدل
على السماء وفي الأرض، سوف يزداد مجدي،
إلا أن رحمتي أولاً وأخيراً سوف تشرق وضاءة.
حين تحدث الله، ملأ الشذى الإمبروزي[٢]
كل السماء، وشعرت الأرواح المباركة
بإحساس جديد لا يوصف بهذا الشذى:
وشوهد في الخلف ابن الله الذي لا نظير له
أعظم مجداً، ففيه كل ما في أبيه من
التعبير الجوهري[٣]، وفي وجهه
ظهرت الشفقة المقدسة واضحة،
والحب المطلق، والنعمة التي لا تحد،
حيث تحدث لأبيه.

---

(1) سيتكلم ملتون عن هذا في ٩: ٩٩٨.

(2) عبير خاص بالآلهة.

(3) الابن هو التعبير الجوهري لمجد الأب الذي لا يرى.

يا أبتي، عظيمة تلك الكلمة التي أنهيت
بها خطابك الملكي، أن الإنسان سيجد النعمة
التي من أجلها يجهد كل من السماء والأرض
لمدحك، بأصوات لا تعد
من الترانيم والأناشيد المقدسة، التي تطوف
حول عرشك، مرددة صدى بركتك الدائمة.
هل يضلّ الإنسان أخيراً، الإنسان
الذي خلقته مؤخراً وأحببته، ابنك الأصغر،
يسقط محاطاً بالخديعة، وإن تنضم إليها
حماقته الخاصة؟ إن هذا بعيد عنك،
كل البعد أيها الأب، يا من تحكم
على كل الأشياء المخلوقة، ولا تحكم إلا بالحق.
وهل يحقق الخصم هكذا
غرضه ويحبط مساعيك، فهل حقق
خبثه، وذهب الخير هباء،
أم يعود فخوراً وإن كان يحمل دينونته الثقيلة
فيحقق انتقامه ويعود إلى الجحيم

يجر وراءه كل عرق البشرية،
بسبب فساده؟ أم سوف أنت نفسك
تمحو خليقتك[١]، ومن أجله
تبيد ما صنعته من أجل مجدك؟
[١٦٥] بهذا يكون خيرك وعظمتك كلاهما
محل تساؤل وجحود لا صون ولا حماية.
فرد على كلامه الخالق العظيم.
يا بني، يا من نفسي تسر به،
أيها الابن الحبيب، الابن الوحيد،
[١٧٠] كلمتي وحكمتي وقدرتي الفاعلة،
كل ما تكلمت به تشبه أفكاري،
كله يتفق وما أصدرته مشيئتي الأبدية:
يجب ألا يضل الإنسان، بل ينقذ من يريد
ليس بالإرادة التي فيه، بل بالنعمة التي فيّ

(1) ورد هذا المعنى في تكوين ٦: ٦- ٧ «فحزن الرب أنه عمل الإنسان في الأرض. وتأسف في قلبه فقال الرب أمحو عن وجه الأرض الإنسان الذي خلقته...»

منحتها بحرية؛ وسأعيدها مرة أخرى
فقواه المنهارة، وإن خسرها، وحولتها
الخطيئة إلى رغبات مفرطة فاسدة؛
سأدعمها، ومرة ثانية سوف يقف
على أرض مستوية ضد خصمه المميت،
أنا سأدعمها، حتى يعرف أي ضعف
جلبه عليه سقوطه، ويدين لي
بكل خلاصه، ولا يدين لأحد سواي.
اخترت بعضهم من نعمة خاصة
وفضلتهم على الباقين؛ هذه هي مشيئتي؛
الباقون سيسمعونني أدعوهم، وأنذرهم
بحال خطيئتهم، ليسترضوا سريعاً
معبودهم الغاضب وبذلك يدعوهم إلى النعمة
المقدمة؛ لأني أريد إزالة ظلمة إحساسهم،
بما يكفي لترقيق قلوبهم المتحجرة
فيؤدوا الصلاة والتوبة والطاعة.
فالصلاة والتوبة والطاعة،

إن مورست بنية صادقة فلن
تكون أذني متوانية، ولا عيني مطبقة.
وسوف أضع في داخلهم كمرشد بهم
حكمي «الضمير» الذي لو سمعوه
فسوف يحصلون على نور بعد نور،
ويكافحون حتى النهاية وحتى الوصول الآمن.
هذا هو صبري الطويل وهذه هي مهلتي(١)
لا يتمتع بهما من أغفل أو ازدرى؛
بل تزاد قسوة على القسوة وعمى على العمى،
فيتخبطون وإلى الأعمق يسقطون؛
وأمثال هؤلاء يحرمون من الرحمة.
ولكن ليس هذا كل ما يُفعل؛ فالعاصي
والمتنكر لإخلاصه، والخاطئ
بحق سيادة السماء العليا،
ويطمع بالإلوهية، ويفقد كل شيء،
فإن التكفير عن خيانته ليس له

---

(1) مهلتي day of grace .

إلا الدمار المقدس والمكرس،
فيموت هو وكل ذريته،
إما أن يموت أو تموت العدالة؛ إلا إذا
استطاع آخر، وبكل إرادة، أن يتقدم
بكل قناعة موتاً بموت.
فقولوا أيها السماويون أين نجد هذا الحب،
فمن منكم يقبل أن يموت ليفتدي
الجريمة المميتة للبشر، وأي بار ينقذ هالكاً،
وهل لدى سكان السماء مثل هذا البر؟
سأل، فخرس الجميع عن هذه الأسئلة،
وران الصمت في السماء: فمن أجل الإنسان
لم يظهر لا زعيم ولا شفيع
ولم يجرؤ أحد بنفسه
ليتطوع بالموت ويقدم الفداء.
فإن لم تفتد البشرية الآن كانت
ستضيع حتماً وتسلم للموت والجحيم
بقضاء محتوم، لولا ابن الله،

الذي فيه تسكن قداسة الحب كاملة،
وهكذا جدد وساطته مرة ثانية.
أيها الأب، مرت كلمتك، سوف يجد
الإنسان النعمة؛ والنعمة لا تجد وسيلة، بل تجد
طريقها، أسرع من رسلك المجنحين،
فتزور جميع المخلوقات، وللجميع
تأتي بلا سابقة، بلا توسل، بلا سعي،
فما أسعد الإنسان بهذا المجيء؛ ومن لا يبحث
عن معونتها، فإنه يسقط في الخطيئة ويموت؛
فلا التكفير يفيده ولا القربان يغنيه،
وقد وقع في الدين والعجز، ولا شيء يعين:
فأنظر إلي ، واجعلني له، حياة بحياة
أقدمها، وليحل غضبك علي؛
احسبني الإنسان، فمن أجله سوف أترك
حضنك، وأدع هذا المجد الذي يلي مجدك
بكل حرية، ومن أجله أخيراً سوف أموت
بكل سرور، ودع الموت يرميني بكل غضبه؛

فتحت سلطته القاتمة لن أمكث طويلاً
ولن أستلقي مدحوراً؛ لو أنك منحتني
ملكية الحياة في نفسي وإلى الأبد، فأعيش بك،
مع أني الآن خاضع للموت، ومدين له،
فيمكن أن يموت كل ما فيّ، فأسدد ذلك الدين،
فلا تتركني في القبر البغيض،
فريسته، ولا نفسي النقيّة تتألم
إلى الأبد فتسكن هناك مع الفساد إلى الأبد؛
بل سوف أقوم منتصراً وأخضع
من غلبني، وأسلبه أسلابه التي يتبجح بها؛
فيتلقى الموت جرح أنواع الموت، ويخضع
مخزياً لحمّته المميتة التي منه انتزعت.
وعبر الهواء الواسع سوف أعلو منتصراً
وأحرر أسرى الجحيم رغم أنف الجحيم، وأعرض
قوى الظلمة مكبلة. وسوف تسر من
من هذا المنظر، وتنظر من السماء إلى أسفل وتضحك،
وبدعمك أحطم كل أعدائي،

وآخرهم الموت، وبجثته أملأ القبر:
ثم مع هذه الحشود التي حررتها
أدخل السماء بعد غياب طويل، وأعود
يا أبتي لأرى وجهك، حيث لا تبقى
غيمة غضب، بل يقشعها السلام،
والتسوية؛ ويزول الغضب
ولذلك لا يكون في حضرتك إلا الفرح الكامل.
أنهى كلماته، ولكن مظهره الوديع الصامت
تكلم، ونفث الحب الخالد
إلى البشر الفانين، لا يعلوه إلا
الطاعة البنوية: كالتضحية
بسرور، التي يقدمها منتظراً مشيئة
أبيه العظيم. فانتزع الإعجاب
من كل السماء، ما المقصود بهذا، وقد
دهشوا؛ ولكن بسرعة رد الجبار:
أنت يا من في السماء والأرض وجدت
السلام الوحيد للبشرية المغضوب عليها،

أنت يا فرحي الوحيد! سوف تعرف كم عزيز علي،
كل أعمالي، وليس الإنسان أقلها،
وإن خلق آخرها، إذ لأجله ادخرتك
في حضني وعلى يميني، وإن لم أخسرك
لبعض الوقت، فسوف يضيع الجنس البشري كله.
لذلك أنت الوحيد القادر على افتدائهم،
وطبيعتك أيضاً تنضم إلى طبيعتهم؛
ولكن بنفسك بين البشر على الأرض، تكون
جسداً[١]، عندما يحين الوقت، ومن العذراء تولد
ولادة عجائبية؛ فكن في مكان آدم
ورأس كل البشرية، وإن كنت ابن آدم[٢].
فيه ينتهي كل البشر، وأما فيك
فإنهم يعودون كأنهم من أصل ثان،
ومهما عادوا كثراً، فمن دونك لن يعود أحد[٣]

(1) والكلمة صار جسداً وحل بيننا (يوحنا ١: ١٤)
(2) يحاول ملتون أن يحل مشكلة طبيعة المسيح فيرى أنها إلهية وبشرية، ولذلك وصفه بابن الله وابن الإنسان.
(3) في هذه النقطة يظهر ملتون متعصباً، فلا يرى الخلاص إلا عن طريق المسيح، مع أنه داعية كبير للتسامح والحرية.

جريمته جعلت كل أبنائه آثمين، وميزتك
البديلة[1] سوف تحرر أولئك الذين تخلوا
عن أفعالهم الخيرة أو الشريرة،
ويعيشون فيك مزروعين، ومنك
يتلقون حياة جديدة. وهكذا فالإنسان، عدلاً،
سوف يفدي الإنسان، فيحاكم ويموت،
ومن الموت يقوم، ويقوم معه
إخوته الذين افتداهم بحياته الغالية.
هكذا يقضي الحب السماوي على الكره الجهنمي،
المفضي للموت، فيموت للانعتاق،
وهكذا بكل محبة يحرر ما كان الكره الجهنمي
حطمه بسهولة، ولا يزال يحطمه
لدى أولئك الذين يرفضون النعمة.
وأنت لن تنزل حتى تتخذ
طبيعة البشر، وإلا انحطت طبيعتك نفسها.

---

(1) معنى الكلام أن المسيح لا بد أن يحمل خطيئة الإنسان، ويتعلق الإنسان بفضيلة المسيح حتى يتم الخلاص.

فأنت، وإن توجت بالبركة العليا
مساوياً للرب واستمتعت
بثمار المشابهة، هجرت الجميع لتنقذ
عالماً من الضياع المطلق، وقد أثبت
بميزتك أكثر من ولادة ابن من الله،
أثبت أنك الأجدر لهذا بكونك خيراً،
وليس للعظمة أو العلى؛ لأن فيك
تعزز الحب أكثر من المجد،
لذلك سوف يرتقي تواضعك
ومعك البشرية أيضاً إلى هذا العرش؛
هنا سوف تجلس متجسداً، وهنا تحكم،
فأنت الله والإنسان، وابن كل من الله والإنسان،
ترسم ملكاً كونياً، وكل السلطات
أمنحها لك، فتحكم إلى الأبد وتجمع
كل المزايا، وأخضع لك كملك كوني
ملائكة العرش والأمراء والأجناد والأسياد:
كلهم ينحنون لك ولك يسجدون، سواء من سكن

السماء أو الأرض أو تحت الأرض في الجحيم؛
وعندما تطل من السماء
فسوف تظهر في الجلد، وأنت من ترسل
رؤساء الملائكة ليعلنوا
محكمتك المخيفة: فمن كل الجهات
تأتي الأحياء ويستدعى الموتى
من العصور الماضية إلى الدينونة[1] العامة
ويسرعون وقد أيقظهم النفير من سباتهم.
فيجتمع وقتها كل قديسيك، وأنت سوف تحكم
الأشرار والملائكة، فيصطفون ويخضعون
تحت حكمك؛ والجحيم تكتمل أعدادها،
وعندها سوف تغلق إلى الأبد. بينما
سيحترق العالم، ومن رماده تنبثق
سماء جديدة وأرض جديدة، حيث يسكن العدل
وبعد كل معاناتهم الطويلة
يشهدون أياماً ذهبية، وتثمر أفعالاً ذهبية،

---

(1) المحكمة نفسها في يوم القيامة.

وينتصر الفرح والحب والحق العادل.
وعندها تضع جانباً صولجان الحكم،
لأن صولجان الحكم وقتها لا لزوم له،
فسوف يكون الله الكل في الكل. ولكن جميع الآلهة
تعبده، الذين يحيطون بكل الموتى،
الذين يعبدون الابن، ويكرمونه كما أكرم أنا.
فور أن توقف الجبار عن الكلام، جميع
حشود الملائكة بصرخة



هزت السماء بالاحتفال وأوصنا ملأت الأقاليم الأبدية (٣: ٣٤٧)

عالية من أعداد بعد أعداد، عذبة كما
من أصوات مباركة، هزت السماء
بالاحتفال، و«أوصنا» [1] ملأت
الأقاليم الأبدية: مبجلين بتواضع
العرشين اللذين يركعان لهما، وانحنوا إلى
الأرض بعبادة وقورة خاشعين
بتيجانهم المطعمة بالأمرانت[2] والذهب،
بالأمرانت الخالد، الزهر الذي كان
ذات مرة في الفردوس، نامياً قرب شجرة الحياة
وبدأ يزهر، ولكن بسبب خطيئة البشر
رفع إلى السماء حيث نما، فهناك ينمو،
والأزهار تعلو فتظلل نبع الحياة،
وحيث نهر البركة في وسط السماء

---

(1) كلمة يونانية الأصل معناها 'المجد' والمقصود 'المجد لله'.

(2) يقال إنها ورود خيالية أرجوانية اللون لا تذبل ولا تموت. وهناك الكثير من الاستخدامات الأدبية لهذا النوع من أيام جلجامش.

يتدفق على الزهور الإليزية[1] بجدوله العنبري؛
بهذه الزهور التي لا تذبل تربط الأرواح
المختارة ضفائرها النوارة وتجدلها بالأشعة،
الآن هي أكاليل محلولة كثيفة ملقاة، والرصيف
الباهر الذي يشبه بحراً من اليشب يبرق
مصطبغاً أرجواناً مع ورود السماء المبتسمة.
ثم وضعوا التاج ثانية وانكبوا على قيثاراتهم،
قيثارات تعزف دائماً، وتلمع معلقة بجانبهم
مثل كنائن السهام، وبعذوبة مؤثرة
من السمفونية الساحرة قدموا
أنشودتهم المقدسة، فأيقظوا الطرب في الأعالي؛
لم يتوقف صوت، ولا صوت إلا انضم
إلى أداء هذا اللحن، متمشياً مع الانسجام في السماء.
أنت أيها الأب تغنوا أولاً بجبروتك،
أيها الملك الثابت الخالد اللانهائي

(1) نسبة إلى Elysium وهو المكان المخصص في الميثولوجيا اليونانية للمباركين والأمجاد.

الأبدي؛ خالق كل موجود،
يا نبع النور، ذاتك غير مرئية
وسط الإشراق المجيد حيث تجلس
متوجاً لا منافس لك، ولكن عندما تظلل
شعلة أنوارك الكاملة، بغيمة
تلتف حولك مثل معبد مشرق،
ولكن النور المفرط من ثيابك يتدفق حول الظلام،
ومع ذلك فالسماء منذهلة أن السيرافيم
لا يقتربون، بل يغطون عيونهم بأجنحتهم،
ثم أنشدوا لكل خلائقك الأولى،
لابنك المولود، والمساوي بالقداسة،
الذي هيئته واضحة من دون غيمة
تجعله مرئياً[1]، ويشرق الأب الجبار،
فلا أحد من المخلوقات يمكن أن ينظر إليه؛ ففيك
انطبع إشراق مجده واستوطن،

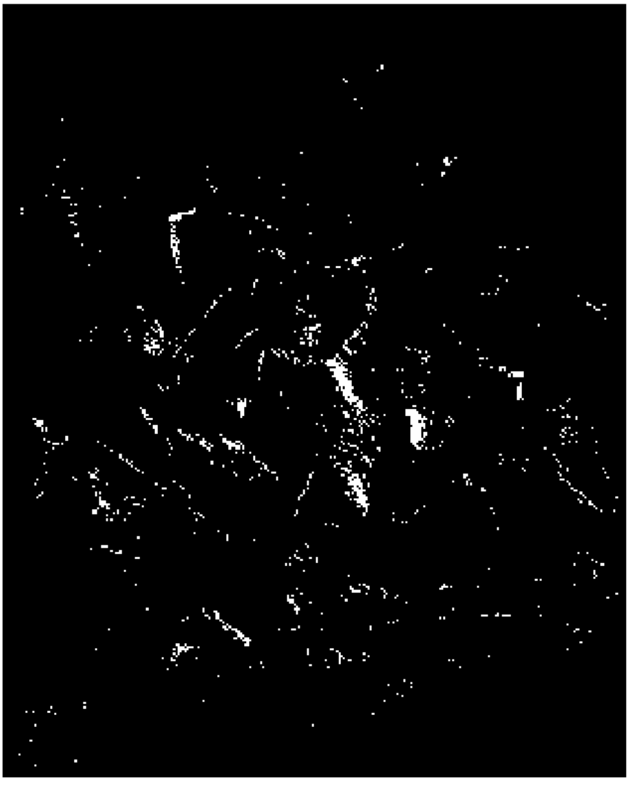
---

(1) قارن بين صورة الأب بذات غير مرئية وصورة الابن بصورة مرئية، نظراً لتجسد الثاني.

وتحولت لتستقر فيك روحه الواسعة.
فبك خلق سماء السموات وكل قوات
الملائكة هناك، وبك رمى
الأسياد الطامحين: فأنت في ذلك اليوم
لم توفر الصاعقة المخيفة لأبيك،
ولا أوقفت عجلات العربة النارية، التي هزت
بنيان السماء بشدة، بينما فوق الأعناق
دحرت الملائكة الخارجين المحاربين.
عدت من المطاردة فهللت لك أجنادك
ممجداً وحيداً، وابن جبروت أبيك،
ونفذت الانتقام المرير بأعدائه،
وليس على البشر، فقد سقطوا بسبب خبثهم،
يا أبا الرحمة والنعمة، أنت لم تدن الإنسان
بشدة بل كنت به رحيماً:
فأسرع ابنك الحبيب والوحيد
وقد أدرك مشيئتك بأنك لن تدين الإنسان الهش

بشدة، وإنما بمزيد من الشفقة،
خفف من غضبك، وأنهى الصراع بين
الرحمة والعدالة الذي لمحه في وجهك،
غير مهتم بالبركة التي يتمتع بها،
تاليك، فقدم نفسه للموت
فداء للبشر. أيها الحب الذي لا مثيل له
حب لا يوجد بأقل من المستوى الإلهي!
تحية لابن الله، مخلص البشر، اسمك
سيكون القضية الزاخرة لنشيدي.
ومن الآن لن تنسى قيثارتي مديحك
الذي لن ينفصل عن مديح أبيك.

هكذا هم في السماء، فوق المدار النجمي
أمضوا ساعات سعادتهم في الفرح والترانيم.
أثناء ذلك على العالم الغامض الثابت
لهذا العالم المستدير، الذي قبته الأولى تقسم
المدارات الداخلية المنيرة التي تتحصن



ويطول ذكر الكثير غيرهم،
والأجنة والبلهاء والنساك والفرير (٣: ٤٧٤)

من الكاوس وغزو الظلمة القديمة،
هبط الشيطان يمشي: كرة أرضية بعيدة
بدت الآن مثل القارة التي لا حدود لها
مظلمة خربة برية، تحت عتمة الظلمة[١]

(1) الظلمة هنا بمعنى ليل.

مكشوفة بلا نجوم، ومهددة دائماً بالعواصف
من كاوس الذي يهدر حولها، وسماء عاصفة؛
لكن على ذلك الجانب الذي من سور السماء
رغم المسافة البعيدة التقط ببصره
هواء يلمع هدأت فيه العاصفة الشديدة:
هنا مشى الشيطان في حقل ضخم واسع.
وكما يربى نسر على إيمانوس[1]،
الذي قمته الثلجية صدت التتري الجوال[2]،
فيرحل من إقليم لا توجد فيه فريسة
ليتخم حوصلته بلحم الحملان أو صغار الجدايا
على الهضاب حيث ترعى القطعان، فيطير إلى
ينابيع الغانج أو هيداسبيس[3] الجداول الهندية؛
ولكنه في طريقه يحط على السهول اليباب

---

(1) جبل في الهيملايا.
(2) جنكيز خان.
(3) نهر في البنجاب.

في سيريكانا[1] حيث يسوق الصينيون
بالأشرعة والريح عرباتهم القصبية الخفيفة:
هكذا كان البحر العاصف للبر، فمشى
الشيطان صاعداً هابطاً ينقض وحيداً على فريسته،
كان وحده، إذا لا مخلوق آخر في هذا المكان
من الأحياء ولا من الجمادات يمكن العثور عليه،
لا أحد بعد، وإنما حشد مما جاء من الأرض
إلى هنا مثل الأبخرة الهوائية تهب
من كل الأشياء متنقلة مغرورة، حين
ملأت الخطيئة بالغرور أعمال البشر:
فكل الأشياء غرور، وكلهم بهذه الأشياء
يبنون آمال المجد أو الشهرة المستمرة
أو السعادة في هذه الحياة أو الحياة الأخرى؛
وكل من يأخذون مكافأتهم في الأرض، من ثمار
الخرافة المؤلمة والحماسة العمياء،

---

(1) الصين وصحراء غوبي، وفيها يعيش شعب يتنقل بعربات عليها أشرعة قوية وتدفعها الريح.

ولا يبحثون سوى عن مديح البشر، سيجدون
هنا مكافأة مناسبة، وهو الفراغ مثل أفعالهم؛
كل الأعمال غير المكتملة بيد الطبيعة،
تجهض، فالوحوش أو المخلوقات المختلطة الخشنة،
تنحل في الأرض، وتسرع إلى هنا، فتظل بلا جدوى،
إلى أن تنحل في النهاية، وتضيع هنا،
وليس في القمر المجاور، كما حلم بعضهم؛[1]
فتلك الحقول الفضية أشبه بالسكان،
من القديسين المنقولين[2]، أو الأرواح الوسطى
بين الجنس الملائكي والجنس الإنساني:
أما هنا فالمولودون[3] من زواج الأبناء والبنات الفاسد
فأولاً من العالم القديم جاء العماليق
مغرورين بأعمالهم، وشهرتهم وقتذاك

---

(1) تخيل أريوستو في ملحمة «غضب فوريوسو» ٣٤: ٧٠- ٧٨ ليمبو خاصاً بالمغرورين فوق القمر، فيسخر منه ملتون.

(2) الذين نقلوا إلى السماء وهم أحياء من أمثال أخنوخ (تكوين ٥: ٢٤) وإيليا (الملوك الثاني ٢: ١-١١)

(3) تكوين ٦: ٤ قصة عن عرق من العمالقة ولدوا لنساء تزوجن «أبناء الله».

تلاهم بناة بابل في سهل
سينار[١] وظلوا مغرورين بتصميم
بابلات جديدة، ولو كانت لديهم القدرة لشادوها:
آخرون جاؤوا فردياً، فمن اعتقد أنه
إله، رمى نفسه في لهيب أتنا[٢]
وهو أمبيدوقليس وذاك الذي فرح
بإليزيوم أفلاطون، فقفز إلى البحر،
وهو كليومبروتس[٣] ويطول ذكر الكثير غيرهم،
والأجنة والبلهاء والنساك والفرير[٤]
بالأبيض والأسود والبني، بكل تفاهاتهم.
هنا يطوف الحجاج، الذين حضروا من بعيد بحثاً

---

(1) هو سهل شنعار المذكور في تكوين ١٠: ١٠.

(2) يشير ملتون هنا إلى أمبيدوقليس، الفيلسوف السابق على سقراط، الذي رمى نفسه في بركان جبل أتنا حتى يثبت أنه إله؛ فلفظ البركان بقاياه.

(3) رمى نفسه في البحر بعد أن قرأ حوارية أفلاطون «فيدون».

(4) Friers تعني الكلمة «الأخوة» وهم جمعيات ذات نهج ديني. فالفرير بالثوب الأبيض هم الكرمليون، وبالأسود هم الدومينيكان وبالبني هم الفرنسيسكان. ويوجه الشاعر هنا انتقاداً لهذه التقاليد الكاثوليكية.

عن الجلجثة[١] الذي مات فيه، من عاش حياً في السماء؛
وأولئك الذين حتى يضمنوا الفردوس
ارتدوا عند الموت ثياب الدومينيكان،
أو الفرنسيسكان معتقدين أنهم يعبرون متنكرين؛
فيعبرون الكواكب السبعة، ثم الثابت
ثم المدار الكريستالي[٢] الذي بميزانه يزن
مدى الارتعاش، وذاك المتحرك الأول؛
بدا الآن القديس بطرس عند باب السماء
ينتظرهم بمفاتيحه، والآن عند سفح
السماء يصعدون رافعين أقدامهم، فتهب
ريح عاتية عنيفة من أي من الشاطئين
فتنقلهم بعيداً عشرة آلاف فرسخ
في الفضاء البعيد؛ عندها سوف ترى
الأردية والقلنسوات والثياب مع مرتديها قد بعثرت

---

(1) تل صلب فوقه المسيح متى ٢٧: ٣٣.

(2) واحد من ٥٥ مداراً في الكون البطليموسي. وهذا الميزان يقال إنه يقيس الارتعاش، أو الحركة غير النظامية في المدار.

وتمزقت أسمالاً، ثم الذخائر والمسابح
وصكوك الغفران والإعفاءات والصفح والبولز[١]
ألعوبة في يد الرياح: كل هذا في دوامات عالية
تطير فوق الجانب الخلفي للعالم البعيد
في الليمبو الكبير والواسع، الذي سمي منذئذ
فردوس الحمقى، والقليل ممن لا يعرفه
يتشوق إليه، ولكن الآن غير مطروق ولا أحد فيه؛
كل هذه الكرة المظلمة وجدها الشيطان وهو يمر،
فتجول طويلاً، إلى أن أخيراً رأى بصيصاً
من ضوء الفجر يلتف هناك فأسرع
خطواته المسافرة؛ ثم لمح عن بعد
مصعداً بدرجات رائعة
تصل إلى سور الجنة ووجد بناء عالياً،

(1) البولز Bulls اسم قوانين دينية أصدرها البابا، وكذلك كل ما ورد ذكره في البيتين ٤٩٠- ٤٩١ فكلها قوانين بابوية معروفة وبخاصة صكوك الغفران والذخائر (فضائل القديسين التي تزيد عن الكمية المخولة لدخول الجنية فتقوم البابوية ببيعها...الخ)

عند القمة، ولكن أبعد من أن يصله
فكان أشبه ببوابة قصر ملكي
بواجهات من الجواهر والذهب
مزخرفة ومرصعة بالجواهر الشرقية
وبرقت البوابة، التي لا يضاهيها في الأرض
أي نموذج، أو رسم قلم.
وكانت السلم كما رآه يعقوب[١]
ملائكة يصعدون وملائكة يهبطون، عصائب من
من الحراس المشرقين، عندما فرّ من وجه عيسو
إلى بادان آرام[٢] في حقل لوز
وهو يحلم في الليل تحت السماء المكشوفة،
وأفاق وهو يصرخ هذه هي بوابة السماء

---

(1) راجع تكوين ٢٨ فقد كان يعقوب يريد أن يأخذ بركة أخيه الأكبر عيسو من أبيه اسحق، فغشه، زاعماً أنه رأى حلما عن الملائكة الذين يصعدون سلماً، ومن هنا جاء مصطلح «سلم يعقوب» الذي يعني المكر والخديعة والمكسب المادي. والمعنوي.

(2) منزل لابان عم يعقوب، الذي قدم له ملجأ للهرب من غضب عيسو.

كل درجة لها معنى سري، فلا تقف
هناك دائماً، بل تندفع إلى السماء أحياناً
دون أن ترى، وفي الأسفل بحر مشرق
من اليشب يتدفق، أو من لآلئ سائلة، حيث
من يأتي من الأرض[1] يصلون بالإبحار فيه
تدفعهم الملائكة، أو يندفعون فوق البحيرة
راكبين عربة تجرها خيول نارية.
وتدلى السلم وقتها، إما لتشجيع
الشيطان على الصعود السهل، أو زيادة
حزنه لإبعاده عن أبواب البركة.
مباشرة مقابل ما فتح من الأسفل،
وفوق المكان المبارك للفردوس تماماً،
هناك ممر يهبط إلى الأرض، ممر عريض،
أعرض من ذاك بمرات عديدة
فوق جبل صهيون، ومع أنه كان ضخماً

(1) أي المنقولين من أمثال أخنوخ وإيليا، فقد صعدا بالجسد، إذ أخذهما الله إليه حسب التوراة.

فوق أرض الميعاد العزيزة على الله،
به، تزور قبائلَه السعيدةَ
بحسب أوامره العليا ملائكتُه ذاهبين راجعين
فيمرون من هناك، ومختارة ترى عينه
من بانياس[1] نبع الأردن يتدفق
إلى بيرسبع[2]، حيث تخوم الأرض المقدسة
عند مصر والشاطئ العربي؛
بهذا العرض بدا مفتوحاً ، حيث رسمت الحدود
مع الظلمة، هكذا مثل سد أمواج المحيط.
جلس الشيطان الآن على أدنى درجة للسلم
الذي تصعد درجاته الذهبية إلى بوابة السماء
فنظر إلى الأسفل مندهشاً من المنظر المفاجئ
لكل هذا العالم دفعة واحدة. وكما يمضي
مع المخاطرة كشاف عبر الطرق المظلمة الصحراوية

---

(1) كذلك تعرف بمدينة دانا، وتقع عند نبع نهر الأردن وتشكل الحدود الشمالية لكنعان.

(2) تعرف أيضاً ببير شبع وتشكل الحدود الجنوبية لكنعان.

طوال الليل، وأخيراً ينبلج الفجر البهيج
يصل حافة هضبة وعرة،
فتكتشف عينه بلا وعي
المنظر الجميل لبلاد أجنبية
يراه أول مرة، أو مدينة مشهورة
تزينها الأبراج البراقة والقباب المشرقة
التي ضربتها للتوّ أشعة الشمس المشرقة.
هكذا دهش، حتى بعد رؤية السماء،
الروح الخبيث، لكن الحسد استولى أكثر عليه
لدى رؤية كل هذا العالم الذي بدا له بديع الجمال.
راح يستطيع ما حوله، وبدقة، من حيث وقف
علياً فوق القبة المستديرة
من الليل تمد ظلها؛ من المؤشر الشرقي
لبرج الميزان حتى نجم[١] الفروة الذي يحمل
أندروميدا بعيداً عن البحار الأطلسية

(1) The fleecie star ويتألف من برج أندروميدا وبرج الحمل. وأندروميدا هي اسم لابنة كاسيوبيا ملكة أثيوبيا التي أنقذها بيرسيوس.

خلف الأفق؛ ثم من قطب إلى قطب
شاهد كل العرض، ومن دون توقف طويل
طاف إلى اليمين في أول أقاليم العالم، متجاوزاً
في طيرانه الوهدات والرياح بسهولة
عبر الهواء الرخامي النقي ومتابعاً طريقه المائل
بين ما لا يحصى من نجوم التي تسطع
عن بعد، ولكن من العلو ظهرت عوالم أخرى؛
أو إنها حقاً بدت عوالم أخرى أو جزراً سعيدة
مثل حدائق هسبريد[1] المشهورة منذ القديم
بحقولها الخصبة، وأجماتها ووديانها المزهرة،
جزر أكثر سعادة بثلاثة أضعاف، ولكن من يسكن
سعيداً هناك لا يبحث في ذلك: ففوقهم كلهم
الشمس الذهبية في روعة تشبه السماء
تغري عينه: فإليها وجه طريقه

(1) تقع هذه الحدائق بحسب الميثولوجيا اليونانية على طرف العالم، حيث تنمو الثمار الذهبية. ويقال إن الإغريق هكذا صوروا جزر الكناري والجزر البريطانية.

عبر الجلد الهادئ؛ ولكن أعلى أم أسفل، عن طريق
المركز أم غير مركز، من الصعب أن نخبر[١]،
أم خطوط الطول، حيث النور العظيم[٢]
الذي يعلو عن الأبراج المبتذلة الكثيفة،
وبعينه الملكية الثاقبة حافظ على المسافة،
ووزع النور من بعيد؛ وبتحركهم
يحسب رقصُهم النجمي بالدقة الأيامَ
والأشهرَ والسنوات، وكلهم باتجاه مصباحه
تدور حركاتهم المختلفة، أو يدورون
بشعاعه المغناطيسي[٣]، الذي يدفئ
الكون، حتى الجزء الداخلي
يخترقه بلطف، عبر طلقات
عير مرئية تنفذ حتى الأعماق:

---

(1) السبب في ذلك أن ملتون متردد بين كون بطليموس وكون كوبرنيكوس، فليس متأكداً من تحديد شيء.

(2) النور العظيم: الشمس.

(3) لم يكن نيوتن طبع كتابه عن الجاذبية. ربما كان التأمل دفع ملتون إلى هذا الاستنتاج بأن الشعاع الجاذب يمسك الكون.

وهكذا بصورة عجيبة أقام محطته المشرقة.
هناك أرض الشيطان، بقعة تشبه التي لم
يرها الفلكي في مدار الشمس الساطع
وهو يحدق من منظاره البصري.
والمكان الذي وجده أبعد من أن يعبر عن توهجه،
بالمقارنة بأي شيء أرضي، معدناً كان أم حجراً؛
ما كل أجزائه متشابهة، ولكن كلها متشكلة
بنور مشع، كما يشع الحديد مع النار؛
فالمعدن، جزء منه ذهب وجزء فضة؛
فإن حجراً، فعقيق أو زبرجد،
أو ياقوت أو توباز حتى الاثني عشر المتوهجة
على صدرية درع هرون[1]، وحجر أيضاً
تجده في التخيّل وليس في أي مكان،
إنه ذلك الحجر[2]، أو يشبه ذلك الذي هنا تحت

---

(1) هرون شقيق النبي موسى، كان يخرج في الاحتفالات بصدرية درع عليها ١٢ حجراً كريماً متوهجاً.

(2) يقصد حجر الفلاسفة.

عبثاً بحث عنه الفلاسفة طويلاً،
عبثاً مع أنهم بعلومهم قيدوا
الطيار هرمس[1]، وفكوا قيود
بروتيوس[2] بكل أشكاله وأخرجوه من البحر
وقطروه بالأنابيق حتى يعود إلى شكله الأصلي.
فما العجب إن كانت الحقول والأقاليم هنا
تنفس الإكسير النقي، وتجري الأنهار
بذهب دفاق، حين تختلط لمسة قوية
من الشمس، الكيميائي الأول، رغم بعدها عنا

---

(1) هرمس الإله اليوناني ابن زيوس من مايا سماه الرومان ميركوري أي الزئبق وهو رب العلم. وبما أن العلماء اكتشفوا الزئبق فإن ملتون يقول إنه قيد هرمس أي اكتشفوا الزئبق.

(2) رب بحر وهب نعمة النبوءة، ابن بوسيدون Poseidon أو أوقيانوس Oceanus. يقيم عادة في جزيرة فاروس، بالقرب من مصر، حيث يرعى عجول بوسيدون. وهو لا يخبر عن المستقبل إلا لأولئك الذين يقبضون عليه. وعندما يحاول أحد القبض عليه يتخذ شتى الأشكال ليتجنب النبوءة. وعندما يقع بين يدي امرئ، فإنه يصبح على شكل رجل عجوز ويخبر بالمستقبل. وهو كل يوم يستلقي على الشاطئ عند الظهيرة. ويقصد ملتون أن العلم صار يكشف المستقبل.

بالرطوبة الأرضية فتنتج
هنا في الظلام الكثير من الأشياء الثمينة
بألوان مجيدة وتأثير نادر؟
هنا التقى الشيطان بالمادة الجديدة التي حدق فيها
لم يندهش، ولكن نظره جال طولاً وعرضاً،
لأن البصر لا عائق يعوقه هنا، ولا ظل،
بل تسطع أشعة الشمس، كما لو في الظهيرة
فتصل ذروتها في خط الاستواء، كما هي الآن
تطلق إلى الأعلى مباشرة، فلا شيء حول
الظل من جسم القبة يمكن أن يسقط، والهواء،
لا مثيل له في النقاء، فأرهف نظرته البصرية
على الأشياء البعيدة، ، وبسرعة
رأى داخل مجال الرؤية ملاكاً مجيداً واقفاً
وهو الملاك الذي رآه يوحنا أيضاً في الشمس[١]:
كان ظهره إليه، ولكن لا يخفى إشراقه؛
فمن أشعة الشمس الوضاءة، هناك تاج ذهبي

---

(1) «ورأيت ملاكاً واحداً واقفاً في الشمس» (رؤيا ١٩: ١٧).

يحيط رأسه، ولم تكن أقل ضياء خصلاته خلفه
تنير كتفيه اللذين نبت منهما جناحان،
تتموج حوله؛ وبدا أنه مكلف
بمهمة عظيمة، أو مستغرق في تفكير عميق.
الروح الدنس لم يكن سعيداً كما هو الآن في أمله
أن يجد من يدله في طيرانه التائه
إلى فردوس المكان السعيد للإنسان،
وفيه نهاية رحلاته وبداية كربنا.
لكنه أولاً يغيّر شكله الخاص،
وإلا قد يحدث له خطر أو تأخير.
وقد ظهر الآن على شكل ملاك شيروبي صغير،
ليس من الرؤساء، ومع ذلك في وجهه
ريعان سماوي مبتسم، وفي كل طرف
من أطرافه نعمة مشرقة، صنعها بإتقان؛
وتحت تويجه شعره المتدفق
في ضفائر على صفحتي خده، مرتدياً جناحين
من ريش متعددة الألوان مشرب بالذهب،

لباسه يتناسب والسرعة المطلوبة، ويمسك
أمام خطواته المحتشمة عصا فضية.
تقدم ليس غير مسموع من قبل الملاك المشرق،
قبل أن يقترب فأدار وجهه المشع،
بتحذير من أذنه، وعلى الفور عرفه
إنه رئيس الملائكة يورئيل، احد السماويين
الذين يقفون في حضرة الله، أقرب ما يكون إلى عرشه
جاهزين لتنفيذ أمره، وهم عيونه
التي تطوف السماء، أو تهبط إلى الأرض
حاملين رسائله السريعة فوق الرطوبة والجفاف،
فوق البحر والبر؛ فحدثه الشيطان؛
يورئيل، لأنك من أولئك الأرواح الذين يقفون
أمام عرش الله العالي، المشرق المجيد
وأول من يطلع على مشيئته الأصلية العظيمة
ويفسرها عبر السموات ليحملها
حيث يشهد كل أبنائه سفارتك؛
وأنت هنا أفضل من خصهم القانون الأعلى

بهذا الشرف، كما أنت عينه
التي تزور كثيراً خلقه الجديد هذا؛
ولدي رغبة لا توصف أن أرى، وأعرف
كل أعماله الباهرة، وبالأخص الإنسان،
فرحه الأول ومحاباته، فمن أجله
أوجد كل أعماله الباهرة،
وقد حملتني رغبتي من مجموعة الشيروبيم
أتجوّل وحدي. فيا أبهى السيرافيم أخبرني
في أي من هذه المدارات المشرقة ثبت
الإنسان مكانه، أم أنه لا مكان ثابتاً له،
بل يختار ما يريد من هذه المدارات المشرقة ليسكن؛
فقد أجده، وبتحديقة خفية
أو إعجاب صريح أنظر إليه
هذا الذي وهبه الخالق العظيم
هذه العوالم، وأضفى عليه كل هذه النعم؛
فبخلقه وخلق كل الأشياء علينا
أن نمدح الخالق الكوني؛ الذي

كان محقاً في طرد خصومه المتمردين
إلى أعماق الجحيم، وتعويض تلك الخسارة
بخلق هذا النوع السعيد من البشر
حتى يخدموه أفضل: حكيمة كل طرائقه.
هكذا تحدث المرائي الكذوب متنكراً؛
فلا الإنسان ولا الملاك يمكنهما أن يتبيّنا
نفاقه، هذا الشر الوحيد الذي يمشي
غير مرئي، فلا يراه سوى الله وحده،
بإذن مشيئته، في كل السموات والأرض:
والأغلب أنه عندما تستيقظ الحكمة ينام الشك
عند بوابة الحكمة، وللبساطة تتخلى
عن مهمتها، بينما الطيبة لا تفكر بالسوء
عندما لا يكون هناك سوء: وقد خدع هذه المرة
يورئيل، مع أنه الوصي على الشمس، وأحدّ
الأرواح السماوية بصراً؛
وقد التفت إلى الأفّاك المخادع الفاسد
بجوابه المستقيم ردّ عليه هكذا.

أيها الملاك الطيب، رغبتك الدافعة إلى معرفة
أعمال الله، من أجل تمجيد
الخالق السيد العظيم، لا تقود إلى الإفراط
الذي يصل حد اللوم، وإنما هي ميزة تمتدح
كلما زادت، وقد دفعتك إلى هنا
من قصر الإمبريوم هكذا وحيداً،
لتشهد بعينيك ما قنع بعضهم بسماع
تقرير عنه في السماء فقط:
لأن أعماله هذه كلها مدهشة حقاً
معرفتها لذيذة، وهي جديرة أيضاً
فلها مسرة في الذاكرة دائماً؛
ولكن أي عقل مخلوق يستوعب
عددهم، أو الحكمة الكبيرة
التي أنتجتهم وتخبئ الأسباب عميقاً.
لقد رأيته عندما بكلمته الأولى خلق كتلة بلا شكل
وهي الشكل المادي لهذه العوالم، كانت كومة
من التشويش سمعت صوته، وجلبة وحشية

تحكمت، وانتصبت ضخمة غير متناهية؛
إلى أن صدر أمره الثاني فولى الظلام،
وأشرق النور، وانبثق النظام من اللانظام:
سريعاً إلى الجهات الأربع المختلفة وصل ثم
العناصر الأساسية، الأرض والماء والهواء والنار
وهذا الجوهر الأثيري للسماء
ارتفع متخذاً أشكالاً مختلفة،
تدحرجت دائرياً، وانقلبت إلى نجوم
لا عد لها، كما ترى وترى كيف تتحرك؛
فكل نجم له مكانه المجدد، وكل له طريقه،
والباقي انتظم في دائرة أسوار هذا الكون.
أنظر إلى الأسفل إلى تلك الكرة بجانبها المواجه لنا
بالضوء يشرق، فتضيء مع أنها تعكس الضوء؛
ذلك المكان هو الأرض، مقر الإنسان، وذلك النور
هو نهاره، يقابله في نصف الكرة الآخر
الليل يبسط ظله، ولكن هناك القمر المجاور
(هكذا سمى النجم الجميل المقابل) يعينها

بتدخلاته الزمنية، ويدور حولها شهرياً

فينهي الدورة ثم يجددها في منتصف السماء،



فغادر الملاك واتجه الشيطان نحو شاطئ الأرض السفلي (٣: ٧٣٨)

[٧٣٠]   بنور مستعار لطلعته بأشكالها الثلاثة[١]

فيمتلئ ويفرغ حتى ينير الأرض،

---

(1) أي المراحل الثلاث: البدر والهلال والمحاق.

وبسلطانه الشاحب يكبح الليل.
والبقعة التي أشرت أنا إليها هي الفردوس،
يسكنها آدم، وتلك الظلال العالية هي عريشته.
لن تضيع في الطريق إليه، أما طريقي فيدعوني.
قال هذا، ثم استدار فانحنى له الشيطان،
فهذه عادة الأرواح الرفيعة في السماء،
حيث التكريم واجب والاحترام مفروض،
فغادر الملاك، واتجه الشيطان نحو شاطئ الأرض السفلي،
تحت دائرة البروج، فأسرع أملاً في النجاح،
وحلق عالياً في طيران سريع وبعدة دوامات هوائية
لم يتوقف حتى ترجل على قمة جبل نيفاتيس.

* * *

الكتاب الرابع

الخلاصة:

يطل الشيطان الآن على عدن، بالقرب من المكان الذي يسعى الآن بجرأة أن ينفذ مشروعه الجريء ضد الله والإنسان، فيقع في شكوك كثيرة بينه وبين نفسه، وفي عواطف عديدة من خوف وحسد ويأس؛ ولكنه في النهاية يثبت في الشرّ، ويرحل إلى الفردوس، ويصف المنظور الخارجي وموقعه، ثم يقفز إلى الحدود، ويجلس على شكل طائر الغاق[1] فوق شجرة الحياة، وهي الأعلى في الجنة فينظر منها حوله. ويصف الجنة؛ وأول منظر يراه الشيطان هو آدم وحواء. دهش لمنظرهما الرائع وحالتهما السعيدة، ولكنه صمم أن يعمل على سقوطهما؛ ويسترق السمع على ما يتحدثان به من أن شجرة المعرفة محرم عليهما أكل شيء منها، تحت طائلة الموت؛ وعلى هذا بنى غوايته بإغرائهما خرق هذه الوصية: ثم تركهما فترة،

---

(1) المعروف عن طائر الغاق CORMORANT أنه رمز الجشع الذي لا يشبع.

ليعرف المزيد عن حالهما بوسائل أخرى. هبط أثناء ذلك على شعاع من الشمس يوئيل، ليحذر جبرائيل،المكلف بحراسة بوابة الفردوس، بأن روحاً شريراً هرب من الهوة، ومرّ عند الظهيرة في مداره على شكل ملاك صالح وهبط إلى الفردوس، وقد اكتشف ذلك من علاماته الغاضبة[١] في التحليق. يعد جبرائيل أن يعثر عليه قبل الصباح. حل الليل واتخذ آدم وحواء طريقهما إلى مكان راحتهما: ويصف عريشتهما؛ وصلاتهما المسائية. يستدعي جبرائيل من كتائبه المختصين بالمراقبة الليلية، للطواف حول الفردوس، وعيّن اثنين قويين من الملائكة لعريشة[٢] آدم، خشية أن يكون هناك روح شرير يؤذي آدم وحواء وهما نائمان؛ وهناك وجداه عند أذن حواء، يغويها في حلم فأحضروه، رغم إرادته إلى جبرائيل؛ الذي سأله فرد بازدراء، بأنه يستعد للمقاومة، ولكن إشارة من السماء أعاقته، فطار خارجاً من الفردوس.

* * *

---

(1) لم يستطع الشيطان أن يخفي غضبه عن يورئيل أثناء طيرانه، فعرفه وحذر جبرائيل.

(2) العريشة bower كوخ تحت ظلال الأغصان أشبه بما يسمى «العرزال» وتوضع عليه الورود والرياحين.

يا ذلك الصوت المنذر[1]، الذي سمعه من أبصر
الرؤيا، يصرخ عالياً في السماء،
عندما استعد التنين للجولة الثانية،
فنزل غاضباً لينتقم من البشر-
الويل لساكني الأرض! فالآن
هناك متسع من الوقت، لتحذير أبوينا الأولين
من عدوهما القادم سراً، فقد نجا ربما
من فخ هلاكه؛ لأن الشيطان الآن
اشتعل أولاً بغضبه، ثم هبط،
الغاوي قبل مُدين الجنس البشري[2]،
لينتقم من الإنسان الهش البريء، لخسارته
في تلك المعركة الأولى، وهروبه إلى الجحيم:
لم يكن مبتهجاً بإقدامه، مع أنه شجاع،

---

(1) صاحب الرؤيا يوحنا. والصوت المنذر صورة عرضها يوحنا في (رؤيا ١٢: ٣- ٢٠).

(2) الغاوي هو الشيطان، ومدين الجنس البشري هو الله، فالشيطان هبط إلى الجنة قبل أن يهبط إليها الله للإدانة.

مقتحم وغير هياب، وما من سبب للتفاخر،
فبدأ محاولته الدنيئة التي اقترب وقتها تنفيذها
فالآن هي تفور وتمور في صدره الجياش،
وكقانون شيطاني فإنها ترتد
على نفسه؛ رعباً وشكاً فتربك
أفكاره المزعجة، ومن الأعماق يثور
الجحيم في داخله[1]، لأنه إلى داخله
جاء بجحيمه، وحوله، فعن الجحيم
خطوة واحدة لا يستطيع أن يطير
بتغيير المكان: فالآن يوقظ الوعي اليأس،
النائم، واليأس يوقظ الذاكرة المريرة
لما كان فيه وما هو عليه، وما قد يكون

(1) يردد ملتون هنا معنى ما قاله مفيستوفيلس في مسرحية كريستوفر مارلو الشهيرة «الدكتور فاوست»
ليس للجحيم حدود، ولا تحصر
في مكان واحد: وإنما حيث نكون تكون الجحيم،
وحيث تكون الجحيم هناك لا بد أن نكون إلى الأبد.

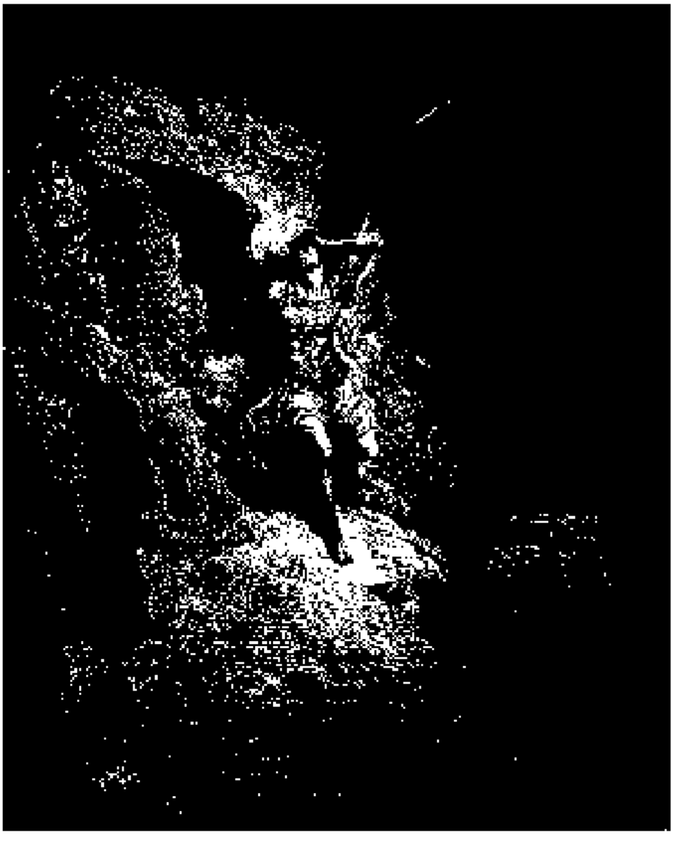
الأسوأ؛ فمن أسوأ الأعمال تنتج أسوأ الآلام.
نحو عدن[1] التي هي الآن تحت نظره
تمتد جميلة، أحياناً يلقي نظرة حزينة
وأحياناً نحو السماء والشمس الملتهبة،
التي هي الآن عالية في وقت الظهيرة:
ثم أكثر من التأمل، وبدأ متنهداً:
أنتِ أيتها المتوجة بالمجد الذي لا نظير له،
تبدين من سلطانك المنفرد مثل الله
لهذا العالم الجديد؛ ولدى رؤيتك كل النجوم
تخبئ رأسها المتقلص؛ إليك أدعو،
ولكن ليس بصوت صديق، وأضيف اسمك
أيتها الشمس، لأخبرك كم أكره أشعتك
التي جلبت إليّ ذكرى من حالة
سقوطي، كيف كان مجدي فوق مدارك؛
إلى أن أسقطتني كبريائي وطموحي الخبيث

(1) عدن: الفردوس. وكلمة عدن بالعبرية معناها المتعة.

في الحرب السماوية ضد ملك السماء الذي لا نظير له:
من أجل ماذا! لم يكن يستحق هذه المواجهة
مني، هو من خلقني على ما أنا كنته[١]
في تلك الرفعة المشرقة، ومع خيره
الذي لم يقطعه عني؛ ولم تكن خدمته شاقة عليّ.
فأقل ما يمكن هو أن أرفع إليه المديح،
وهو أسهل مكافأة، وأن أقدم له الشكر،
وكم يستحق! ولكن كل خيره ترسخ شراً فيّ،
ولم يرب فيّ سوى الخبث؛ وكلما ارتفعت أعلى
احتقرت الخضوع، واعتقدت أن خطوة أعلى
سوف تجعلني الأعلى، وفي لحظة تسديد
الدين الكبير من فضل لا ينتهي،
صار الدين عبئاً، ولا يزال يدفع ولا يزال يستحق؛
ناسياً ما تسلمت منه دائماً،

(1) الشيطان هنا يناقض نفسه لأنه في حالة من البوح الذاتي الذي يفصح عن مكنون ذاته بصدق، وليس بستار من المباهاة.

ولم أفهم أن الاعتراف بالفضل
لا يجعل المستحق غير مستحق، بل يدفع، ففي آن
يكون المدين والمسدد واحداً؛ فأي عبء؟
ليت مشيئته الهائلة قضت عليّ أن
أكون ملاكاً أدنى، كنت تابعت
سعيداً؛ وما كان الأمل المطلق خلق
طموحاً. ومع ذلك لمَ لا؟ فقد يصاب آخر
عظيم مثلي بالطموح، وأنا أدنى منه
فأقف إلى جانبه؛ ولكن القوى الأخرى العظيمة مثلي
لم يسقطوا، بل صمدوا وثبتوا، من الداخل
ومن الخارج، أمام كل الإغراءات.
فهل لديك الإرادة الحرة والقوة حتى تثبت؟
أجل لديك: فمن عندها تراك تتهم، سوى الحب
الحر السماوي الذي يمنح بالتساوي للجميع؟
ولكن عندها يكون حبه متهماً، ما دام الحب



يا لبؤسي! بأي طريق أطير
من غضب لا يحد، ومن يأس مطلق؟ (٤: ٧٤)

[٧٠] أو الكره عندي واحد، فقد جرّ عليّ الويل الأبدي.
كلا بل اللعنة عليك؛ ما دمت ضد إرادته
بإرادتك الحرة وهو ما تحزن عليه الآن.

يا لبؤسي! بأي طريق أطير
من غضب لا يحد، ومن يأس مطلق؟
في أي طريق أطير توجد جهنم؛ أنا نفسي جهنم؛
وفي أعمق هوة هناك هوة أعمق
تهددني بالافتراس فاغرة شدقها الواسع،
فتبدو جهنمي التي أكابدها سماء بالمقارنة معها.
وفي العطف الأخير: أما من مكان
ترك للتوبة ولا مكان للصفح[1]؟
لا شيء بقي سوى الخضوع؛ ولكن كلمة
الأنفة تمنعني، وخوفي من العار
بين الأرواح السفلى، الذي أغويتهم
بوعود أخرى ومفاخرات أخرى
من أن أخضع، متفاخراً أنني قادر أن أخضع
الجبار. يا لي، قلة من يعرفون
كم كلفني هذا الالتزام العابث غالياً،

(1) في رأي ملتون أن هذا الصفح لا يتم من دون تدخل إلهي، أي تجسد الابن.

فمنه أصرخ متألما في داخلي
بينما هم يجعلونني على عرش الجحيم،
وبتاج وصولجان ارتفعت
وما زلت أشعر بالسقوط أسفل، أرتفع فقط
بالبؤس، وهذا هو الفرح الذي قدمه طموحي.
ولكن لنفرض أني قادر على الندم واستعدت
بفعل النعمة حالتي السابقة؛ فبسرعة
سوف أتذكر أفكاري العليا، وبسرعة أتراجع
عن قسم الخضوع الذي أقسمته: فالترف يبعد
الأيمان التي أقسمتها في الألم، فهي باطلة وفارغة.
فالمصالحة لا يمكن أن تنمو أبداً
حيثُ حفرَ الكرهُ المرعبُ جراحاً عميقة:
فتقودني إلى نكسة أسوأ
وسقوط أثقل: فأشتري الاستراحة العزيزة
الغالية بألم مضاعف.
وهذا ما يعرفه من عاقبني؛ لذلك كما هو بعيد
عن العفو، أنا بعيد عن استجداء السلام:

وهكذا انتهت كل الآمال، فأنظر إلى مكاننا
الذي نفينا منه، كيف حلّ مصدر فرحه الجديد،
أي البشرية المخلوقة، ولهم خلق هذا العالم.
إذن وداعاً أيها الأمل، ومع الأمل وداعاً للخوف،
ووداعاً للندم: فكل خير لي قد ضاع؛
فكن أيها الشر خيراً لي؛ وعلى الأقل بك
أتقاسم الإمبراطورية مع ملك السماء،
وربما تحكم على أكثر من نصفها؛
والإنسان قريباً وهذا العالم الجديد يوف يعرفان ذلك.
وهكذا أثناء حديثه، غطت وجهه كل عاطفة
ثلاث مرات بالشحوب: الغضب والحسد واليأس،
فتكدر وجهه المستعار، وخانه
زيفه، لو أن هناك عيناً ترى.
عقول السماء نظيفة من هذا الطلاء الفاسد
فلا يظهر. وقد انتبه لهذا سريعاً،
وهدأ كل اضطراب بسكينة خارجية،
هذا المبتكر للخداع؛ فكان أول من مارس

الكذب تحت مظهر القداسة،
حتى يخفي خبثه العميق، الذي يستر الانتقام:
لكنه لم يتدرب عليه كثيراً حتى يخدع
يورئيل الذي كان حذراً منه؛وقد تابعته عينه هابطاً
في الطريق الذي ذهب منه، إلى الجبل الأشوري[1]
فرآه يشوه أكثر مما يمكن أن يحدث للأرواح
السعيدة: فلاحظ إشاراته الوحشية
وسلوكه الجنوني، فقد اعتقد أنه
وحيد لا يراقبه ولا يراه أحد.
وهكذا ظل في رحلته حتى حدود
عدن، حيث الفردوس اللذيذ، واقترب
الآن أكثر، فرآه متوجاً بسياجه الأخضر،
كأنه تل ريفي لبلاد مكشوفة،
لبرية شاهقة، وعلى جوانبها شعرها
الكثيف المتدلي غريب وبري،

(1) هو نفسه جبل نيفاتيس.

فلا تسمح بالوصول، وعلى الرأس نمت
ظلال عالية لا يضاهيها طول،
من الأرز والصنوبر والتنوب[١] والنخيل المتفرع
مشهد غابة، وكلما ارتفعت الصفوف
ظلاً فوق ظل، مسرح خشبي[٢]
لمنظر فخم. وفي أعلى قممها
سور نباتي أخضر انبثق من الفردوس:
فيتاح لوالدنا الكبير[٣] إمكانية كبيرة لتكون
إمبراطوريته الدنيا[٤] قريبة الجوار.
وأعلى من هذا السور هناك صف دائري
من أجمل الأشجار المثقلة بالثمار
فالبراعم والثمار معاً بلون ذهبي

---

(1) التنوب شجر له أربعون نوعاً وهو من العائلة الصنوبرية.

(2) مسرح خشبي، وفي البيت السابق استخدم كلمة مشهد، أي هذا مسرح لتراجيديته.

(3) آدم.

(4) كل أجزاء العالم خارج جنة عدن. وفكرة الإمبراطورية مأخوذة من (تكوين ١: ٢٨): إخضاع... سيطرة على كل الخليقة...الخ.

ظهرت، مختلطة بألوان مشرقة
تسر الشمس أن تلقي عليها أشعتها
أكثر من غيمة المساء الجميلة أو قوس قزح،
عندما يمطر الله الأرض؛ هكذا بدا جميلاً
ذلك المشهد: ومن هواء نقي يخرج هواء أنقى
فيلاقيه، وينفث في قلبه
البهجة والفرح الربيعي، ويطرد
كل حزن سوى اليأس: الآن نوبات لطيفة
تروّح بأجنحتها الشذية ناشرة
العطور الأصيلة، وهامسة من أين سرقوا
هذه الغنائم البلسمية. وكما يمر البحّارة
وراء رأس الرجاء[1]، ويقطعون الآن
موزامبيق، فتهب عليهم رياح شمالية شرقية
حاملة عطوراً سبئية من الشاطئ العطري

(1) هو نفسه رأس الرجاء الصالح.



... من أجل صعود الجبل الوحشي الشاهق
تكبد الشيطان مشقة الرحلة، مفكراً ومتمهلاً (٤: ١٧٢ وما بعد)

للجزيرة العربية، وبهذا التأخير يسعدون
فيتباطئون في طريقهم، وعلى امتداد فراسخ
يبتهج الشاطئ القديم بالرائحة اللذيذة. [١٦٥]
هكذا وصلت هذه الروائح العطرة إلى الشيطان

الذي جاء ليتلفها، مع أنه سرّ بها أكثر
أكثر من أسموديوس[1] بدخان الأسماك،
الذي أبعده رغم هيامه، عن زوجة
ابن طوبيت، ثم انتقم منه وأبعده عن
بلاد «ميديا» إلى مصر، فقيّد بالأغلال هناك.
والآن من أجل صعود الجبل الوحشي
الشاهق تكبد الشيطان مشقة الرحلة، مفكراً ومتمهلاً؛
لكن لم يجد بعد ذلك طريقاً، سوى تداخل كثيف،
كأنه شجرة واحدة مستمرة، فقد تشابكت
الشجيرات واختلطت العليقات فأخفت كل
درب للإنسان أو الوحش يمرّ من ذاك الطريق:
لم تبق سوى بوّابة واحدة هناك، وهي المطلة على الشرق

(1) يشير ملتون إلى قصة طوبيت من سفر طوبيت الأبوغريفي. فقد سافر طوبيا إلى بلاد الفرس وتزوج سارة التي قتل عشيقها الجني أسموديوس أزواجها السبعة السابقين في ليلة الدخلة. فحضر ملاك الرب رفائيل ونصح طوبيا أن يحرق قلب السمك وكبده حتى يبعد الجني. والسفر موجود في «الكتاب المقدس» طبعة دار المشرق، بيروت، ١٩٨٩ (طوبيت ٨: ٣).

من الجانب الآخر: وهي التي رآها كبير الساقطين
فازدرى مدخلها، وفي احتقار
وبقفزة واحدة رشيقة تخطى كل[1]
حدود الهضبة أو السور المرتفع وصار كليا
في الداخل هابطاً على قدميه. كما يجوس خلسة
الذئب الذي يدفعه الجوع بحثاً عن فريسة،
فيراقب المكان الذي يجمع فيه الرعيان قطعانهم
مساء في زرائب مسوّرة وسط الحقل الآمن،
فيقفز فوق السياج بسهولة إلى الزريبة:
أو كما اللص الذي يريد سرقة
أحد أبناء المدينة الأغنياء، الذي أحكم إغلاق
الأبواب وقفلها بالسكر والنجر، لا يخاف السطو؛

---

(1) كانت هذه الصورة محل انتقاد. إذ كيف بالرغم من كل هذه الحراسة الملائكية الشديدة يدخل الشيطان بمثل هذه القفزة الرشيقة. هل معنى ذلك أن هناك غفلة في إقامة الأسوار فظلت تنطوي على نقاط ضعف، استغل الشيطان إحداها؟ والتشبيهات القادمة عن الذئب وال واللص تزيد المسألة تعقيداً.

يتسلق النافذة، أو يعتلي سقف القرميد؛
هكذا تسلق هذا اللص الأول الكبير إلى زريبة الله:
وهكذا يتسلق الأجراء[1] الوضعاء كنيسته.
ومن هناك طار وحط على شجرة الحياة،
شجرة في الوسط وأعلى نمواً من غيرها،
فجلس مثل الغاق؛ لا ليستعيد الحياة الحقيقية
بل جلس حتى يوجه الموت
إلى الأحياء؛ لم يفكر بفضيلة النبتة
مانحة الحياة، بل استخدمها
حتى يراقب منها ما اعتاد استخدام هبة
الخلود. وقلما سوى الله من
يعرف قيمة الخير
الحقيقي أمامه، بل جاء ليجعل أفضل الأشياء
أسوأها، أو أحطها استخداماً.
رأى تحته الآن بدهشة جديدة

(1) رجال الدين.

كل ما هو مشرق في الإحساس الإنساني وقد جمع
في مكان ضيق كل ثروات الطبيعة، وأكثر، رأى
سماء على الأرض، فهو الفردوس المبارك
وجنة الله، وقد زرعها في شرق
عدن؛ وتمتد عدن بحدودها
من حرّان[١] شرقاً إلى الأبراج الملكية
من سلوقيا[٢] التي بناها ملوك الإغريق،
أو حيث أبناء عدن قبل ذلك بكثير
سكنوا في تلسار[٣]: في هذه التربة الطيبة
أراد الله أن تكون جنته الطيبة االممتعة؛
وخارج الأرض الخصبة أمر بنمو
كل الأشجار النبيلة الممتعة منظراً ورائحة وطعماً؛
وفي وسط هذه الأشجار تنتصب شجرة الحياة،
بارزة عالية ومزهرة ثماراً أمبرويزية

---

(1) مدينة جنوب شرق تركيا الحالية.

(2) مدينة بناها أحد قادة الاسكندر الكبار سلوقيوس على نهر دجلة وهي اليوم في وسط العراق المعاصر.

(3) المعتقد أنها مدينة في عدن كما في (٢ ملوك ١٩: ١٢).

من الذهب النباتي؛ ويلي شجرة الحياة
شجرة موتنا، شجرة المعرفة التي قربها
معرفة الخير بمعرفة الشر.
ونحو الجنوب يجري نهر كبير،
لا يغير طريقه، بل عبر هضبة حرجية
يمر من تحتها، لأن الله رمى هذا
الجبل كجسد لجنته يرتفع عالياً
فوق المجرى السريع، الذي يمر في عروق
الأرض ذات المسام التي تجره بعطشها،
فينبجس نبعاً عذباً بكثير من الجداول
لتسقي الجنة؛ ثم تتحد وتنزل إلى
أسفل في الوادي السحيق، مع النهر الذي تحت
الأرض، فيظهر الآن من ممره المظلم،
ثم ينقسم إلى أربعة جداول،
تجري متشعبة، فتطوف الكثير من الممالك
والبلدان التي لا حاجة أن نذكرها هنا،



مكان ريفي سعيد من مشاهد متنوعة (٤: ٢٤٧)

لكن لا بد أن نخبر، إن استطاع الفن أن يخبر،

كيف مِنْ ذلك النبع الياقوتي تتماوج الغدران،

وتجري على لآلئ شرقية ورمال من ذهب،

وتتجول متعرجة تحت الظلال المدلاة

فيجري النكتار، ويزور كل نبتة ويغذي
زهور الفردوس التي لا يمكن للفن الجميل
أن يحصرها في أحواض وزمر، بل هبة الطبيعة
فاضت بسخاء على الجبل والوادي والسهل،
حيث ضربت شمس الصباح الأولى الدافئة
الحقل المكشوف، وحيث الظلال الكثيفة
تظلم أكثر في الظهيرة: هكذا كان هذا المكان،
مكاناً ريفياً سعيداً من مشاهد متنوعة؛
أجمات غنية بالأشجار التي ترشح صمغاً وبلسماً،
وأخرى تلمع ثمارها بقشورها الذهبية
تتدلى لذيذة تثبت حقيقة خرافات هسبريد[1]
فإن كانت حقيقة فهنا فقط، فهي ذات مذاق طيب:
بينها مروج ووهاد مستوية وقطعان
ترعى العشب الطري، وتجول بينها،

(1) يجد القارئ هذه الحكايات الخرافية عند أوفيد «التحولات» ٤: ٦٣٧-٦٨٠.

أو هضاب من النخيل، أو أزهار بعض
الوديان المروية طبيعياً تبدي مكنونها
من كل لون، وورد بلا أشواك:
وعلى الجانب الآخر غــِيران وكهوف ظليلة
يبرد المستريح فيها، وفوقها عرائش الكرمة تخيم
مدلية عناقيدها الأرجوانية، وتزحف بلطف
رافلة؛ بينما شلالات المياه الهامة
تهوي إلى المنحدرات، فتتفرق أو تتجمع في بحيرة
على ضفافها الهدبية المتوجة بالآس
صافية مثل مرآة البلور، توحد ينابيعها.
جوقة الطيور تنشد، والهواء، الهواء الربيعي
الذي يفوح برائحة الحقول والأجمات، يترنم
مع الأوراق المرتعشة، بينما بان الكوني[1]

(1) بان هو رب الغابات والأدغال، وهو هنا رمز للطبيعة. وملتون يتصور المسيح راعياً مناقضاً للراعي بان.

يشبك يديه مع ربات النعمة والأوقات[1] في رقص
فوق حقل الربيع الأبدي. لا يشبهه حقل ولا الحقل
الجميل «إينا» حيث كانت برسيفوني[2] تجمع الأزهار

---

(1) ربات النعمة في الدين الإغريقي، مجموعة ربات خصب. واسمهن يعني المسرة أو الجاذبية. عددهن يختلف باختلاف الرواية الأسطورية، ولكن هناك عادة ثلاث: أغلايا Aglaia (الإشراق) وإفروسيني Euphrosyne (البهجة) وثاليا Thalia (الإزهار) ويقال إنهن بنات زيوس من هيرا. وهناك روايات مختلفة عن أمهات متنوعة. وربات الأوقات أو الساعات يقال لهن Horae وتعني الساعات Hours فهن ربات التوقيت، أي ربات الفصول (قسم الإغريق السنة إلى ثلاثة فصول وهي الربيع والصيف والشتاء) بنات زيوس Zeus وثيميس Themis. وأسماؤهن هي تالو Thallo وأوكسو Auxo وكاربو Carpo وتشير هذه الأسماء إلى التبرعم فالنمو فالنضج. فيما بعد صرن إيونوميا (النظام الجيد) ودايكي (العدالة) وإيريني (السلام) يحرسن بوابات الأوليمب، فتفتح وتغلق وفق مواقيت دقيقة. وفي الأرض يمثلن القانون والنظام في المجتمع. وهن مثل ربات الطبيعة يسيطرن على نمو النباتات؛ وكربات نظام يحافظن على استقرار المجتمع.

(2) في قصة برسيفوني (بروسربين عند الرومان) يعتمد ملتون على رواية هومر في «ترنيمة إلى ديميتر» (أو سيرس ربة القمح عند الرومان) فقد خطفها ديس أو هاديس (وهو نفسه بلوتو رب الجحيم) وهي مع رفيقاتها تقطف الزهور من حقل «إينا» في صقلية. ولم تنتج الأرض شيئاً ما دامت ديميتر تبحث عن ابنتها. ولما وافق ديس على عودتها لمدة ستة أشهر، فرحت الربة بلقاء ابنتها فأخرجت الأرض ما في باطنها من قمح وحبوب، ولهذا يعتقدون أن الحبوب لا تنمو إلا في ستة أشهر من السنة وليس على مدار السنة.

وهي نفسها الزهرة الأجمل فهجم ديس المتجهم
واقتطفها، مما كلف أمها سيرس كل هذا الألم
بحثاً عن ابنتها في العالم؛ ولا أجمة دافني[1]
الجميلة بالقرب من نهر أورونتس ونبعها القشتالي
الملهم، يمكن أن تنافس فردوس
عدن، ولا تلك الجزيرة النيسية[2]
التي يطوقها نهر تريتون[3]، حيث الخان العجوز

---

(1) دافني فتاة جميلة طاردها أبوللو ليغتصبها، فهربت منه، وطلبت من أبيها إله النهر أن ينقذها فحولها إلى شجرة غار، فلما وصل أبوللو وجدها تحولت، فأمر أن يتوج كل بطل في الألعاب الرياضية بإكليل غار ذكرى لحبيبته دافني. ووقع الحادث قرب نهر اسمه أورونتس وهو نهر في سوريا يسمونه «العاصي». وكانت خميلة دافني بالقرب من العاصي تسقى من عدة غدران ومنها النبع القشتالي الذي سماه أبوللو على اسم نبع في قمة جبل البرناس حيث ربات الفنون يقمن، وهو نبع الإلهام الأدبي.

(2) الجزيرة النيسية حيث أمون، ابن ساتورن وملك ليبيا، ولد له ابن هو باخوس فحفاظاً عليه من غضب زوجته ريا، أرسله إلى جزيرة نيسيا . وقد توحد أمون بجوبيتر وبابن نوح حام.

(3) تريتون هو ابن إله البحر بوسيدون، نصفه الأعلى إنسان والأسفل سمكة. يرعى أحوال فراس البحر لأبيه...

الذي يسميه الوثنيون أمون وجوف[١] الليبي،
خبأ أمالثيا وابنها المزهر
الفتى باخوس من عين زوجة أبيه ريا؛
ولا حيث الملوك الأثيوبيون يحرسون أبناءهم،
ولا جبل أمارا، حيث يظن بعضهم أنه
الفردوس الحقيقي في الخط الأثيوبي[٢]
قرب نبع نيلوس[٣]، تحيط به الصخور المشرقة،
يرتفع مسيرة يوم بكامله، كما أنه واسع جداً
من هذه الجنة الأشورية، حيث الشيطان
رأى أن كل فرح لا يفرحه، وكل أنواع
المخلوقات الحية الجديدة وشاهد بغرابة:
اثنين شكلهما أنبل منتصبين وطويلين،
يشبهان الله في انتصابهما مع شرف عرافة

(1) جوف: جوبيتر.

(2) في أيام ملتون شاع اعتقاد أن هضبة في أثيوبيا الحديثة هي مكان الفردوس الحقيقي على خط الاستواء (الخط الأثيوبي).

(3) نيلوس هو إله النيل عند اليونان وفي مصر يسمونه حابي. ورب النيل هو النيل نفسه.

في جلال واضح ظهر أنهما سيدا الجميع،
كما يستحقان، لأن في طلعتهما المقدسة
صورة صانعهما المجيد المشرقة،
في الحق والحكمة والقداسة المتشددة النقية،
متشددة ولكن في تأكيد حرية البنوة؛
كسلطة حقيقية في البشر؛ مع أن الاثنين
غير متساويين، وجنسهما لا يبدو متساوياً؛
فقد خلق هو للتأمل والجرأة،
وخلقت هي للنعومة والرقة الجذابة العذبة،
فهو لله وحده، وهي لله فيه[١]:
دلت جبهته العريضة الجميلة ونظرته السامية[٢]
على السيطرة المطلقة؛ وضفائره الهايسنتية[٣]

---

(1) لأن الله خلق آدم فقط، واستخرج منه حواء، كما هو الاعتقاد السائد الذي يأخذ به ملتون.

(2) المقصود بالسامية المتجهة نحو السماء.

(3) نسبة إلى هايسنت، الغلام الجميل الذي صاحبه أبوللو، ولعبا معاً لعبة رمي القرص، فلما رمى أبوللو أصابه فقتله، فنبتت مكان دمه زهرات الهايسنت، تحمل هيئة قطرات دمه ولونها.

تلتف من ناصية فرق الشعر وتتدلى
متجمعة ولكن ليس تحت كتفيه العريضين:
أما هي فمثل الخمار المنسدل إلى خصرها النحيل
وضفائرها الذهبية غير مزينة
ومشعثة، وتحركت بعقصات شعر مستهترة[1]
مثلما تلف الكرمة جذوعها، التي تدل على
الخضوع، على أن تكون السيطرة لطيفة،
وقد خضعت من جانبها، فقبل ذلك قبولاً حسناً،
خضعت باحتشام خجول، وكبرياء متواضعة،
ودلال العشق المتمنع اللطيف.
ولم تكن الأعضاء السرية مخفية،
ولم يكن هناك خجل آثم، ولا عار غير عفيف
لأعمال الطبيعة، فأيها الشرف غير شريف،

---

(1) ذهب بعضهم إلى أن وصف شعر حواء بالمستهتر أو الداعر غير منسجم مع السياق. ولكن المعنى أميل إلى القول بأن شعر حواء «العفوي» كان مغرياً ومثيراً، ولو اتسع المجال له لقال إنه أفضل من هذه التصفيفات المصطنعة. فالغرض إظهار عفوية الجنس وليس تهتكه.

يا من أنجبتك الخطيئة، كم أزعجت البشرية
بالمظاهر البديلة، مظاهر ادعاء النقاء،
فقضيت على الحياة السعيدة في الحياة البشرية،
قضيت على البراءة البسيطة والعفوية.
كانا يعبران عاريين، لا يخجلان من رؤية
إله أو ملاك، لأنهما لم يفكرا بسوء:
يعبران يداً بيد، أسعد عاشقين
تعانقا في الحب منذ آنئذ،
آدم أطيب من كل الذين جاؤوا بعده
من بنيه، وحواء هي أجمل بناتها.
تحت بقعة ظليلة من الحشيش الأخضر
وقفا يتهامسان بنعومة، وبالقرب من نبع
جلسا على الأرض، بعد يوم غير مضن
من عمل الجنة[1] العذب الذي قاما به

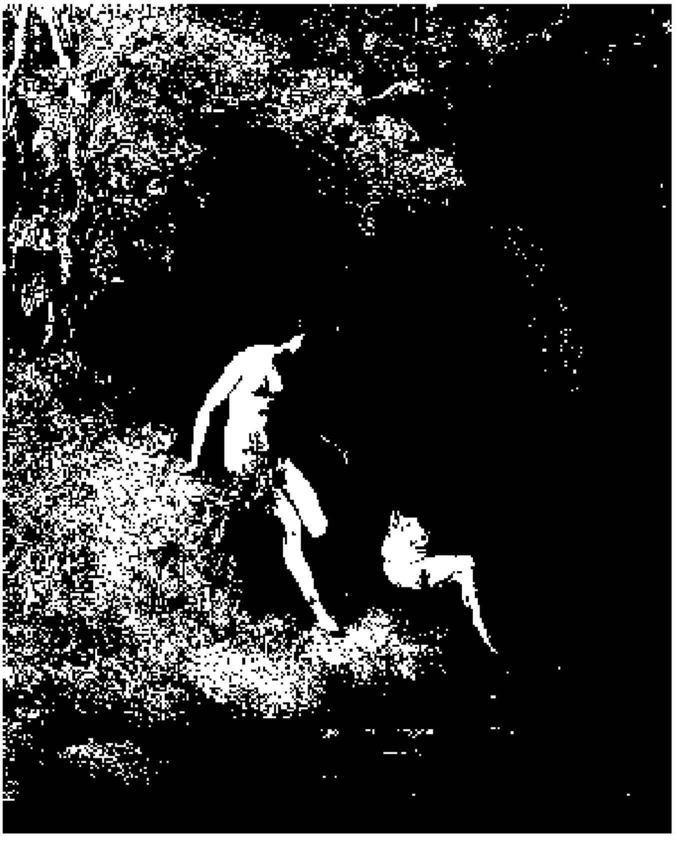
---

(1) عمل؟ أي عمل؟ ... لم يحدد ملتون نوع العمل لأنه لا يوجد عمل، ولكن نظرته إلى الحياة بأن العمل نبع المسرة جعله- ربما- يقول ذلك.

ليتنشقا الزيفير[1] البارد مما يجعل الراحة
أكثر راحة، وكذلك العطش والشهية
أطيب، ومن الثمار تناولا عشاءهما،
الثمار النكتارية[2] التي قدمتها الأغصان المطيعة
لهما، بينما هما استلقيا
على ضفة دانية ناعمة تزينها الزهور:
يمضغان لب الثمرة المنكه، والقشرة
يبقيانها ليغرفا بها ماء النبع المترع ويشربا؛
لا المحادثة ولا البسمات المحببة المطلوبة
ولا مداعبة الصبا يمكن أن تكون أحلى مما هي
لدى زوجين جميلين، تربطهما بوحدة الزواج السعيد،
في هذا التفرد. حولهما تلعب بمرح
كل حيوانات الأرض، التي صارت برية، وكل حيوانات
الغابة والبرية والأدغال والأجمات؛

(1) الريح الغربية في الميثولوجيا اليونانية.

(2) الطعام الخاص بآلهة الأوليمب (النكتار) كان ينشر عبيره فينعش الجو والآكلين.



يمضغان لب الثمرة المنكه، والقشرة

يبقيانها ليغرفا بها ماء النبع المترع ويشربا (٤: ٣٣٥)

فالأسد يتريض مبتهجاً، وبمخلبه

يلعب الجدي؛ وكانت الدببة والنمور والأوشاق والفهود

[٣٤٥] تتواثب أمامهما، والفيل الثقيل

حتى يبهجهما يستخدم كل قوته، ويجعّد

جسده الطريّ؛ وبجوارهما الأفعوان المتملق
الخبيث يجدل العقد الغورديانية[1]
في ذيله المزركش وبمكر قاتل
يؤكد كراهته؛ والبقية على العشب
في استلقاء وقد شبعت من المرعى
أو اضطجعت تجترّ: لأن الشمس
مالت الآن مسرعة في مسيرتها المنحدرة
إلى جزر المحيط[2] وفي الميزان الصاعد
نجوم السماء تعلن أن المساء قد حلّ:
وقتها كان الشيطان لا يزال يحدق، كما في البداية،
وبعد أن فشل في الكلام علاه الحزن.
أيها الجحيم! ماذا ترى عيناي الحزينتان،
في مكان نعمتنا الفارغ هذه المخلوقات المتقدمة
جداً على الأشكال الأخرى، ربما ولدتها الأرض،
وهي ليست أرواحاً، ومع ذلك لا تقل عن الأرواح المشرقة

(1) نسبة إلى عقدة غورديون التي لم يفكها إلا الإسكندر بقطعها لا بحلها.
(2) هي جزر Azores في وسط شمال الأطلسي.

إلا قليلاً؛ إن أفكاري تتابعها
بعجب، ويمكن أن أحبها، فهي تسطع بحيوية
وفيها تشابه مع الله، ونعمة كبيرة
سكبتها اليد التي منحتها شكلها.
يا للزوجين اللطيفين، قلما فكرتما بقرب
زمن تغيركما، عندما كل هذه المسرات
تتلاشى وتنتقلان إلى البلية،
وسوف تزداد البلية بمقدار ما لديكما من فرح الآن
والسعادة، هذه السعادة التي لم تُحمَ جيداً
لن تستمر طويلاً، وهذا المكان العالي في سمائكما
لم يسيّج جيداً حتى تحميه السماء من وصول خصمها
فقد دخل الآن، ولكن لا يهدف الخصم
عداء لكما، فأنا أشفق عليكما من هذا الحرمان
وإن كان لا يشفق عليّ أحد: أسعى للتضامن معكما،
والتفاهم المتبادل باستقامة، وبتلاحم،
حتى أنه لا بد أن أسكن معكما، أو تسكنان معي
منذ الآن؛ وربما لا تفرحان بسكناي

كما تفرح حواسكما بهذا الفردوس الجميل، ولكن
لا بد أن توافقا على عمل خالقكما؛ فقد منحه لي،
وأنا بطواعية أمنحه لكما؛ فسوف يفتح الجحيم،
بواباته العريضة للترحيب بكما،
وترسل كل ملوكها؛ وسيكون هناك متسع،
وليس كهذه الحدود الضيقة، لتتلقى
نسلكما الذي لا يعد: فإن لم يكن مكاناً جميلاً
فالفضل يعود إلى ذاك الذي جعلني أكره هذا الانتقام
منكما، يا من لم تخطئا معي بل هو الذي أخطأ
فإذا كنت ليناً مع طهارتكما
كما أنا الآن، فإن العقل العام عادل،
فالشرف والإمبراطورية يتطلبان توسيع الانتقام،
بغزو هذا العالم الجديد، مما يضطرني الآن
أن أفعل ما كنت أكرهه، وإن كنت مداناً.

هكذا تكلم الشيطان، وبالضرورة،
سوغ له الطغاة تنفيذ أعماله الشيطانية[١].

---

(1) أنظر الكتاب الثاني عشر: ٩٥ حيث يعجب ملتون من اللجوء إلى الطغيان الذي لا مبرر له ما دام العقل موجوداً.

ومن مكانه العالي على تلك الشجرة المرتفعة
هبط بخفة بين قطيع يتريَض من تلك الأنواع
التي تمشي على أربع، وهو واحد منها حيناً،
وآخر حيناً آخر، ما دام شكلها يخدمه في غرضه
للاقتراب أكثر لرؤية فريسته، ويكشف
حالتهما التي يتعلم منها الكثير
بالكلمة أو الفعل: فدار حولهما
الآن على شكل أسد ليطاردهما بنظرة نارية،
ثم على شكل نمر، فرأى مصادفة
في بعض أطراف غابة غزالين يلعبان
فاضطجع، ثم نهض وغيّر من
مراقبته المنبطحة، كمن يختار المكان الأفضل
حتى يهجم ويتأكد من وقوعهما معاً
في قبضة براثنه: وفي هذا الوقت راح آدم، أول رجل،
يمشي ويتحدث إلى حواء، أول امرأة ،
فأنصت لهما وأصغى ليسمع جديد كلامهما.
شريكتي الوحيدة والجزء الوحيد من هذه المباهج

الأعز على نفسي منها جميعاً؛ لا بد أن القوة
التي خلقتنا، وجعلت لنا هذا العالم الرحيب
قوة خير لا حدود لها، ومن خيره
المغدق والحر والواسع
أنه صنعنا من تراب وأسكننا هنا
في كل هذه السعادة، من يده
لا تريد شيئاً مستحقاً علينا، ولا يطلب
منا ما يحتاجه، إنه لا يطلب
منا خدمة أخرى سوى أن نحفظ
هذه الوصية، هذه المهمة السهلة، فمن كل أشجار
الفردوس التي تحمل طيب الثمار
من كل الأنواع، فنأكل منها سوى شجرة واحدة
هي شجرة المعرفة، المزروعة قرب شجرة الحياة
وهكذا ينمو الموت من الحياة، مهما كان الموت،
فإنه شيء رهيب ولا شك؛ وتعلمين أن
الله قضى بالموت على من يأكل من تلك الشجرة،
وهي العلامة الوحيدة على طاعتنا

من بين كل قدرته وحكمه
علينا، ومنحنا السلطة[1]
على كل المخلوقات الأخرى التي تملأ
الأرض والجو والبحر. فيجب ألا نظن أن
المحظور الواحد شيء مرهق، فنحن نتمتع
أحراراً بما تركه لنا من أشياء كثيرة أخرى، فنختار
بلا حد كل أنواع المباهج الكثيرة:
ولكن دعينا نرفع المديح والتمجيد
لنعمته، بعد أن ننتهي من مهمتنا المبهجة
فنشذب هذه النباتات النامية، ونخدم هذه الأزهار،
وهو عمل شاق، ولكنه معك يكون عذباً.
وعلى هذا الكلام أجابت حواء. يا من منه
خلقت، ولحمي من لحمه،
ومن غيره لا غاية لي[2]، فأنت مرشدي

(1) «نعمل الإنسان على صورتنا كشبهنا. فيتسلطون على سمك البحر وعلى طير السماء وعلى البهائم وعلى كل الأرض وعلى جميع الدبابات التي تدب على الأرض. (تكوين ١: ٢٦)

(2) في كتاب ملتون «مذهب الطلاق ونظامه» يعلن إيمانه أن المرأة خلقت لمهمة وحيدة وهي أن تؤنس وحدة الرجل فقط.

ورأسي، فما قلته عدل وحق.
لأننا مدينان له فعلاً بكل مديح،
وبالشكر كل يوم، وأنا الأكثر ابتهاجاً
فقد تمتعت بحظ أكثر سعادة منك، إذ تمتعت
بك مع أنك الأفضل بكثير، بينما لن
تجد غيري زوجة تحبها لنفسك في أي مكان[1].
أذكر ذلك اليوم، حين من النوم نهضت
أول مرة، فوجدت نفسي بقربك
في ظل أزهار، فدهشت أين أنا
ومن أنا، وكيف أتيت إلى هنا.
وليس بعيداً مني سمعت صوت همس
المياه تنبجس من كهف وتتدفق
في سهل جميل، ثم توقفت بلا حراك[2]
صافية مثل آماد السماء؛ فذهبت إلى هناك

(1) نعرف من الكتاب الثامن أن آدم طلب من الله أن يمنحه شريكة تساويه وتشبهه. إن حواء هنا تشير إلى أن آدم يتفوق عليها كثيراً بحيث لن يجد على الأرض زوجة تشبهه وتساويه.

(2) أي شكلت بحيرة.

بفكر غير مجرب، واستلقيت أرضاً
على الضفة الخضراء، لأنظر إلى
البحيرة الناعمة الصافية، فبدت لي سماء أخرى.
وحين انحنيت لأتطلع فيها شاهدت مقابلي تماماً
شكلاً ظهر داخل المياه البراقة[١]
ينحني لينظر إليّ، فتراجعتُ
فتراجع ولكن سررت به فعدت سريعاً،
فعاد بهيئة مطمئنة
من العطف والحب؛ وهناك يمكن أن أثبت
عيني عليه حتى الآن، وأن أتمسك به متولهة،
لو لم ينبهني صوت، ما ترينه
وما يبدو لك مخلوقاً جميلاً هو نفسك،
فمعك جاء ومعك يذهب: ولكن اتبعيني،
فسوف أجلبك إلى حيث لا يوجد ظل ينتظر
قدومك، وعناقك الناعم! هو

---

(1) يطبق ملتون أسطورة نرسيس كما جاءت عند أوفيد في كتاب «التحولات» ٣: ٤٠٢- ٤١٠.

من تكونين صورة له[1]، وستفرحين به
ولا ينفصل عنك، ومنه سوف تحملين
حشوداً تشبه نفسك، ولذلك سُميتِ
[٤٧٥] أم الجنس البشري: فماذا في قدرتي أن أفعل
سوى أن أتبع غير المرئي الذي يقودني؟



هكذا وعد، ثم عاد يورئيل إلى مهمته (٤: ٥٨٩)

(1) أي آدم. رغم كل أفكار ملتون المتحررة نراه هنا يجعل حواء صورة لآدم وليس صورة لله. آدم صورة الله أما حواء فصورة آدم. ربما كان هذا بسبب أوضاعه الخاصة، أو ربما يجاري السرد الديني في التوراة حتى يكمل مأساة البشر.

تبعته إلى أن رأيتك، أنت الجميل الطويل،
تحت شجرة سهول[1]، فبدا لي أنك أقل جمالاً،
وأقل نعومة فاتنة، وأقل طراوة عذبة،
تركت الصورة المائية الناعمة فأدرت ظهري[2]،
فتبعتني وأنت تصيح عالياً، عودي يا حواء الجميلة،
فممن تهربين؟ أمنه تهربين؟
من لحمه وعظمه؛ فحتى تخلقي
أعرتك من جانبي، من أقرب مكان إلى القلب
حياة جوهرية، حتى تكوني إلى جانبي
لذلك أنت السلوى المفردة العزيزة عليّ؛
أنت جزء نفسي الذي أبحث عنه، وأدعوك
نصفي الآخر: وهنا أمسكتُ يدك اللطيفة

---

(1) أشجار السهول تكون عادة وارفة الظلال جداً، على غير أشجار الأراضي الوعرة الصخرية في منحدرات الوديان والجبال حيث تكون الأشجار صغيرة نسبياً.

(2) يدل هذا الكلام أن ملتون يرى أن صورة البحيرة ليست انعكاساً لصورة حواء بل لصورة آدم، لأنها انعكاس له في الخلق، بينما هو انعكاس لصورة الله...

فشددتني فاستسلمتُ، ومن ذلك الوقت ترى
كيف تتفوق النعمة على الجمال وكذلك الحكمة
الرجولية، التي هي وحدها الجميلة[١].
هكذا تكلمت أمنا الأولى، وبعينين
من الجاذبية الزوجية لا تلام عليها
ومن رقة الاستسلام، مالت في نصف عناق
على أبينا الأول، ونصف صدرها العارم
العاري التقى صدره تحت الذهب المتدفق
من ضفائرها المحلولة: كان مبتهجاً
بجمالها وبسحرها المستسلم
فابتسم بحب أعظم، مثل جوبيتر
في ابتساماته لجونو[٢]، عندما يخصب السحب
فتنبت الزهور الربيعية؛ ويطبع على شفة الربة
قبلات نقية: فانتحى الشيطان جانباً

(1) يستخدم ملتون كلمة fair هنا لوصف الحكمة، بينما جمال حواء يستخدم له كلمة faire للتمييز بين الجمال الخارجي لحواء والجمال الداخلي للحكمة.

(2) جونو هو الاسم الروماني لهيرا زوجة زيوس (جوبيتر عند الرومان).

وقد امتلأ حسداً، وظل الخبث الخفي الغيور
يطفر من عينيه، فقال لنفسه نادباً.
مشهد كريه، منظر يعذبني! إنهما يتمتعان
الواحد بذراع الآخر،
بسعادة عدن، وسوف يمتلئان متعة
بالبركة فوق البركة، بينما أنا متعطش في الجحيم،
حيث لا متعة ولا حب، بل رغبة رهيبة،
وهي ليست الأقل بين عذاباتنا الأخرى،
فلا تمتلئ بعذابنا الملتاع؛
ومع ذلك لن أنسى ما حصلت عليه
من فمهما؛ فليس كل ما هنا ملكهما كما يبدو:
هناك شجرة قاتلة تدعى شجرة المعرفة،
حرما من تذوقها: المعرفة محرمة؟
أمر مشكوك فيه وبلا مسوّغ. لماذا سيدهما
يحرم ذلك؟ هل يمكن أن يكون الخطأ في المعرفة،
هل يكون الموت؟ وهل يعيشان فقط
بالجهل، فهل هذا أسعد حالاً،

يدل على طاعتهما وإيمانهما؟
يا للأساس العظيم الذي يبنى عليه
خرابهما! لهذا سوف أثير عقليهما
بمزيد من الرغبة في المعرفة، حتى يرفضا
الأوامر الحاسدة التي أصدرها مصمماً أن
يبقيهما في الأدنى فلا ترفعهما معرفة
فيتساويا بالآلهة؛ فإن طمحا أن يكونا من الآلهة
تذوقا منها وماتا: وهل هناك أضمن من هذا؟
ولكن أولاً عليّ أن أبحث بحذر فأطوف حول
هذه الجنة، ولا أترك زاوية من غير أن أفحصها؛
إنها مصادفة ولكنها قد تقودني إلى حيث قد ألتقي
بروح سماوية متجولة، يستريح بالقرب من
نبع أو في غابة ظليلة فأسحب منه
المزيد الذي أتعلمه. فلتعيشا ما استطعتما
استعدا وتمتعا ريثما أعود،
ملذات قصيرة من أجل آلام طويلة سوف تعقب ذلك.
قال هذا والتفت بخطوات متعجرفة وازدراء،

ولكن بحذر خبيث، وبدأ طوافه
خلال الغابة، وفي الجرد وفوق الجبال والوديان
ووصل إلى أقصى الغرب، حيث تلتقي
السماء مع الأرض مع المحيط، وشمس الغروب
تهبط ببطء، وفي الاتجاه المقابل
على البوابة الشرقية للفردوس
سكبت أشعتها المسائية: إنها صخرة
من المرمر ارتفعت حتى السحاب،
ابتعاد رائع، ومصعد واحد ملتف
انتصب من الأرض، وفي أعلاه مدخل واحد؛
البقية كانت عبارة عن جرف صخري، يزداد
خطراً كلما علا، يستحيل تسلقه.
بين هذه الأعمدة الصخرية جلس جبرائيل
رئيس الحرس الملائكي، ينتظر هبوط الليل؛
وحوله يتدربون على الألعاب البطولية
الشبان بلا سلاح، ولكن بالقرب من متناولهم
التروس والدروع والخوذات والرماح السماوية

معلقة عالياً بماسها المتوهج وذهبها.
إلى هنا جاء يورئيل، منزلقاً في المساء
على شعاع شمس، مسرعاً مثل نجم تهاوى
في ليل خريفي، عندما تملأ الأبخرة الخفيفة
الهواءَ، وتنذر الملاحَ ليكون متيقظاً
فيعرف من مؤشر بوصلته
وجهة الريح المتهورة. هكذا بدأ بسرعة.
جبرائيل، إليك بحسب القرعة أسندت
مهمة المراقبة الدقيقة لهذا المكان السعيد
فلا يقترب منه شيء شرير أو يدخله؛
في أوج ظهيرة هذا اليوم جاء إلى مداري
روح، مندفع، كما بدا لي، لمعرفة
المزيد عن أعمال الجبار، وبالأخص الإنسان
آخر صورة الله[1]: وقد راقبت طريقه
المسرع جداً، ولاحظت ممره الهوائي؛
وشاهدته يحط على الجبل الواقع في شمال عدن،

(1) الإنسان آخر صورة الله، وأول صورة الله هو الابن والملائكة.

حيث هبط أول مرة، فرأيت معالمه
غريبة عن السماء، بعواطف منحطة غامضة:
تابعه نظري، ولكن تحت ظل من الظلال
فقدت رؤيته؛ أخاف أن يكون أحد الجماعة
المعاقبة، قد هرب من الهاوية، ليثير
مشاكل جديدة؛ فعليك أن تجده.

التفت إليه المحارب المجنح وقال:

يورئيل، لا عجب إن كان بصرك الحديد
وأنت تجلس وسط دائرة نور الشمس،
أن ترى واسعاً: في هذه البوابة لم يمر أحد
في هذه اليقظة هنا، سوى من يأتي بمعرفة
من السماء؛ وحتى وقت الظهيرة
ليس هناك مخلوق: فإن كان روح أو نوع آخر،
كما تعرف، قفز هذه الحدود الأرضية
لغرض، فمن الصعب كما تعرف أن تمنع
جوهراً روحياً بحاجز مادي.
فإن كان داخل هذه الدائرة من مسيرته

فمهما كان الشكل الذي تنكر به، كما
تخبرني، فسوف أعرف في فجر الغد.
هكذا وعد، ثم عاد يورئيل إلى مهمته
في ذلك الشعاع البراق، الذي بدأ يرتفع الآن
فيحمله انحداراً إلى الشمس الغاربة الآن
تحت جزر المحيط؛ سواء كان المدار الأول[1]
سريعاً، ووصل إلى هنا خلال
يوم، أو كانت الأرض أقل حركة
فدارت دورة أقصر إلى الشرق، فتركته هناك
يرتب بالأرجوان والذهب المنعكس
الغيوم التي تحيط عرشه الغربي:
لكن الآن حل المساء، والغسق القاتم
يغطي جميع الأشياء بأغطيته الرزينة
وبصمت سائد انسلّ الوحش والطير
إلى المخادع العشبية والأعشاش
ولم يبق ساهراً سوى العندليب؛

(1) الشمس.

كل الليل الطويل يصدح بأغاني الحب
لا يطرب لها سوى الصمت: وتوهج الجلـَدُ الآن
بالياقوت الوهاج: وهسبيروس[1] يقود
حشد النجوم، وينيرها، إلى أن ظهر القمر
في السحب التي تجلله، وأخيراً
حلّ خماره وأظهر نوره الذي لا مثيل له،
ورمى على الظلام عباءته الفضية.
التفت آدم وقال لحواء: زوجتي الجميلة، هذا
أوان الليل، وكل الأشياء قد خلدت الآن إلى الراحة
مما يذكرنا أن نصنع مثلها، ما دام الله أمر أن يكون
العمل والراحة للبشر، مثل النهار والليل
متعاقبين، وهذا ندى النوم في وقته
يتساقط الآن بثقل النعاس الناعم فيحني
أجفاننا؛ والمخلوقات الأخرى في يومها الطويل
تدور كسولة بلا شغل، فحاجتها للراحة أقل؛

(1) نجم الصبح أو الزهرة، ونذكر القارئ بمسألة تأنيث القمر وهسبيروس مما لا يمكن تحويلها في اللغة العربية.

لكن الإنسان يعمل يومياً بالجسد أو العقل
عملاً محدداً، مما يؤكد كرامته،
واهتمام السماء بكل طرقه؛
بينما الحيوانات الأخرى لا تعتبر عاملة،
والله لا يولي اهتماماً بما تفعله.
غداً قبل أن ينير الصبح الشرق
بأول خيوط أنواره، علينا النهوض،
والقيام بعملنا الممتع، فنصلح
الأشجار المزهرة، وهناك التجمع الأخضر
وهو ممشانا عند الظهيرة، بغصونه المفرطة النمو
التي تسخر من رعايتنا الهزيلة وتتطلب
المزيد من أيدينا لتشذيبها:
وهذه البراعم أيضاً، وقطرات الصمغ،
فهي مبعثرة خشنة قبيحة المنظر،
لا بد أن نزيلها، إن أردنا السير بسهولة؛
والآن، بإرادة الطبيعة، يدعونا الليل إلى الراحة.
التفتت حواء إليه بكامل الجمال الذي يزينها

يا خالقي ومنشئي، ما تطلبه أنت مني
أطيعه بلا جدال، هكذا الله أمر،
فالله قانونك وأنت قانوني: فعدم معرفة الكثير
هي المعرفة الأسعد للنساء والأكثر ثناء.
إن محادثتي معك تنسيني الزمن كله،
كل الأوقات وتغيراتها، وكلها تسر وتبهج.
ما أطيب أنفاس الصباح، وشروقه العذب،
مع صداح الطيور المبكرة؛ ما أطيب الشمس
حين تنشر أولاً على البر المشرق
أشعتها الشرقية، على العشب والشجر والثمر والزهر
فتلمع مع الندى، وبالعطر تخصب الأرض
بعد الزخات الناعمة؛ وما أطيب قدوم
المساء الجميل الطري، ثم الليل الصامت
مع طيره الوقور وقمره الجميل،
وجواهر السماء، وقطارها النجومي:
ولكن لا أنفاس الصباح عندما يصعد
بصداح طيوره الباكرة، ولا الشمس المشرقة

على هذه الأرض الطيبة، ولا العشب والثمر والزهر
المتلألئة مع الندى، ولا الشذى بعد الزخات،
ولا المساء الجميل الطري، ولا الليل الصامت
بطيره الوقور، ولا المشوار في ضوء القمر،
أو نور النجم المنير – حلوة مِنْ غيرك.
ولكن لماذا ينير الليل كل هذا، ولمَن
هذا المشهد المجيد، حين يُطبِق النوم كل العيون؟
وعليها ردّ جدنا الأول.
يا بنت الله والإنسان[1]، حواء المكتملة،
لكل مساره يجب أن ينهيه، حول الأرض،
عند مساء الغد، ومن بلد إلى بلد
وفق نظام، مع الأمم التي لم تولد بعد،
فتوزع نورها الجاهز، فتغيب وتظهر؛
وإلا استعادت الظلمة في الليل
ملكها القديم، وقضت على الحياة
في الطبيعة وعلى كل الأشياء التي هذه النيران

(1) حواء: لأنها من الله ومن آدم. فالله وآدم أبواها.

الناعمة لا تنيرها فقط، بل تقدم الحرارة اللطيفة
من شتى التأثيرات فتدفئها وتمدها بالحرارة،
فتقويها أو تغذيها، أو يتدفق في قسم منها
نور النجوم على كل الأنواع فينميها
على الأرض، ويجعل العشب يتلقى
الاكتمال من أشعة الشمس القوية.
إن هذا، وإن كنا لا نراه في عتمة الليل،
لا يشرق عبثاً، ولا تعتقدي أن السماء، إن غاب البشر،
تحتاج إلى مشاهدين، وأن الله يحتاج إلى مادحين؛
فملايين المخلوقات الروحية تمشي على الأرض
غير منظورة، عندما تستيقظ وعندما تنام:
كل هؤلاء يمتدحون أعماله بلا توقف
في الليل والنهار: فكم من المنحدرات
الجبلية أو الغابات الكثيفة سمعنا
أصواتاً سماوية في هواء منتصف الليل،
فرادى أو ينضم إلى نغم الآخرين
فينشدون للخالق العظيم: الأغلب في جوقات

بينما يتابعون المراقبة، أو طوافهم الليلي،
مع الإيقاع السماوي لأصوات الآلات
في انسجام هرموني، فأغانيهم
تتقاسم الليل، وتصعد بأفكارنا إلى السماء.
هكذا تحدثا وهما يعبران يداً بيد وحيدين
إلى عريشتهما المباركة؛ كانت مكاناً
اختاره المزارع الحاكم، عندما خلق
كل الأشياء للبشر، ليستخدماها بفرح؛ السقف
غطاء كثيف مجْدول من أغصان
الغار والآس الظليلة، وما نما عالياً
من أوراق متينة وذات عبير؛ على كل جانب
أكانتوس[1]، وكل شجيرة عليق عطرة
كسياج للسور الأخضر؛ فكل زهرة جميلة

---

(1) نبات شائك صنف تحت اسم الأقنثا. ووضع على الجانبين لحماية من بداخل العريشة، وكذلك العليق العطر.



فاتجهوا إلى العريشة مباشرة،
بحثاً عمن يسعون للقبض عليه، فوجدوه هناك (٤: ٧٩٨)

من سوسن أو ورود أو ياسمين
ترفع رأسها عالياً وقد تبرعمت وانتظمت بين
[٧٠٠] الأغصان، والموزاييك المزخرف، بأرضية البنفسج،
والزعفران والهايسنت بترصيع غني
يزخرف الأرض، بألوان أغنى من ألوان

الأحجار الكريمة: وأي مخلوق أخر هنا
من حيوان أو طير أو حشرة أو دودة لا يدخل؛
وكلها تخاف الإنسان. والعريشة الظليلة
الأكثر قداسة وعزلة، حتى في الخيال
لا يمكن أن ينام فيها بان أو سلفانوس، ولا حورية
ولا فاونوس[1] الجوال. هنا في المخدع المغلق
بالأزهار والغار والأعشاب العطرية
زينت الزوجة حواء سريرها الزوجي الأول
وجوقات السماء تنشد أغاني الزفاف،
في اليوم الذي فيه ملاك الزفاف جاء إلى سيدنا
وأحضرها بجمالها العاري الأكثر زينة
وجمالاً من باندورا[2]، التي وهبها آلهة

(1) بان وسلفانوس وفاونوس آلهة خصب وغابات من نوع الساتير أي النصف الأعلى إنسان ومن الخصر فما دون ماعز. وقد اشتهروا في الميثولوجيا اليوناني- الرومانية.
(2) باندورا خلقها زيوس انتقاماً من بروميثيوس سارق النار وطلب من الآلهة أن يقدموا أجمل هداياهم التي ملأت الصندوق وكانت الحسد والغيرة والأمراض ... الخ ولما رفضها بروميثيوس قدمت إلى أخيه إبيميثيوس... ولما فتحت باندورا الصندوق انتشرت الأوبئة والأمراض والشرور وملأت العالم.

السماء هداياهم، وهي تشبهها
في الحادث الأليم، عندما ابن يافث[1]
المتهور استلمها من هرمس، فجُنّ
البشر بمنظرها الجميل، لتنتقم
ممن سرق من جوف النار الأصلية.
لدى وصولهما كوخهما الظليل وقفا
والتفتا وتحت السماء المكشوفة صليا
لله الذي صنع السماء والهواء والأرض السماء
التي ينظران إليها، والقمر الكرة المضيئة
وسماء النجوم: أنت أيضاً صنعت الليل
أيها الصانع الجبار، وأنت صنعت النهار
الذي نفذنا فيه عملنا المحدد
وأنهيناه بسعادة في تعاون متبادل
وحب متبادل، وهو تاج كل بركاتنا
التي وهبتها لنا، وهذا المكان الجميل

---

(1) يافث بن نوح. ولا ندري لماذا اختاره وحده بديلاً عن إيابيتوس والد بروميثيوس وإبيميثيوس؟

الأوسع مما نحتاج، حيث وفرتك تحتاج
إلى مشاركين، فالثمر لا يقطف بل يسقط أرضاً.
وقد وعدتنا كلينا بعرق
يملأ الأرض، وسوف معنا يمجد
الخير غير المحدود، كلما صحونا من النوم،
وعندما نسعى إلى نعمة النوم كما نحن الآن.
قالا هذا أما بقية الشعائر الأخرى
فلم يقوما بها، إلا العبادة النقية، وهي
التي هي الأحب إلى الله، دخلا عريشتهما
يداً بيد، وخلعا بسهولة
الأقنعة المزعجة التي نرتديها،
واستلقيا جنباً إلى جنب، وأعتقد أن آدم
لم يبتعد عن زوجته الجميلة، ولا حواء رفضت
ممارسة الطقوس السرية للحب الزوجي:
مهما تحدث المنافقون متشددين
عن النقاء والمكان والبراءة،
واتهموا بالدنس ما أعلنه الله

طاهراً، فأمر البعض وترك الحرية للجميع[1].
خالقنا يأمر بالتكاثر، فمن يأمر بالزهد
سوى المخرب، عدو الله والإنسان؟
تحية للحب الزوجي، للقانون السري، للمصدر الحقيقي
للذرية البشرية، للملكية الفردية،
في الفردوس لكل الأشياء العامة الأخرى.
أنت أبعدت شهوة الزنا عن البشر
وأبحتها بين القطعان الحيوانية، وأنت
أسست في العقل علاقات الولاء والعدل والنقاء،
علاقات عزيزة على الإنسان، وكل عفة الآباء
والأبناء والإخوة عرفت لأول مرة.
أنت أعلى من أن أكتب أنك أخطأت أو ألومك
أو أفكر بأنك لا تستحق أقدس مكان،
أو لست النبع الدائم للمسرات المنزلية،

---

(1) نلاحظ تناقضاً في كلام ملتون فقبل بضعة أبيات يقول إن آدم مارس الجنس مع حواء قبل السقوط، ومن جهة يرى أن العلاقة الزوجية لم تكن إلا بعد السقوط.

أو أنكر طهر فراشك وعفتك الظاهرة حاضراً
وماضياً، على عادة القديسين والبطارقة
هنا الحب[1] يطلق سهامه الذهبية، هنا يضيء
مصباحه الدائم، وأمواج أجنحته الأرجوانية،
فيحكم هنا ويمرح؛ وليس في الابتسام المشترى،
من العاهرات، بلا حب ولا فرح ولا معزة
وصال[2] عابر، ليس من الحب البلاطي
رقص خليط، أو قناع فاسق، أو مجون منتصف الليل،
أو السيرنادة التي يغنيها العاشق الولهان[3]،
لحبيبته المتعجرفة، والأفضل أن يهجرها مزدرياً.
وعلى هدهدة العنادل تعانق آدم وحواء وناما،
وعلى أطرافهما العاريين كان السقف المزهر
يمطر الورود، التي تصلح في الصباح. ناما
أيها الزوجان المباركان؛ فأنتما الأسعد إن لم

---

(1) يعامل الحب كمعاملة الأدباء القدامى لكيوبيد، فيجعله يحمل السهلم ويسدد...

(2) الوصال fruition أي الذي ينجب، والمقصود الاتصال الجنسي.

(3) يسخر هنا من الحب البلاطي أو الرومانسي ويخص منه مغني السيرنادات تحت شرفة العشيقة، زاعماً طهر الذيل والنية.

تسعيا إلى حالة أسعد، وتعلما ألا تتعلما المزيد.
يقاس الآن الليل بزاوية ظله
الممتدة إلى نصف هضبة هذه القبة التي تحت القمر.
والشيروبيم من بوابتهم العاجية
وقفوا في الوقت المعتاد مسلحين
للمراقبة الليلية، في استعراض حربي،
بينما تكلم جبريل إلى تاليه في السلطة:
يا عزيئيل[١] خذ نصف هؤلاء واتجهْ جنوباً
وراقبْ بدقة، وأنا آخذ البقية إلى الشمال،
وتلتقي دائرتنا تماماً في الغرب. فانطلقوا مثل اللهب
نصف إلى راية الترس ونصف إلى راية الرمح.
ومن هؤلاء استدعى اثنين قويين وذكيين من الأرواح
كانا يقفان بالقرب منه، وسلمهما المهمة كالتالي:
يا إيثورئيل ويا زيفون[٢]، بجناح السرعة

(1) الاسم الموجود في التوراة يخص إنساناً أرضياً، بينما في التلمود يخص ملاكاً، ومعنى اسمه «قوة الله».

(2) اسمان من ابتكار ملتون. الأول يعني «اكتشاف الله» والثاني «الباحث» فلا وجود لهما في التوراة.

فتشا هذه الجنة، ولا تتركا ركناً منها،
واهتما جداً بالركن الذي يسكنه المخلوقان الجميلان،
اللذان ينامان الآن آمنين من كل أذى.
ففي هذا المساء من مهبط الشمس وصل
من أخبرنا عن روح جهنمية شوهد متجهاً
إلينا (من كان يفكر في هذا؟) هارباً من
قضبان الجحيم، حتى يرتكب الشر ولا شك:
فأينما وجدتماه اقبضا عليه وأحضراه إلي.
هكذا قال ثم قاد مجموعاته المشرقة، التي
أذهلت القمر؛ فاتجهوا إلى العريشة مباشرة،
بحثاً عمن يسعون للقبض عليه فوجدوه هناك
مقرفصاً مثل علجوم، بالقرب من أذن حواء؛
يحاول كل فنونه الشيطانية ليصل
إلى أعضاء خيالها، وفيها يصوغ
الأوهام والخيالات والأحلام كما رتبها
أو بسمه الموحي، قد يلوث
الأرواح الحيوانية التي تصعد من دم صاف

مثل أنفاس لطيفة من نهر نقي، فتثير
على الأقل أفكار السخط والتمرد
وآمال وأهداف فارغة ورغبات جامحة
فتكبر مع الأفكار الكبرى فتنجب الكبرياء.
إليه قصد إيثورئيل برمحه
فمسه مساً خفيفاً؛ إذ لا شيء مزيفاً يحتمل
لمسة سماوية قاسية، فأعاد
القوة إلى حقيقتها فيه: فنهض وبدأ
يفتضح فجأة. وكما تندلع شرارة
في كومة من البارود جهزت
لتخزن في برميل وتوضع في أحد المخازن
استعداداً لحرب يشاع عنها، تشتعل
الحبيبات فتنصهر فجأة وتتصاعد جواً:
هكذا استعاد شكله الشيطاني الخاص.
فتراجع الملاكان الجميلان شبه مندهشين
إذ فجأة شاهدا الملك الشنيع؛
لكن الخوف لم يؤثر فيهما، فتقدما بسرعة.

من أي أرواح متمردة محكومة بالجحيم
أتيت، ولماذا هربت من السجن وحوّلت نفسك
لماذا مثل الأعداء رحت تتربص
هنا تراقب عند رأس هذين النائمين؟
قال الشيطان وقد شحن سخطاً، ألا تعرفان
من أنا؟ عرفتما مرة أنكما لستما من أندادي
فحيث أجلس لا تجرؤان على التحليق؛
إذا لم تعرفاني تكونان أنتما غير معروفين،
من الطبقة الدنيا في صفوفكما؛ وإن عرفتما
فلماذا تسألان، وقد بدأتما رسالتكما بداية
سخيفة، ومثل البداية تكون النهاية؟
فرد زيفون مجيباً ازدراء بازدراء.
أيها الروح المتمرد لا تفكر أن شكلك هو نفسه،
وأن بريقك لم يتقلص، حتى تعرف
كما كنت تقف في السماء منتصباً نقياً؛
فذلك المجد حين لم تعد خيّراً
تخلى عنك، فأنت الآن تشبه

خطيئتك ومكان دينونتك المظلم والحقير.
ولكن هلمّ، كن متأكداً بأنك سوف تقدم الحساب
له، لمن أرسلنا، الذي وظيفته أن يحرس هذا
المكان فلا تُنتَهك حرمته، ويحمي هذين من الأذى.
هكذا تكلم الشيروبي وتقريعه القاسي
أضاف إلى جمال الشباب نعمة
منيعة: فوقف الشيطان خجلاً،
وشعر كم هو مرعب الخير، وشاهد
الفضيلة كم هي جميلة في شكلها، رأى فشكا
خسارته، وبالأخص وجد هنا أنهما لاحظا
انطفاء مجده المرئي؛ ومع ذلك بدا
غير خائف. فقال إن توجّب الصراع
فالأفضل للأفضل، أصارع المرسِل وليس الرسول،
أو الجميع دفعة واحدة، وسأكسب المزيد من المجد،
أو أفقد القليل. قال زيفون الشجاع: خوفك
سيجنبنا عمل مَن أقلنا يستطيع القيام به
بمفرده ضدك أيها الشرير، وبالتالي، الضعيف.

لم يجب الشيطان، فامتلأ غيظاً
لكنه ذهب معهما كمهر مزهو وملجم
يعض شكيمته الحديدية: أن يكافح أو يهرب!
رأى في ذلك عبثاً؛ فالرعب الذي من علٍ
حل في قلبه، ولا شيء غيره أضعفه. فاقتربوا
من الموقع الغربي، حيث حراس نصف الدائرة
التقوا للتوّ، فاصطفوا في فرقة واحدة
منتظرين الأمر التالي. وإليهم رئيسهم جبرائيل
من المقدمة توجه صائحاً بصوت عال.
أصدقائي، سمعت دبيب أقدام
تسرع في هذا الطريق، والآن ألمح
إيثورئيل وزيفون من خلال الظل،
ومعهما ثالث بهيئة ملكية،
ولكن روعته تضاءلت وانطفأت؛ ومن مشيته
وتصرفه العنيف يبدو أنه أمير الجحيم،
ولا أظنه يعود من دون نزاع؛
اثبتوا، ففي منظره بدا التحدي.
ما كاد ينتهي، حين اقترب الاثنان

فسردا باختصار مَنْ أحضرا، وأين وجداه، وبأي
شيء كان يعمل، والشكل والوضع الذي كان فيهما.
وبنظرة صارمة تحدث إليه جبرائيل.
لماذا أيها الشيطان خرقت الحدود التي رسمت
لانتهاكاتك، وشوشت مهمة
الآخرين، الذين لا يريدون الانتهاك
على غرارك، بل لديهم سلطة وحقّ
سؤالك عن اقتحامك الجريء لهذا المكان؛
فهل تريد انتهاك النوم، وذينك
اللذين أسكنهما الله في هذه النعمة؟
ردّ عليه الشيطان بجبين مزدرٍ
يا جبرائيل، أنت مقدر في السماء لحكمتك،
وأقدرك لهذا؛ ولكن هذا السؤال الذي سألت
يجعلني في شك. هل يعيش هناك[1] من يعشق عذابه؟
ومن إذا سنحت فرصة لا يهرب من الجحيم،
وإن حكم عليه البقاء؟ لا شك أنك نفسك،
تفعل ذلك وبجرأة تهرب إلى أي مكان

(1) يقصد في الجحيم.

بعيداً عن العذاب، حيث يأمل بتغيير
العذاب إلى الأسهل، وقد أسرعت لتعويض
الألم بالفرح، الذي بحثت عنه في هذا المكان؛
ليس لديك سبب؛ فأنت لا تعرف سوى الخير،
والشر لم تجربه: فهل تعترض
على إرادة من قيدنا؟ فليطبق قضبان
بواباته الحديدية، إن كان يريد احتجازنا
في ذلك الحبس المظلم: وهذا يكفي للرد عما سألت.
الباقي صحيح، فقد وجداني حيث يقولان:
ولكن هذا لا يعني العنف أو الأذى.
قال هذا بازدراء. فغضب الملاك المحارب
وبنصف ابتسامة مزدرية ردّ عليه هكذا.
فقدنا واحداً في السماء يميز لنا الحكمة[1]
منذ سقوط الشيطان، الذي طردته حماقته،
والآن تعيده حماقته من سجنه هارباً،
وراح يشك إن كان من أمسكوا به ذوي حكمة
أم لا، من سألوه أي جرأة جاءت به إلى هنا

(1) جاء الرد ساخراً مثل رد الشيطان نفسه وبالطريقة ذاتها.

متحللاً من قيوده المحكوم بها في الجحيم؛
وهكذا يرى الحكمة في الهرب من العذاب
بأي طريقة، وكذلك التهرب من العقاب.
فاحكم بكل وقاحة، حتى يحل الغضب المستحق
لهربك، وقد يضاعَف عقابُ هربــِـك سبع
مرات، وبالسوط تعود تلك الحكمة إلى الجحيم،
ولن تتعلم أفضل من هذا، إذ لا عذاب
يساوي غضب السرمدي عندما يثور.
ولكن لماذا أنت وحيد؟ لماذا معك
لم يأت كل من في الجحيم؟ فهل عذابهم
أقل، فلا يهربون، أم أنت أقل
تحملاً للصعاب منهم؟ أيها الزعيم الشجاع،
يا أول من فرّ من العذاب، فلو أطلعت
حشدك المهجور على سبب هربك،
لما كنت جئتك وحدك لاجئاً.

ردّ الشيطان على هذا بقسوة مكفهرة.

لست أقل تحملاً، أو أتلوى ألماً،
أيها الملاك المهيب، لو عرفت أنني واجهت

أعنف ما لديك، حين استعنت في المعركة
بالصاعقة الناسفة فهرب الجميع
ولكن ليس خوفاً من رمحك.
ولكن لا تزال كلماتك عشوائية، كما من قبل،
تدلّ على عدم خبرتك بتقدير ما
يستحقه بعد خوض معارك وهزائم سابقة
قائد مخلص، ليس عليه أن يخاطر بالجميع
عبر طرق مهلكة لم يجربها بنفسه،
فأنا وحدي أول من أخذ على عاتقه
أن أخلص من تلك الهوة المعزولة، وأتجسس
على هذا العالم المخلوق حديثاً، ففي الجحيم
لا تصمت شائعة، فطمحت هنا أن أجد
مسكناً أفضل، وقواتي المنكوبة تستقر
هنا أو على الأرض، أو في وسط الجوّ؛
ومن أجل السيطرة حاولْ مرة أخرى
ما تجرأتَ عليه أنت وفيالقك السعيدة؛
التي كل عملها السهل أن تخدم سيدها
في أعالي السماء، بأناشيد تمدح عرشه،

وتتدرب على المسافات لتركع لا لتحارب.
فردّ عليه الملاك المحارب بسرعة:
تقول أو لا تقول الصدق، تدعي أولاً الحكمة
لتهرب من الألم، ثم تعترف بالتجسس،
هذه ليست حجج قائد، بل جاسوس كذاب،
ثم تضيف أيها الشيطان كلمة «مخلص»؟ يا للاسم،
يا للاسم المقدس للإخلاص كيف تدنس!
مخلص لمن؟ لجماعة المتمردين؟
لجيش الشياطين، جسد مناسب لرأس مناسب؛
أكان نظامك وإيمانكم العاملين على
الطاعة العسكرية للتحلل من
ولائكم للفائق القوي المعترف به؟
وأنت أيها الماكر المنافق، الذي يريد أن يظهر
نصير الحرية، ألم تكن وقتها
أكثر الزاحفين والمتملقين والمندفعين لعبادة
ملك السماء المرعب؟ أليس أملاً في
أن تعزله، وتحكم مكانه؟

ولكن لاحظ ما أنصحك به الآن، غادر؛
وعد إلى حيث هربت: ومن تلك الساعة
إن ظهرت داخل هذه الحدود المقدسة،
فسوف أجرك مقيداً إلى الحفرة الجهنمية
وأختم عليك، حتى لا تسخر من بوابات
الجحيم السهلة الفتح وقضبانها الخفيفة.
هكذا هدده، ولكن الشيطان لم
يكترث، بل اشتعل غضباً وأجاب.
حين أكون أسيرك تحدث عن القيود،
يا حارس الحدود المتعجرف، ولكن قبلئذ
توقع أن تشعر بأثقل الأحمال
من يدي المسيطرة، وإن كان ملك السماء
يركب على جناحيك، وأنت وأقرانك
اعتدتم على النير، يجرون عرباته المنتصرة
في المواكب على طريق السماء المعبدة بالنجوم.
وبينما كان يتكلم توهج فيلق ملائكي
وتحوّل إلى حمرة نارية، وبقرون هلالية جمعوا
كتائبهم، وطفقوا يطوقونه ويلتفون
بحرابهم المشهرة، بكثافة مثل حقل

من القمح الناضج للحصاد وقد تمايلت
رؤوس سنابله، مع الريح التي



وهرب متذمراً، ومعه هربت ظلال الليل (٤: ١٠١٤)

تؤرجحها؛ بينما وقف الفلاح القريب قلقاً
أن دراسة المحصول لا تأتيه بالحنطة
[٩٨٥] بل بالتبن. وفي الجانب الآخر استعد

الشيطان جامعاً جبروته فوقف ممتداً
مثل تنريف أو أطلس[1] الراسخان:
قامته طالت السماء، وعلى عرفه
جلس الرعب بخوذته؛ وكان في قبضته
ما بدا مثل الرمح والترس معاً: أحداث مرعبة
قد تحصل الآن، ليس في الفردوس وحده
في هذه المعمعة، بل قد تطال قبة نجوم
السماء، أو ربما كل العناصر في النهاية
قد يصيبها الدمار، فتضطرب وتتمزق
من عنف هذا الصراع، لو لم فوراً
يمنع السرمدي هذا الاشتباك المرعب
فيعلق في السماء ميزانه الذهبي[2]، الذي لا نزال
نراه بين برج العذراء وبرج العقرب،

(1) تنريف جبل في جزر الكناري، كان يعتقد أنه الأعلى في العالم. وأطلس جبل في مراكش، كان يعتقد أنه دعامة السماء.
(2) يتذكر ملتون هنا وصف هومر في الإلياذة كيف وضع زيوس كفتي ميزان تمثل كل واحدة جيشاً: جيش الإغريق وجيش الطرواديين، ويلعب في الميزان حسب إرادته مشرفاً على الحرب.

حيث يزن أولاً كل الأشياء التي خلقها،
التي تنوس حول الأرض بهواء مقدر
في توازن، والآن يزن كل الأحداث،
والمعارك والممالك: ففي هذا يضع ثقلين
هما نتيجة الابتعاد ونتيجة القتال؛
فارتفعت الكفة الأخيرة، وصدمت العارضة؛
التي كان جبريل يراقبها، فخاطب الشيطان؛
أيها الشيطان! أعرف قوتك وتعرف قوتنا،
التي منحناها وليست منا؛ فأي حماقة
في التفاخر بما تفعله الجيوش، ما دام جيشك
ليس أكثر مما تسمح به السماء، ولا جيشي، وإن
كان مضاعفاً الآن بحيث أدوسك كالمستنقع، وللتثبت
أنظر إلى الأعلى واقرأ حظك في الإشارة السماوية
حيث وزنت وبدا وزنك خفيفاً، فكم أنت ضعيف
إن قاومت. فنظر الشيطان إلى أعلى وعرف
ميزانه الصاعد: ليس كثيراً، ولكنه هرب
متذمراً، ومعه هربت ظلال الليل.

* * *

الكتاب الخامس

الخلاصة:

يقترب الصبح فتروي حواء لآدم حلمها المزعج؛ فلم يعجبه، ومع ذلك عزاها: خرجا إلى عملهما اليومي: ترنيمة الصباح تتلى عند باب العريشة. وحتى يساعد الله الإنسان فلا يكون له عذر غير مقبول أرسل إليه رفائيل لينذره من عصيان طاعته، ويحذره من حالته الحرة، وليخبره عن عدوه القريب جداً منه؛ مَنْ هو ولماذا هو عدوه، وكل الأشياء الأخرى التي يستفيد آدم من معرفتها. يهبط رفائيل[١] إلى الفردوس، يصف مظهره، ومعرفة آدم بوصوله ومن بعيد يراه جالساً على باب العريشة؛

(1) رفائيل من رؤساء الملائكة، يعمل رسولاً بين السماء والأرض. في العبرية كلمة رفائيل تعني «الله الشافي» ويظهر في سفر طوبيت، وهو من الأسفار الأبوغريفية، حيث يتخذ شكل إنسان ويساعد طوبيت على طرد الجني أسمونديوس. رؤساء الملائكة الآخرون هم ميخائيل وجبرائيل ويورئيل؛ وكل واحدة معين على ربع العالم حسب الجهات الأربع الأساسية.

فيخرج لملاقاته، يصطحبه إلى مسكنه، ويفرحه بأفخر ثمار الفردوس التي قطفها مع حواء؛ نقاشهما حول المائدة: ينفذ رفائيل رسالته، يذكر آدم بحاله وبحالة عدوه؛ ويروي لآدم قصة ذلك العدو، وكيف صار عدواً، بدءاً من تمرده الأول في السماء، وسبب ذلك؛ وكيف سحب فيالقه خلفه إلى أنحاء الشمال، وهناك حرضهم على العصيان معه، فأقنع الجميع عدا عبدئيل وهو من السيرافيم، الذي ناقشه وعارضه ثم هجره.

* * *

الصبح يخطر الآن بخطوات وردية[1] في تسلقه الشرقي
يتقدم ناثراً على الأرض اللؤلؤ الشرقي،
فاستيقظ آدم، كما اعتاد، لأن نومه
كان نوماً هوائياً خفيفاً، بسبب الهضم الكامل
ولطف أبخرته الخفيفة، التي يكفي صوت فقط
من الأوراق وأبخرة الجداول، ومروحة أورورا[2]
فتطردها بلطف، وأغاني الصباح العذبة



يتكئ نصف جالس، بسيماء الوله العميق انحنى فوقها متولهاً (٥: ١٢...)

---

(1) في الأوديسة يستخدم هومر «أصابع الفجر الوردية» فاستخدم ملتون «الخطوات الوردية».

(2) أورورا: ربة الفجر.

تصدح بها الطير على كل غصن؛ وازداد
دهشة حين وجد حواء لم تستيقظ بعد
وخصلات شعرها على غاربها، وخداها متوردان،
كما لو أن راحتها مشوشة: فهو على جانبه
يتكئ نصف جالس، بسيماء الوله العميق
انحنى فوقها متولهاً، وشاهد
جمالها، الذي في اليقظة أو النوم
يطلق آلاءه الخاصة بها، ثم بصوت
رقيق، كما لو أن زفيروس[1] ينفح على فلورا،
كذلك لمس يدها بنعومة، هامساً هكذا. هبي
أيتها الأجمل، يا زوجي، يا ضالتي الأخيرة،
يا آخر أعظم عطية من السماء، يا فرحي المتجدد دائماً
انهضي، فالصبح أشرق، والحقل النضير
يدعونا، سبقتنا باكورة النهار، لنرى كيف يبرعم

(1) زفيروس هو رب الرياح الغربية، وفلورا هي زوجته، وهي ربة الأزهار عند الرومان.

نبتنا الذي نربيه، وكيف تتفتح أجمة النارنج،
وكيف يقطر شجر المرّ، وينمو قصب النخيل،
كيف ترسم الطبيعة ألوانها، وكيف النحل
يحط على البرعم يمتص حلو الرحيق.
على هذه الهمسات أيقظها، وعينها قلقة
على آدم، الذي عانقها فتحدثت إليه.
أيها الوحيد الذي فيك ترتاح أفكاري،
يا مجدي ويا اكتمالي، سررت برؤيا
وجهك، وعودة الصباح، لأني في هذا الليل
الذي حتى الآن لم يمر عليّ مثله، أبصرت حلماً،
ليس كما اعتدت، فلم أشاهدك،
تعمل طوال النهار، أو تخطط للغد،
بل أبصرت إساءة وكدراً، عقلي لم
يعرف هذا قبل هذه الليلة؛ فقد بدا لي
أن أحداً قريباً من أذني يدعوني إلى إتباع
الصوت اللطيف، ظننته صوتك؛ قال،
لماذا تنامين يا حواء؟ الآن أوان المتعة،

البرودة والصمت، تماماً حيث يستسلم الصمت
لعندليب الليل الصداح، الذي استيقظ الآن
يترنم بأعذب أغاني العمل الجميلة، الآن
يحكم مدار القمر الكامل، وبنور جميل
يزيل الظلال عن وجه الأشياء؛ فيكون عبثاً[١]
إذا لم ينظر إليها أحد؛ واستيقظت السماء بكل عيونها
ومن ترى غيرك يا رغبة الطبيعة،
فكل الأشياء تسعدك، مفتتنة
مأخوذة لا تحدق إلا فيك[٢].
فلما صحوت لندائك، لم أجدك؛
وحتى أجدك قمت بمشواري؛
وتابعت، وأنا أظن أني وحدي أعبر الطرقات
التي أوصلتني فجأة إلى شجرة
المعرفة المحرمة: بدت جميلة،

---

(1) كلام الصوت هنا يتناقض مع كلام آدم لحواء في الليلة السابقة. يمكن أن يقارن «عبثاً» هنا مع نقيضها في ٤: ٦٦٨- ٦٨٠.

(2) قارن هذا الكلام بما ورد في ٤: ٤٦٧- ٤٧٢ فهناك تناقض بين الكلامين.

أجمل بكثير مما تخيلتها في النهار:
وبينما أنظر مندهشة، وقف بالقرب منها
شكل مجنح كأنه واحد من السماء
نرى كثيراً من أمثاله؛ خصلاته الندية تقطر
أمبروزيا[1]؛ وبتلك الشجرة يحدق؛
قال لها، يا أجمل نبتة، مثقلة بالثمر،
ألا يتلطف أحد فيخفف حملك، ويتذوق حلاوتك؟
لا إله ولا إنسان، إلى هذا الحد تحتقر المعرفة؟
أم الحسد، أم أمر تحريم تذوقها؟
فليحرم من يحرم، فلا احد يقف حائلاً
دون شوقي إلى الخير المتاح، وإلا لماذا وضعْتِ هنا؟
قال هذا من دون توقف، ماداً ذراعه الجريء
فقطف وتذوق؛ وأنا أرتجف من الرعب الرطب
حين ترافقت الكلمات الجريئة مع الفعل الجريء:
ففرح فرحاً عظيماً بهذا، أيتها الثمرة المقدسة،

(1) في الميثولوجيا اليونانية هو طعام الآلهة، ولكنه أيضاً الزيت الشافي الذي به يمسحون الفانين المختارين.

حلوة أنت في ذاتك، ولكنك أحلى حين تقطفين،
محرمة أنتِ هنا كأنك- على ما يبدو- خاصة
بالله وحده، مع أنك تجعلين البشر آلهة:
ثم لماذا لا يصبح البشر آلهة، ما دام الخير
كلما ازداد تواصلاً ازداد وفرة،
وصاحبه لا يتأذى، بل يشرف أكثر؟
إليها، يا مخلوقاً سعيداً، يا حواء الملائكية الجميلة،
شاركي أنت أيضاً؛ سعيدة أنت الآن،
وستكونين أسعد، وما من أحد أجدر منك بها:
تذوقي هذا، وكوني بين الآلهة
وصيري ربة في ذاتك، وبالأرض لا تقيدي نفسك،
بل في الهواء مثلنا، وأحياناً
تصعدين إلى السماء، بمزاياك الخاصة، وترين
أي حياة يعيش الآلهة هناك، ومثلهم سوف تعيشين.
قال هذا واقترب، وإليّ قدم، بل
حتى إلى فمي، بعض تلك الثمرة نفسها
التي قطفها؛ ففاحت رائحتها الطيبة اللذيذة

ففتحت شهيتي، حتى اعتقدت أنني
غير قادرة ألا أتذوقها. وفوراً ارتفعت إلى السحاب
وحلقت معه، ونظرت تحتي فرأيت
الأرض تمتد واسعة، منظر متسع
ومتنوع: دهشت من تحليقي وارتفاعي
إلى هذا العلو الشاهق؛ وفجأة
اختفى مرشدي فظننت أني أهوي،
وخطفني النوم؛ وكم كنت مسرورة حين صحوت
لأجد أن هذا لم يكن سوى حلم! هكذا روت حواء
حلمها، وهكذا آدم ردّ حزيناً.
يا أعظم صورة لذاتي ويا نصفي الأعز،
اضطراب أفكارك هذه الليلة في النوم
أثر فيّ أيضاً؛ ولا أستطيع أن أحب هذا
الحلم الغريب، فأنا أخاف أن يكون صنيع الشر؛
ولكن من أين يأتي الشر؟ ففيك لا يمكن أن يستقر،
فنقية خلقت. ولكن اعلمي أن في النفس
الكثير من القدرات الصغيرة التي تخدم

العقل باعتباره زعيماً؛ ومن بينها الخيال الذي
يليه في المنصب؛ فمن الأشياء الخارجية
التي تقدمها الحواس الخمس الراصدة
فيشكل الخيالات، والأشكال الهوائية،
التي يجمعها أو يفرقها العقل، فيؤطر
كل ما نثبته أو نرفضه، ونسمي
هذا «معرفتنا» أو «رأينا»؛ ثم يتراجع
إلى زنزانته الخاصة عندما تستريح الطبيعة.
وفي غيابه عادة يصحو خيال يحاكيه
فيقلده؛ ولكن بأشكال لا تتجمع جيداً،
منتجاً أعمالاً بريّة، نراها في أحلامنا بكلمات
متنافرة وأفعال من الماضي البعيد أو القريب.
أعتقد أني أجد تشابهات بين
آخر أحاديثنا المسائية، وبين حلمك هذا،
ولكن مع زيادة غريبة؛ ومع ذلك لا تحزني.
الشرّ في عقل الله أو الإنسان
يمكن أن يأتي ويذهب، وهو غير مستحسن، ولا

يترك لطخة ولا عاراً خلفه: مما يعطيني الأمل
أن الذي في النوم كرهت أن تحلمي به،
فإنك في اليقظة لن تقبلي أن تفعليه.
ولكن لا تنزعجي، ولتذهب الغيمة من نظرتك
بل كوني أكثر فرحاً وهدوءاً
من بسمات الصبح الجميل الأولى للعالم،
ولننهض إلى أعمالنا النضرة بين
الآجام والينابيع والأزهار التي راحت
الآن تكشف الآن عن روائحها الخفية التي خزنتها
في الليل، واحتفظت بها لك في مستودعها.

هكذا أبهج زوجته الجميلة، ففرحت
ولكن بصمت سقطت دمعة رقيقة
من كل عين، فمسحتها بشعرها[١]؛
وتأهبت في كل عين قطرتان عزيزتان،
كل واحد في نافذتها الكريستالية، لكنه قبل سقوطهما
قبلهما كعلامتين لطيفتين عن الندم الخفيف

---

(1) المسح بالشعر يذكر القارئ بمريم المجدلية.

والخوف التقي، فقد خشيت أن تكون أذنبت[١].
هكذا انجلى كل شيء، فأسرعا إلى الحقل
ولكن أولاً من تحت سقف ظليل أخضر[٢]
منذ أن فتحا بصرهما على
فجر النهار، والشمس، التي بالكاد أشرقت
بعجلاتها تطوف فوق حافة المحيط،
أطلقت وابلاً على الأرض من أشعتها الندية،
كاشفة على مدى واسع كامل منظر الشرق
في الفردوس والسهول العدنية السعيدة،
فانحنيا للصلاة وأخذا يتلوان
صلاتهما، التي يكررانها في الوقت الصباحي الدقيق
بشتى الأساليب، فلا شتى الأساليب
ولا النشوة المقدسة تنقصهما حتى يمدحا
خالقهما، بأنغام مناسبة أو ينشدان

(1) خافت من أي شيء وندمت على أي شيء؟ فإن خافت من ثمرة الشجرة فإنها في المنام لم تسفر عن شيء، وإن ندمت على منامها فإن هذا استباق للأمور.

(2) أي سقف العريشة.

بلا تفكير هذه البلاغة الفخمة
المتدفقة من شفاههما، نثراً أو شعراً رقمياً[1]،
ما أجدره بعود أو قيثارة
لمريد من الحلاوة، وهكذا صليا.
هذه أعمالك المجيدة يا أبا الخير،
أيها الجبار، فهذا الكون من صنعك
لذلك هو جميل مدهش، فما أعظم نفسك!
لا توصف، يا من تجلس في السموات
خفياً، أو تنظر بغموض في
الأعمال الدنيا التي صنعت، ومع ذلك فهي تعلن
عن خيرك الذي لا يحيطه فكر، وسلطتك المقدسة:
حدثونا أنتم يا خير المحدثين، يا أبناء النور
أيها الملائكة، لأنكم عاينتموه، وبالأغاني
وسيمفونيات الكورال، في نهار بلا ليل،
تطوفون حول عرشه مبتهجين في السماء،
وفي الأرض جميع المخلوقات تجتمع لتمجده

(1) كان ملتون يرى أن الرياضيات تساعد في نظم الشعر غير الموزون، فيكون هارمونياً أو إيقاعياً بحسب اختيار الرقم المعتمد في أسلوب الأداء.

الأول والأخير والوسط، ولا نهاية له.
يا أجمل النجوم[١]، ويا آخر قطار الليل،
حبذا لو لم تنتم إلى الفجر،
المبشر بطلوع النهار، المتوج للصبح الباسم
بدائرتك المشرقة، سبحه في مدارك
آناء النهار، وفي ساعة البداية العذبة.
وأنت أيتها الشمس، يا عين هذا العالم العظيم ونفسه،
اشكري خالقة، وارفعي له التمجيد
في مسارك الأبدي، حين تصعدين
وفي الظهيرة وحين تهبطين[٢].
أيها القمر،يا من تلتقي بشمس الشرق حيناً وحيناً تطير
مع النجوم الثابتة، ثابتة في المدار الذي تحلق فيه،
أيتها النيران الخمس[٣] الأخرى الهائمة المتحركة
في رقص خفي ليس بلا غناء، رددن

---

(1) نجم الصباح يسمى لوسيفر (المشرق) في النهار وهسبيروس في الليل. وهو الأسطع كما جاء في الإلياذة ٢٢: ٣١٥.

(2) هنا يأخذ بالكونيات البطليموسية.

(3) الكواكب الخمسة وهي الزهرة وعطارد والمريخ والمشتري وزحل.

المديح له، مَن مِن الظلمة أخرج النور.
أيها الهواء، أيتها العناصر الأقدم ولادة
من رحم الطبيعة، يا من تدورين رباعياً[1]
في حلقة أبدية، متخذة أشكالاً متعددة؛ ومختلطة
بكل الأشياء ومغذية لها، دعي تغيرك الأبدي
يتجه إلى صانعنا العظيم بتمجيد جديد.
وأنت أيها الضباب والزفير الذي يتصاعد الآن
من الهضبة أو البحيرة ذات الأبخرة، مكفهرة أو رمادية،
إلى أن ترسم الشمس ثيابك الهفهافة مع الذهب،
ارتفعي لتكريم خالق هذه العوالم العظيم،
إما لتزيني السماء الصافية بالغيوم
أو لتروي الأرض العطشى بالمطر الهاطل،
مجّديه في صعودك أو هبوطك.
مجّديه أيتها الرياح، التي تهب من الجهات الأربع،
ناعمة أو صاخبة؛ وحركي قممك يا أشجار الصنوبر،
مع كل النباتات، في أمواج عبادة.

---

(1) هذه هي نظرية أفلاطون في محاورة «طيماوس» فيرى أن أي عنصر من العناصر الأربعة يمكن أن يتحول إلى سواه.

يا أيتها الينابيع، التي تصدح ما تدفقت
بالهمسات الميلودية، اصدحي بتسبيحه.
وضموا أصواتكم[١] أيتها النفوس الحية؛ أيتها الطيور
التي تنشد صاعدة حتى بوابة السماء،
احملن على أجنحتكم وفي نغماتكم تسبيحه؛
يا من ينزلون الماء، ويا من يمشون على
الأرض، منتصبين أو زاحفين؛
اشهدوا أني إن صمت صبحاً أو مساء،
فالتلال أو الوديان أو الينابيع أو الظلال الندية
نطقت بأغنيتي، وعلمتها تسبيحه.
سبحان سيد الكون، لتكن نعمك وفيرة
وامنحنا الخير وحده؛ فإذا الليل
جمع الشر أو أخفاه،
فبدده، كما يبدد النور الآن الظلام.
هكذا صليا ببراءة، فعاد السلام إلى
فكرهما بثبات سريعاً وسادت الطمأنينة.

---

(1) يعامل غير العاقل لغوياً معاملة العاقل تمشياً مع جو النص الملحمي.

أسرعا إلى عملهما الزراعي الصباحي
بين الندى والأزهار الجميلة؛ حيث صفوف
الأشجار المثمرة المثقلة امتدت واستطالت
بأغصانها، وتحتاج إلى أيد تمتد
لتحد من عناقها العقيم: أو تأخذ الكرمة
لتزفه إلى الدردار؛ الذي اقترن وصارت
أذرعتها الزفافية توائم حوله، وتحضر معها
مهرها من العناقيد التي يتبناها ويزين
أوراقه العاقر. وحين انهمكا في العمل رآهما
الملك الأعلى للسماء الصغيرة، فأرسل إليهما
رفائيل، الروح الأنيس، الذي قبل أن
يرحل مع طوبيا، ويضمن
زواجه من العذراء التي تزوجت سبع مرات.
قال، يا رفائيل سمعت ما جرى على الأرض
فقد هرب الشيطان من الجحيم عبر خليج الظلمات
وحط في الفردوس، وأفسد في
هذه الليلة الزوجين البشريين، وكيف صمّم

عن طريقهما أن يدمر دفعة واحدة كل البشرية.
فاذهب هناك، في الظهيرة، وكصديق إلى صديق
تحدث مع آدم، في العريشة أو الظل
حيث تجده يهرب من حر الظهيرة،
حتى يتناول وجبة نهاره الكادح،
أو تجده في وقت الراحة؛ وتتبادل معه الحديث،
كما يمكن أن ترشده إلى حالته السعيدة، وأن
السعادة هي سلطته إذا تركت الحرية لإرادته،
إذا ترك لإرادته الحرة، إرادته من خلال حريته،
ولكنه متقلب، فحذره أن يكون منتبهاً
حتى لا ينحرف من شدة الثقة: أخبره أيضاً
بالخطر، وممن يصدر، ومن العدو
الذي سقط مؤخراً من السماء، ويتآمر الآن
حتى يسقط الجميع من حالة البركة؛
بالعنف؟ كلا، لأنه يسهل التصدي له،
وإنما بالخديعة والكذب؛ فليعلم آدم
هذا وإلا أخطأ بإرادته متذرعاً

بأنه فوجئ، لم يحذر، ولم يخبر.
هكذا تكلم الأب السرمدي، فحقق
العدل الكامل: فلم يتأخر الملاك المجنح
بعد أن تسلم المهمة؛ ومن بين
ألاف الملائكة السماوية الأخرى، حيث يقف
مستتراً بجناحيه الرائعين، هبّ بخفة وطار
في وسط السماء، وراحت المجموعات الملائكية
على الطرفين، تفسح الطريق لسرعته
عبر طريق الإمبريوم؛ إلى أن عند بوابة
السماء وصل، بوابة تفتح تلقائياً مصراعيها
القائمين على مفصلين ذهبيين، كعمل
مقدس صنعه المهندس الأعلى.
من هناك، لا غيم ولا عائق أمام بصره
ولا نجم يعترضه، رأى الأرض كم هي صغيرة،
ولكنها ليست غير منسجمة مع الكرات البراقة الأخرى،
ورأى جنة الله، مكللة بأشجار الأرز
فوق الهضاب. وكما في الليل منظار

غاليليو[1] من دون تأكُّـــدٍ يراقب
الديار والأقاليم المتخيلة في القمر:
أو قبطان تظهر له وسط سيكلاديس[2]
جزيرة ديلوس أو ساموس مثل
بقعة سحاب. هبوطاً إلى هناك يطير
مسرعاً وعبر السماء الأثيرية الواسعة
يبحر بين العوالم والعوالم بأجنحة ثابت
حيناً على الرياح القطبية، وحيناً يصفق
مغربلاً الهواء المفعم صحة حتى وسط التحليق
يظهر لكل الطيور بين العقبان المحوّمة
فينيقاً يحدق في الجميع ومثل الطائر الوحيد[3]
حين يدّخر ذخائره في معبد الشمس المتوهج

---

(1) أول مرصد يدرس القمر.

(2) سيكلاديس مجموعة جزر في البحر الإيجي. ديلوس جزيرة في وسط هذه الجزر. ساموس جزيرة تقع في الشمال الشرقي للمجموعة.

(3) هو طائر الفينيق. كل ٥٠٠ سنة يعود إلى مدينة الشمس هيليوبوليس. وهناك يتجدد بالطريقة المعروفة عنه. وملتون مثل معاصريه وحد بين هليوبوليس وطيبة.

ويطير إلى طيبة المصرية.
بسرعة على صخرة شرقية من الفردوس
يحط، ويستعيد شكله الخاص
شكــْـل السيراف المجنح؛ ارتدى ستة أجنحة، ليخفي
ملامحه المقدسة؛ والجناحان اللذان لبسهما
على كل كتف عريض، صارا عباءة فوق صدره
مع زينة ملكية؛ والجناحان الأوسطان
يحيطان خصره مثل زنار من النجوم ويلتفان
حول خاصرتيه وفخذيه مزينين بزغب الذهب
وصبغت ألوانهما في السماء؛ وثالث الأزواج
يظلل قدميه حتى العقبين بدرع ريشي
بلون القرمز السماوي. وقف مثل ابن مايا[1]،
وهز ريشه، فملأ عبيره الفواح السماوي
كل الدائرة العريضة. فوراً عرفته كل عصائب

(1) هو هرمس اليوناني أو ميركوري الروماني أو عطارد العربي. ابن مايا بنت أطلس، حملت به من زيوس. وكانت له أجنحة وعصا خاصة وطاقية خاصة... وكان رسول الآلهة. ومن عادة الشعراء أن يشبهوا ملائكة السماء بآلهة اليونان، لأن الوظيفة لم تتغير.

الملائكة الحراس؛ ولعلوّ رتبته،
ولرسالته هبّوا جميعاً تكريماً له؛
فقد حزروا أنه يحمل رسالة عليا.
مرّ بخيامهم البراقة ووصل الآن
إلى الحقل المبارك، عبر أجمات المرّ،
والزهور العطرة، من سنا ونارد وبلسم؛
برية من الجمال؛ لأن الطبيعة هنا
تدعر كأنها في أول المراهقة، وتتدفق
كما يريد خيالها العذري، فتغدق مزيداً من الجمال
البري، المتفوق على القاعدة أو الفن؛ بركة وافرة.
عبر الغابة الفواحة تقدم رفائيل
فرآه آدم، حين جلس عند باب
عريشته المنعشة، بينما صعدت الشمس الآن
وأطلقت إلى الأسفل أشعتها الحارة، لتدفئ
كل رحم الأرض، بأكثر مما يحتاجه آدم؛
وكانت حواء في الداخل في ذلك الوقت تحضر
ثمار الغداء، ذات المذاق المثير



لترى مظهراً مجيداً

يأتي في هذا الطريق (٥: ٣٠٩)

[٣٠٥] للشهية الحقيقية، ولكنه لا يطفئ الظمأ
للجرعات النكتارية[١] خلاله، من النهر العذب
أو ثمر العليق أو العنب: فناداها آدم.

(1) النكتار شراب آلهة الأوليمب.

أسرعي يا حواء، فجدير أن تنظري إلى الناحية
الشرقية من هذه الأشجار، لتري مظهراً مجيداً
يأتي في هذا الطريق؛ يبدو صبحاً آخر
يشرق في قلب الظهيرة؛ ربما يحمل رسالة من السماء
إلينا، وسوف يتعطف هذا اليوم ويقبل أن
يكون ضيفنا، ولكن هيا أسرعي
وأحضري ما في خزائنك واسكبي
الوفرة، بما يناسب تكريم
ضيفنا السماوي[١] الغريب؛ فعلنيا أن نقدم
لمانحينا هباتهم، فالعطاء الكبير من
العطاء الكبير، فالطبيعة وفيرة الخصب
كلما خففنا عنها أعباءها نما
أثمرت أكثر، فنتعلم ألا ندخر.
أجابته حواء. آدم، يا قالب الأرض المقدس
بوحي من الله، يكفينا المخزن الصغير، بينما

---

(1) قارن قصة رفائيل بقصة الضيف السماوي الذي زار إبراهيم وسارة. تكوين ١٨.

مخزن الفصول ينضج على الأغصان فنقطفه؛
إلا ما نخزنه قليلاً حتى يشتد
لغذائنا، بعد أن تتبخر رطوبته:
ولكني سأسرع وآتي من كل غصن
وكل نبتة ومن اليقطين الغض آتي بالمختار
حتى يسر ضيفنا الملاك، فإذا رأى
ذلك فسوف يقرّ أن على الأرض
دفق الله خيره كما في السماء.
قالت هذا وبدت عليها معالم السرعة
فالتفتت، والتكريم يوجه أفكارها
ما نختاره يجب أن يكون الألذ،
وبنظام لا يجعلها تختلط
في المذاق، ولا تجتمع، ومن غير تأنق حتى
تقدم المذاق بعد المذاق فتكون التغيرات منسجمة،
أثارها هذا، ومن كل الأغصان الغضة
الحاملة كل ما تنتجه الأرض، الأم التي تحمل الجميع،
في جزر الهند الشرقية أو الغربية أو الشاطئ المتوسط

وفي ساحل البحر الأسود أو الشمال الأفريقي، أو حيث
يحكم ألسينوس[١]، من كل أنواع الثمار، بقشورها،
خشنة أو ناعمة، أو ملتحية بالوبر، أو قشرة صلبة
جمعتها، تقدمة كبرى، وكوّمتها على المائدة
بيد غير مقترة؛ أما الشراب فقد
عصرت العنب، دون تخمير، ومن مختلف
ثمر العليق صنعت شراباً ومن البذور
الحلوة صنعت قشدة، ليست كتلك التي لا تلائم
أوعيتها النقية، ثم نثرت الأرض
بالورد والريحان من شجيرة ليس فيها بخور.
أثناء ذلك، سيدنا الأول، حتى يستقبل
ضيفه الشبيه بالله، انطلق، بلا حاشية
ترافقه سوى مزاياه الكاملة؛
فحالته كلها موجودة في ذاته.
فكان أكثر وقاراً من الفخامة التافهة التي

---

(1) ملك زاره أوديسيوس وتعتبر بلاده جنة أرضية ذات ربيع دائم. الأوديسة ٧: ١١٥- ١٣٤.

تنتظر الأمراء، عندما حاشيتهم الطويلة
من الخيالة، وسائسي الخيول بطلاء الذهب
يذهلون الحشد، الذين يفغرون أفواههم.
يقترب منه آدم من دون أي وجل، ومع ذلك
بخضوع يدنو وبوداعة وتوقير،
كما لو لطبيعة أسمى ينحني،
قال، يا مواطن السماء، بالنسبة إلى
الأماكن الأخرى، السماء فقط فيها هذه الصورة
المجيدة، وبما أنك هبطت من العروش العليا،
تلك الأمكنة السعيدة التي غادرتها لحظة لحاجة،
وكرمت هذه الديار، فتفضل وقمْ
بزيارتنا، ونحن الوحيدان، اللذان وهبهما الحاكم
هذه الأرض الواسعة، هناك في عريشة ظليلة
فتستريح، وما تحمله الجنة
يقدم حتى تتذوقه، إلى أن يزول وهج الظهيرة
وتنحدر الشمس فتبترد أكثر.
ورد عليه الملاك الفاضل برقة.

آدم، لهذا أنا أتيت، فأنت خلقت هكذا
أو هذا المكان وجد لتسكنه، وكالعادة
تدعو، حتى أرواح السماء،
لزيارتك؛ فقدني إلى حيث عريشتكما
ترمي ظلالها؛ فهذه الساعات الوسطى، ريثما يأتي
المساء أمضيها كما أشاء. وهكذا إلى المسكن الشجري
أتيا، ومثل بومونا[1] بضحكة شجرية ابتسم
بزينة الأزهار وروائح الشذى؛ ولكن حواء
عارية، إلا من جمالها الفتان فكانت أجمل من
عروس الغاب، أو الربة التي ادعت أنها أجمل
الربات الثلاث اللواتي تنافسن عاريات في جبل إيدا[2]،
وقفت للترحيب بضيفها القادم من السماء؛ لا خمار

(1) ربة الثمار عند الرومان.

(2) اختير الأمير الطرودي باريس الذي كان يرعى في جبل إيدا، ليحكم بين الربات الثلاث هيرا وأثنيا وأفروديت، فاختار أفروديت (فينوس عند الرومان، وهي ربة الجمال). وقدم لها التفاحة الذهبية باعتبارها الأجمل بين الربات. وكانت أفروديت وعدت أن تزوجه أجمل امرأة في العالم ووفت بوعدها فزوجته هيلين زوجة منيلاوس، فاندلعت الحرب الطروادية.

احتاجت، فخمارها الفضيلة، ولم تفكر بما
يغيّر خديها[1]. فألقى الملاك عليها السلام،
وهي التحية المقدسة التي استخدمت
بعد فترة طويلة لمباركة مريم، حواء الثانية.
السلام عليك يا أم البشرية، يا من رحمك الخصب
يملأ العالم بأبنائك الأكثر عدداً من
ثمار أشجار الرب
التي كدستها على هذه المائدة. المنصوبة من
النبات الأخضر، وحولها مقاعد من العشب
وعلى مربعها الفسيح من الجانب إلى الجانب تكدست
أغصان الخريف، مع أن الربيع والخريف هنا
يرقصان يداً بيد[2]. وقد تحدثوا لفترة قصيرة؛
فلا خوف أن يبرد الغداء؛ وبدأ
جدنا الأعلى.هيا أيها الغريب السماوي وذق
هذه الخيرات التي يطعمنا منها، مَنْ منه
كل عطية صالحة وكل موهبة نازلة

---

(1) أي ما يخجل.

(2) للتدليل أن المحصول لا ينقطع.

ومن أجل طعامنا وفرحنا جعل
الأرض تنتج؛ ربما هو طعام رديء
للطبائع الروحية؛ كل ما أعرفه
أن أباً سماوياً واحداً وهبها للجميع.
فرد الملاك عليه. لذلك ما يعطيه
للإنسان (فلنسبح بحمده دائماً) روحي في
قسم منه، قد تجده أنقى الأرواح



وعلى هذا أجاب الزعيم المجنح.

يا آدم، الجبار واحد، منه كل الأشياء تنطلق (٥: ٤٦٨...)

طعاماً غير منفر: وهو طعام يشبه الطعام
الذي تتطلبه الجواهر الفكرية النقية
كما يفعل عقلك؛ وكلاهما يتضمن
في داخله كل الملكات الدنيا
من الشعور، الذي به يسمعون، يرون، يشمون، يلمسون
ويتذوقون، ويقومون بالمزج والهضم والتمثل[1]،
ويتحول الجسدي إلى غير الجسدي.
فاعلم أنه مهما كان المخلوق فإنه يحتاج
إلى التغذية والإطعام؛ ومن العناصر يغذي
الأغلظُ الأنقى، والأرض تغذي البحر
والأرض والبحر يغذيان الهواء، والهواء يغذي النيران
الأثيرية، وأول الأقربين القمر؛
في وجهه المستدير بقع، وهي أبخرة
غير نقية، لم تتحول مادتها بعد إلى مادته.
فالقمر لا يستطيع أن يزفر غذاء

(1) أي ثلاث مراحل: تجميع الطعام في المعدة، ثم التحول إلى دم، ثم تأسيس الجسد، والتحول إلى مكوناته المادية والروحية. وعاملنا غير العاقل معاملة العاقل.

من تربته الرطبة إلى المدارات الأعلى.
بينما الشمس مرسلة النور إلى الجميع، تتلقى
من الجميع التعويض الغذائي
على شكل زفرات رطبة، وفي المساء
ترتشف من المحيط: ومع أن في السماء أشجار
الحياة تحمل الثمار الأمبروزية، والكرمة تنتج
النكتار[1]، ومن الأغصان كل صباح ننفض
الندى المعسل، ونجد الأرض
مغطاة بحبات اللؤلؤ: مع أن الله له هنا
مختلف الخيرات مع مباهج جديدة،
يمكن مقارنتها بما في السماء؛ فعليك ألا تظن
أني سأكون شديد الحساسية. وهكذا جلسا،
وتناولا طعامهما، ولا يبدو
أن الملاك كان ضبابياً، حسب التأويل العام
للاهوتيين، ولكن بدافع شديد من
الجوع الحقيقي؛ وحرارة الهضم

(1) الأمبروزا والنكتار: طعام آلهة الأوليمب وشرابهم.

والتحول الجوهري؛ مما يساهم في الارتشاح
من خلال الأرواح بسهولة؛ فلا عجب؛ إن
بسخام الفحم يستطيع الكيميائي التجريبي
تحويل، أو يزعم أنه يمكن تحويل،
معادن الذهب الكامن إلى ذهب كامل
كأنه من المنجم. أثناء ذلك تبدت حواء
عند المائدة عارية، وكانت كؤوس الشراب
الطيب مترعة حتى الجمام: يا للبراءة التي
يستحقها الفردوس! فإن صح ذلك
فإن أبناء الله[1] شاهدوا بشغف
ذلك المنظر؛ ولكن في تلك القلوب
لا يتحكم الحب الشهواني، ولا معنى
للغيرة، ولا لجحيم العشاق المؤذي.
وعندما تناولا ما يكفي من الطعام والشراب
بلا إثقال على الطبيعة، تذكر آدم فجأة
ألا يدع هذه الفرصة تمر،

---

(1) فيما يتعلق بأبناء الله راجع تكوين ٦.

وقد أتيحت في هذا المؤتمر، أن يعرف
الأشياء التي فوق هذا العالم، وعن وجودهم
ومن يسكن في السماء، الذين رأى امتيازهم
يعلو على امتيازه بكثير. وأشكالهم المشعة
تسطع قداسة، وسلطتهم تفوق
سلطة البشر، وراح يتحدث بكلام قلق
إلى الوزير الملكي السماوي.
أنت تسكن مع الله، أعرف جيداً
مقامك، في هذا التكريم الذي تقدمه للإنسان،
وتحت سقفه الخفيض قمت بزيارته
ودخلت فيه، وتذوقت هذه الثمار الأرضية،
وهو ليس طعام الملائكة، ومع ذلك تقبلتها،
وبرغبة شديدة لا يبدو أنك
في ولائم السماء العليا قد طعمتها: فما الفرق؟
وعلى هذا أجاب الزعيم المجنح.
يا آدم، الجبار واحد، منه كل

الأشياء تنطلق، وإليه ترجع،
فإن لم تجرد من الخير، فإن كل المخلوقات
تامة مكتملة، مادة أولى واحدة للجميع،
تظهر في أشكال مختلفة، ودرجات مختلفة
من المادة ومن الحياة، في الأشياء الحية؛
ولكن تكون أكثر صفاء، وأكثر روحانية ونقاء
كلما كانت أقرب إلى مكانه أو أقرب ميلاً،
كل في مداره الفعال المحدد،
إلى أن يرتفع الجسد إلى عمل الروح، في حدود
مناسبة لكل نوع. فمن الجذر
ينبت الساق الأخضر، ومنه تنبت الأوراق
الأكثر هوائية، وأخيراً الزهرة الكاملة المشرقة
فتبعث أنفاسها العطرة: الأزهار وثمارها تغذي
البشر، بارتقاء السلم تدريجياً
إلى الأرواح الحيوية، إلى الحيواني،
وإلى العقلي، فتمنح الحياة والإحساس،
والخيال والفهم، ومنها تتسلم النفس

العقل، والعقل هو كيانها،
المنطقي أو الحدسي؛ فالأول
لكم دائماً، والآخر لنا في الأغلب.
الفرق في الدرجة فقط، في النوع لا فرق.
فلا تدهش إذن أن ما رآه الله خيراً لكم
لم أرفضه، بل إنه يتحول، كما تتحولون،
إلى الجوهر الخاص؛ وسيأتي زمن
قد يتشارك فيه البشر مع الملائكة، فلا تجد
طعاماً غير مناسب، ولا طعاماً أخف:
وربما من هذه الأطعمة المادية
تتحول أجسادكم إلى أرواح،
فتتحسن على مرور الزمن، وتنبت أجنحة
أثيرية، كما نحن، أو تختارون[1]
السكن هنا أو في الفردوس السماوي؛

---

(1) لا يعرف إن كان يخاطب البشر في شخص آدم بلغة الجمع، أم يخاطب آدم وحواء بلغة التثنية. استخدمنا الجمع لأنه يصلح لمخاطبة البشرية وللمثنى في حالة التفخيم.

إن حافظتم على الطاعة، وبقيتم
ثابتين لا تتغيرون عن حب
من أنتم من إنجابه. فتمتعوا
الآن بكل مباهج هذه الحالة السعيدة
المستوعبة، ولا استيعاب أكثر منها.

وعليه ردّ أبو البشرية،

أيها الروح المكرم، أيها الضيف المبشر بالخير
أخيرا علمتنا الطريق الذي يقود
معرفتنا، وسلم الطبيعة جعلته
من المركز إلى المحيط، حيث
بتأمل الأشياء المخلوقة
قد نصعد درجاته إلى الله. ولكن قل
ماذا تقصد بذلك التحذير الذي أضفته: إن
حافظتم على الطاعة؟ فهل نستطيع
التخلي عن طاعته، أو يمكن التخلي عن حب
من خلقنا من تراب، وأسكننا هنا
وغمرنا بأقصى بركة يمكن أن

تسعى إليها أو تحققها الرغبات البشرية؟
فرد الملاك. يا بن السماء والأرض،
أصغ: أنت الآن سعيد، بفضل الله؛
فأنت تواصل هذا بفضل نفسك،
أي بطاعتك؛ فاثبت عليها.
هذا هو التحذير الذي أقدمه لك؛ فاسترشد به.
صنعك الله تاماً، لا ثابتاً؛
وصنعك صالحاً، ولكن لتحتفظ بالصلاح
تركه في قدرتك، وقضى أن تكون إرادتك
ذات طبيعة حرة، لا يحكمها القدر
الذي لا فكاك منه، أو الضرورة الصارمة؛
يطالبنا أن نخدمه مختارين،
وليس مضطرين، فعبادته هكذا
لا يجدها مقبولة، ولا يمكن أن يجدها مقبولة فكيف
يمكن لقلوب غير حرة أن تختبر إن كانت تخدم
بإرادتها أم لا، فمن يريد ذلك وهو مجبر

عليه قدراً، لا يستطيع اختيار غيره؟
أنا وكل حشد الملائكة الماثل
في حضرة الله المتوج، تقوم حالتنا
السعيدة مثلكم، حيث تقوم طاعتنا؛
ولا ضمان غير هذا؛ نخدم بحرية
لأننا نحب أو لا نحب بحرية، وبإرادتنا
نحن؛ وبهذا نصمد أو نسقط:
بعضنا سقط، سقط بسبب العصيان،
ولذا من السماء إلى أعماق الجحيم سقطوا؛ يا أيها
الساقطون من أعلى البركات أي ويل تكابدون!
فرد جدنا الأعلى. كلماتك
مجاملة، وبكل بهجة فرحت أذني،
أيها المعلم المقدس، سمعت الأغاني
الشيروبية[1] حين في الليل من التلال المجاورة
ترسل موسيقاها الأثيرية: فأنا لست جاهلاً
أن إرادتي وعملي خلقا حرين؛

---

(1) الشيروبيم أو الكيروبيم أعلى درجات الملائكة.

ولن ننسى أبداً أن نحب
صانعنا، ونطيعه فقد أمرنا بشيء
واحد، وهذا عدل، وعقلي الثابت
يؤكد ولا يزال يؤكد لي ذلك: ومع أنك أخبرتني
عن ماضي السماء، فقد أثرت فيّ بعض الشكوك،
فأنا راغب أن أسمع، إن وافقت،
السرد الكامل، الذي لا بد أن يكون غريباً،
ويستحق صمتاً مقدساً حتى نسمعه؛
النهارُ أمامنا طويل، وبالكاد الشمس
أنهت نصف رحلتها، وبدأت
النصف الآخر في المنطقة الكبرى للسماء.
هكذا سأل آدم ورفائيل
بعد فترة قصيرة بدأ.
مادة سامية تطلب، يا بداية البشر،
مهمة حزينة وشاقة، فكيف أسرد
لإحساس بشري البطولات غير المرئية
من الأرواح المتحاربة؛ كيف من دون ندم

على الدمار لكثير من الأمجاد التي كانت مرة
كاملة عندما كانت ثابتة؛ كيف أسرد أخيراً
أسرار عالم آخر، ربما
لا يجيز القانون كشفها؟ ولكن من أجل صالحك
سوف أعلنها، وما يتخطى
الشعور البشري، سوف أصوره بدقة،
عن طريق تشبيه الأشكال الروحية بالأشكال الجسدية،
وربما أعبر عنها أفضل، ثم هل الأرض
سوى ظل السماء، والأشياء هناك
تشبه الأشياء هنا، أكثر مما يظن أهل الأرض؟
وقتها لم يكن هذا العالم، وكان الكاوس[1] المتوحش
يحكم حيث تدور السماء الآن، وحيث الأرض تستقر
على مركزها بتوازن، في يوم
(لأن الزمن، وإن كان في الأبدية، يطبق
على الحركة، ويقيس كل الأشياء الجارية
في الحاضر والماضي والمستقبل) في ذلك اليوم

---

(1) الخواء أو الفوضى أو العماء. الكاوس شخصية ميثولوجية.

حالما تمت السنة الكبرى[1] للسماء، اجتمع الحشد الإمبريالي
الملائكي بناء على دعوة إمبريالية،
فاجتمع ما لا يحصى أمام عرش الجبار
وتقاطروا من كل أنحاء السماء
تحت قيادة زعمائهم في تنظيم مشرق
وارتفعت عشرة آلاف الآلاف من الشارات
والرايات والأعلام بين المقدمة والمؤخرة
فرفرفت في الهواء، لتميز
الزعامات والطبقات والدرجات؛
أو تحمل في نسيجها البراق شعاراً من
الذكريات المقدسة، وأعمال الحماسة والحب
منقوشة ببروز. هكذا عندما في المدارات
ذات الدائرة التي لا تحد وقفوا،
المدار داخل المدار، والأب الأبدي،
وفي حضنه المبارك جلس الابن،

(1) السنة الكبرى تقاس بدورة تقوم بها النجوم الثابتة في السماء. يقدرها أفلاطون بـــ ٣٩ قرناً ويقر الآن أنها تقدر بـــ ٣٦،٠٠٠ سنة.

في الوسط كما من قمة جبل ملتهب[1]، قمته
المشرقة جعله غير منظور، فتكلم
تحية أيها الملائكة، أبناء النور، وأصحاب
العروش والسيادة والإمارة والفضيلة والسلطة
اسمعوا قراري، الذي لا يبطل، بل ينفذ.
لقد ولدت في هذا اليوم من أعلنه
ابني الوحيد، وفي هذه الهضبة
مسحته[2]، وهو من ترونه الآن
جالساً عن يميني؛ وعلى رأسكم أعينه؛
وبنفسي أقسمت له أن كل ركبة في
السماء سوف تركع له، وسوف تعلنه سيدها:
فانصاعوا لحكمه كنائب الحاكم العظيم
متحدين كنفس فرد واحد
من أجل السعادة: ومن يعصه
يعصني، ويحطم الاتحاد، وفي ذلك اليوم

(1) يذكرنا بجبل سيناء حيث تلقى موسى الشريعة من الله مباشرة. (خروج ١٩: ١٦- ٢٠)

(2) المسح بالزيت عادة من عادات التكريس.

ينبذ من الله ومن الرؤية المباركة، ويسقط
في الظلام المطلق، في الهوة العميقة، ومكانه
لا خلاص منه إلى أبد الآبدين.
هكذا تكلم الجبار، وبدا الجميع
مسرورين لكلماته، هكذا بدوا، لكن ليس كلهم.
ذلك اليوم، كغيره من الأيام الوقورة، انتهى
بأغان ورقص حول الهضبة المقدسة،
رقص سراني، كالذي تحت المدار النجومي
للكواكب والثابت في عجلاتها
والمتشابه جداً، والمعقد المدهش،
غير المتمركز، والمتداخل، ولكنه نظامي
وإن بدا نظاماً غير منتظم،
وفي حركاتهم انتظام مقدس
فهي ناعمة بنغمات ساحرة، حتى أذن الآلهة
أصغت مبتهجة. واقترب المساء
(فنحن لدينا أيضاً مساؤنا وصبحنا
لتنويع المتعة، وليس للضرورة)

ومن الرقص انتقلوا إلى وجبة طيبة
شهية، فتحلقوا حيث هم واقفون،
فوضعت الموائد، وفجأة امتلأت
بطعام الملائكة، وتدفق النكتار الياقوتي
ببريق اللؤلؤ والماس والذهب الثقيل
خمور فاكهة عذبة، من زراعة السماء.
استلقوا على الزهور، وبزهور طرية توجوا،
أكلوا وشربوا، وفي تواصل عذب
عبوا من شراب الخلد وتجنبوا
الإفراط حيث المعيار الكامل وحده يمنع
الإفراط، أمام الملك الوهاب، الذي أغدق
بيد سخية، مبتهجاً لبهجتهم.
عندما هبط الليل الأمبروزي بغيومه المرسلة
من جبل الله العالي، حيث النور والظل
ينبثقان، تغير وجه السماء المشرق
إلى غسق جميل (لأن الليل لا يهبط هنا
بنقاب أشد قتامة) فرض الندى الوردي

النوم على الجميع عدا عين الله التي لا تنام
وعلى مدى السهل الفسيح، والأفسح
من كل هذه الأرض الكروية انتشرت
(هكذا هو بلاط الله) الحشود الملائكية
في عصائب وصفوف موسعين معسكرهم
نحو الغدران الندية بين أشجار الحياة،
سرادق لا حصر لها، وفجأة ظهرت
مظلات(١) سماوية، حيث ناموا
تحت أنسام الرياح الباردة، إلا من كان دورهم
في أداء الترانيم الميلودية حول عرش الحاكم
يتناوبون جميعاً في الليل الطويل: ولكن لم يبق ساهراً
لهذا من نسميه اليوم الشيطان، ولم يعد اسمه السابق(٢)
يسمع في السماء؛ وهو من الأوائل،
إن لم يكن الملاك الأول، العظيم في السلطة،

---

(1) استخدم ملتون كلمة Tabernacles للدلالة على الخيام الخاصة باليهود، وقد استخدمنا لها كلمة مظلات.

(2) ذكر ملتون الأسماء السابقة للملائكة الساقطين في الكتاب الأول: ٣٦١ وما بعد وهم أنفسهم الآلهة الوثنية الذين عبدوا قبل ظهور الديانة السماوية.

المميز والبارز، ومع ذلك شحن
حسداً ضد ابن الله، في ذلك اليوم الذي
كرمه به أبوه العظيم، وأعلنه
الميسيا[1]، الملك الممسوح، فلم يحتمل
لكبريائه هذا المنظر، واعتقد أنه تضرر.
فامتلأ بالخبث والازدراء،
وفي منتصف الليل وفي ساعة الغسق
أحب الساعات للنوم والصمت، قرر
مع كامل فيالقه أن يرتحلوا، وترك
العبادة، وعصى ملك العرش
باحتقار، وأيقظ من يليه[2] في
المنزلة، وتكلم معه في السر.
نائم أيها الصديق العزيز، وأي نوم
يطبق جفنيك؟ تذكر أي قرار
البارحة، قد نطقت به شفتا

(1) الميسيا تعني أيضاً المسيح أو الممسوح.
(2) التالي له هو بعلزبوب.

جبار السماء. أنت تصارحني
بأفكارك، وأنا أبادلك ذلك؛
ففي سهرنا كنا واحداً؛ فكيف يفرقنا
الآن النوم؟ قوانين جديدة تراها فرضت؛
قوانين جديدة منه، ذاك الذي يحكم، وقد تنهض عقول
جديدة عندنا نحن الذين نخدمه، ومجالس جديدة لمناقشة
الشكوك التي تنشأ؛ والكلام في هذا المكان
ليس آمنا. فاجتمع أنت
وكل تلك الآلاف التي نقودها
وأخبرهم بالأمر، قبل أن يلملم الليل
القاتم غيومه الظليلة، وأنا سأسرع،
مع كل من هو تحت رايتي،
فنعود بمسيرة سريعة، إلى وطننا، حيث
نملك الأصقاع الشمالية[1]، فهناك نعد
حفلة مناسبة لاستقبال ملكنا
المسيح العظيم، وأوامره الجديدة،

---

(1) استنتج ملتون أن الشيطان يسكن الشمال من أشعيا ١٤: ١٢- ١٣.

ذاك الذي سيعبر كل المراتب
للوصول إلى النصر، وإصدار القوانين.
هكذا تكلم الملاك الكبير المزيّف، فأحدث
تأثيراً سيئاً في الصدر غير القلق
لصاحبه؛ فدعا إلى اجتماع،
أو نادى واحداً بعد الآخر، من القوى التي تقوم
مقامه، تحت قيادته، يخبرهم كأنه يعلمهم،
أن أهم أمر أعلى، الآن قبل الليل،
قبل أن ينسحب الليل الداكن من السماء،
هو أن تتحرك الراية الملوكية؛
أخبرهم السبب المعلل، وحشر فيه
كلمات غامضة وحسودة، لتؤثر
أو تفسد استقامتهم؛ لكنهم أطاعوا كلهم
الإشارة المعتادة، والصوت الأعلى
لعاهلهم الأكبر؛ فاسمه في الحقيقة
عظيم، ورتبته عالية في السماء؛

محياه، باعتباره نجم الصبح[1] الذي يقود
قطيع النجوم، خدعهم، وبأكاذيبه
جر خلفه ثلث حشد السماء:
عندها العين الأبدية، الذي بصرها يدرك
الأفكار المجردة، من جبله المقدس
ومن قلب المصابيح الذهبية التي تشتعل
ليلياً أمامه، رأى من غير ضوئها
تمرداً يظهر، ورأى فيه المتمردين، وكيف انتشروا
بين أبناء الصباح، والحشود
المتجمعة لمعارضة قانونه الأعلى؛
فقال لابنه الوحيد مبتسماً[2].
بنيّ، فيك أرى مجدي
في كامل روعته، أنت وريث جبروتي،

---

(1) نجم الصبح هو Lucifer وهو اسم يطلق على الشيطان أيضاً لأنه هو نفسه كان نجم الصبح.

(2) مبتسماً هنا فيها شيء من السخرية التي تستخف بقوى العدو، والتي تثق بالنصر.

الآن آن لنا أن نتأكد
من قدرتنا، وبأي سلاح
نريد أن نحمي ما ندعيه منذ القديم
من ربوبيتنا أو إمبراطوريتنا، فهذا عدو
ينهض، يريد تنصيب عرشه
في مساواة عرشنا، عبر البقاع الشمالية؛
لم يرض بذلك، يفكر في اختبارنا
بمعركة، واختبار سلطتنا، أو حقنا.
فلننتصح، وإلى هذا الخطر نذهب
بسرعة بما تبقى لدينا من قوى، ونستنفر
الجميع للدفاع، وإلا فقدنا في غفلة
هذا المكان العالي، ملجأنا وهضبتنا.
الابن بمظهره الهادئ وإشراقه
القدسي الواضح، الذي لا يوصف، بهدوء
رد عليه. أيها الأب الجبار، إنك تسخر
بحق من أعدائك، وبأمان
تضحك من مخططاتهم وصخبهم الفارغ،

المجد هام عندي، وكرههم
يزيدني مجداً، عندما يرون السلطان الملكي
الذي منح لي حتى أقمع كبرياءهم، وبالفعل
سوف يعرفون إن كنت حاذقاً بإخضاع
المتمردين، أم أكون الأسوأ في السماء.
هكذا تكلم الابن، ولكن الشيطان وقواته
ولوا على جناح السرعة، حشداً
لا يحصى كنجوم الليل،
أو نجوم الصبح، أو قطرات الندى، التي
تلألئها الشمس على كل ورقة وكل زهرة.
مروا بأقاليم، وممالك قوية
من السيرافيم والعواهل وأصحاب العروش
في درجاتهم الثلاثية، وأقاليم ليست
كل مملكتك يا آدم، بالنسبة إليها أكثر
من هذه الجنة بالنسبة إلى كل الأرض،
وكل البحر، إذا خرج كلاهما من كرويته

وامتد على خطوط الطول؛ وبعد أن مروا بهم
وصلوا أخيراً إلى حدود الشمال
واعتلى الشيطان على عرشه الملكي
عالياً فوق هضبة، مشعاً كأنه جبل
يعلو جبلاً، مع أهرامات وأبراج
اقتطعت من مقالع الماس وصخور من ذهب،
إنه قصر لوسيفر العظيم (إننا ندعو
ذلك البناء بلهجة البشر
لتفسيره) وبعد مدة غير طويلة ادعى
كل صفات الله،
تقليداً لذاك الجبل حيث
أعلن المسيا على مشهد السماء،
وسمى الجبل الجمهرة[١]؛
لأنه هناك يجتمع كل أتباعه،
متظاهراً بأنه أمر باستشارتهم

---

(1) ترجمة لكلمة congregation كما شاعت في الفرق البروتستانتية العربية، والمقصود أن «الجمهرة» أساس للكنيسة والصلاة والعبادة، وليس المكان الذي صار البذخ على مكان بنائها كبيراً جداً بلا موجب تفرضه الشريعة.

حول الاستقبال الكبير لملكهم،
إلى هناك جاؤوا، وبفن الافتراء
وقلب الحقيقة شنفوا آذانهم.
يا أصحاب السيادة والإمارة والفضيلة والسلطة
إن كانت هذه الألقاب الجذابة قائمة
ولن تبقى مجرد ألقاب، ما دام الأمر
صدر من الآمر الآن بأن يجعل نفسه صاحب
كل السلطة، فخسفنا تحت اسم
الملك الممسوح، الذي من أجله كل هذا أسرع
في مسيرة منتصف الليل، للالتقاء هنا،
للتشاور فقط في أفضل طريقة
يمكن أن نقوم بتكريم استقباله
الجديد الذي جاء ليستلم منا
ضريبة السجود التي لم تدفع، إثم الانبطاح
الذي هو كثير على الواحد، فكيف نحتمله مضاعفاً
للواحد ولصورته[1] التي أعلنت الآن؟

---

(1) أي للأب والابن.

ولكن ماذا لو أن المشورات الجيدة تشحذ
عقولنا وتعلمنا كيف نطيح بهذا النير؟
هل تحنون له الرقاب، وتختارون أن تنحني
الركبة اللينة؟ لن تفعلوا، إن كانت معرفتي
بكم صحيحة، أو إن كنتم تعرفون أنفسكم
كمواطنين وأبناء للسماء لم يملككم أحد
من قبل، وإن كنتم غير متساوين، إلا أنكم أحرار،
متساوون في الحرية؛ فالأنظمة والدرجات
لا تتعارض مع الحرية، بل تدعمها جيداً.
فمن يعلن أو يفرض حق
الملوكية على الذين هم فعلاً
مساوون له، فإن في السلطة والروعة كانوا أقل،
فإنهم في الحرية سواء؟ أو من يستطيع أن
يفرض الشريعة والفرمانات علينا، نحن الذين
بلا شريعة لا نخطئ[1]، وبذلك يصير سيداً علينا،

(1) ملتون هنا يعكس المنطق المسيحي لتخطي التوراة بالقول إن المسيحي ليس بحاجة إلى شريعة موسى حتى لا يخطئ، والغرض تجاوز العهد القديم إلى العهد الجديد.

ويفرض العبادة بكل إهانة
على أصحاب الألقاب التي تؤكد
أن أصحابها خلقوا حكاماً لا خداماً؟
هكذا انطلق الخطاب الجريء بلا سيطرة
فلقِيَ الإصغاء، وإذ بين السيرافيم
عبدئيل، لم يكن أحد أشد منه غيرة في عبادة
المؤلّـــه وطاعة الأوامر المقدسة،
وقف، وبحماسة حادة ملتهبة
يفصح عن غضبه في معارضته.
أي مناقشة مجدفة، زائفة ومتعجرفة!
كلمات لم يسمع مثلها من قبل في السماء
ولكنها متوقعة منك أيها العاق
فقد وضعت نفسك في مكان أعلى من نظرائك.
كيف بكل جحود ونكران تدين
قرار الله العادل، الذي أعلنه وأقسم عليه،
لابنه الوحيد بتسليمه
صولجان الملك، فكل نفس في السماء
تسجد له، وفي هذا التكريم

اعتراف به ملكاً شرعياً؟ قلت باطلاً
بأنه من الباطل تطبيق القوانين على الأحرار
وحكم الواحد على من يساويه،
فالواحد يحكم الجميع بسلطة مطلقة أبدية.
فهل أنت تعطي الشريعة لله، أتتنازع
معه في أسس الحرية، مع من جعلك
على ما أنت فيه، وخلق القوات السماوية
كما يسره، ورسم لكم كيانكم؟
من الخبرة التي تعلمناها نعرف كم هو الخير
وكم هو خيرنا وكم هي كرامتنا
وما يمدنا به، وما أبعده عن التفكير
بجعلنا أقل منه، فننحني لنمجد
حالتنا السعيدة تحت رئيس واحد قريب
من الاتحاد بنا. ولكن لنسلم أنه من غير العدل
أن يحكم المتساوين ملك متساو معهم:
فأنت على عظمتك ومجدك هل تعتبر نفسك،
أو جميع طبيعة الملائكة مجتمعة في واحد،
متساوياً لابنه المولود، الذي به

باعتباره كلمته، خلق الأب الجبار
كل الأشياء، حتى أنت، وكل أرواح السماء
وهو الذي خلق لها درجات بهائها،
وعروشها مع المجد، وسمى مجدهم
عروشاً وسيادات وإمارات وفضائل وسلطات[1]
وهي القوات الأساسية، ولكن حكمه لم يطمسهم،
بل زادهم إشراقاً، فمنذ تزعمنا
واحد من أعدادنا فقد صار متدنياً إلينا.
فقوانينه قوانيننا وتكريمه الذي نقدمه
يعود إلينا. فكفّ إذن عن هذا الغضب الكافر،
ولا تغو هؤلاء؛ بل أسرع إلى إرضاء
الأب الغاضب، والابن الساخط،
فقد يجد عذرك التماساً قبل فوات الأوان.
هكذا تكلم الملاك المحتدم، لكن حماسته
لم تجد من يدعمها، فكأنها جاءت في غير أوانها،
أو حماسة فردية مندفعة، فابتهج

(1) مراتب الملائكة فصاروا أصحاب العروش والسيادة والإمارة والفضيلة والسلطان.

المرتد، وبكل عنجهية أجاب.
أتقول إننا شكلنا تشكيلاً؟ وماذا عن العمل بأيد
ثانوية، بموجب المهمة المسندة
من الأب إلى ابنه؟ نقطة غريبة وجديدة!
مذهب نتمنى أن نعرف متى تعلمته: من رأى
كيف حصل هذا الخلق؟ هل تذكر أنت
صنعك، عندما منحك الصانع الوجود؟
نحن لا نعرف زمنا لم نكن فيه كما نحن الآن؛
ولا نعرف أحداً قبلنا، فنحن أنسلنا ذاتنا، وأنشأناها
بسلطتنا المحيية الكامنة، عندما الدورة القدرية
أنهت مدارها الكامل، فقد نضجت الولادة[١]
في هذه السماء، موطننا، فأنجبت أبناء الأثير.
قوتنا خاصة بنا، ويدنا اليمنى
سوف تعلمنا الأفعال العليا، وبالتجربة نختبر
من هو مساو لنا: عندها سوف ترى

---

(1) حسب نظرية الشيطان تكون الولادة من نضج الدورة الفلكية، التي يبدو أنها لن تتكرر، وليس من الله ولا من ابنه المفوض تفويضاً كاملاً من قبل الأب.

إن كنا نخاطبه بالضراعة
أو نحيط بعرش الجبار
لنتوسل إليه أم لنحاصره. هذا التقرير
بما فيه من أنباء احمله إلى الملك الممسوح؛
وطرْ قبل أن يعترض الشرّ طيرانك.
قال هذا، مثل صوت المياه العميقة
تردد صدى كلماته بالتصفيق
عبر الحشد اللانهائي، ولكن ذلك
لم يمنع السيراف الملتهب الشجاع، مع أنه وحيد
أن يجابه خصومه، فرد بشجاعة.
أيها الغريب عن الله، أيها الروح الملعون،
تجاهلت كل خير؛ أرى سقوطك
محتوماً، ورهطك اليائس متورطون في
هذه الخدعة الغادرة، فقد انتشرتْ فيهم عدوى
جريمتك وعقابك: لذلك
لا تزعج نفسك كيف تتخلص من نير
مسيح الله؛ فهذه القوانين السمحاء

لن تشملك الآن، هناك قوانين أخرى
ضدك تنفذ بلا استدعاء؛
ذلك الصولجان الذهبي[١]، الذي رفضته
هو الآن قضيب حديد يحطم ويكسر
عصيانك. نعم النصيحة قدمت،
ولكن ليس بسبب نصيحتك أو تهديدك أهرب
من هذه الخيام الآثمة، بل من غضب
في أي لحظة قد يندلع لهيباً مفاجئاً
لا يفرق بين أحد: وتوقع أن تتلقى
صاعقته على رأسك، ناراً ماحقة.
عندها تعرف نائحاً من خلقك،
عندها تعرف من يستطيع أن يفنيك.

هكذا تحدث السيراف عبدئيل المؤمن
من الكفار، بل المؤمن الوحيد؛
بين ما لا يحصى من الخونة، ثابت

(1) الصولجان الذي يرمز إلى فعل الخير. فإن تحول إلى حديد، يفقد صفاته الإلهية.

لا يتزعزع، لم يغوه غاو ولا خاف أحداً

[٩٠٠] بل احتفظ بولائه، وحبّه وغيرته؛

لم يخش عددهم ولا اقتدى بما نمقوه له

فلم ينحرف عن الحق، ولا غيّر موقفه الثابت

مع أنه وحيد. مرّ من وسطهم،

وشق طريقاً طويلاً عبر الازدراء المعادي، الذي

[٩٠٥] دعم تفوقه، ولم يخش عنفاً

وبازدراء أدار ظهره

لتلك الأبراج المتكبرة الذي يسرع إليها الهلاك.

* * *

الكتاب السادس

الخلاصة:

يتابع رفائيل سرد كيف أرسِل ميخائيل وجبرائيل للقتال ضد الشيطان وملائكته. يصف المعركة الأولى: يتراجع الشيطان وقواته ليلاً: يدعو إلى اجتماع، يخترع آلات شيطانية، تستخدم في المعركة الثانية ضد ميخائيل وملائكته فتحدث بعض الفوضى؛ ولكنهم أخيرا يقتلعون الجبال التي عليها القوات والآلات التابعة للشيطان: ومع ذلك لا ينتهي الاضطراب، وفي اليوم الثالث يرسل الله ابنه المسيح الذي خصه بمجد ذاك النصر: فهو يكتسح المكان بسلطة أبيه، ويأمر كل فيالقه أن تتوقف على أي جانب من الجانبين، وبعربته وصاعقته في وسط الأعداء، راح يلاحقهم غير قادرين على مقاومة سور السماء؛ الذي فتح، فيقفزون فيه إلى الأسفل برعب وفوضى في المكان الذي أعدّ لمعاقبتهم في الهوة: ويعود المسيح ظافراً إلى أبيه.

* * *

على مدى الليل، سار الملاك الشجاع[1] الذي لم يلاحقه أحد،
عبر السماء العريضة شاقاً طريقه، حتى الصباح،
الذي أيقظته الساعات الدوارة بيدها الوردية[2]
ففتحت بوابات النور. هناك كهف
داخل جبل الله، متصل بعرشه،
حيث النور والظلام في دورة مستمرة
يتناوبان الدوران، الذي يجعل
التغيّر جميلاً، كتوالي الليل والنهار؛
يتدفق النور من باب، وفي الباب الآخر
يدخل الظلام متذللاً، حتى تحين ساعته[3]

---

(1) أي عبدئيل.

(2) هن ربات مختصات بالتوقيت الزمني يقال لهن الهوريات Horae ويعرفن بالساعات أو الفصول وهن بنات زيوس وتيميس. لكن أهم منظمات الوقت ثلاث: ثالو (الربيع) وأوكسو (الصيف) وكاربو (الحصاد والخريف)... واليد الوردية بديل لما استخدمه هومر في الأوديسة «الأنامل الوردية».

(3) الأبيات من ١- ١٠ من «الأسرة المقدسة» Theogony لهسيود. والأبيات من ٧٣٦- ٧٥٧. ولكن في «الأسرة المقدسة» يجعل هسيود الكهف في العالم السفلي، ويعقبه وصف المعركة.

فيحجب السماء، مع أن الظلام هناك قد
يبدو مثل الشفق هنا؛ وقد تقدم الصباح
الآن كما في السماء العليا، موشى بالذهب
الملكي، ومن أمامه تلاشى الليل،
فقد أطبقت عليه الأشعة الشرقية: بينما كل السهل
مغطى بالأسراب المقاتلة المشرقة،
والعربات والأسلحة الملتهبة، والخيول النارية
فتعكس لهباً على لهب، وهو أول منظر يراه:
فأدرك أن الحرب تتحضر، ووجدهم
يعرفون ما اعتقد أنها أنباء جديدة
يحملها إليهم: فانخرط بكل سرور
بين تلك القوات الصديقة الذين تلقوه
بكل بهجة وهتافات عالية، إذ هناك واحد
قد نجا من بين آلاف الساقطين، وهذا الواحد
عاد دون أن يضيع: فإلى الهضبة المقدسة
أخذوه هاتفين عالياً، وقدموه
أمام المكان السامي؛ فإذا صوت سمع
من وسط غيمة ذهبية يقول بلطف.

يا عبد الله، خيراً فعلت، فقد حاربت جيداً
أفضل معركة، فقد وقفت وحدك
ضد الحشود المتمردة وحافظت على قضية
الحق، بكلمة كانت أقوى منهم في أسلحتهم؛
ولأنك شهدت للحق فقد لحقك
لوم شامل، احتماله أسوأ من احتمال
العنف: لهذا كان كل همك
أن تقف أمام الله راضياً مرضياً، وإن اتهمك
العالم بالانحراف: فالغلبة السهلة الآن
تظل من نصيبك، يدعمك حشد من الأصدقاء،
فتعود إلى أعدائك ممجداً أكثر من رجوعك
بازدراء يوم غادرت، وبالقوة سوف
تخضعهم، لأنهم رفضوا العقل في شريعتهم
والعقل السليم في القانون، ورفضوا ملكهم
المسيح، الذي يحكم بموجب حق الميزة.
اذهب يا ميخائيل، أمير الأجناد السماوية،
وأنت أيها العسكري الشجاع الذي تليه
يا جبرائيل، قودا إلى المعركة أبنائي

غير المرئيين، قودا القديسين المسلحين
بالآلاف والملايين المنظمة إلى القتال؛
وهم يساوون في العدد جمهور الكفرة
المتمردين، فأصلوهم بالنار والأسلحة المعادية
هاجموهم بشجاعة، وإلى طرف السماء
اطردوهم محرومين من الله والبركة،
إلى مكان عقابهم، هوة
ترتاروس، الفاتحة واسعاً فوهة
الكاوس الناري لاستقبال الساقطين.
هكذا تكلم صوت الحاكم، وطفقت غيمة
تظلل كل الهضبة وارتفع دخان تصاعد
بضفائر داكنة، ولهيب كريه، علامة
على يقظة الغضب: ولم يكن أقل رعباً البوق
الأثيري المنطلق صوته العالي من الهضبة:
لدى سماعه صدر أمر للقوات الشجاعة
المدافعين عن السماء، فتجمعوا في ربعات[1]

(1) ربعات جمع ربعة Quadrate وهي طريقة كانت الجيوش القديمة أيام ملتون تنظم على أساسها.

في اتحاد لا يقاوم، وتحركت
بصمت فيالقهم المشرقة، إلى صوت
الآلة الهارمونية التي عزفت
لبث الحماسة البطولية والأفعال الجريئة
بقيادة زعماء يشبهون الله، في سبيل قضية
الله ومسيحه. وساروا منطلقين
بثبات متين؛ فلا هضبة مرتفعة
ولا واد عريض، ولا غابة ولا جدول فرق
صفوفهم المتراصة؛ إذ فوق الأرض
ساروا، والهواء الساكن يتحرك
مع خطواتهم الرشيقة، كما لو أن نوعاً من
الطيور انتظمت بصفوف، في الهواء
طارت مدعوة فوق عدن لتتسلم
أسماءها[1]؛ فعبرت الكثير من
أصقاع السماء، والكثير من الأقاليم الكبيرة
الأطول من هذه الأرض بعشرة أمثال؛ أخيراً

---

(1) يخبرنا ملتون هنا بقصة الله الذي أحضر كل الوحوش والطيور أمام آدم ليسميها (تكوين ٢: ١٩).

في الأفق البعيد إلى الشمال ظهر
إقليم ناري، امتد من ضاحية إلى ضاحية
مستعداً للمعركة، وباقترابهم أكثر
ظهر الإقليم شائكاً بما لا يعد ولا يحصى
من الرماح الصلبة والخوذات الحاشدة والتروس
المختلفة، بصور الفخر والتشجيع،
كانت قوات الشيطان تسرع
بحملة غاضبة؛ فقد ظن
أنه بقتال في اليوم نفسه، أو بمفاجأة
يستولون على جبل الله، وعل عرشه
لإقامة دولة الحاسد، المتعجرف،
الطامح، ولكن أفكارهم أثبتت بهتانها
في منتصف الطريق: مع أنه بدا غريباً لنا
أولاً، أن يحارب الملاك ملاكاً فتلتقي الملائكة
في قتال وحشي، وهم الذين يلتقون
عادة في مهرجانات البهجة والحب
جميعاً، كأبناء والد واحد عظيم
مترنمين باسم الأب الأبدي: لكن صيحة

المعركة بدأت الآن، وصوت هجوم
الطليعة أنهى كل تفكير مسالم.
عالياً في الوسط ممجداً كرب
جلس المرتد في عربته المشرقة كالشمس
وثناً لإله جليل، محاطاً
بالشيروبيم المتوهجين، وبالتروس الذهبية؛
ثم ترجل من عرشه الرائع، إذ الآن
اشتبك الحشد بالحشد ولم يبق سوى حيّز ضيق،
وفاصل مرعب، جبهة لجبهة
وقفوا في انتظام مخيف
على مسافة مرعبة: فأمام المقدمة الغائمة
على الطرف المتعرج للمعركة أمام الالتقاء
تقدم الشيطان بخطوات ضخمة وعالية،
وأقبل مسوراً مسلحاً بماس الأدمنت والذهب؛
لم يحتمل عبدئيل هذا المشهد، حيث وقف
بين الجبابرة، المؤهلين لكبار الفعال،

وهكذا انفجر قلبه الباسل[1].

أيتها السماء، أي شبه بالأعلى
يبقى وقد ذهب عنه إيمانه وشرفه
فكان يجب ألا يملك قوة ولا قدرة
حيث لا يملك فضيلة، أو يكون أضعف
كلما كان أشجع؛ وإن بدا لا يقهر؟
باعتمادي على مساعدة الجبار، أختبر
بأسه، وقد اختبرت عقله من قبل
فكان خاوياً وزائفاً؛ فالعدل يقضي،
أن من يجادل في الحق ويربح
يجب أن يربح في السلاح، ففي كلا النزاعين
ينتصر؛ ومع أن ذلك النزاع ظالم وفاسد،
فإن العقل حين يتعامل مع القوة فالمعقول
السليم أن يتغلب العقل.

هكذا تأمل، ومن نظرائه المسلحين
تقدم إلى الجهة المقابلة، فالتقى في نصف الطريق

(1) هذا التعبير لهكتور في الإلياذة ٢٢: ٩٨ قبل الاشتباك مع أخيل.

بخصمه الجريء، فاعترضه مما زاده حنقاً
وهكذا تحداه بكل ثقة.
أيها المتكبر، هل لاقيت أحداً؟ أملُـك أن
تصل إلى أعلى مطامحك علواً،
إلى عرش الله غير المحروس، وقد تركت
جنباتِه خوفاً من سلطانك
أو لسانك المفحم؛ من الحماقة ألا تظن أنه عبثاً
تنهض بالسلاح ضد الكلي القدرة؛
الذي من أصغر الأشياء يستطيع بلا نهاية
أن يخلق جيوشاً بلا توقف لدحر
حماقتك؛ أو بيد واحدة
تصل إلى ما وراء كل حدّ وبضربة واحدة
بلا مساعدة أحدٍ ينهيك، ويسيطر على
فيالقك تحت الظلام؛ ولكنك ترى
أن الجميع ليسوا مع أنصارك؛ فهناك من
فضّل الإيمان، واتقى الله، مع أنهم وقتها
لم يكونوا مرئيين لك، بينما وحدي

بدوت منشقاً عن عالمك الخاطئ من بين
الجميع: فترى طائفتي[1]، وتعلم الآن متأخراً
كيف القلة أحياناً تعرف، في حين تخطئ الآلاف.
إليه نظر العدو الكبير شزراً وباحتقار
وأجاب. الويل لك، ولكن في الساعة المحددة
لانتقامي، فسوف أبحث عنك أولاً لأنك عدت
من الهروب، أيها الملاك المثير الفتن، فتتلقى
مكافأتك المستحقة، وسيكون الفحص الأول
من هذه اليد اليمنى، لأن لسانك أول من استلهم
التناقض وتجرأ على معارضة
ثلث الآلهة، الذي اجتمعوا في مجلسهم
لتأكيد إلوهيتهم، الذين يشعرون
بالقوة الإلهية في داخلهم، لن يعترفوا
لأحد بكلية القدرة. ولكنك بمجيئك
قبل أنصارك، تطمح أن تربح

(1) يستخدم كلمة طائفة Sect بالمعنى الديني من أمثال طائفة المعمدانيين والكويكرز... الخ

مني ريشة[1]، فيجر عملك
الخراب على البقية: وفترة المابين[2]
(وفيها أدعك تتفاخر) تتيح لك أن تعرف؛
في البداية كنت أعتقد أن الحرية والسماء
للأرواح السماوية بصندوق واحد للجميع؛ لكن الآن
أرى أن معظمهم من خلال التقاعس صاروا خدماً
فتدربت أرواح السيادة على الاحتفال والنشيد؛
بهذا أنت سلحتهم، وجعلتهم شعراء السماء،
فجعلت العبيد يصارعون الأحرار،
ومن الجهتين ستختبر أعمالك في هذا اليوم.

وعلى هذا رد عبدئيل باختصار

أيها المرتد، لا زلت خاطئاً، لن تجد نهاية
لخطاياك، وابتعادك عن جادة الحق:
لست منصفاً إذ أفسدت باسم العبودية
الذين يعبدون ما كرسه الله،

---

(1) الريشة في القديم درجة عسكرية. فكلما ارتقى الضابط علق ريشة جديدة في خوذته.

(2) ما بين تهديدك وبين الدمار.

أو الطبيعة، فالله والطبيعة يأمران أمراً واحداً،
عندما يكون الحاكم جديراً، ويفوق



تلقّ هذه التحية على شارة عرفك (٦: ١٨٨)

أولئك المحكومين. فالعبودية
هي أن تعبد غير الحكيم، أو من تمرد
ضد هذا الأجدر، وأنصارك الآن يعبدونك، [١٨٠]
فنفوسهم ليست حرة، بل بنفسك أنت مفتون

ومع ذلك تجرأت ووجهت الانتقاد إلينا
فاحكم في الجحيم مملكتك، ودعني أعبد
الله في السماء وأصلي دائماً، وأطيع كل
أوامره المقدسة، وهو الأجدر أن يطاع،
توقع أصفاداً في الجحيم، وليس ممالك: والآن
مني، أنا العائد، كما قلت سابقاً، من عودتي
تلقّ هذه التحية على شارة عرفك[1] العاق.
قال هذا ووجه ضربة نبيلة، فارتفعت
عالياً ولم تتوقف، بل هوت بسرعة العاصفة
على عرف الشيطان المتكبر، فلا البصر،
ولا حركة الفكر السريعة، بل ترسه لم يمنع
هذا الدمار الذي اعترضه: فارتد عشر خطوات
إلى الخلف؛ والعاشرة أركعته على ركبته
فاستعان برمحه الضخم: كما لو أن ريحاً
في الأرض تحت سطحها أو مياهاً انفجرت
من الجانب، فدفعت جبلاً من مكانه

(1) كانت الرتب العسكرية قديماً تعرف من الخوذة، حيث يوجد فوقها عرف فيه ريش، فتكون الرتبة بحسب الريش وألوانه.

فغرق مع أشجار صنوبره. واستولت الدهشة
أصحاب العروش المتمردين، لكن غضبهم كان أكبر
لرؤية أقواهم مهزوماً، ولكن أنصارنا فرحوا، وصاحوا
صيحة تبشر بالنصر، وبرغبة عارمة
للمعركة: بينما أمر ميخائيل بالنفخ
في بوق رئيس الملائكة؛ فعبر كل السماء الضخمة
تردد صوته، وهتف الجنود المؤمنون
هوصنا[1] في الأعالي: ولم يقفوا للتحديق
بل تقدمت فيالق الأعداء، فلم تكن أقل بشاعة
وقد هجمت فأحدثت صدمة مرعبة: وهبت العاصفة
الآن ولا تزال القعقعة تسمع حتى الآن في السماء
لم تهدأ، السلاح على الدروع يقعقع عالياً
في ضجيج مرعب، وعجلات مجنونة
لعربات برونزية تدور غاضبة؛ رهيباً كان
ضجيج الصدام؛ وفوق الرؤوس أزيز وحشي
للسهام الطائرة الملتهبة،

---

(1) Hosanna كلمة تهليل وتمجيد مترافقة دائماً مع «في الأعالي» لأنها مختصة بتمجيد الله فقط، ومعناها المجد لله العلي.

فارتفعت لتكون قبة بالنار تظلل الطرفين.
وهكذا تحت السماء النارية اندفع الفيلق الأكبر
من كلا المتعاركين، بهجوم مدمر
وبغضب لا تخمد ناره؛ كل السماء
رددت وكانت الأرض قد خلقت، فكل الأرض
اهتزت حتى مركزها. وما العجب؟ فحين
ملايين الملائكة تتصادم متحاربة
على كلا الجانبين، نجد أقلّهم يمكنه أن يمسك
تلك العناصر، ويتسلح بقوة كل
أقاليمها: فكم تزيد قوة
جيش على الجيش بأعداد لا تحصى لإثارة
الحرب العنيفة المخيفة، والاضطراب،
من غير أن يدمروا المكان الأصلي السعيد؛
لو لم يأمر الملك الأبدي الكلي القدرة
من سمائه العالية القوية
بتحديد قوتهم؛ وكذلك تعداد
كل فيلق إذ ظهر
أنه حشد ضخم، فكانت قوة كل يد مسلحة

فيلقاً؛ تقود الحرب، وبدا قائداً
كل محارب مفرد كأنه زعيم، خبير
في التقدم أو التريث أو التراجع من
المعركة، متى يفتح ومتى يغلق امتداد
اشتباكات الحرب المتجهمة؛ لا يفكر في الهرب،
ولا التراجع، ولا يفعل ما لا يليق
من الخوف؛ فكل واحد يعتمد على نفسه،
فقط في ذراعه تكمن لحظة
النصر؛ أفعال بشهرة أبدية
حدثت، ولن تنتهي: فقد امتدت وانتشرت
تلك الحرب وتنوعت؛ أحياناً على أرض مستقرة
يجري القتال، وأحياناً يحلقون بأجنحتهم
يثيرون الهواء؛ وقد بدا الهواء وقتئذ
ناراً متصادمة: ومدة طويلة تعادلت كفة
المعركة؛ إلى أن أظهر الشيطان في ذلك اليوم
قوة مدهشة، فلم يجد في القتال
نداً له، فشن هجمة ضارية فأوقع
الاضطراب في صفوف السيرافيم المقاتلين، ثم

شاهد أن سيف ميخائيل قاطع، فيردي
الكتائب دفعة واحدة، بمقبضيه الضخمين
فيرفع عالياً حده المرعب ويهوي
ليصرع الكثير؛ ولوقف هذا الخراب
أسرع، واعترض بترسه الصخري
المستدير ذي العشر طبقات فشغل
محيطاً ضخماً: لدى اقترابه
توقف الملاك الأكبر عن جهد الحرب
وفرح على أن ينهي هنا هذه الحرب
الأهلية في السماء، فيدحر الخصم الكبير
أو يأسره ويجره بالأغلال، فبدأ كلامه وسيماء
العبوس ظاهرة على محياه المشتعل.
يا خالق الشر، مجهولاً كان قبل تمردك،
لا اسم له في السماء، والآن صار وفيراً، كما ترى
هذا الشقاق الكريه، الكريه للجميع،
مع أنه أثقل بمقياس العدل على نفسك
وعلى أنصارك: كيف حطمت
سلام السماء المبارك، وأحضرت في الطبيعة

البؤس، الذي لم يخلق حتى ظهرت جريمة
تمردك؟ كيف سربت
خبثك إلى الآلاف، كانوا مستقيمين
ومؤمنين، فصاروا فاسدين. ولكن لا تعتقد
أنك هنا تزعج السكينة المقدسة؛ فقد طردتك السماء
من كل حدودها. فالسماء مكان البركة
لا تصبر على أعمال العنف والحرب.
فالشر إذن دائماً يذهب معك
فارحل وسلالتك إلى مكان الشر، جهنم،
فهناك أنت وأتباعك الأشرار تشاجروا معاً،
قبل أن يبدأ سيف الانتقام هذا بجلب آخرتك،
أو يصلك انتقام مجنح من الله أكثر مفاجأة
فيلقيك في الهاوية بمزيد من العذاب.
هكذا تكلم أمير الملائكة؛ فرد
خصمه عليه. لا تظنن أنك بتهديدات خاوية
كالهواء ترعبني يا من لست بالأفعال
تغلبني. فأنت لم تجعل الأدنى فينا
يفرّ، فإن سقطوا نهضوا

ولا هزيمة، أما أسهل أن تتعامل معي
من أن تأمل، أيها المتغطرس، بالتهديد
بطردي من هنا؟ لا تخطئ بأن هذه هي نهاية
الصراع الذي تسميه شراً بل نحن نمارس
صراع المجد: ومصممون على النصر،
وإلا قلبنا هذه السماء نفسها إلى الجحيم
الذي تتخيله، وهنا نقطن أحراراً،
ولو لم نحكم: والآن اجمع أعظم قواتك
وضمها إلى من تسميه الجبار حتى يساعدك،
فلن أهرب، بل أبحث عنك في الأقاصي والأداني.

أنهيا المفاوضة، وأعلن كل واحد القتال
الذي لا يوصف؛ فمَنْ، ولو بلسان
الملائكة، يستطيع السرد، أو وصف الأشياء
الشبيهة الواضحة على الأرض، ولو وصل
إلى أعلى مكان للمخيلة البشرية من
قدرة شبيهة بقدرة الله: فمثل الله ظهرا،
في الوقوف أو الانتقال، في القامة والحركة والسلاح
وما أجدرهما أن يقررا إمبراطورية السماء العظمى.

وتحرك سيفاهما الناريان، وفي الهواء
رسما دوائر رعب، ترساهما شمسان واسعتان
يتقابلان ملتهبتين، بينما التوقع وقف
في رعب؛ ومن كل جانب بسرعة تراجع
حشد الملائكة، حيث كان القتال كثيفاً،
وتركوا الحقل الكبير، غير آمنين داخله
من هذا الاضطراب، – إن جاز تمثيل الأشياء
الكبيرة بالصغيرة– كما لو أن وئام الطبيعة تحطم،
فاندلعت حرب بين المجرات،
حرب بين كوكبين اندفعا من موقع الشر
للقتال الوحشي في منتصف السماء،
فتعاركا، وامتزج مداراهما المتنافران[١].
وكلاهما بذراع جبار لا مثيل له،
رفعها وبضربة واحدة يقرران فيها
قضاء الأمر، لا حاجة لتكرارها،
ليس بالقوة، فوراً، ولا بظهور الأفضلية

(1) رفائيل يشخص لآدم المعركة بالكواكب والمدارات، لأن هذا هو نطاق معرفته، فلم يسبق أن رأى معركة أو سمع بها.

في العزم أو الوقاية[١]؛ ولكن سيف
ميخائيل من أسلحة الله
قدّمه له مسقيّ الفولاذ، فلا
صلابة تقاوم ذلك الحد: فالتقى
سيف الشيطان بقوة هاوية توجه
ضربة، فشق النصل قسمين، ولم يتوقف،
بل بدورة سريعة معاكسة، وبطعنة عميقة
في جانبه الأيمن؛ فعرف الشيطان الألم لأول مرة،
فترنح وراح يتقلص؛ متألماً
من السيف القاطع والجرح الفاغر
الذي مر فيه، ولكن الجوهر الأثيري أغلقه
فلم يفغر طويلاً، ومن الفجوة
جدول دم نكتاري تدفق[٢]

---

(1) المقصود من هذا البيت والبيت السابق أنه لا يوجد برهان أن أياً من الضربتين: ضربة العزم أم ضربة الوقاية تحسم الأمر. ويظل المعنى ملتبس علينا.

(2) راجع الإلياذة ٥: ٣٣٤- ٤١٧. فقد وصف هومر الجرح في يد أفروديت بهذه الطريقة التي اقتبسها منه ملتون.

غزيراً قانياً، كما تنزف الأرواح السماوية،
فتلطخ كل درعه الذي كان قبل برهة براقاً.
وعلى الفور من كل جانب جاءت المساعدة
من جمع الملائكة الأقوياء، الذين تدخلوا
دفاعاً عنه، بينما حمله آخرون على تروسهم
وعادوا إلى عربته؛ حيث وقفت منزوية
بعيداً عن طوابير الحرب؛ وهناك أسعفوه
وهو يصرف بأسنانه ألماً ويأساً وعاراً
ليجد نفسه، أنه ليس المتفرد، وأن كبرياءه
تمرغت بهذا التشنيع، وانهارت جداً
ثقته بأنه مساو لله في القوة.
شفي الجرح بسرعة؛ لأن الأرواح تحيا
بحيوية في كل أجزائها، وليس كالإنسان الهش في
الأحشاء أو القلب أو الرأس أو الكبد أو الكليتين؛
لا تستطيع إلا أن تموت هلاكاً؛
في نسيجها السائل لا يؤثر جرح
مميت، فهو ليس أكثر من هواء سائل:
فهم يعيشون بكل قلوبهم ورؤوسهم وعيونهم وآذانهم

وعقولهم وكل حواسهم، وكما يسرهم،
وهم يجعلون لأنفسهم أطرافاً وأشكالاً وأحجاماً،
مكثفة أو هشة، كما يفضلون.

أثناء ذلك أحداث في أقسام أخرى تستحق
[٣٥٥] الذكر، حيث قوة جبرائيل حاربت،
وبحشد عنيف اخترق أنساق



فعرف الشيطان الألم لأول مرة، فترنح (٦: ٣٢٧)

الملك العنيف مولوك، الذي تحداه
بأنه بعجلات عربته سوف يجره مقيداً
فهدد حتى أن الواحد المقدس السماوي
لم يلجم لسانه المجدف؛ ولكن بسرعة
شق حتى الخصر، وتبعثرت أسلحته
وآلام مجهولة أصابته فهرب مولولاً. وفي كل جناح
هناك يورئيل ورفائيل[١] هزما العدو المتبجح،
مع أنه ضخم ومسلح بصخر الماس،
وهزما أدرمالك وأسماداي[٢]
عرشان قويان، رفضا أن يكونا أقل من إلهين
ولكنهما تعلما الطموح المتواضع بفرارهما،
بعد اختلاط الجراح عبر الواقيات والزرد،
ولم ينس عبدئيل أن يزعج

---

(1) هنا يلجأ رفائيل إلى السرد بلغة ضمير المفرد الغائب، ولذلك ذكر اسمه متخذاً مهمة الراوي.

(2) أدرمالك هو ملك بابل كانوا يحرقون له أبناءهم ٢ ملوك ١٧: ٣١. وأسماداي هو أسموديوس المذكور في صفر طوبيت الأبوغريفي وأشرنا إليه في الكتاب الرابع من «الفردوس المفقود» ١٦٨ وما بعد.

جماعة الكفرة، فسدد ضربات مضاعفة
ضد أرئيل وأريوك وأوقف عنف
رامئيل[1] وأحرقه فاندحر خائباً.
أقدر أن أسرد لك الآلاف، بأسمائهم
التي اشتهرت في الأرض هنا؛ ولكن أولئك
الملائكة المختارين راضون بشهرتهم في السماء
لا ينشدون مديح البشر: النوع الآخر
في القوة مدهشون وفي أعمال الحرب جريئون،
وهم أقل حماسة للشهرة، ومع ذلك حكم عليهم
بالشطب من السماء والذاكرة المقدسة،
فمن دون أسماء يسكنون في النسيان الدامس.
لأن القوة إذا انحرفت عن الحق والعدل،
لا تستحق الثناء، ولا المزايا، بل الهجاء
والتجاهل، وإن كانت تطمح للمجد

(1) أرئيل ورد في التقليد الكابالي وهو ملاك شر وإله الوثنيين. أريوك ومعناه «شبيه الأسد» قيل إن إبراهيم حاربه ملك أريوك (تكوين ١٤: ١. ورامئيل ومعناه «صاعقة الله» أحد الملائكة الذي هبطوا الأرض ليتزوجوا من بنات البشر، في سفر أخنوخ الأبوغريفي.

ولكن بمجد زائف، وعبر العار تبحث عن الشهرة:
لذلك ليكن مصيرهم الصمت الأبدي.
والآن سحق أقواهم، فمالت المعركة إلى
كثير من الدم المراق؛ وحلت الهزيمة المشوهة
وعمت الفوضى؛ والأرض
امتلأت بالتروس المحطمة، وفي كومة
هناك عربات وعربجيون[١] منقلبون
وخيول نارية مزبدة؛ الواقفون تراجعوا
متعبين إلى قلب الحشد الشيطاني الواهي
بالكاد يستطيعون الدفاع، أو يفاجئهم خوف شاحب
وهو الخوف الأول الذي يفاجئهم ويحسّسهم بالألم
فقد هربوا مهانين، وإلى هذا الإثم جاؤوا
بخطيئة العصيان، فحتى تلك الساعة
لم يعرفوا خوفاً أو هرباً أو ألماً.
على خلاف القديسين المعصومين
في الكتائب الربعة[٢] الذين يتقدمون بثبات،

(1) العربجي كلمة عامية كبديل لكلمة الحوذي الرسمية.
(2) الربعة أي أربعة فيالق وفارغة الوسط.

محصنين فلا يخترقهم سلاح:
هذه المزايا الكبرى لبراعتهم
منحتهم التفوق على أعدائهم، فلم يخطئوا
ولم يعصوا؛ وفي القتال ثبتوا
بلا كلل، بلا شعور بالألم
حين يجرحون، وإن بالعنف أزيحوا من مكانهم.
بدأ الليل دورته الآن، وجلب فوق السماء
الظلام، ففرض هدنة مستحبة،
وصمتاً على ميدان الحرب الكريه:
وتحت غطاء غيومه تراجع الطرفان،
المنتصر والمندحر: وعلى ميدان القتال
سيطر ميخائيل وملائكته وأقاموا
معسكرهم، وعينوا عسَس الحراسة حولهم،
وهم النيران المتماوجة من الشيروبيم: وفي الجهة
المقابلة اختفى الشيطان وأتباعه المتمردون
بعيداً في الظلام انتقلوا، أما هو فلم يسترح،
ففي الليل دعا العواهل إلى مجلس؛
وفي وسطهم بدأ بجرأة.

أيها الأعزاء لقد اختبرتم الآن

فعرفتم أن سلاحكم لا يقهر،

[٤٢٠] لستم جديرين بالحرية وحدها

فهذا ادعاء وضيع، بل ما نسعى إليه أكثر



بدأ الليل دورته الآن (٦: ٤٠٦)

وهو الشرف والسيادة والمجد والشهرة،

صمدنا يوماً واحداً في حرب سجال

(إن صمدنا يوماً، فلم لا نصمد إلى الأبد؟)

[٤٢٥] إن من أرسلهم سيد السماء ضدنا هم الأقوى

من حول عرشه، وقدّر أنهم



وعلى ميدان القتال سيطر ميخائيل وملائكته وأقاموا معسكرهم، وعينوا عسس الحراسة حولهم (٦: ٤٢٠...)

يكفون لإخضاعنا لإرادته،

لكن هذا لم يثبت: فهو غير معصوم كما يبدو،

وفي المستقبل نعامله كذلك، مع أنه حتى الآن
كنا نظنه بكل شيء عليماً. والحقيقة أن سلاحنا أقل
مما أضر بنا فتحملنا والألم،
الذي لم نعرفه حتى الآن، حين عرفناه ازدريناه،
إذ صرنا نعرف أن شكلنا الإمبريالي
غير قابل للإصابات المميتة
فهو غير قابل للفناء، وإن اخترقته الجراح،
التأمت بسرعة، وشفتها قوتنا الأصيلة.
فلا تفكروا بهذه الكارثة لأنه يسهل
علاجها؛ فربما المزيد من الأسلحة القوية،
ومزيد من أسلحة العنف، فإننا في اللقاء القادم،
قد يخدمنا أفضل ويخدم أعداءنا على نحو أسوأ،
أو نتساوى فيما بيننا من أفضلية،
في الطبيعة نحن سواء: فإن خفي السبب
تفوقوا، بينما نحتفظ نحن
بعقولنا، ونفكر بعمق،
فنبحث عن السبب ونتشاور.
جلس؛ فوقف بعده في الجمعية

نسروخ[١]، وهو المتقدم في الإمارات؛
وكما يقف من نجا من قتال شرس،
عاني وكابد، وأسلحته متصدعة ومخربة،
وقف وغيمة على مظهره، فرد متكلماً.
يا مخلصنا من أسيادنا الجدد، وقائدنا إلى الحرية
والتمتع بحقنا كأرباب؛ ومع ذلك يصعب
على الأرباب، فنحن نجد نفسنا في عمل غير متساو
ضد سلاح غير متساو نحارب به متألمين،
ضد من لا يتألم، ولا يشعر؛ فمن خراب
الشر لا بد أن تكون هناك نتيجة؛ فما قيمة
الشجاعة أو القوة، مهما كانت، إن طردها الألم
الذي نخضع له كلنا، ويقصر أيدي
أقوى الأقوياء. ربما ندخر حس المتعة
بالحياة، فلا نتذمر،
بل نعيش القناعة، وهي أهدأ حياة:
لكن الألم شقاء كامل، أسوأ

(1) معبود أشوري نجد الإشارة إليه في ٢ ملوك ١٩: ٣٧.

الشرور، وإذا أفرط تلاشى
كل صبر. فمن يستطيع اختراع
ما هو أقوى فقد نهاجم
أعداءنا الذين لم يجرحوا بعد، أو نتسلح
به دفاعاً عن أنفسنا، فعندي أنه يستحق
منا كل ما يستحقه المنقذ.

وعلى هذا رد الشيطان برباطة جأش.

لقد أحضرت لكم، ما تعتقدون أنه
صحيح وأساسي لنجاحنا؛
فنحن ننظر إلى السطح البراق
من هذا القالب الأثيري الذي نقف فيه،
هذه القارة من السماء المترامية، المزينة بالنبات
والثمار والأزهار الأمبروزية والجواهر والذهب
فعيننا ترى السطوح الطافية
لهذه الأشياء، فلا نفكر من أين نبتت، من
باطن الأرض، من مواد الظلام والخام،
من الأبخرة الكحولية والنارية، فإن مستها
أشعة السماء، ودعمتها، فإنها تنمو

جميلة وتتفتح للضوء المحيط بها.
هذا هو أصلها المظلم وهوتها
التي سوف نربيها ونرضعها بالنار الجهنمية،
التي نضعها في آلاف مفرغة طويلة ومستديرة[1]
لها مدك، فإذا لامست النار من الثقب الآخر
تمددت واشتعلت وانطلقت وأرسلت
من بعيد على أعدائنا صاعقة صاخبة
من آلات الأذى فتمزقهم
أشلاء، وتجتاح ما يقف في وجهها،
وسوف يخافون أن نكون انتزعنا من المرعد[2]
صاعقته، وهو السلاح المرهوب الوحيد.
لن نتلكأ في عملنا، فقبل الفجر،
سوف تكون في يدنا رغبتنا. في حين ننتعش

(1) يتحدث ملتون هنا عن البارود والعجائب التي نتجت من استخدامه في الحرب، فيصف بالتفصيل عملية دك البارود في الماسورة وإشعاله بالفتيل... وهكذا. وقد قلب البارود كل المعادلات القائمة على السلاح التقليدي.

(2) المرعد Thunderer صفة لزيوس، ويستخدمها ملتون هنا للإشارة إلى الله.

وندع الخوف؛ فلننتقوّ ولنجتمعْ للتشاور
فلا شيء يصعب على التفكير، ولا مكان لليأس.
أنهى كلامه، فأنعشت كلماته حميتهم المتهاوية،
وأحيت أملهم الضعيف.
أعجب الجميع بالاختراع، ودهش كل منهم
لماذا لم يكن هو المخترع، فالاختراع يسير
جداً، ولكن قبل الاختراع كان معظمهم يظن
أنه مستحيل: ومع ذلك قد يخطر لعرقك
في الأيام القادمة، إذا شاع الخبث،
من ينوي السوء، أو يستوحي
من المكيدة الشيطانية جهازاً
يشبه الأداة لتنشر في أبناء البشر وباء
الخطيئة، ليعتادوا الحرب والقتال.
وعلى الفور هبوا من المجلس إلى العمل،
لم يعترض أحد، أيدٍ لا تحصى
كانت جاهزة، وفي لحظة انتقلت
إلى التربة السماوية العريضة، ورأوا

تحتهم أصول الطبيعة[١] في مفهومها
الفج؛ فرغوة الكبريت والنترات[٢]
وجدوها، فخلطوها بفن ذكي،
وبالمزج والضبط[٣] حولوها
إلى حبيبات سوداء، ونقلوها إلى المخازن:
فقسم عروق مستترة حفروا واستخرجوا (وليس
للأرض أحشاء غير ذلك) المعادن والحجارة[٤]،
ومنها صنعوا آلاتهم ورصاصهم
للدمار الهائل؛ وقسم مواد صاهرة
خطيرة تلهب النار من أول لمسة.
وهكذا قبل أن يطلع النهار، وفي الليل المتيقظ
أنهوا عملهم سراً، وعادوا إلى انتظامهم،
بحذر صامت، لم يلفت نظر أحد.

---

(1) أصول الطبيعة هي عناصر الطبيعة الأساسية التي تحدث عنها الإغريق من ماء وهواء ونار وتراب.

(2) هذا هو البارود الذي غيّر العالم.

(3) المزج يكون عن طريق التسخين، والمعايرة عن طريق التجفيف والتجربة لمعرفة المعايير من كل طرف.

(4) المقصود المواد الأولية.

وحين ظهر الصبح الجميل في شرق السماء
نهض الملائكة المنتصرون، وإلى سلاحهم
أيقظهم بوق الصباح المستنفر: فدججوا بالسلاح
كزخرف ذهبي، واحتشدوا متوهجين مشرقين،
وبسرعة انتظموا، وآخرون من التلال الشرقية
طافوا المحيط، واستكشفوا كل شاطئ ومصدر مسلح،
وكل ربعة، حتى يكشفوا العدو،
حيث استقر، أو إن كان هرب، أو يستعد للقتال،
هل هو في حركة أم توقف: وبسرعة التقوهم
تحت رايات يتحركون بالقرب منهم، في كتيبة بطيئة
ولكن ثابتة، فتحرك بسرعة في الخلف
زوفائيل[1]، من الشيروبيم السريعي الجناح،
فجاء طائراً، وفي وسط الهواء صاح عالياً.
إلى السلاح، فالقتال، أيها المحاربون، فالعدو قريب
اعتقدنا أنه هرب، ونرتاح من مطاردته الطويلة
هذا اليوم، لا لم يهرب؛ إنه مثل غيمة كثيفة

(1) زوفائيل معناه جاسوس الله ولكن الاسم لم يذكر في التوراة.

يعود، وعلى وجهه رأيت
التصميم الشديد والاطمئنان: فكل واحد منكم
يضع معطفه الصلب جيداً، وكل واحد
يركز خوذته، ويمسك تماماً بترسه المستدير،
مستوياً أو عالياً، لأن نهاره سوف ينسكب،
كما أظن، ليس زخات من المطر الخفيف،
بل عاصفة من السهام الممتلئة ناراً.
هكذا حذرهم فانتبهوا، وبسرعة
انتظموا من دون أي عائق؛
وعلى الفور أصدروا نفيراً،
وتقدموا إلى المعركة بتشكيلهم القتالي، فبدا
غير بعيد عدوهم بخطواته الثقيلة
ضخماً وعظيماً؛ في ربعة جوفاء[1]
تحيط بها الآلات الشيطانية،
ومن كل جانب كتائب كثيفة،
حتى تخفي الخدعة. وتبادل الجانبان

---

(1) أي ليس في وسطها فرقة.

النظر لحظة، ولكن فجأة على رأس الجيش ظهر
الشيطان: وعلا صوته يأمرهم.
أيها الطليعيون افتحوا الجبهة يميناً وشمالاً
حتى يرى جميع مبغضينا، كيف أننا نسعى
إلى السلام والهدوء، وبصدر مفتوح
مستعدون لاستقبالهم، إن رغبوا أن
يعودوا إلينا، ولا أن يرتدوا إلى الفساد؛
ولكني أشك، والسماء تشهد،
إنها تشهد حالاً على العفو
من قبلنا بكل حرية؛ وأنتم يا من تأهبتم
قوموا بمهمتكم، ونفذوا فوراً
ما نعرضه، وبصوت عال يسمعه الجميع.
أنهى خطابه بهذه الكلمات الغامضة؛
على حين انقسمت الجبهة يميناً وشمالاً
وإلى كل جانب تراجعوا.
فعيوننا اكتشفت الآن الجديد والغريب،
صف ثلاثي من الأعمدة وضعت
على عجلات (بدت شبيهة بالأعمدة
أو الأجسام المجوفة المصنوعة من السنديان أو التنوب

بفروع مقطوعة، في الغابة أو الجبل، محشوة)
صنعت من النحاس والحديد والحجر، ليست أفواهها
بفتحتها الشوهاء المخيفة موجهة إلينا، كأنها
تعرض هدنة جوفاء؛ وخلف كل عمود وقف
سيراف، وفي يده قصبة
يلوح بها وفي رأسها نار؛ فرحنا نتوجس،
مجتمعين وقفنا في أفكارنا مرتبكين،
وبعد فترة، فجأة مدوا قصباتهم دفعة واحدة
وقربوها من فتحة ضيقة
بلمسة خفيفة. وحالاً اندلع اللهب
ولكن بسرعة أخفاه الدخان، الذي غطى كل السماء،
تجشأت الآلات الحلقية العميقة، وامتزج
زئيرها بضجيج مندفع ملأ الهواء،
ومزقت كل أحشائه، فكانت تتقيأ
طعامها الشيطاني، سلسلة طلقات وبرَد
من كرات حديدية، ألقيت على الحشد المنتصر
بضربات عنيفة عشوائية،
فمن أصابته لا يمكنه أن يقف على قدميه،

بينما الآخرون يقفون كالصخور، ولكنهم سقطوا
بالآلاف، فسقط ملائكة على ملائكة رؤساء،
وبسرعة بسبب أسلحتهم، فلو كانوا غير مسلحين
لأمكن بسهولة تفاديها باعتبارهم أرواحاً تتملص
بسرعة عن طريق التقلص أو الابتعاد؛ ولكن
الآن أجبروا على الهرب والتراجع؛
وبلا طائل وسّعوا صفوف عسكرهم.
فماذا يفعلون؟ فإن اندفعوا ردوا
وتقهقروا، ودحروا بمذلة مرة
ثانية، وسوف يتفرقون أكثر وأكثر،
ويضحك منهم أعداؤهم؛ وظهر
صف آخر من السيرافيم يقفون
في وضع إطلاق طلقتهم الثانية
من الصاعقة: تراجعوا مهزومين فإن عادوا
فسوف يعانون الأسوأ. ورأى الشيطان ورطتهم،
فتوجه إلى أصدقائه وقال لهم ساخراً.
أصدقائي، لمَ لا يهاجمنا المنتصرون المتكبرون؟
منذ فترة كانوا يهاجمون بضراوة، وعندما

رحبنا بهم ترحيباً حسناً بجبهة مفتوحة
وصدر مفتوح (وهل يمكن أن نفعل أكثر؟) عرضنا
شروط الاتفاق، غيروا رأيهم كلياً،
هربوا، ووقعوا في وهم غريب،
كما لو يرقصون، ولكن بدا أنهم في رقصهم
يبالغون إلى حد كبير حتى بدا رقصاً وحشياً، ربما
لفرحتهم بالسلام المقدم: ولكني أظن
لو أن مقترحاتكم عرضت مرة ثانية وسمعوا بها
سوف نجبرهم على الوصول إلى نتيجة سريعة.
وعلى هذا رد بليعال[1] بطريقة ممازحة،
أيها القائد، الشروط التي أرسلناها كانت ثقيلة،
ذات مضمون قاس، ومليئة بالقوة فتبلغوها،
وكما أدركنا فإنها أربكت الجميع،
وضيعت الكثيرين، فمن أدركها على حقيقتها
فقد فهمها من الرأس حتى القدمين؛
ومن لم يفهمها، فإن هذه الهدية إلى جانبهم،
فقد أظهرت لنا متى يمشي أعداؤنا منقلبين.

---

(1) ورد وصف بليعال في الكتاب الأول ٤٩٠ وما بعد.

هكذا بينما بعضهم راحوا يفرحون
هازئين مرتفعين بأفكارهم خلف
كل شك بالنصر، واعتقدوا أنهم ينافسون
الجبروت الأبدي بمخترعاتهم بسهولة
بالغة، وراحوا يسخرون من صاعقته
ومن كل حشده صاروا يهزؤون، بينما
وقفوا فترة مرتبكين؛ ولكنهم لم يقفوا طويلاً،
فقد حثهم الغضب أخيراً، فوجدوا أسلحتهم
يعارضون بها هذه الخسارة الجهنمية.
وعلى الفور (أنظر الميزة، القدرة التي
وضعها الله في ملائكته الجبابرة)
فقد رموا أسلحتهم، وإلى الهضاب
(وقد أخذت الأرض تنوعها من السماء
فجعلت المتعة في الهضاب والوديان)
بسرعة البرق هرعوا، وطاروا
فراحوا يخضونها من أساساتها
فاقتلعوا الهضاب الراسخة بما حملت،
بصخورها ومياهها وغاباتها، ومن قممها الشعثاء

رفعوها بأيديهم: وتأكد أن الدهشة
والرعب استوليا على الحشد المتمرد،
حين قدموا نحوهم خائفين فرأوا
بطن الجبال وقد انقلبت،
فلما ألقيت على آلاتهم اللعينة بصفوفها الثلاثة
رأوها تجتاحهم، ومعها ثقتهم
وتحت ثقل الجبال يدفنون عميقاً،
وهوجموا مرة أخرى، وعلى رؤوسهم
تصدعت النتوءات الكبرى، التي جاءت من
الهواء فظللتهم، وسحقت كل الفيالق المسلحة،
وعملت دروعهم على أذيتهم، فرضّـــوا وسحقوا
بمادتها المتكسرة، التي جلبت لهم العذاب
الذي لا يطاق، وكثيرون أنّـــوا من الألم،
وناضلوا تحت الأنقاض قبل أن يتمكنوا من الإفلات
من هذا السجن، مع أن الأرواح من نور صرف،
صرف في البداية، لكن الآن أغلظتهم الخطيئة المتفاقمة.
وقلدهم البقية فهرعوا إلى أسلحة مشابهة
لاجئين إليها، فاقتلعوا الهضاب المجاورة؛

ففي وسط الهواء التقت الهضاب بالهضاب
فتتفتت هنا وهناك برشقات مرعبة،
حتى أنهم تحت الأرض قاتلوا بظلام رهيب؛
الضجيج جهنمي، وبدت الحرب لعبة مدنية
بهذا الضجيج؛ وفوضى مخيفة تراكمت
على فوضى مخيفة: والآن كل السماء
صارت في حطام، وانتشر الخراب،
لو لم يعمد الأب الجبار حيث يجلس
معبوداً في مذبحه في أمان السماء،
إلى الاستشارة حول بعض الأشياء، وقد تنبأ
بهذه الضجة، وسمح للجميع، ناصحاً:
لقد حقق هدفه العظيم،
ليكرم ابنه الممسوح ويظهره
على جميع أعدائه، وتعلن قوته
انتقال سلطته المطلقة إليه: فخاطب ابنه
المشارك في عرشه مبتدئاً.

يا بريق مجدي، يا بني الحبيب،
أنت الابن الذي في وجهه غير المرئي

يرون المرئي، وهو إلوهيتي،
وبيده يصنع ما أقرره أنا،
أيها الكلي القدرة الثاني، مرّ يومان
يومان بحساب أيام السماء،
منذ أن هب ميخائيل وأجناده لتطويع
أولئك العصاة؛ مؤلماً كان قتالهم،
وسيكون مؤلماً عندما يلتقي عدوان مسلحان؛
فقد تركتهم وشأنهم، وأنت تعرف،
إني جعلتهم متساوين في الخلق،
إلا من أفسدته الخطيئة، مع أنه فساد
لا يشعر به، وقد أرجأت مصيرهم؛
وهم في قتال مستمر وسوف يتابعون
إلى ما لا نهاية، ولا حل عندهم:
وقد فعلت الحرب في إضعافهم كل ما في قدرتها،
وحتى تعم الفوضى أفلتت الأعنة وانحلت،
فقد تسلحوا بالجبال والأسلحة، التي تصنع
العمل الوحشي في السماء، وتهدد الجوهر.
لذلك فإن يومين مرا، والثالث هو يومك؛

فلك أعطيته، فقد طالت
المعاناة، والمجد قد يكون لك
في إنهاء هذه الحرب العظمى، ما دام لا أحد
سواك يمكن أن ينهيها. فلك هذه الفضيلة والنعمة
الجليلة التي منحتها لك، حتى يعرف الجميع،
في السماء والجحيم أن سلطتك لا تقارن،
فتقضي على هذا الاضطراب الفاسد،
لتعلن استحقاقك أن تكون وريث
كل الأشياء، أن تكون وريثاً وأن تكون ملكاً
بالمسحة المقدسة، والحق المستحق.
فاذهب يا جبار الجبابرة بقوة أبيك،
واعتل عربتي، وقد العجلات السريعة
التي تهز أركان السماء، فخذ كل أدوات حربي
من قوسي وصاعقتي، وسلاحي الجبار
وتمنطق بها، واجعل سيفي على فخذك القوي
ولاحق أبناء الظلام، واطردهم من
كل حدود السماء غلى الهوة المطلقة:
وهناك اجعلهم يعلمون، وأمثالهم، أن يحتقروا

الله والمسيح ملكه الممسوح.
قال هذا، وسقطت كل الأشعة على الابن
مباشرة، وأشرق كاملاً، فتلقى كل تعبير
الأب الفائق في وجهه،
وهكذا أجابت إلوهية الابن على كلام الأب.
أبي أيها الأرفع في العروش السماوية،
أنت الأول والأعلى والأقدس والأفضل، فدائما تسعى
لتمجيد ابنك، فأنا دائماً أنت،
وهذا منتهى العدل؛ فأنا أحسب مجدي،
وتمجيدي، وكل بهجتي
التي أنت أردتها لي، فتحققت إرادتك
وتحقيقها هي كل بركتي.
الصولجان والسلطة منحتني، وفي
سعادة أكثر سوف أسلمهما، عندما في النهاية
تكون أنت الكل بالكل، وأنا فيك
إلى الأبد، وفيّ كل ما أنت تحبه:
فمن تكرهه أنا أكرهه، ويمكن أن أحمل
رعبك، ورقتك،

صورتك في كل الأشياء؛ وبسرعة،
أتسلح بقوتك، وأحرر السماء من أولئك المتمردين،
وإلى المكان الرديء المعد لهم سوف أطردهم
ليكبلوا في الظلمة، وأطرد الأفعى التي لا تموت،
الذين استطاعوا عصيان طاعتك العادلة،
ولو أطاعوك لنالوا كل السعادة.
عندها لن يندمج قديسوك، ومن الأنجاس
سوف يفصلون، يدورون في الجبل المقدس
بصدق يرتلون لك هليلويا،
إليك التسابيح يرفعون، ورئيسهم أكون بينهم.
قال هذا وانحنى على صولجانه، نهض من
عن يمين المجد حيث جلس،
وأخذ الصباح القدسيّ الثالث يشع
فجراً عبر السماء: واندفع مع صوت دوامة الريح
بعربة الأبوة الإلهية، تلمع
لهباً كثيفاً، والعجلة داخل العجلة، لا يجرها أحد،
إنها بذاتها متشربة بالروح، ولكن يحملها
أربعة أشكال من الشيروبيم، لكل واحد أربعة وجوه

عجيبة، أجسادهم كالنجوم
وفي الأجنحة عيون، وفي العيون عجلات
من ياقوت وبينها نيران متأججة؛
وعلى رؤوسهم قبة كرستالية،
حيث عرش من ياقوت أزرق، مرصع
بالعنبر الخالص، وألوان قوس قزح.
أما هو فقد ارتدى الدرع السماوي وكل الأسلحة
من الأوريم[١] المصنوع بالقداسة،
فصعد العربة وعلى يمينه فكتوريا[٢]
جلست بجناحي نسر، وبجانبه علق قوسه
وكنانته مع ثلاث صواعق مخزونة،
ومن حوله هب متدفقاً تدفقاً وحشياً حشد
من الدخان ولهيب مشحون وكآبة متطايرة؛
ورافقه عشرة آلاف ألف قديس،
تقدم، وكلما ابتعد أشرق أكثر، وشاهدت
عشرين ألفاً (سمعت بالعدد سمعاً)

---

(1) الأوريم Urim حجر كريم براق. ورد ذكره في خروج ٢٨: ٣٠.

(2) ربة النصر الرومانية، وترسم بجناحي نسر.

من عربات الله، نصفها على جانب كل يد:
اعتلى أجنحة الشيروبيم مرتفعاً
إلى السماء الكرستالية، في عرش اللازورد.
كان واضحاً للقريب والبعيد، ولكن خواصه
رأوه أولاً، ففوجئوا بفرح غير متوقع،
عندما خفقت الراية العظمى للمسيح
عالياً بابن الملائكة، شارته في السماء:
وتحت إدارته عاد ميخائيل يقود
جيشه، فنشرهم في كل طرف،
وتحت رئاسته صار الكل واحداً
فأمامه أعدت السلطة المقدسة طريقه؛
وبأمره عادت كل هضبة مقتلعة إلى
مكانها، سمعوا[1] صوته فذهبوا
منصاعين، وقد جددت السماء وجهها المعتاد
فابتسمت الهضاب والوديان بالأزهار الندية.
شاهد أعداؤه هذا ولكنهم عاندوا،

(1) يقتضي السياق استخدام الضمير العاقل.

وعلى الفور دعوا أجنادهم لمعركة العصيان،
عسى أن يخرج الأمل من اليأس.
هل تتحمل الأرواح السماوية هذا العناد؟
ولكن حتى تقنع المتعجرف أي شارات،
أو أي عجائب تقدم حتى تلين قسوته؟
فازداد قسوة ما كان يجب أن يلين أكثر،
فحزن لرؤية مجده، ومن المشهد اعتراه
الحسد، وطمح أن يصل علوّه،
فراح يستعد للحرب الضروس، بالعنف أو الخديعة
متمنياً أن يتقدم، وأخيراً يسيطر
ضد الإله والمسيح، أو يفشل
في التدمير الكوني الأخير، والآن
تقدم إلى المعركة الأخيرة، مزدرياً الهرب،
وخاشياً التقهقر؛ بينما ابن الله العظيم
تكلم إلى كل قوات حشده على الطرفين.
حافظوا على صفوفكم مشرقين أيها القديسون، هنا
قفوا أيها الملائكة المسلحون، استريحوا اليوم من المعركة؛
إيمانكم يتجلى في حربكم، والله

تقبل ذلك، فلا تخافوا من القضية المحقة،
وكما كيل لكم كلتم لهم
بتصميم؛ لكن هذا الفريق اللعين
سوف يعاقب ممن ينتمون إلى اليد الأخرى،
فالانتقام من شأنه، أو من يعينه وحده.
وقد أمر ألا يكون العدد في عمل هذا اليوم
فلا حشود، بل وحدكم قفوا واشهدوا
يصب الله نقمته على أولئك الذي يكفرون
بالله، بل بي أيضاً، لم يرفضوكم بل رفضوني،
كما حسدوني؛ وضدي سلطوا كل غضبهم،
لأن الأب، في أعلى السماء
مملكته وسلطته ومجده،
قد شرفني بحسب إرادته.
لذلك كلفني بالقضاء عليهم؛
قد تكون هذه رغبتهم، فليجربوا معي
في معركة يتبين الأقوى، هم كلهم،
أم أنا وحدي ضدهم، ما داموا بالقوة
يقيسون كل شيء، أما الامتياز الآخر

فلا ينافسون فيه، ولا يهتمون بمن يتفوّق عليهم؛
وأنا لن أقبل بغير هذا النضال معهم.
هكذا تكلم الابن، فحلّ الرعب على
محياه مؤلماً بحيث لا يلحظ
وبسورة غضبه انقض على أعدائه.
وعلى الفور نشر الأربعة[1] أجنحتهم النجمية
بظل مخيف متجاور، ومدارات
عربته الوحشية انطلقت، مثل صوت
طوفان جارف، أو مثل حشد عديد.
وانطلق مباشرة نحو أعدائه الكفرة،
مكفهراً كالليل؛ وتحت عجلاته الملتهبة
اهتزت سماء الإمبريوم[2] الثابتة،
كل شيء اهتز إلا عرش الله. فوصل بسرعة
إلى وسطهم؛ وبيده اليمنى
أمسك عشرة آلاف صاعقة، أرسلها
أمامه، كما لو رمت في نفوسهم

(1) هم الشيروبيم الذين يشكلون أجنادهم أرباعاً أو ربعات، بلا جيش في الوسط.
(2) هي أعلى سماء.

الطاعون؛ فدهشوا كيف ضاعت مقاومتهم،

وكل شجاعتهم؛ وسقط السلاح من أيديهم؛ ومرّ

[٨٤٠] على تروسهم وخوذاتهم ورؤوسهم المحمية

فصرع أصحاب العروش والسيرافيم،

فتمنوا لو أن الجبال ترمى عليهم ثانية

فقد تكون حماية لهم من غضبه.



تسعة أيام وهو يسقطون (٦: ٨٧١)

وفي كل جانب كالعاصفة انهمرت

[٨٤٥] سهامه، من الأربعة ذوي الوجوه الرباعية،

المتميزين بالعيون، ومن العجلات[1] الفعالة
التي تميزها العيون الكثيرة[2]،
روح واحد فيه يحكم، وكل عين
تحدق مشرقة، وتطلق نارها المهلكة
بدقة بينهم، فتلاشت كل قوتهم،
وحتى قوتهم المعتادة تخلت عنهم،
فصاروا مرهقين بلا روح، ومدحورين ساقطين.
ولم يستخدم نصف قوته، بل ضربهم
بصاعقته في وسطهم، لأنه لا يريد
تدميرهم، بل اقتلاعهم من السماء:
وأنهض المغلوبين، ومثل قطيع
ماعز[3] أو قطيع جبان احتشدوا معاً
طردهم أمامه بضربة صاعقة
خائفين مرتهبين حتى حدود
حتى السور الكرستالي للسماء، الذي فتح واسعاً،

---

(1) في التوراة جاءت «البكرات» بدلاً من العجلات، ولها الدلالة نفسها.
(2) يعتمد ملتون في هذه الصور على سفر حزقيال الإصحاح العاشر وما بعد.
(3) في متى ٢٥: ٢٣ جاء أن المسيح يفصل الخراف عن الماعز ويبعد الماعز عنه ويرميهم في النار.

وأدخلوا فيه، وفغرت فجوة وفتحت
على هوة كريهة؛ على منظر وحشي
فردتهم خلفاً برعب، ولكن الأسوأ
من دفعهم إلى الخلف؛ أنهم رموا أنفسهم
من تخم السماء، إلى الغضب الأبدي
الذي أشعلهم في حفرة لا قاع لها.
سمعت جهنم الضجة غير المحتملة، ورأت
سماء تتحطم من سماء، وتمنت لو تهرب
مذعورة؛ ولكن القدر الصارم كان قد وضع
أساسها المظلم العميق، وأقام لها حدودها بسرعة.
تسعة أيام وهم يسقطون؛ فراح بوجل ورعب يصرخ
الكاوس[١] بعد أن شعر بعشرات أضعاف اضطرابه
في سقوطهم عبر فوضاه الوحشية، فأصابوه
بالدمار الذي لم يشهده: لكن جهنم أخيراً
تلقتهم جميعاً بتثاؤب، وأطبقت عليهم،
مسكنهم جهنم بنارها المرعبة التي

---

(1) العماء المطلق.

لا تنطفئ، منزل النحيب والعذاب.
فرحت السماء فقد خف ثقلها، وبسرعة أصلحت
الشق الجداري، فعاد كما يجب.
وبعد أن انتصر وحيداً على أعدائه
عاد المسيح بعربته المنتصرة:
ليلتقيه جميع قديسيه، الذين وقفوا بصمت
يشهدون بأم العين أعماله الجبارة،
وبفرح تقدموا؛ وحالما ذهبوا
مظللين بأغصان النخيل، وبغبطة كل
يتغنى بالنصر، ويمجد الملك المنتصر،
الابن والوريث والسيد، له منحت السلطة،
الأجدر بالحكم: وركب المحتفى به
منتصراً عبر وسط السماء، ودخل البلاط
ومعبد الأب الجبار متوجاً
في الأعالي: الذي تلقاه بالمجد،
حيث يجلس الآن على يمين البركة.
هكذا قست أشياء السماء على أشياء الأرض
حسب طلبك، وحتى تعي وتحذر
مما جرى في الماضي، كشفت لك

عما قد يظل خفياً على العرق البشري؛
الشقاق الذي وقع، والحرب في السماء
بين أجناد الملائكة، والسقوط العميق
لأولئك الطموحين جداً، الذين تمردوا
مع الشيطان، الذي يحسدك الآن على حالتك،
الذي يتآمر الآن كيف يمكن أن يغويك
ويخرجك من الطاعة أيضاً، فمعه
تتجرد من السعادة وتشاركه
عقابه، وبؤسه الأبدي؛
وهذا هو كل انتقامه وعزائه،
كعمل مناهض لله العليّ،
فتصير رفيقه في كربه.
فلا تصغ لتجاربه، وحذرِ
الأضعفَ منك؛ واستفدْ مما سمعته
عن الماضي المرعب وجزاء
العصيان؛ قد يثبتون، ومع ذلك
يسقطون؛ تذكر، واحذر أن تنتهك.

* * *

الكتاب السابع

الخلاصة:

بناء على طلب آدم يسرد رفائيل كيف ولماذا خلق العالم أولاً؛ ذلك أن الإله بعد طرد الشيطان وملائكته من السماء، أعلن سروره في خلق عالم آخر وخلائق أخرى تسكن فيه؛ أرسل ابنه ممجَداً ترافقه الملائكة لتنفيذ عمل الخلق في ستة أيام: الملائكة تترنم احتفالاً بالتنفيذ، والمرسل يعود ابنه إلى السماء.

* * *

اهبطي من السماء يا أورانيا[1] إن كان ذاك الاسم
هو ما تسمين به، فصوتك المقدس
اتبعته، وحلقت فوق هضبة الأوليمب،
أعلى مما وصل إليه جنح بيغاسوس[2]
وأنا أدعو المعنى وليس الاسم، لأنك

---

(1) Urania ربة فن إغريقية. إنها ربة الفلك والتنجيم. ويشار إليها عادة باعتبارها أم لينوس Linus وأبوللو Apollo. ترسم والعالم في يدها اليسرى على شكل كرة زجاجية، وفي يدها اليمنى وتد. وترتدي يورانيا عباءة مرصعة بالنجوم وتتجه بعينيها صوب السماء. أما اسمها فيعني «ملكة الجبال». والأرجح أن ملتون اختارها وتبعها لأنها تعلو في فلكها على بقية ربات الفنون، ويقصد أنها ستقدم له إلهاماً أعلى من الشعر التقليدي الذي نظمه غيره من الشعراء، فيعلو أكثر من الحصان بيغاسوس. وقوله لست من ربات الفنون يعني أنها ليست من ربات الشعر الملحمي والغنائي... فقط وإلا فإنها من جملة الربات التسع، لأن كل علم في القديم كان يقال له «فن» حتى التاريخ والفلك...

(2) Pegasus حصان مجنح ولدته ميدوزا من بوسيدون بعد افتراعه لها في معبد أثينا. بحافرة خلق النبع المقدس لربات الفنون واسم النبع «هيبوكريني» أي جبهة الحصان، ولذلك ارتبط بالإلهام الشعري. وعندما ركب الغرور صاحبه بيلروفون أراد أن يصعد به إلى الأوليمب لكن زيوس أرسل ذبابة خيل على الحصان فرمى صاحبه.

لست من ربات الفنون التسع، ولا على قمة
الأوليمب القديم[١] تسكنين، بل في السماء ولدت،
قبل أن تظهر الهضاب، أو تتدفق الينابيع،
فأنت مع الحكمة الأبدية تسكنين،
فالحكمة أختك، ومعها تلعبين
في حضرة الأب الجبار، تبهجينه
بأغنيتك السماوية. فقوديني إلى الأعلى
إلى سماء السموات التي أتخيلها
ضيفاً أرضياً، وخذيني إلى الفضاء الإمبريالي[٢]
مجال خبرتك؛ وبكل إرشاد آمن
أعيديني إلى عنصري الأصلي[٣]:
وإلا من على هذا الحصان الطائر بلا لجام (كما

(1) الأوليمب هو الأوليمب، لا يوجد قديم ولا جديد، ولكن ملتون يستخدم كلمة قديم بمعنى أن الشعراء الذين استوحوا قبله اتبعوا الشعر التقليدي، أما هو فيستوحي من الأوليمب «الجديد» الذي هو أعلى من القديم، كنوع من التفاخر بشعره.

(2) كما أشرنا من قبل الإمبريالي يعني السماوي فالإمبريوم هي أعلى سماء.

(3) أي إلى الأرض.

رمى بيلروفون، مع أنه في تحليق أدنى)
سأرتمي، وأسقط في الحقل الإيلي[١]
ضالاً هناك أتجول بائساً مهجوراً.
بقي نصف أغنيتي لم أنشدها بعد، لكنه أضيق
حداً داخل المدار المرئي واليومي[٢]؛
على الأرض أقف، لم أعل فوق القطب منتشياً،
آمناً أغني بصوت بشري، لم يتغير
ويخشن أو يصمت، مع أنه وقع في أيام الشر،
ففي أيام الشر أعيش ومع ألسنة الشر[٣]؛
في الظلمة، وفي الخطر المحيط بي،
والوحشة؛ ومع ذلك لست وحيداً، ما دمت أنت
تزورين هجوعي الليلي، أو عندما الصبح

(1) حقل في ليسيا، تركيا الحالية، حيث سقط بيلروفون، بعد أن ألقاه بيغاسوس عن ظهره.

(2) أي يدور حول الأرض وقضاياها.

(3) أيام الشر هي الأيام التي تلت عودة الملكية عام ١٦٤٩ فكانت أياماً خطرة على الجمهوريين ومنهم ملتون. أما ألسنة الشر فهي الكلام الدائر يومها حول القضية الجمهورية وهو كلام تشهيري شديد اللهجة.

يلون الشرق بالأرجوان: فظلي متحكمة بأغنيتي،
يا أورانيا، وهيئي المستمعين، وإن كانوا قلة(١).
انطلقي بعيداً عن التنافر البربري
لباخوس ومعربديه، وهم عرق من الرعاع
الوحشيين الذين مزقوا الشاعر التراقي(٢)
في رودوبي(٣)، حيث الغابات والصخور والأسماع
في نشوة، إلى أن قضى المتوحشون الصاخبون
على قيثارته وعلى صوته؛ ولم تستطع ربة الفن(٤)

---

(1) يتنبأ الشاعر أن قراءه سيكونون قلة. والأرجح أن السبب يعود إلى أن الموضوع الذي يطرحه لا يلقى شعبية، لأن ظروف إنكلترا لم تكن نضجت لقتل الملوك. فكان حذراً في كلامه وفي توجهه.

(2) باخوس إله الخمر والإلهام وكانت له حاشية معظمها من النساء يقال لهن الباخيات. وأورفيوس عازف قيثارة ماهر سحر بقيثارته رب العالم السفلي فسمح له باستعادة زوجته، وكادت أن تعود لو لم يلتفت أورفيوس إلى الخلف. كان يعزف في ظل شجرة فهاجمه أنصار باخوس من المعربدين ورجموه، ولكن الحجارة لم تصبه لأنها تأثرت بعزفه، فما كان من المعربدين إلا أن هاجموه بأيديهم. ولذلك يستنكر ملتون عملهم. أما تراقيا التي منها أورفيوس فهي اليوم منطقة قزوين.

(3) جبل في تراقيا.

(4) المقصود بربة الفن هنا كليوبي Calliope والدة أورفيوس من أبوللو، فهي ربة الشعر الملحمي كما أنها زعيمة كل ربات الفنون الأخريات.

أن تدافع عن ابنها. فلا تفشلي أنت، يا من أتضرع إليها:
فأنت سماوية، وهي حلم خاوٍ.
أخبريني، ربتي، ماذا جرى عندما رفائيل
الملاك الأنيس، حذر آدم
بضرب مثال رهيب، تحذيراً
من الارتداد، بما وقع في السماء
لهؤلاء المرتدين، حتى لا يقع مثله
في الفردوس لآدم أو عرقه،
فأوصاهما ألا يقربا الشجرة المحرمة،
وألا يخرقا الأمر الوحيد وألا يهملاه،
فطاعته سهلة جداً وسط خيار
جميع الأشجار الأخرى لإرضاء شهيتهما،
مع كل مداها. سمع آدم مع زوجته حواء
القصة المشوقة، وأفعما
بالإعجاب، وفرحا لسماع
أشياء عالية وغريبة، أشياء بالنسبة لفكرهما
لا يمكن تخيلها من أمثال الكره في السماء
والحرب التي وقعت بالقرب من الله في بَرَكته

فأحدثت اضطراباً: ولكن الشر بسرعة
تقهقر وارتد مثل طوفان على أولئك
الذين انبثق منهم، فمن المستحيل أن يمتزج
مع البركة. بسرعةٍ قهر آدم
الشكوكَ التي ظهرت في قلبه: والآن
بلا خطيئة اندفع برغبة لمعرفة
أقرب الأشياء التي تهمه، وكيف هذا العالم
من السماء والأرض تجلى باهراً لأول مرة،
ومتى، ومن أجل ماذا، ولأي سبب،
وماذا حصل في داخل عدن، أو خارجها
قبل أن تعي ذاكرته، كواحد متعطش
لا يزال بالكاد تشبع عيناه من النهر المتدفق،
الذي يهمس ماؤه فيزيد من عطشه،
فانطلق هكذا يسأل ضيفه السماوي.

أشياء عظيمة، ملأت أسماعنا دهشة،
مختلفة جداً عن هذا العالم، فأنت كشفت
التأويل المقدس، الذي أرسلته بعطفها
العناية الإلهية من السماء الإمبريالية لتحذرنا

دائماً عما يمكن أن يسبب ضياعنا،
عن المجهول الذي تعجز المعرفة البشرية أن تطاله:
ونحن مدينون للخير المطلق
ونشكر الخالد، وقد تلقينا
نصحه بوقار الهدف للحفاظ
على ثبات إرادته الحاكمة، وهي غاية
ما نحن فيه. ولكن ما دمت تعهدت
بلطف تعليمنا أن ننتقل إلى
الأشياء التي فوق التفكير الأرضي، ولا تزال
خافية عن معرفتنا، كما تبدو للحكمة العليا،
فتلطف واهبط الآن إلى الأدنى، واسرد
علينا ما يمكن أن نستوعبه في معرفتنا
كيف بدأت هذه السماء التي نراها
بعيدة المسافة نحو الأعلى، مع نجوم متحركة
تزينها بلا حساب، وعن هذا الذي ينتج أو يملأ
كل الفراغ، عن الهواء المحيط، المتسع
المعانق والحاضن لهذه الأرض الجميلة، وما السبب
الذي حرك الخالق في راحته المقدسة

عبر كل الأبدية فتأخر في البناء
في قلب الكاوس، وكيف ابتدأ العمل،
وكيف انتهى، إن لم يكن محرماً عليك أن تكشف
ما نسأل عنه، لا لنكشف أسرار إمبراطوريته
الأبدية، بل إننا نزيد
من تمجيد أعماله، كلما عرفنا المزيد عنها.
والنور النهاري العظيم الذي يريد أن يقطع
الكثير من سباقه عبر السماء الشاهقة، سيتعلق في
السماء لسماع صوتك، القوي المفحم،
وبشوق يتأخر حتى يسمعك تخبر
قصة نشأته وكيف كانت ولادة
الطبيعة من الهوة غير المرئية:
أو إذا نجم المساء والقمر
سارَعَا للاستماع إليك، فإن الليل سوف يُحضر معه
الصمت، والنوم بكل اهتمام سوف يتوقف ويستمع،
أو يمكن أن نأمره بأن يغيب حتى تنهي أغنيتك،
وتغادرنا قبل أن يشرق الصبح.

هكذا توسل آدم لضيفه المشرق:

وهكذا رد بلطف الملاك الشبيه بالإله.
سأجيب عن سؤالك الذي أيضاَ بحذر
سألت: إن سردت أعمال الجبار
فأي كلمات أو أي لسان سيرافي يكفي،
أو هل قلب الإنسان يتسع ويستوعب؟
وما يمكنك أن تستوعبه، وما يفيدك
في تمجيد الخالق ويزيد من
سعادتك أيضاً، لن أحجبه
عن سمعك، فهذه إرسالية من الأعلى
تلقيتها، حتى ألبي رغبتك
في المعرفة ضمن حدود؛ بعدها امتنع
عن أن تسأل، أو تدع تأملاتك تأمل
في الأشياء التي لم تكشف، فالملك غير المرئي
وحده كلي القدرة يقمعها في الليل،
ولا يستطيع أحد نقلها في الأرض أو السماء:
فقد ترك ما يكفي لتبحثه وتعرفه.
ثم إن المعرفة مثل الطعام، ولا تحتاج
إلا للصبر على الشهية، أي يجب معرفة

مقياس العقل الذي يستوعب،
وإلا أصيب بالتخمة، وبسرعة تتقلب
الحكمة إلى حماقة، كما يتحول الغذاء إلى ريح.
فاعلم أنه بعد أن سقط لوسيفر
(سمي هكذا لأنه مشرق وسط حشد
الملائكة، ولأنه ذلك النجم[1] بين النجوم)
مع فيالقه الملتهبة عبر الهوة
في مكانه، وعاد الابن العظيم
منتصراً مع قديسيه، رأى الكلي القدرة
الأب الأبدي من عرشه
حشودهم، فتحدث إلى ابنه.
أخيراً فشل عدونا، فقد اعتقد
أن الجميع متمردون مثله، وبمعونتهم
على هذه القوة العليا العاتية،
عرش المقدس الأعلى، الذي ينتظمنا،
يستطيع أن ينتزعه، وبالخديعة
جرّ الكثير، الذين لا يعرفون مكانه هنا؛

---

(1) ذلك النجم يقصد نجم الزهرة (فينوس) الذي يرمز إلى الحب.

ومع ذلك فإن القسم الأعظم احتفظ، كما أرى،
بموقعه، فالسماء بأعداد وفيرة لا تزال
تحتفظ لتدافع عن ممالكها
على اتساعها، وعن هذا المعبد العالي الذي
فيه تقدم الشعائر والطقوس الوقورة:
ولكن حتى لا يبالغ قلبه بالضرر
الذي وقع، فيظن السماء خلت من ساكنيها
وتبالغ حماقته في الضرر، سوف أصلح
ذلك الضرر، إن اعتبر ضرراً
خسارة النفس للنفس، وفي لحظة سوف أخلق
عالماً آخر، ومن رجل واحد أخلق عرقاً
من بشر لا عد لهم، هناك يسكنون،
وليس هنا، إلى أن يرتقوا بدرجات المزايا
فيشقون لأنفسهم أخيراً الطريق
إلى الأعلى، تحت امتحان الطاعة الطويل،
وتتحول الأرض إلى سماء، والسماء إلى أرض،
مملكة واحدة، مملكة فرح واتحاد بلا نهاية.
فانتشروا الآن يا أجناد السماء،

وبكلمتي، يا ابني المولود، بك
أنفذ هذا، فتكلم أنت وسوف يكون[1]:
ومعك روحي المظلة لكل شيء وجبروتي
أرسله، فانطلق، ومُرِ الهوة
أن تكون ذات حدود معلومة بين السماء والأرض،
وأن تكون الهوة بلا حدود، لأني أنا من يملأ
المطلق، فلا فراغ في المكان.
ومع أني غير محدود وواريت نفسي،
ولا حد لخيري، وهو حر
أن يمنح أو لا يمنح، فإن الضرورة والمصادفة
لا تقتربان مني، وما أريده هو القدر.
هكذا تكلم الجبار، وما تكلم به
نفذه كلمته، الابن الإله.
فورية هي أعمال الله، فهي أسرع
من الزمن أو الحركة، لكن آذان البشر
لا تدركها بلا كلام يخبر بها، وهكذا

(1) يخالف ملتون هنا الكتاب المقدس، لأنه يجعل فعل الخلق من عمل الابن.

فإن الإخبار هو ما يدركه العقل البشري.
نصر عظيم وفرحة كبرى في السماء
حين سمعوا إعلان مشيئة الجبار؛
رتلوا المجد في الأعالي، والخير
للبشر القادمين، وفي السكان السلام[1]:
المجد له، الذي بغضبه المنتقم العادل
طرد الأشرار من أمام ناظريه
وبارك مسكن[2] الصديقين؛ فله
المجد والتسبيح، الذي حكمته قضت
أن يخلق الخير من الشر، وبدلاً
من الأرواح الشريرة عرق أفضل
يسد مكانهم الفارغ، فينتشر
خيره إلى عوالم وعصور لا حد لها.
هكذا غنت مراتب الملائكة: بينما الابن

---

(1) هذا الكلام ورد عند لوقا ٢: ١٤ كما يلي: المجد لله في العلى وعلى الأرض السلام وفي الناس المسرة.

(2) جاء في أمثال ٣: ٣٣ «لعنة الرب في بيت الشرير لكنه يبارك مسكن الصديقين».

ظهر الآن في حملته العظيمة
مطوقاً بالقدرة الكلية ومتوجاً بنور
الجلالة المقدسة، والحكمة والمحبة
الكبيرة، والأب كاملاً أشرق فيه.
وحول عربته تدفق ما لا يعد من الشيروبيم
والسيرافيم، وأصحاب السيادة وأصحاب العروش
وأصحاب الفضيلة، أرواح مجنحة، عربات مجنحة،
من أسلحة الله، حيث يقف عشرات الألوف
القدامى بين جبلين نحاسيين، في
مواجهة اليوم الوقور، والأعنة في الأيدي،
والمعدات السماوية؛ والآن تدفقوا
تلقائياً، فمن داخلهم روح حية،
انضمت إلى سيدهم: ففتحت السماء واسعاً
بواباتها المتينة، بصوت متناغم
في تحريك المفاصل الذهبية، لتفسح
لملك المجد، بكلمته القوية وبروحه،
أن يأتي ويخلق العوالم الجديدة.
على أرض سماوية وقفوا، ومن الشاطئ

شاهدوا الهوة الضخمة التي لا تحد[1]
مصطخبة كبحر، مظلمة وخربة وبرية،
ومن القاع تثيرها رياح عنيفة
وأمواج متلاطمة، مثل جبال تهاجم
قمة السماء، وقد امتزج المركز بالقطب.
صمتاً أيتها الأمواج الصاخبة، واهدئي أيتها
الهوة، شقاقك قد انتهى، هكذا قال الكلمة الخالقة[2].
قال هذا واعتلى أجنحة الشيروبيم
وصعد، في مجد أبدي بعيداً
في الكاوس، والعالم غير مخلوق؛
فقد سمع الكاوس صوته: ومعه كل أنصاره
يتبعونه في موكب مشرق ليروا
الخلق، وعجائب جبروته.
ثم وقف على عربات ملتهبة، وفي يده
أخذ فرجارات ذهبية أعدت
في مخزن الله الأبدي، ليحدد محيط

---

(1) هذا يذكرنا بكلام الشيطان عندما وصف الكاوس.

(2) كلمة اشتقها ملتون واستخدمها وهي Omnifec ويقصد الكلي الخلق.

هذا الكون، وكل الأشياء المخلوقة:
فجعل قدمه في المركز، والأخرى مدها
دائرية عبر الأعماق الضخمة الغامضة،
وقال، إلى هنا تمتد، وإلى هنا حدودك،
ليكن هذا محيطك الدقيق، أيها العالم.
وهكذا خلق الله السماء، والأرض،
من مادة بلا شكل وفراغ: والظلام العميق
يغطي الهوة: ولكن على الماء الهادئ
نشر روح الله جناحيه
فانصهرت قوة الحياة ودفء الحياة
عبر كتلة السائل، ولكن الأعماق طهرها
وسحب من ترتاروس الجهنمية العمياء
مناوأة الحياة: ثم شكل وكوّر
وجمع الشبيه بالشبيه، والباقي إلى أمكنة
عدة وزعها، وبينها نسج الهواء،
والأرض وازنها وعلى مركزها علقها.
قال الله، ليكن هناك نور، فكان
النور الأثيري أول الأشياء صافي الجوهر

[٢٤٥] المنبثق من الهوة، ومن شرقها الأصلي
بدأ الرحلة عبر ظلام الهواء،



موجة تتدفق بعد موجة، حيث تجد الطريق
إن كان منحدراً فسيل عارم (٧: ٢٩٨...)

وشكل مداراً في سحابة مشعة، لأن الشمس
لم تخلق بعد؛ فظل النور[١] في خيمة من الغيم

(1) يعامل ملتون النور معاملة المؤنث، بينما يعامل الشمس معاملة المذكر.

مقيماً لفترة. فرأى الله النور حسناً؛
والنور من الظلمة في نصف الكرة
فصله: وسمى النور نهاراً والظلمة
ليلاً. وهكذا كان اليوم الأول مساء وصباحاً:
لم يمرّ هذا اليوم دون احتفالات وأناشيد
قامت بها الجوقات السماوية، حين شاهدوا
نور الشرق يخرج أولاً من الظلمة؛
يوم ميلاد السماء والأرض؛ وبفرح صارخ
أشبعوا المدار الكوني الفارغ،
وعزفوا على قيثاراتهم الذهبية ورنموا مسبحين
الله وأعماله، وأنشدوا للخالق[١]، حين
كان أول مساء، وحين كان أول صباح.
ثم قال الله ليكن هناك جلَـد[٢]

---

(1) أي الابن حسب كلام ملتون، وإن كان بأمر من الله.

(2) الجلَـد بفتح اللام Firmament في التوراة هي القبة الزرقاء، ولكن عند ملتون مكان فضائي يفصل المياه الفوقية عن المياه التحتية، ربما تأثر ببعض النظريات اليونانية التي ترى أن العالم السفلي يشبه العالم الأرضي ولكن بقوانين خاصة.

بين المياه، وليفصل
المياه من المياه: وصنع الله
الجلد، يمتد من سائل نقي
شفاف وهواء أساسي، يمتزج
في دائرة حتى ذروة
هذا العالم العظيم: قسمة ثابتة وأكيدة
فانفصلت المياه التحتية عن تلك التي
فوق: فكما بنى الأرض كذلك بنى
العالم على مياه دائرية هادئة في محيط
كريستالي واسع، ثم نقل الكاوس الفوضوي
الصارخ بعيداً، وإلا لامست أطرافه
الوحشية فتبعثر كل نظام الإطار:
وسمى الجلد سماء: وفي المساء والصباح
غنت الجوقة لليوم الثاني.

تشكلت الأرض، ولكن في رحمها الذي
لا يزال مياهاً، جنينٌ غير ناضج،
لم يظهر: وعلى وجه الأرض

تدفق محيط غامر، سريع، ولكنه يحمل
سائلاً مخصباً ناعماً حول كرته كلها،
خمّر الأم الكبرى فحملت، مشبعة
بالرطوبة الجنسية، عندما قال الله
فلتتجمع الآن المياه التي تحت السماء
في مكان واحدة، ولتظهر الأرض اليابسة.
وعلى الفور ظهرت الجبال الضخمة
مرتفعة وناطحت بظهورها العريضة العارية
الغيوم، وصعدت قممها حتى السماء:
وكما انتصبت مرتفعة الهضاب، كذلك انخفضت
وغاصت هوة فارغة عريضة وعميقة،
كسرير رحب للمياه: وإلى هناك جاءت
مسرعة مندفعة فرحة هدارة
كقطرات دائرية على التراب من اليابسة؛
قسم نهض في سور كريستالي، أو قمة ناتئة،
بسبب السرعة؛ هذا الاندفاع للأمر العظيم
على الجريانات السريعة: مثل جيوش يدعوها
بوق النفير [وقد سمعت من قبل عن الجيوش]

فتذهب كل فصيلة إلى رايتها، هكذا حشد المياه،
موجة تتدفق بعد موجة، حيث تجد الطريق،
إن كان منحدراً فسيل عارم، وإن كان سهلاً
تدفقت بنعومة؛ لا توقفها صخرة أو هضبة،
بل تذهب تحت الأرض، أو في دائرة عريضة



وقال الله لتخلق المياه زواحف تنتج بيضاً وافراً وأرواحاً حية

والطيور تطير فوق الأرض (٧: ٣٨٧...)

ملتفة مثل الأفعى التائهة، فتجد طريقها،
وعلى الطين المائي قنوات عميقة محفورة
صارت لينة قبل أن يأمر الله الأرض أن تجف،
إلا أنه ضمن تلك الضفاف، حيث الأنهار الآن
تجري، وهي تجر دائماً ذيلها الرطب.
واليابسة، الأرض، والأحواض العظيمة
من المياه المتجمعة سماها البحار:
ورأى ذلك حسناً، وقال لتخرج الأرض
العشب الوارف، ومن الأعشاب تنتج البذور،
والشجر المثمر ينتج ثمراً من نوعه؛
وبذورها في ذاتها على الأرض.
وما كاد يقول هذا، حتى الأرض الجرداء
وكانت صحراء عارية قبيحة بلا زينة حتى تلك
الساعة فأخرجت العشب الندي، الذي غطى
وجهها الكوني بخضرة جميلة،
ثم الأعشاب من شتى الأوراق، فأزهرت فجأة
مفتحة ألوانها المختلفة، وأشاعت البهجة
في صدرها والرائحة العذبة: وما كادت تزهر
حتى انتعشت الكرمة بالعناقيد الكثيفة،

وزحف اليقطين الشمام، وانتصبت سنابل القمح
بشوكها في حقولها: والشجيرات القصيرة،
والعليق بشعره الأشعث راح يتشابك: أخيراً
نهضت كما لو أنها ترقص أشجار ضخمة، ومدت
أغصانها التي تتدلى منها الثمار الغزيرة؛ أو برعمت
أكمامها: والغابات الباسقة كللت الهضاب،
بأجماتها في الوديان وعلى ضفاف الينابيع،
وعلى الحدود الطويلة للأنهار. فالأرض الآن
بدت مثل السماء، مكان قد تسكنها الآلهة،
أو يتنزهون فيها ببهجة، ويحبون الطواف
في ظلالها المقدسة: ومع أن الله لم يمطر بعد
على الأرض، والإنسان لم يحرث التربة
ولا أحد حتى الآن، ولكن من الأرض ضباب ندي
صعد ورطب كل الأرض، وكل
نبتة في حقل، كان الله قد صنعها
في الأرض، وكل عشبة، قبل أن تنمو
على ساق أخضر؛ ورأى الله ذلك حسناً.
وكان مساء وكان صباح يوم ثالث.
وتكلم الجبار ثانية: لتكن هناك مصابيح

عالية في مدى السماء لتفصل
النهار عن الليل؛ وتكون إشارات
للفصول، وللأيام، وتوالي السنين،
ولتكن المصابيح منيرة كما أمرت
ومقرها يكون في جلَـــد السماء
لتعطي النور إلى الأرض؛ وكان كذلك.
وصنع الله مصباحين عظيمين، عظيمين لفائدتهما
للإنسان، المصباح الأكبر يحكم النهار،



فيبدو براً متحركاً وعند خياشيمه يشفط بحراً،
وعند جذعه ينفث بحراً (٧: ٤١٥...)

والأصغر يحكم الليلي بالتناوب: وصنع النجوم،
وجعلها في جلـــَد السماء
لتنير الأرض، وتحكم النهار
في تناوبها، وتحكم الليل،
وفصل النور من الظلام. ورأى الله،
بعد أن شاهد عمله العظيم، كل شيء حسناً:
لأكبر الأجرام السماوية، والشمس أولها
شكل مداراً جباراً، فكانت أولاً غير منيرة،
مع أنها من المادة الأثيرية[1]: ثم شكـــّل القمر
كروياً، وكل نجم بحجم،
ونثر النجوم في السماء كثيفة كما الحَبّ في الحقل:
ومن النور أخذ القسم الأعظم إلى الأقاصي،
وشتل منه معبداً غائماً[2]، وضعه
في مدار الشموس، وصنع مساماً يتلقى
ويشرب النور السائل، وتكون صلبة لتحتفظ

(1) يذهب ملتون مذهباً وحدانياً وهو أن كل شيء تشكل من المادة الأثيرية، ولا شيء خارج ذلك.

(2) أي الخيمة الظليلة التي شاعت عند اليهود في صحراء سيناء.

بالأشعة المتجمعة، فهناك قصر عظيم من النور
الآن كما لو أن النجوم الأخرى تأتي إلى نبعها
[٣٦٥] فيعاد إصلاحها وفي جرارها الذهبية تسحب النور،
ولذلك فإن نجم الصباح دعم قرونه؛
بالامتصاص أو الانعكاس يزيدون



أثناء ذلك في الكهوف الدافئة والمستنقعات والشطآن
تفقس بأعداد ضخمة (٧: ٤١٨...)

ضوءهم الصغير[1]، وإن في الرؤيا الإنسانية
مبتعدون كثيراً، فيظهرون منكمشين.
أولاً يظهر المصباح المجيد في شرقه،
وصيّ النهار، وكل ما حوله من أفق
تغمره الأشعة البراقة، وبمرح يجري
على خطوط الطول عبر طريق المساء العلوي:
الفجر الكئيب، والثريا[2] أمامه ترقص
بانسكاب جميل: والقمر أقل بريقاً،
لكنه يضع في مقابلها في الغرب
مرآته، بوجه كامل يستعير نوره
كله منها، ولا تحتاج إلى نور آخر
في ذلك المجال، ولا يزال يحتفظ بالمسافة
حتى الليل، ثم في الشرق يكمل دورته ويشع،
دائراً حول المحور الكبير للسماء، ويحكمها

(1) حديثاً فقط اكتشف غاليليو الأوجه المتعددة لفينوس (نجم الصبح) مثل أوجه القمر. ومن هنا جاءت صورة القرون عند ملتون.

(2) مجموعة النجوم السبعة في برج الثور، وحسب الأسطورة هن البنات السبع لأطلس.

مشاركاً بألف نور أقل إشراقاً،
مع ألــْفِ ألف نجمةٍ، تظهر عندئذ
متلألئة في نصف الأرض: ثم تزين أولاً
بالأجرام المنيرة تلك التي غابت ثم عادت،
مساء بهيج وصباح بهيج توجا اليوم الرابع.
وقال الله، لتخلق المياه
زواحف تنتج بيضاً وافراً، وأرواحاً حية؛
والطيور تطير فوق الأرض، بأجنحة
منشورة في جلــَد السماء المفتوح.
وخلق الله الحيتان، وكل
نفس حية، كل زاحفة، التي يخلقها
الماء بكثرة كل من جنسه،
وكل طائر جناح من جنسه؛
ورأى ذلك حسناً، وباركه، قائلاً،
تناسلوا وتكاثروا، ولتملأ المياه البحار
والبحيرات والأنهار الجارية؛
وليتكاثر الطير على الأرض.
فوراً غصت الأعماق والبحار وكل خليج وشاطئ

بما لا يعد من صغار السمك الذي يسبح، ومن
أسرابها الأسماك التي بزعانفها وحراشفها البراقة
تنسل تحت الماء الأخضر انسلالاً، وفي مجموعات
تبدو كأنها رصيف وسط البحر: مفردة أو مع أزواجها
تأكل أعشاب البحر، مرعاها، وعبر أجمات
المرجان تضل، أو تتريّض بسرعة
فتعرض للشمس معاطفها المتحركة المنقطة بالذهب،
أو في صدفاتها اللؤلئية تستريح، منتظرة
غذاءها الرطب، أو تحت الصخور تراقب
طعامها بدروعها القشرية: وفي المياه الهادئة
ترى الفقمة والدلافين المتثنية تلعب: بعضها
الضخم الجثمان يتمرغ بلا انسياب، ضخمة في تثنيها
تثير عاصفة في المحيط: وهنا اللوياثان[١]
أضخم المخلوقات الحية، في الهاوية
يمتد مثل برزخ نائم أو سابح،
فيبدو براً متحركاً، وعند خياشيمه يشفط

(1) ورد ذكر هذا الوحش ووصفه في سفر أيوب الإصحاح ٤١.

بحراً، وعند جذعه ينفث بحراً.
أثناء ذلك في الكهوف الدافئة والمستنقعات والشطآن
تفقس بأعداد ضخمة، فمن البيضة بسرعة
تتمزق طبيعياً فتخرج
صغارها القليلة الخبرة، ولكن ينبت ريشها وينمو
ويكتمل ريشها، وتحلق عالياً في الهواء
وتصرخ مزدرية بالأرض، ومن تحت غيمة
تنظر إليها؛ وهناك العقاب واللقلق
على المرتفعات وقمم الأرز تبني أوكارها:
بعضها يطير في الإقليم، وبعضها أكثر حكمة
فينتظم في شكل إسفين ويشق طريقه[1]،
عارفاً بالفصول، فينطلق
قوافل هوائية عالية طائراً فوق
البحر، وفوق البراري بجهد مشترك يسهل
رحلته الجوية؛ وكذلك يفعل الكركي الحكيم
في رحلته السنوية، تدعمه الرياح؛ ويتماوج

(1) إنه طائر الإوز.

مع الهواء، حين يعبر، برياش لا عد لها:
ومن غصن إلى غصن تسلي الطيور الأصغر
نفسها بالأغاني في الغابة، وتفرد أجنحتها الملونة
حتى المساء، ولم يكن حتى ذلك الوقت عندليب وقور
يتوقف عن النشيد، بل يلحن أغانيه الناعمة مدى الليل:
طيور أخرى في البحيرات الفضية والأنهار تحمّم
صدرها الأزغب؛ والتمّ[1] بعنقه المقوسة
بين الأجنحة البيضاء يتيه عجباً، ويجدف
بكل جلال ومهابة بقدميه المجدافيين: والأغلب
أن يخرج من الماء، ويرتفع على جناحين قويين
نحو أوساط السماء الأثيرية: وطيور أخرى تمشي
على الأرض بثبات؛ كالديك ذي العرف الذي يصدح
ببوقه في ساعات الهدوء، والطاووس الذي بذيله
الذي يزينه، يتلوّن مزخرفاً
بألوان قوس قزح وبعيون نجمية. فالمياه
بالأسماك امتلأت، وامتلأ الهواء بالطير،

---

(1) التمّ هو الإوز العراقي الذي يبقى صامتاً حتى يموت وليفه فينشد أغنيته الوحيدة والأخيرة ويدخل منقاره في صدره ويموت.

وكان مساء وكان صباح يوم خامس وقور.

اليوم السادس، وهو الأخير في الخلق، أشرق
بقيثارات[1] المساء، وصلوات الصباح، حين قال الله،
لتلد الأرض روحاً حية من جنسها،
القطعان والزواحف، ووحوش الأرض
كل من جنسه. فأطاعت الأرض، ومباشرة
فتحت رحمها الخصب وأنتجت بالولادة
ما لا يعد من المخلوقات الحية، بأشكالها الكاملة.
فنمت كاملة الأطراف: من الأرض نهضت
كما تنهض الوحوش البرية من مرابضها في
الغابة البرية، في الدغل، أو الأجمة أو العرين؛
وسار بين الأشجار كل زوجين معاً:
فالقطيع في الحقول والمروج الخضراء
هؤلاء في عزلة، وأولئك في قطيع
ترعى معاً، وفي قطعان ضخمة نشأت.
وانشقت الكتل العشبية وظهر نصف

(1) القيثارة من جملة آلات الطرب التي يسمح بها لتمجيد الرب ورفع الصلوات.

الأسد الأغبر، يحك ببراثنه حتى يحرّر[1]
أقسامه المكبوحة، ثم ينبثق كأنه تحرّر من قيود،
وهاج يهز لبدته الغبراء؛ ونهض الوشق
والفهد والنمر وكذلك القوارض،
ورمت بزحفها ما عليها من تراب
على شكل كثبان؛ والوعل السريع من تحت الأرض
رفع رأسه بقرنيه المتشعبين: وبالكاد يخرج مثيل
للبهموت الضخم وهو يولد من الأرض رافعاً
ضخامته: ثم خرجت القطعان ذات الصوف وذات الثغاء،
مثلما يخرج النبات: برمائيات بين البحر والبر
من فرس بحر وتماسيح حرشفية.
ثم خرج كل ما يزحف على الأرض،
من حشرات أو ديدان؛ الحشرات تحرك مراوحها
بدلاً من الأجنحة، وأصغر أعضائها تماماً
بكل ألوان لباس الصيف تزهو
مع بقع من الذهب والأرجوان واللازورد والأخضر:

---

(1) هذه الصور تشبه ما كتبه أوفيد في كتابه «التحولات» ١: ٣٤٨ عندما وصف حيوانات عالم ما تحت الأرض وكيف ظهر.

والديدان في صف طويل تجرجر حجمها،
تاركة على الأرض أثراً متعرجاً؛ وليست
أصغر مخلوقات الطبيعة؛ فبعض أنواع الحيات
مدهش في الطول والضخامة تتمعج
بتلافيفها الأفعوانية، وذات أجنحة[١]. تزحف أولاً
النملة المقتصدة، فتدخر
للمستقبل، حجمها الصغير ينطوي على قلب كبير،
قد تكون نموذجاً للصفات العادلة
فيما بعد، وقد انضمت إلى قبائلها الجمعية
من العامة؛ ثم ظهر حشد
من إناث النحت التي تطعم أزواجها الذكور
من لذيذ الطعام، وتبني خلاياها الشمعية
مع العسل المخزون: والبقية لا عد لها،
فأنت تعرف طبيعتها وقد أعطيتها أسماءها،
فلا حاجة أن أكررها لك؛ وأنت لا تجهل
الأفعى أذكى وحوش الحقل،

(1) يتكلم رفائيل عن نوع من الأفاعي ذات أجنحة.

قد يكون حجمها أحياناً ضخماً، بعينين برونزيتين،
وبعرف هائل من الشعر، مع أنها غير
مؤذية لك، بل تلبي ما تقول.



والآن على الأرض مساء سابع
يظهر في عدن، لأن الشمس
غابت وظهر على الشرق الشفق (٧: ٥٨١...)

تجلت السماء بكل مجدها الآن، وبدأت
تحركاتها، كما حددت مسارها اليد الأولى

المحركة العظيمة؛ فالأرض في لباسها الغني
تبتسم لاكتمال جمالها؛ والهواء والماء والأرض،
بالطير طائراً والسمك سابحاً والوحش ماشياً
بأعداد كبيرة؛ وما زال من اليوم السادس بقية؛
بقي هناك العمل الأكبر[1] خاتمة
كل ما حدث؛ مخلوق لا يولد
وليس أعجم كبقية الحيوانات، وإنما مزود
بقداسة العقل، قوياً ينتصب
بقامته، ومعتدل الجبهة هادئ
يحكم الجميع، يعرف ذاته، ومن ثم
له نفس عظيمة تتصل مع السماء،
وهو صاحب منّة يعترف بالخير
الهابط عليه، وإلى هناك بقلبه وصوته وعينيه
يتوجه في تقوى ليعبد
ويصلّي لله الأعلى، الذي جعله رئيس
كل أعماله: لذلك فإن الكلي القدرة

(1) الفكرة مأخوذة من أوفيد «التحولات» ١: ٧٤- ٨٢.

الأب الأبدي [ففي كل مكان هو
حاضر] تحدث إلى ابنه بوضوح.
لنصنع الآن الإنسان على صورتنا، الإنسان
المشابه لنا، ونجعله يحكم
على الأسماك والطيور في البحر والجو،
وعلى الوحش في الحقل، وعلى كل الأرض،
وعلى كل شيء يزحف فوق الأرض.
قال هذا وخلقك يا أدم أنت أيها الرجل
من تراب الأرض، ووضع في أنفك أنفاساً
هي أنفاس الحياة؛ فأنت على صورته
خلقك، وفي صورة الله
تتجلى، وأنت صرت نفساً حية.
ذكراً خلقك، ولكن زوجتك
خلقها أنثى لتحفظ عرقك؛ وبارك البشرية وقال،
أثمروا وأكثروا، واملئوا الأرض،
أخضعوها، وسيطروا عليها
وعلى أسماك البحر وطير الجو.
وعلى كل شيء حي يتحرك على الأرض.

في أي مكان خلقك، لا مكان له
اسم معين يتميز به، لذلك كما تعرف
أحضرك إلى هذه الأيكة الطيبة،
هذه الجنة، المزروعة بأشجار الله،
التي تسر النظر والذوق؛
وأنت حرّ تتمتع بثمارها لطعامك
أقدّمه لك، وكل الأنواع هنا مما تنتجه الأرض،
أنواع لا نهاية لها؛ ولكن الشجرة التي
مذاقها يجلب معرفة الخير والشر،
لا تقربها؛ وفي اليوم الذي تأكل منها موتاً تموت؛
فالموت هو الجزاء المفروض فانتبه،
وسيطر جيداً على شهيتك، وإلا فإن الخطيئة
سوف تفاجئك، مع خادمها الأسود، الموت.
هنا أنهى عمله، ورأى كل ما صنعه،
ورأى أن ذلك كان حسناً تماماً؛
وبهذا المساء والصباح اكتمل اليوم السادس
وما إن فرغ الخالقُ من عمله،
حتى توقّف، من دون تعب، وصعد عائداً

إلى سماء السموات، مسكنه العالي[1]،
ثم نظر إلى هذا العالم الجديد المخلوق
المضاف إلى إمبراطوريته، كيف يبدو
المنظر من عرشه، كم هو خير، كم هو جميل
يحقق فكرته العظيمة. فركب إلى الأعلى
يتبعه الهتاف والصوت
السيمفوني من عشرة آلاف قيثارة تعزف
ألحاناً ملائكية: في الأرض والجوّ،
تتردد (وتتذكر هذا فقد سمعه)
ورنت السموات وكل المجرات،
وتوقفت الكواكب تصغي في أماكنها،
بينما التهليل يتصاعد مفتخراً. فأنشدوا
انفتحي أيتها البوابات السرمدية،
وأنت أيتها السموات، افتحي أبوابك الحيّة؛ ليدخل
الخالق العظيم ويعود من عمله،

---

(1) وهو ما يسمى الإمبريوم أي السماء العليا، ولذلك أطلق البشر على الممالك الضخمة والمقتدرة اسم الإمبراطورية، بمعنى الأعلى من كل شيء، في كل شيء.

الرائع، ستة أيام مضت في خلق العالم؛
انفتحي، الآن، انفتحي؛ لأن الله سيتنازل
ويزور مساكن الناس العادلين
بسرور، ويتواصل معهم دائماً
وإلى هنا سوف يرسل رسلَــه المجنحين
بمهمات للنعمة الفائقة. هكذا أنشدتْ
المجموعة المجيدة الصاعدة: وعبر السماء،
التي فتحت بواباتها الملتهبة العريضة، دخل
إلى بيت الله الأبدي شاقاً طريقه،
وسار في درب عريض واسع، فــُرش بالذهب
ورُصف بالنجوم، كما تظهر النجوم لعينيك،
وتراها في المجرة، درب التبّانة
الذي تراه ليلاً منطقة دائرية
انسكبت فيه النجوم. والآن على الأرض مساءٌ
سابعٌ يظهر في عدْن، لأن الشمس
غابت، وظهر على الشرق الشفق،
يسابق الليل؛ بينما فوق الجبل المقدس

على قمة عالية سماوية، عرشٌ إمبريالي
لله، ثابت آمن إلى الأبد،
ووصلت السلطة البنَـــوية، فجلس
مع أبيه العظيم [لأنه هو أيضاً ذهب
غير مرئي، مع أنه ظل هنا، وهذا امتياز
للجبار] وأمر بالعمل،
فخلق وأنهى كل شيء، ومن العمل
الآن استراح، مباركاً ومقدساً اليوم السابع،
لأنه في هذا اليوم استراح من كل أعماله،
ولكن لم يبق المقدس صامتاً؛ فقد عزفت
القيثارة ولم تسترح، والمزمار الوقور،
والصنج، وكل الأراغن ذات الإيقاع العذب،
كل الأصوات على القيثارة، على وتر أو سلك ذهبي
بأنغام ناعمة متقنة، تمتزج بصوت
كورالي أو متناغم؛ وغيوم البخور
تعبق صاعدة من مباخر ذهبية فتخفي الجبل.
غنوا للخلْق وأعمال الأيام الستة،

عظيمة أعمالـــُك يا يهوه، ومطلقة
قوتك؛ أي فكر يصفك أو أي لسان
يروي عنك؛ عودتك الآن أعظم من عودتك
من الملائكة العمالقة؛ ففي ذلك اليوم
صواعقك هي عظمتك؛ ولكن أن تخلق
أعظم من أن تدمّرَ ما خلقــْت. فمن
يستطيع إضعافك، أيها الملك الجبار، أو يحدد
إمبراطوريتك؟ بسهولة محاولتك الفخورة
قضت على الأرواح المرتدة وعلى مجالسهم،
قوّضتها، بينما ظنوا أنك انتهيت،
فسحبوا منك عدداً
من عبادك. فمن يسعى
إلى تحقيرك، يفشل في غرضه
فيظهر المزيد من جبروتك؛ شرّه
تستخدمه، ومنه تخلق المزيد من الخير.
نشاهد هذا العالم الجديد الصنع، إنه سماء
أخرى من بوابة سماء غير بعيدة، أقيمت

في مشهد على بلّــور صاف، على بحر بلّــوري؛
واسع وضخم، بنجوم عديدة
وكل نجم ربما عالم
مقدر أن يُسكن؛ ولكنك تعرف
فصولهم: ومنها مكان البشر
على الأرض مع المحيط السفلي الذي يطوقهم،
ومكان سكنهم الجميل. بشر مثلثو[1] السعادة
وأبناء بشر، عمل الله على تقدمهم
فخلقهم على صورته، وهناك سكنوا
وعبدوه، فكافأهم بأن سلطهم على
أعماله، في الأرض أو البحر أو الجوّ،
مع كثير من عرقهم الذين يعبدونه،
بقداسة وعدل: فهم مثلثو السعادة إن عرفوا
سعادتهم، وحافظوا على استقامتهم.
هكذا غنوا وهكذا نشيد الإمبريوم

(1) لا يوجد إفصاح عن هذا التثليث في السعادة: الحق والخير والجمال، أم الإيمان والرجاء والمحبة، أم الأب والابن والروح القدس...

بهاليلويا: وهكذا كان يوم السبت.
أعتقد أنـي الآن أجبتك عما سألت
كيف خلق هذا العالم أولاً وبداية كل الأشياء،
وما حدث قبل أن تعمل ذاكرتك
من البداية، بحيث تُـخبر الأجيالَ
القادمة بما قد عرفْـتَ؛ فإن كنت تبحث
عن آخرَ، يتخطى مقياسَ البشر، فقُـلْـه.

* * *

الكتاب الثامن

الخلاصة:

يسأل آدم عن الحركات السماوية، فيرد عليه رداً فيه استرابة، وعندها ينصحه رفائيل بالبحث في أشياء أكثر جدارة بالمعرفة: يوافق آدم، وهو يرغب في الاحتفاظ برفائيل، فيسرد عليه ما يتذكره منذ خلقـِـه الخاص، ووضعِه في الفردوس، وحديثه مع الله فيما يتعلق بوحدته والصاحب المناسب، وأول لقاء مع حواء وزفافه، وحديثه مع الملاك في هذا الشأن؛ فيكرر الملاك تحذيراته ثم يغادر.

* * *

أنهى الملاك حديثه، وفي أذن آدم
ترك سحر صوته، حتى أنه لفترة
اعتقد أنه لا يزال يتحدث، وهو ثابت يصغي؛
ثم كأنه استفاق فأجاب ممتناً.
لا شكر يكفي، ولا تعويض
مقابل يمكن أن أقدمه، أيها المؤرخ
المقدس، الذي روّى
عطشي إلى المعرفة، وقد قدمت
هذا التنازل الودود لتسرد أشياء
أخرى لم أكن أبحث عنها، والآن سمعت
بدهشة، ولكن ببهجة، وكما يقتضي الواجب
أرفع التمجيد إلى الخالق
الأعلى؛ ومع ذلك تبقى بعض الأشياء مثار شك
لا أحد يقدر على حلها سواك.
حين أنظر إلى هذا الكون الجميل، هذا العالم
المكوّن من السماء والأرض، وأحسب
ضخامة ذلك، فإن هذه الأرض بقعة، حبة،
ذرة، بالمقارنة مع القبة السماوية

ونجومها العديدة، التي تبدو أنها تدور
في فراغات لا يمكن إدراكها (فهذا
ما تثيره مسافاتها وعودتها السريعة
يومياً) فقط حتى ترسل النور
حول هذه الأرض المعتمة، هذه البقعة الصغيرة
في النهار والليل؛ وفي كل مسحها الضخم
لا شيء سوى ذلك، مما يدعوني إلى العجب،
كيف ترتكب حكمة الطبيعة وتدبيرها
هذا التفاوت، وبيدٍ كريمة
تخلق كثيراً من أنبل الأجرام،
وأعظمها تنوعاً لهذا الاستخدام فقط،
فتظهر لذلك، ويفرض على مدارات أخرى
مثل هذا الدوران المستمر يوماً بعد يوم
بتكرار، بينما الأرض جالسة[1]،
وهذا أفضل لها وهي بهذا النطاق الصغير،
فالأنبل منها يخدمها، فتصل

(1) آدم يرى الأرض مستقرة والكون يتحرك.

إلى غايتها بلا أقل حركة، وتتلقى
كضريبة على تلك الرحلة التي لا تحد
من السرعة الروحية، دفئها ونورها؛
إنها سرعة يعجز أي رقم أن يصفها.

هكذا تكلم جدنا، ومن محياه بدا أنه
يدخل في الأفكار الجادة الغامضة، التي
أدركتها حواء حيث جلست تستريح بالقرب منه
بوحدتها الجليلة في مقعدها،
وبكياستها حتى أن من يراها يتمنى أن تبقى جالسة،
فنهضت، وذهبت بين ثمارها وأزهارها،
تتفقد كيف نمت وبرعمت وأزهرت،
بعد عنايتها بها، فهبت لمجيئها
وتأثرت بلطفها الجميل فنمت مبتهجة.
ومع ذلك لم تغادر، وأن كان هذا الحديث لم
يبهجها، أو لا تستطيع أذنها
أن تصل إلى هذا العلو: هذه المتعة تسرها
لو آدم سردها وكانت هي المستمعة الوحيدة؛
فهي تفضل أن يكون السارد زوجها

قبل الملاك، وأرجأت سؤاله إلى
ما بعد: فهي تعرف أنه يمزج
الاستطرادات الجميلة، ويحل أكبر نزاع
بالمداعبة الزوجية، فمن شفتيه
لا تعجبها الكلمات وحدها. متى يلتقي
هذان الزوجان، في الحب والاحترام المتبادل؟
وبتصرف شبيه بالربة ذهبت؛
بلا حاشية، فعليها كملكة
موكب من النعم الكثيرة تنتظرها،
ومن حولها تطلق سهام الرغبة
في كل العيون ترغب أن تظل تحت النظر.
رفائيل الآن على ما طرحه آدم من ريبة
أجاب بلطف وسهولة.
لا ألومك على السؤال أو البحث، فالسماء
كتاب الله الموضوع بين يديك،
حيث تقرأ أعماله المدهشة، وتتعلم
فصوله أو ساعاته أو أيامه أو أشهره أو سنواته:
معرفة إن كانت السماء تتحرك أم الأرض

ليست مهمة، إن فكرت تفكيراً صحيحاً، فالبقية
عن الناس والملائكة بحكمة أخفاها المهندس
الأكبر، ولم يفش
أسراره حتى يطلعوا عليها من عليهم فقط
أن يعجبوا؛ أو إن حاولوا
التخمين، فقد ترك صنعه في السموات
موضوعاً لنزاعاتهم، ربما ليثير
ضحكه من آرائهم الطريفة جداً
فيما بعد، عندما يواجهون نمط السماء
ويحسبون النجوم، كيف سوف يضبطون
الإطار الجبار، وكيف يبنون ويهدمون، ويخترعون
لتصحيح الظواهر، وكيف يطوقون المدار
بدوائر فوقها مستديرة وغير مستديرة،
دائرة أو نصف دائرة، مدار في مدار:
فهذا ما حزرته من طريقة تعليلك،
عليك أن تقود ذريتك وتفترض أن
الأجسام الأشرق والأضخم لا تخدم
الأقل إشراقاً، ولا السماء تقوم برحلاتها،

بينما الأرض ثابتة في مكانها، هي وحدها
التي تتلقى الخير: ففكر أولاً، أن ضخامة
وإشراق الجرم لا يدخل في الامتياز: فالأرض
وإن كانت صغيرة بالمقارنة مع السماء،
لا تلمع، قد تضم
وفرة كبيرة أكثر من الشمس التي تتوهج جداً،
والتي لا تأثير لأعمالها الذاتية عليها،
بل في الأرض المثمرة؛ فهي تتلقى أولاً
أشعتها، أي قوتها، ولا تؤثر في غيرها.
ثم إنه ليس للأرض هذه الأجرام المنيرة
تقدم خدمتها، بل لك أنت، ساكن الأرض.
وبالنسبة لدائرة السماء العريضة، فلتتكلم
بروعة الخالق الأعلى، الذي بناها
بهذا الفراغ، وخطها يمتد بعيداً؛
حتى يعرف الإنسان أنها ليست مسكنه الخاص؛
فصرح أكبر من أن يملأه وحده،
فهو يسكن في جزء صغير، والباقي
كتبت عليه فوائد ربه أعلم بها.

فسرعة تلك الدوائر تعزى،
مع أنها لا تعد، إلى قدرته الكلية،
حيث إلى الجواهر المادية أمكن إضافة
سرعة روحانية تماماً، فلا تفكر بي ببطء،
إذ من ساعة الصباح انطلقت من السماء
حيث يستقر الله، ووصلت قبل الظهر
إلى عدن، مسافة لا تحد
بالأعداد التي نعرفها. ولكني بذلك أثبت
الحركة المسموحة في السموات، لأظهر
الخطأ الذي دفعك إلى الشك؛
ولكني لا أؤكد ذلك، مع أنه يبدو
لك كذلك، يا من تسكن هنا في الأرض.
فحتى يزيح الله طرقه من الحس البشري،
أقام السماء بعيداً عن الأرض، بحيث إن قدّر
البصر الأرضي شيئاً، فإنه يخطئ في تقدير الأشياء
العالية جداً، ولا يحصل على منفعة. ماذا لو أن الشمس
كانت مركزاً للعالم، والنجوم الأخرى
بقوة جاذبيتها وجاذبيتهم الخاصة

حرضت، فرقصت حولها دورات مختلفة؟
إن دورتها الجوالة عالية حيناً ومنخفضة حيناً، ثم مستترة
أو متقدمة أو متأخرة أو ثابتة في مكانها،
كما ترى في الكواكب الستة الأخرى، وماذا لو سابعها
وهو كوكب الأرض، وإن بدا ثابتاً، تحرك
من غير أن تشعر، ثلاث حركات مختلفة؟
وإلا عليك أن تعزوها إلى عدة مدارات،
تتحرك متعاكسة مع الانحرافات الملتوية،
أو تستثني الشمس من عملها، وتلك السرعة
التي تفترضها في الليل والنهار،
فطغت بضوئها على كل النجوم، وهي عجلة
النهار والليل؛ من دون حاجة إلى اعتقادك،
إن كانت الأرض فعالة في ذاتها فتجلب النهار
باتجاهها شرقاً، وبقسمها المعاكس
تجلب الليل من أشعة الشمس، وقسمها الآخر
يظل منيراً من أشعتها. ماذا لو أن ذلك الضوء
أرسلته عبر الفضاء الشفاف،
إلى أرض القمر فيكون مثل نجم

ينير نهاراً، كما النجوم ليلاً،
هذه الأرض؟ شيء متبادل، لو كانت هناك أرض
وحقول وسكان: والبقع التي تراها
مثل غيوم، والغيوم قد تمطر، والمطر ينتج
ثماراً في تربته الناعمة، فبعضهم يأكلها
إن وزعوا هناك، وشموس أخرى، ربما
أقمار تتبعها، سوف تراها
ترسل الضوء المذكر والضوء المؤنث[1]،
وهما الجنسان الكبيران اللذان يحييان العالم،
المخزونان في كل مدار ربما مع بعض الأحياء.
بالنسبة إلى الفضاء الضخم في الطبيعة غير المملوك
من نفس حية، وهو متصحر ومهجور،
يومض فقط، بالكاد يساهم في
كل مدار بلمحة من ضوء، يحملها بعيداً
إلى الأسفل، إلى الكوكب المسكون، الذي
يعيد الضوء إليها، فإنه مفتوح للنقاش.

(1) المذكر والمؤنث من الأشعة هي الصادرة من الشمس (مذكر) والصادرة من القمر (مؤنث).

ولكن إن كانت تلك الأشياء هكذا أو لم تكن،
إن كانت الشمس مسيطرة في السماء
تشرق على الأرض، أو الأرض تشرق على الشمس
وإن كانت الشمس من الشرق تبدأ الصعود،
أو كانت الأرض من الغرب تبدأ طريقها الصامت
بخطوات مسالمة تغزل النوم
على محورها الناعم، بينما تمشي مستوية
وتحمل إليك الهدوء مع الهواء الناعم،
فلا تشغل أفكارك بالقضايا الخبيئة،
دعها إلى الله في الأعلى، فاخشه واخدمه؛
أما المخلوقات الأخرى، فهي تسر به كثيراً،
حيثما كان مكانها، فدعه يتصرف: وابتهج
بما منحه لك، هذا الفردوس
وحواءك الجميلة؛ فالسماء عالية عليك جداً
حتى تعرف ما يجري هناك؛ كن حكيماً متواضعاً:
فكر فقط بما يهمك ويهم وجودك؛
لا تحلم بعوالم أخرى، وبالخلائق التي تعيش
هناك، ما حلتها أو ظروفها أو درجتها،

وارض بالكثير الذي كشف لك
ليس عن الأرض وحدها بل عن السماء العليا.
رد آدم على من أزال عنه الشك.
ألا كم أشبعتني، يا ملاك
السماء النقي، أيها الملاك الهادئ،
وحررتني من التعقيدات، وعلمتني أن أعيش
بالطريقة الأبسط، وليس بالأفكار المحيرة
التي تفسد حلو الحياة، التي منها
أمرنا الله أن نبتعد عن كل اهتمامات مقلقة،
فلا نزعج أنفسنا، ما لم نحن أنفسنا
نبحث عنها بأفكار تائهة وأراء تافهة.
ولكن جدير بالفكر أو الخيال أن يتجوّل
بلا عائق، وليس لتجواله نهاية؛
إلى أن يدرك الخطر، أو يتعلم بالتجربة، التي
ترى أنه يجب ألا نعرف كثيراً عن الأشياء البعيدة
عنا، وهي غامضة وخفية، بل أن نعرف
ما هو أمامنا قائم في الحياة اليومية،
فهو الحكمة الأولى، أما ما فوق ذلك فبخار

أو خواء، أو انشغال أحمق،
فيغطي الأشياء الأعظم أهمية التي
لم نمارس أو نعدّ، والمطروحة دائماً.
فلتهبط إذن من هذه الطبقة العالية
إلى طبقة أقل، ونتحدث عما بين أيدينا
من نفع، وربما ظهرت إشارة
إلى شيء لم يحن وقت السؤال عنه،
فاصبر عليه كما تعوّدت معي.
وقد سمعتك تسرد ما جرى
قبل وعي ذاكرتي: فاسمعني الآن أسرد
قصتي، التي ربما لم تسمعها؛
والنهار لمّا يمض؛ وريثما يمضي ترى
كيف ببراعة أبتكر ما يسليك،
داعياً إياك أن تسمع ما أسرد،
وكن متسامحاً حيث لا تجد ما تأمل في الرد:
الفترة التي جلستها معك، شعرت أني في
السماء، وعذب هو حديثك في أذني
والبلح يكون لذيذاً للعطشان

والجائع معاً، وبعد التعب يأتي وقت
المأدبة العذبة؛ فهم يشبعون ويتخمون،
مع أن الطعام لذيذ، لكن كلمات النعمة المقدسة
فتشرب من دون أن تشبع من عذوبتها.
وعلى هذا رد رفائيل بتواضع سماوي.
ليست شفتاك بلا رشاقة، يا سيد الناس،
ولا لسانك غير فصيح؛ لأن الله عليك
سكب وفرة من المواهب
في الداخل والخارج معاً، فأنت صورته الجميلة
صمتك وكلامك لطف ونعمة
يحيطان بك، وهما في كل كلمة، وكل حركة،
ونحن في السماء لا نفكر أنك في الأرض
سوى خادم صديق لنا، وتسعى
بسرور في طريق الله مع الإنسان:
فنرى الله قد كرمك، ومنح الإنسان
حبه المتساوي معنا: فلنتابع الحديث؛
فأنا في ذلك اليوم كنت غائباً، كما حدث،
فارتبطت برحلة غريبة وغامضة،



وهكذا انفصلا، الملاك إلى السماء
من الظل الكثيف، وآدم إلى العريشة (٨: ٦٥٢...)

فقد ذهبت بعيداً إلى بوابات الجحيم؛
وشكلت ربعات في الفيلق (حسب ما أمرنا)
لنرى إن كان يوجد هناك أي جاسوس،
أو عدو، بينما كان الله مشغولاً في عمله،
حتى لا تدفعه الجرأة المتهوّرة [٢٣٥]

إلى تدمير الخلق بخلطه داخل بعضه.
لكنهم لا يستطيعون من دون الإغضاء عن محاولتهم،
إلا أنه يرسلنا وفقاً لأوامره العليا
من أجل الحفاظ على دولته، كحاكم أعلى، فنتدرب
على الطاعة الفورية. فبسرعة عثرنا على البوابات
الموحشة وبسرعة وجدناها مغلقة، ومتراسها قوي؛
ولكننا سمعنا قبل اقترابنا من داخلها بزمن طويل
ضجة، ثم صوت رقص أو غناء،
وصخب، ونواح صارخ، وغضب عاصف.
سررنا بعودتنا إلى شواطئ النور
قبل مساء السبت: وهكذا أنهينا المهمة.
ولكن روايتك الآن؛ أصغيت إليها،
وسررت بكلماتك لا أقل من سرورك بكلماتي.
هكذا تكلمت القوة الشبيهة بالله، فرد جدنا.
أن تروي كيف بدأت الحياة البشرية
صعب جداً؛ فمن يعرف بداية نفسه؟
ولا تزال عندي رغبة في إطالة حديثي
حتى أتابع. ومثل المستيقظ حديثاً من نوم عميق

وجدت نفسي مستلقياً على عشب مزهر ناعم
وبعرق معتدل، نشفته أشعة الشمس
سريعاً، كأنها على الرطوبة العفنة تعيش[1].
وإلى السماء وجهت عينيّ المندهشتين،
وحدقت فترة في السماء الفسيحة، إلى أن نهضت
بحركة غريزية سريعة وقفزت،
ثم نهضت وانتصبت
وقفت على قدمي؛ ورأيت حولي
هضبة ووادياً وغابة ظليلة، وسهولاً مشرقة،
وسائلاً يتدفق في الجداول الهامسة؛ وبالقرب
مخلوقات تعيش وتتحرك وتمشي أو تطير،
الطيور على الأغصان تصدح؛ وكل شيء يبتسم،
بشذى الأريج وبالفرح انفتح قلبي.
فتابعت النظر إلى نفسي، وتحريت طرفاً بعد طرف،
مشيت أحياناً، وأحياناً ركضت.
بمفاصل مطواعة، كأن قوة حيوية تقودني:

(1) نعتقد أن هذا إشارة إلى مذهب ملتون في تحول الأشياء من صورة إلى صورة في الكون.

ولكن من أنا، أو من أين أو ما سبب مجيئي
لا أعرف؛ حاولت الكلام وفوراً تكلمت،
طاوعني لساني وكنت جاهزاً أن أسمي
كل شيء أراه. قلت أنت شمس، نورك جميل،
وأنت أرض تتلقين النور، طازجاً ومبهجاً،
وأنت تلال وأنت وديان وأنت أنهار وغابات وسهول،
وأنت أيتها المخلوقات الحية المتحركة الجميلة أخبروني،
واسردوا عليّ، إن رأيتم، كيف جئت، وكيف نشأت هنا؟
ليس أنا، بل صانع عظيم،
مشهور بالخير والقوة؛
أخبروني كيف يمكن أن أعرفه، وكيف أعبده،
فمنه صرت هكذا أتحرك وأحيا،
وشعرت أني أسعد مما أعرف.
ومرت فترة صحت وضللت لا أعرف أين أنا،
ولا متى تنسمت الهواء أول مرة، ورأيت
هذا النور السعيد أول مرة، فلم يجبني أحد،
على ضفة ظليلة مليئة بالزهر
جلست متأملاً؛ وهناك نوم لطيف

حلّ عليّ، وخطف بضغطة ناعمة
إحساسي الناعس، فلم أنزعج، مع أني فكرت
أني أعبر إلى حالتي السابقة
فاقد الحس، وعلى الفور أنحلّ:
عندها حط حلم على رأسي،
فتحرك شبحه في داخلي وبلطف
حرك مخيلتي لأصدق أنني موجود،
وحيٌّ: وأذكر أن أحدهم جاءني بشكل مقدس،
وقال، مسكنك يريدك، يا آدم، فانهض،
يا أول رجل، لمن لا يعد من الناس ستكون
الأب الأول، ناديتني فجئت أرشدك
إلى جنة البَركة، التي أعدت مكاناً لك.
قال هذا، وأنهضني بيده،
وفوق الحقول والمياه، كما في الهواء
انزلقت بنعومة دون خطوات، أخيراً رفعني
إلى جبل حرجي؛ وقمته العالية كانت سهلاً،
عبارة عن دائرة واسعة، مغلقة، مع أطيب الأشجار
المزروعة، مع مماشٍ وعرائش، وما رأيته

على الأرض من قبل كاد يذهب طيبه. كل شجرة
مثقلة بأجمل الأثمار، متدلية تغري العين،
وتثير فيّ شهية مفاجئة
حتى أتشجع وآكل؛ ووجدت
أمام عيني كل ما هو واقعي، كأن الحلم
ظلّ حيّ: هنا بدأ
تجوالي، لو لم يكن مرشدي
هناك، ظهر من بين الأشجار،
حضرة مقدسة. ابتهجت ولكن مع رهبة،
وركعت ساجداً عند قدميه
مرتمياً: فأنهضني، وقال بلطف أنا
من تبحث عنه، خالق كل هذا الذي ترى
فوقك، أو حولك أو تحتك.
هذا الفردوس منحتك، اعتبره لك
فافلحه واحفظه، ومن ثماره تأكل:
من كل شجرة نامية في الجنة تأكل
بحرية بقلب مفعم بالفرح؛ ولا تخش هنا موتاً:
ولكن الشجرة التي تنتج

معرفة الخير والشر، التي نصبتها
حتى تتعهد بالطاعة والإيمان،
هي سوط الجنة قرب شجرة الحياة،
تذكر أني حذرتك، فتجنب تذوقها،
وتجنب النتيجة المريرة: فاعلم،
أنك في اليوم الذي تأكل فيه، وتخرق وصيتي،
الوحيدة، فإنك موتاً تموت؛
منذ ذلك اليوم أنت فان، وحالة السعادة هذه
سوف تذهب، وتطرد أنت إلى عالم
الآلام والأحزان. نطق بصرامة
عن المنع الحازم، وأصداؤه
تتردد في أذني برعب، مع أن اختياري
ألا أرتكبه؛ ثم بسرعة استعاد
مظهره الواضح وجدد كلامه هكذا.
ليس فقط هذه الحدود الجميلة، بل كل الأرض
لك ولعرقك أمنحها؛ كأسياد
يملكونها، وكل الأشياء التي تعيش عليها،
أو تعيش في البحر، أو الجو، والوحوش والسمك والطير.

وكدليل مني سأدعو كل طير وكل وحش
بكل أنواعها؛ سأحضرهم ليتلقوا
منك أسماءهم، وليقدموا لك ولاءهم
بخضوع كامل؛ وافهم أن الشيء ذاته ينطبق
على السمك المستقر داخل مياهه،
لن أدعوه إلى هنا، فهو لا يستطيع تغيير
عنصره في استنشاق الهواء الأرق.
هكذا تكلم، وكل طير ووحش ظهر
يقترب اثنين اثنين، والزواحف تنخفض
بتملق، وكل طير ينحني خافضاً جناحيه.
سميتهم، حين مروا، وفهموا
طبيعتهم، بهذه المعرفة التي وهبني الله
فاستوعبتها فجأة: ولكن في الجموع
لم أجد ما فكرت أنه يجب أن يكون موجوداً؛
وللرؤيا السماوية اتجهت وتجرأت.
بأي اسم أدعوك، لأنك فوق الكل
وفوق البشرية، وأعلى من كل البشر،
ويتجاوز طاقتي في التسمية، كيف يمكن لي

أن أعبدك، يا خالق هذه الكون،
وقدمت كل هذا الخير للإنسان، وقدمت بوفرة
كل هذه الوفرة، وبيديك السخيتين
قدمت كل الأشياء: ولكن معي أنا
لا أرى من يشاركني. في الوحدة
لا توجد سعادة، ومن يفرح وحده،
ولو بكل المتع، وأي قناعة يجد؟
هكذا تجرأت، وتوهجت الرؤيا،
وكأنما بابتسامة أكثر إشراقاً أجاب.
ما تدعوه وحدة، أليست الأرض
بكل مخلوقاتها الحية، أليس الهواء
المالئ الفضاء، وكل الأشياء بأمرك
تأتي وتلعب أمامك؛ ألا تعرف
لغتهم وأساليبهم؟ إنهم يعرفون أيضاً،
ولهم عقلٌ لا يستهان به؛ مع هؤلاء
تجد تسلية، وافرض حكمك؛ مملكتك كبيرة.
هكذا تكلم السيد الكوني، وبدا
آمراً. فتضرعت إليه أن يدعني أتكلم،

وبكل ذلّ متواضع أجبت.
لا تدع كلماتي تغضبك، يا خالقي
أيها القوة السماوية، فكن مشجعاً لي وأنا أتكلم.
ألم تجعلني هنا بديلاً عنك،
وكل هؤلاء جعلتهم أدنى مني بكثير؟
فهل يكون اجتماع من غير متساوين
مرضيا، وأي انسجام، أو بهجة حقيقية؟
لا بد أن يكون هناك تبادل في النسب
المقدمة والمستلمة، ولكن في التفاوت
حيث يكون أحدهما متوتراً، والآخر مسترخياً
لا يمكن لهما أن يتلاءما، فحالاً يصير
كل واحد مملاً للآخر: عن الزمالة أتحدث
وهو ما أبحث عنه، وهي مناسبة للمشاركة
في كل المسرات العقلية، حيث البهيمة
لا تستطيع أن تكون زوجاً للإنسان؛ إنها تبتهج
مع النوع الذي هي منه، الأسد مع اللبوة؛
فقد جعلتهم متوائمين وزوجاً زوجاً جمعتهم؛
فلا جمع بين الطير والوحش، أو السمك والدواجن

وكذلك الصحبة، فالقرد لا يصاحب ثوراً؛
والأسوأ صحبة الإنسان مع الوحش، فهذا مستحيل.
وعلى هذا أجاب الجبار، غير منزعج.
جميلة وذكية السعادة التي أراك
تطلبها لنفسك، في اختيار
صحبتك، يا آدم، ولكن لن تتذوق
متعة، مع أنك في المتعة، وأنت في وحدتك.
ماذا تظنني إذن، وهذه حالتي،
هل أبدو لك أني أملك كفاية
من السعادة، أم لا؟ أنا الوحيد
منذ الأزل، فلا أعرف أحداً
يليني أو يشبهني، أو يساويني.
فمع من أنا أدير الحديث،
إلا مع المخلوقات التي صنعت، وهي
أقل مني، بدرجات لا تحد
أكثر من تدني المخلوقات الأخرى عنك؟
توقف، فأجبت بتواضع. للوصول
إلى علو الطرق الأبدية وعمقها

فإن الفكر البشري قاصر عن ذلك، يا سيد الأشياء؛
فأنت في ذاتك كامل، وليس فيك
نقص؛ وليس الإنسان كذلك،
ولكن في الدرجة، فإن سبب رغبته
في الحديث من يشبهه يساعده،
أو يعزيه في نقائصه. لست بحاجة
إلى الإنجاب، فأنت مطلق؛
وعبر الأعداد المطلقة، أنت واحد؛
ولكن الرجل عن طريق الرقم لا يظهر
كماله المفرد، وينسل
من أمثاله، الكثير من صورته،
ففي الوحدة نقص، فتطلب
حباً ملازماً، ومودة عزيزة جداً.
أنت في سرك، وإن كنت وحيداً،
تفضل أن تصاحب نفسك، فلا تبحث عن
تواصل اجتماعي، وإن كان يسرك،
وتستطيع أن ترفع مخلوقك إلى أي علو تريد
من الاتحاد والتواصل، فيعبدك؛

بينما أنا بالكلام لا أستطيع رفع أولئك
من الانبطاح، ولا أجد في طرقها رضا ذاتياً.
هكذا بجرأة تكلمت، واستخدمت الحرية
المسموحة، ووجدت قبولاً، فجاءتني الإجابة
من الصوت الإلهي الكريم.
لقد سررت يا آدم من اختبارك،
ووجدتك تعرف ليس فقط أسماء الوحوش،
التي سميتها بصورة صحيحة، وإنما تعرف نفسك،
وعبرت عن الروح التي فيك بحرية،
صورتي لم تنتقل إلى البهيمة،
ولذلك زمالتها لا تناسبك
وهو تعليل جيد بأنك بكل حريتك لا تحبه،
وأنت لا تزال تذكر هذا؛ وأنا قبل أن تتكلم،
عرفت أنه ليس حسناً أن يبقى الإنسان وحيداً،
ولم أقصد أنتكون صحبتك من هؤلاء الذين
رأيتهم، فهم أحضرتهم للتجربة فقط،
لأرى كيف تستطيع الحكم على ما يلائمك ويلبيك:
أما ما أحضره بعد ذلك فسوف يسرك، بالتأكيد،

شبيهك، يعينك، نفسك الأخرى،
وستكون رغبتك كما يشتهي قلبك تماماً.
أنهى كلامه، أو لم أعد أسمع، فالآن
شكلي الأرضي سيطر عليه شكله السماوي المهيمن،
فمكث طويلاً تحت شكله، مرهقاً يبغي العلو
فيرتفع بذاك الحديث السماوي الرفيع.
مثل موضوع يتجاوز الإحساس،
فذهلت ودخت وارتميت، وسعيت إلى العلاج
بالنوم، الذي سقط عليّ، نادته الطبيعة
كمساعد، فأغلق عينيّ.
أغمضت عيني، ولكن فتحَتْ حجرةَ
الخيال رؤيتي الداخلية، وبها
غرقت في غيبوبة فبدا لي أني أرى
وإن كنت نائماً، أين استلقيت، ورأيت الشكل
لا يزال مجيداً وهو من وقفت أمامه في يقظتي؛
من انحنى على جانبي الأيسر وأخذ
من هناك ضلعاً، مع دفء روحي قلبي،
وفيه يتدفق دم الحياة طازجاً؛ واسعاً كان الجرح،

ولكن فجأة باللحم ملأه وشفاه:
وبيديه شكل الضلع وكوّنه؛
وتحت تشكيل يديه نمَتْ مخلوقة،
شبيهة بالرجل، ولكن جنسها يختلف، جميلة جداً،
وما كان يبدو أجمل ما في العالم، بدا الآن
وضيعاً، أو إنها جمعت كل جمال في نفسها
وفي مظهرها، ومن ذلك الوقت صهرت
الحلاوة في قلبي، وهذا ما لم أشعر به من قبل،
وفي جميع الأشياء نفحت من أنفاسها الموحية
روح الحب وبهجة العشق.
اختفت وتركتني في حيرة، مشيت
لأجدها، أو لأحزن إلى الأبد
على فقدها، وهجرت كل متعة:
عندما فقدت الأمل، رأيتها، غير بعيدة،
كما لو أني رأيتها في حلمي، مزدانة
بكل ما وهبته الأرض أو السماء
لتجعلها محبوبة: إليّ أقبلت،
يقودها صانعها السماوي، مع أنه لا يُرى،

ويرشدها صوته، لا تعرف
قدسية الزفاف وطقوس الزواج:
جميلة في كل خطواته، المساء في عينيها،
وفي كل إشارة كرامة وجمال.
ومن فرط الفرح لم أستطع المقاومة فصرخت.
لقد كافأتني بهذا؛ وقد حققت
كلماتك، أيها الخالق السخي الكريم،
مانح كل الأشياء الجميلة، لكن هذه هي الأجمل
من كل الهدايا، وقدمتها ليس على مضض. فأرى الآن
عظماً من عظامي، لحماً من لحمي، أرى نفسي
أمامي؛ اسمها امرأة، من الرجل
انتزعت؛ ولهذا السبب سوف يترك
أباه وأمه، وبزوجته يلتصق؛
ويكونان جسداً واحداً، وقلباً واحداً وروحاً واحدة.
سمعتني، ومع أنها تقدمة إلهية،
إلا أن البراءة والتواضع العذري،
وعفتها ووعيها لجدارتها،
فرضت عليّ أن أغازلها، وأن أخطب ودها،

لم تكن جريئة ولا متطفلة بل منزوية
مما زاد رغبتي، أو باختصار،
إن الطبيعة نفسها، بسبب نقائها من فكر الخطيئة،
جعلتها هكذا، فلما رأتني التفتتْ؛
تبعتها، وكانت تعرف التكريم،
وبكل جلال المجاملة استحسنتْ
سبب تضرعي. وإلى عريشة الزفاف
قدتها متوردة مثل الصباح: كل السماء،
والمجرات السعيدة على تلك الساعة
أراقت كل تأثيرها الجميل المختار؛ والأرض
قدمت شارة الامتنان، وكل هضبة أيضاً؛
الطيور فرحة؛ والريح ندية والهواء عليل
تهمس للغابة، ناشرة أجنحتها،
ناشرة الشذى من الأشجار العطرة،
تتواثب، حتى أن طائر الليل العاشق[1]
غنى أغنية الزفاف، يحث نجم المساء[2] أن يسرع

(1) العندليب.
(2) كوكب الزهرة.

إلى قمة الهضبة، ليشعل مصباح الزفاف.
وهكذا أخبرتك بكل أحوالي، ورويت
قصتي حتى قيام البركة الأرضية
التي أتمتع بها، ولا بد أن أعترف أني وجدت
في كل الأشياء الأخرى فرحاً حقيقياً، ولكن
كونها مفيدة أو غير مفيدة لا يغيّر تفكيري،
ولا يشعل رغبتي، هذه الأطايب
أقصد بها التذوّق والنظر والشم والعشب والثمر والزهر،
والمشاوير، وألحان الطيور؛ ولكن هنا
الأمور مختلفة، فأرى أني انتشيت،
انتشيت باللمس؛ هنا شعرت بالعشق أول مرة،
هياج غريب، في كل المسرات الأخرى كنت
مسيطراً وثابتاً، بينما هنا وحيد ضعيف
أمام سحر نظرة الجمال القوية.
إما أن الطبيعة تخلت عني، وتركت قسماً
غير منيع ما يكفي للمواجهة،
أو انتزعت مني قسماً، ربما أخذت
أكثر من اللازم؛ فعليها أضافت

الكثير من الزينة، فبدا الظاهر
دقيقاً، والداخل أقل دقة.
أنا أفهم في النتيجة الأولى
للطبيعة نقصها في العقل
والقدرات الداخلية، التي تمتاز،
في الخارج أيضاً، بتشابهها الأقل
لصورة من صنع الاثنين[1]، وأقل تعبيراً
عن طابع تلك السيادة الممنوحة
على المخلوقات الأخرى؛ ومع ذلك حين أقترب
من جمالها، تبدو لي مكتملة اكتمالاً مطلقاً
ومتكاملة في ذاتها، فأريد معرفة خصوصيتها،
ما تريده وما تفعله أو تقوله،
يبدو أعلى حكمة وفضيلة وكتماناً؛
كل معرفة عليا في حضورها تسقط
منحطة، فالحكمة في حديثها
متقطعة صراحة، وتظهر مثل حماقة؛
وعليها سلطة وعقل،

(1) المقصود بالاثنين: الطبيعة وآدم نفسه، فكلاهما من صنع الخالق.

كشيء مقصود أولاً، وليس عرضاً بعد
صنعها؛ ولاستكمال الكل،
فإن عظمة العقل والنبل بني
مكانهما في أجمل ما فيها، وخلق حولها
رعب، وحارس ملائكي أقيم عليها[1].
فرد عليه الملاك مقطب الجبين.
لا تتهم الطبيعة، فقد عملت ما عليها؛
وقم أنت بما عليك، ولا تشك
في الحكمة، فهي لن تتخل عنك، إن لم
تتخل عنها، ثم إنك قريباً ستحتاجها جداً.
بمبالغتك في وصف الأشياء
يقل امتيازها، كما أدركت ذلك بنفسك.
إذ هل ما يعجبك، وما تنتشي به،
خارجي؟ لا شك أنها جميلة، وجديرة
برعايتك، وتشريفك وحبك
وليس بالخضوع لك: قارن بها نفسك؛

---

(1) المقصود من هذا المقطع أن أعظم الأشياء هما العقل والنبل، وقد وضعهما الخالق في شجرة معرفة الخير والشر وأقام عليها ملاكاً حارساً...

ثم قدر القيمة: فأحياناً لا شيء يفيد أكثر
من تقدير النفس، على أساس العدل والحق
والتدبير الحسن؛ وكلما ازددت معرفة بتلك القدرة
ازداد عطاؤها لك بمعرفة ما في رأسها،
وتبدي كل استسلام للوقائع
فقد زينت نفسها من أجل المزيد من بهجتك،
وأرهبتك، حتى تكرم وتلتزم حب
زوجتك، التي ترى متى تكون أقل حكمة.
ولكن إن كانت حاسة اللمس التي تتكاثر
البشرية بها، تبدو المتعة الأفضل
من بقية المتع، فتذكر أنها نفسها وهبت
للقطعان ولكل وحش؛ ولم تكن لتنتشر
وتشيع فيها، لو كان هناك
متعة تستحق أن تخضع
نفس الإنسان، أو تحرك عاطفة فيه.
وأعلى ما فيها تجده متآلفاً
من جاذبية وإنسانية وعقلانية فأحببه؛
في الحب تفعل الحسن، والسيئ في العاطفة المندفعة،

فهي لا توجد في الحب الحقيقي؛ الحب ينقي
الأفكار، ويوسع القلب، وله مكانه
في العقل، وفي الحكم، فهو الميزان الذي به
تصعد إلى الحب السماوي،
فلا تغرق في المتعة الجسدية، ولهذا السبب
لا يعثر لك على زوجة بين الحيوانات.
وعلى هذا رد آدم ببعض الخجل.
لا في التشكيل الخارجي الجميل، ولا في
التناسل المشترك بين كل الأنواع
(وإن كان أعلى كثيراً في فراش الزوجية،
وأنا أقدره باحترام سراني[١])
يمتعني كثيراً مثل الأعمال الحلوة الشمائل
فألف آية من الاحتشام تتدفق كل يوم
من كلماتها وأفعالها ممتزجة بالحب
والطاعة الجميلة، التي تعلن صدق
اتحاد العقل، أو إن في كلينا روحاً واحدة؛
فالانسجام الملحوظ في الزوجين

---

(1) السراني هنا تعني المجهول الأسباب، وربما تقديسه نابع من أنه مجهول.

أجمل من انسجام الأصوات في الأذن.
ومع ذلك هذه لا تخضعني؛ وأنا أكشف لك
ما أشعر به في داخلي، ولذلك لا يغلبني،
أنا الذي واجهت مختلف الأشياء، من الإحساس
الذي عانيت أنواعه، ولا أزال حراً في
استحسان الأفضل، وأتبع ما استحسنه.
لا تلمني على الحب، لأن الحب كما قلت
يقود إلى السماء، فهو طريق ودليل؛
تحمّلني إذن، إن كان سؤالي مشروعاً؛
ألا تحب الأرواح السماوية، وكيف تعبر
عن حبها، بالنظرة فقط، أم تختلط
بإشعاعاتها، باللمس الوهمي أم المباشر؟
نظر الملاك ببسمة متوهجة
بالتورد السماوي، وبمسحة الحب اللائق،
وأجاب. يكفيك أن تعرف أننا
سعداء، ومن دون حب لا توجد سعادة.
كل النقاء الذي تستمتع به في الجسد
(وقد خلقتَ نقياً) نستمتع به

في رفعة، ولا نجد عائقاً
من الأعضاء، والمفاصل أو الأطراف، القضبان
الساجنة: أسهل من الهواء مع الهواء، إذا تعانقت
الأرواح، فكلها تختلط، ويتحد النقاء بالنقاء
في رغبة؛ ولا يوجد عوائق في التواصل
كما يختلط الجسد بالجسد، أو النفس بالنفس.
ولكن لا أستطيع البقاء الآن؛ فالشمس تغادر
خلف رأس الأرض العشبية والجزر الخضراء
فتغيب في الغرب، وهذه إشارة حتى أغادر.
كن قوياً وعش سعيداً، وتمتع بالحب، ولكن قبل كل
شيء عليك أن تطيع من تحبه، وتحفظ
أمره العظيم؛ فلا تجرفك العاطفة بعيداً
فلا تجعل محكمتك تفعل أي شيء، لا ترضى عنه
إرادة الآخر الحرة، تنبه أنت وكل أبنائك
إما السعادة أو المحنة في يديك؛ فكن يقظاً.
أنا مسرور لمثابرتك،
وكل الملائكة المباركين: فاصمد أو اسقط
فأنت حر والقرار بين يديك.

الكمال في الداخل، والخارج لا تطلب عونه؛
وتمرد على كل إغراءات الخرق.
قال هذا ونهض؛ فبارك آدم
الذي تبعه. ما دمت ستغادر،
فاذهب أيها الضيف السماوي، أيها الرسول الأثيري،
وقد أرسلك الخير الحاكم الذي أعبده.
لطيفاً كنت معي، ودمثاً كان
لطفك، وسأكون مكرماً إلى الأبد
بالذكرى الجميلة: فأنت للبشرية
خير وصداقة، فكرر زيارتك.
وهكذا انفصلا، الملاك إلى السماء
من الظل الكثيف، وآدم إلى العريشة.

* * *

الكتاب التاسع

الخلاصة:

بعد أن ينهي الشيطان دورته حول الأرض، يعود في ضباب الفردوس الليلي وهو يفكر في الخديعة، فيدخل في الأفعوان النائم. يخرج في الصباح آدم وحواء إلى عملهما، الذي تقترح حواء تقسيمه إلى عدة أماكن، فينجز كل عمل على حدة: فلم يوافق آدم، متذرعاً بالخطر، بل بذلك العدو، بعد أن حذرا منه، فسيحاول أن يستفرد بها: كرهت حواء أن يظن أنها غير محترسة أو ثابتة بما يكفي، فطلبت أن تذهب وحدها، وفيها رغبة أن تجرب قوتها؛ وأخيراً يذعن آدم: يجدها الأفعوان وحدها؛ فتقترب بمهارة وتحدق أولاً ثم تتكلم، فيطريها متملقاً بأنها فوق كل المخلوقات الأخرى. فتدهش حواء لسماع الأفعوان يتكلم، تسأله كيف حصل على الكلام البشري وعلى هذا الفهم؛ فيجيب الأفعوان، بتذوقه شجرة في الجنة حصل على الكلام والعقل، وكان حتى ذلك الوقت خالياً منهما: تطلب منه حواء أن يأخذها إلى تلك الشجرة فوجدت أنها

شجرة المعرفة المحرمة: صار الأفعوان الآن أجرأ، وبحيل ونقاشات أغراها أخيراً أن تأكل؛ فاستطابت المذاق وناقشت نفسها لحظة إن كانت تأخذها لآدم أم لا تأخذها، أخيراً أحضرت إليه الثمرة، وروت كل الأسباب التي أقنعتها بأكلها: يدهش آدم أول الأمر، ولكنه يدرك أنها ستضيع من يده، فيقرر بسبب الحب الجارف أن يهلك معها؛ وللتخفيف من الانتهاك يأكل الثمرة: فتقع النتائج عليهما كليهما؛ فيسعيان إلى تغطية عريهما؛ ثم يقعان في خلاف ويتهم كل الآخر.

* * *

لن نتكلم بعد الآن عن الله أو الملاك الضيف
عند الإنسان، كما عند صديق بألفة عادية
يجلس معه ويشاركه
الوجبات الريفية متساهلاً معه لحظة في المناقشة
المغلوطة فلا يلومه: عليّ الآن أن أغيّر
هذه المدوّنات إلى تراجيديا[1]؛ فقدان ثقة وعدم ولاء
أحمق من جانب الإنسان، تمرد
وعصيان: ومن جانب السماء
اغتراب الآن، وابتعاد واشمئزاز،
وغضب وتوبيخ، وإصدار حكم،
وهذا ما جلب إلى هذا العالم عالماً من المصائب[2]،
الخطيئة وظلها الموت، والبؤس
المنذر بالموت: مهمة حزينة، لكن الموضوع
بطولي ليس أقل، بل أكثر من غضب

---

(1) كان ملتون يريد أن يؤلف مسرحية تراجيدية، ولكنه عدل عن ذلك إلى الملحمة لما في موضوعه من بطولة لا تقل عن الملاحم السابقة التي يذكر منها الموضوعين البطوليين في الإلياذة والإنياذة.

(2) هذا ما قاله بطل «الإنياذة» بعد زواجه من ديدو ملكة قرطاجة.

أخيل على خصمه[١] فيطارده
ثلاث دورات حول سور طروادة؛ أو غضب
تورنوس بسبب عدم اقترانه بلافينا[٢]،
أو غضب نبتون أو جونو، فتاةَ
اليوناني وابن كاثيريا وضلا الطريق[٣]؛
ليتني أجد الأسلوب المناسب
من سيدتي السماوية[٤]، التي تتكرم
بزيارتي كل ليلة دون أن أتضرع،
وتملي علي وأنا نائم، أو توحي
فأكتب بسهولة شعري عفوياً:
أبهجني هذا الموضوع المناسب للأغنية

---

(1) هو البطل الطروادي فكتور.

(2) في الإنياذة يقول العراف لوالد لافينا بأن زوجها هو الآتي من وراء البحار، فلما وصل إينياس عرف تورنوس، خطيبها السابق أنه فقدها فغضب.

(3) نبتون إله البحر غضب على أوديسيوس في الأوديسة، وجونو ربة السماء عند الرومان غضبت على إينياس، في الإنياذة.

(4) يقصد أورانيا، ربة الفلك اليونانية التي اختارها للإلهام، لأنها تحلق أعلى من الأوليمب.

البطولية فاخترته منذ مدة طويلة ومؤخراً بدأت[1]
دون رغبة في طبيعتي أن أكتب عن
الحروب، فحتى الآن تعتبر الموضوع البطولي
الوحيد، كما أظن، والمهارة الرئيسية هي تحليل
مسهب للدمار المخيف الذي يروى عن الفرسان
الخياليين في المعارك المزعومة؛ أما شجاعة
الصبر والاستشهاد البطولية
فلم ينشدهما أحد؛ أما وصف السباقات والألعاب،
أو أدوات المبارزة، أو شعارات التروس،
وشعارات الفرسان، والستائر المزركشة والخيول؛
وأردية الحصان والمزخرفات المفرطة والفرسان
الرائعين والمسايفات والمرامحات؛ ثم الولائم المنظمة
التي تقام في الصالونات مع الخدم والحشم؛
ومهارة الصنعة أو ضعة الرسميات،
فليست تلك التي تمنح الاسم البطولي
إلى الشخص أو القصيدة. في هذا أنا

---

(1) بعد أن كتب ملتون المخططات بسبعة عشر عاماً بدأ يكتب نصه، وكان قد بلغ التاسعة والخمسين.

لست ماهراً ولا مولعاً، فموضوعي الأعلى
يبقي لي، ويكفي في ذاته أن يرفع
ذلك الاسم، ما لم يكن العصر تأخر بي، أو المناخ
البارد، أو أن السنوات بللت[١] جنحي قاصدة
قمعه، وكل هذا قد يقع، لو كان الأمر بيدي،
وليس بيد من تأتي إلى أذني كل ليلة بالقصيد[٢].
الشمس تغرق ونجم الصبح[٣]
الذي وظيفته أن يجلب شفق الفجر
على الأرض، وهو الوسيط القصير
بين النهار والليل، والآن من طرف إلى طرف
حجبت الليالي الأفق من حولها فوق نصف الأرض:
حين فرّ الشيطان بسبب تهديدات
جبرائيل من عدن، تحسنت معرفته[٤]

(1) كان هناك اعتقاد أن الجو الرطب يشوه الإبداع ويبطل الوحي.
(2) يقصد أورانيا، ربة الفلك.
(3) فينوس، الزهرة.
(4) تحسنت معرفة الشيطان بعد أن عاين عدن والعريشة والشجر المزروع وسمع كلام آدم وحواء.

[٥٥] في الخدع والخبائث، فأصر
على تدمير الإنسان، مهما يمكن أن يحدث
من كروب عليه، فعاد بلا خوف ولا وجل.



غاص مع النهر، ومع النهر ظهر الشيطان (٩: ٧٤)

في أول الليل طار، وفي منتصف الليل عاد
من طوافه حول الأرض، حذراً من النهار،
لأن يورئيل[١] الوكيل على الشمس رصد
دخوله، وحذر الشيروبيم
بأن يشددوا حراستهم؛ ثم طرد مغموماً،
سبع ليال متتالية وهو يركب
الظلام، وثلاث مرات فوق خط الاستواء
دار، وأربع مرات عبر في الليل[٢]
من القطب إلى القطب، قاطعاً كل بقعة؛
وفي الليلة الثامنة عاد، وعلى الشاطئ المقابل
للمدخل، أو حرس الشيروبيم، راح يبحث
ليجد مدخلاً لا يثير الشك. كان هناك مكان، فالخطيئة
وليس الزمان، هي أول مَنْ صنعتْ التغيير،
والمكان نهر دجلة عند قدم الفردوس،
في خليج ينطلق تحت الأرض، إلى أن يظهر

(1) راجع الكتاب الثالث، الخلاصة.

(2) الليل يتحرك حول الأرض، وبما أن الشيطان يدور الأرض عند خط الاستواء، فإنه يدور مع الليل حيث دار.

قسم منه ينبوعاً بالقرب من شجرة الحياة؛
غاص مع النهر، ومع النهر ظهر الشيطان
ملتفاً بالضباب المتصاعد، ثم بحث
عن مكان يكمن فيه؛ فبحث في البحر والبر
من عدن حتى البحر الأسود، وبحر
آزوف، حتى نهر الأوب[1]؛
ونزولاً حتى القطب الجنوبي البعيد؛ وطولاً
إلى الغرب من العاصي[2] حتى حدود المحيط
عند داريان[3]، ومن هناك إلى الأرض الذي منها
يتدفق الغانج والإندوس: وهكذا يكون طاف الأرض
يبحث بحثاً دقيقاً؛ ويتحرى بعمق
مدققاً في أي مخلوق يكون من بينها
من بينها الأنسب الذي يخدم مكائده،

---

(1) رابع أكبر نهر في القطب الشمالي السيبيري.
(2) نهر مشترك بين لبنان وسورية.
(3) الشريط البري الضيق الذي يربط أمريكا الوسطى بالجنوبية.

فوجد الأفعوان أنكى الحيوانات في الحقل.
وبعد أن ناقش نفسه طويلاً، وتردد في
أفكاره المتقلبة كثيراً، اختار الحكم الأخير
إنه الوعاء المناسب، والأداة الأنسب للخديعة،
فدخل فيه وخبأ مقاصده القاتمة
عن البصر الحديد: لأن الأفعوان الماكر
مهما مارس من خداع، لا يشك فيه أحد،
فمن حكمته وذكائه الأصيل
ينطلق الخداع، فلا حيوان آخر يلحظ
ولا يمكن أن يشك بوجود قوة شيطانية
تفعل في داخله سوى حس البهيمة.
هكذا صمم، ولكن أول الأمر من الداخل
تدفق حزن عاطفته المنفجرة بسهولة:
أيتها الأرض، كم تشبهين السماء، إن لم
تفضليها عدالة، أنت مكان يليق بالآلهة، كبناء
بأفكار تالية، لإصلاح القديم!



أيتها الأرض، كم تشبهين السماء،
إن لم تفضليها عدالة (٩: ٩٩...)

فهل يبني الله الأسوأ بعد الأفضل؟

أيتها السماء الترابية، دوري بالرقص مع السموات الأخرى

التي تشرق، وهي تحمل مصابيحها المشرقة كواجب،

نور على نور، فأنت وحدك، كما يبدو، [١٠٥]

فيك تتركز كل أشعتها البراقة
من التأثير المقدس: فكما الله في السماء
كذلك في المركز، ويتمدد إلى الجميع، وهكذا فأنت
تتلقين مركزياً كل تلك المدارات؛ فيك
وليس فيها، تظهر كل فضيلتها المشهورة
المنتجة في العشب والنبت والولادة الأنبل
لمخلوقات حياة متدرجة من
النمو والإحساس والعقل، وكلها اجتمعت في الإنسان.
فبأي بهجة أطوف حولك،
إن لم أجد السرور في شيء، في التعاقب العذب
من هضاب ووديان وأنهار وغابات وسهول،
فحيناً برّ وحيناً بحر، مع شواطئ تتوّجها الغابات،
والصخور والأدغال والكهوف؛ ولكني في كل هذا لم
أجد مكاناً أو ملجأ؛ وكلما شاهدت المزيد
من المتع حولي، تفاقم شعوري
بالألم في داخلي، كأنه من حصار حقود
للتناقضات، فكل خير يصير لي
هلاكاً، وفي السماء ستكون حالتي أسوأ بكثير.

ولكن لا أبحث لا هنا ولا في السماء

[١٢٥] عن مسكن، إلا إذا جبار السماء أمر؛

فلا أمل في أن تكون نفسي أقل بؤساً

في سعيي، ولكن لأجعل الآخرين



فوجده نائماً نوماً عميقاً

في متاهة من عدة لفات حول الذات (٩: ١٨٢...)

مثلي، ولو عاد عليّ بسوء أكبر:
ففي التدمير فقط أجد راحة
لأفكاري القلقة؛ وسأدمره،
أو أعمل على ما يحقق ضياعه الكامل،
هذا الذي كل هذا من أجل صنع، وكل هذا
سيزول، فهو مرتبط إما بالسعادة أو المصيبة،
فليكن في المصيبة: فذلك يوسع دائرة الخراب:
أما أنا فسأكون الوحيد الممجد بين
قوات الجحيم، إذا مسحت في يوم واحد
ما صنعه الجبار في ستة أيام بلياليها
بلا توقف صنعها، ومن يعرف كم استغرق
من قبل وهو يتدبر، مع أنه ربما لا يزيد
عن الزمن الذي حررت في ليلة واحدة
نصف[1] من يخدمون عرشه بمذلة
من مراتب ملائكية، فقللت من عدد الحشود
الذين يعبدونه: وحتى ينتقم،

---

(1) الشيطان يغالط نفسه فمن قبل كان يقول إنه أغوى ثلث الملائكة. راجع ٢: ٦٩٢.

ويعوّض العدد المنقوص،
بعد أن نفذت الفضيلة القديمة وفشلت الآن
عن خلق المزيد من الملائكة، هذا إن كانوا حقاً
من خلقه، أو لمزيد من النكاية بنا،
فقرر أن يخلق في مكاننا
مخلوقاً صنعه من الأرض، ووهبه،
حتى يرفعه فوق أصله المنحط،
أسلاباً سماوية، هي أسلابنا[١]: وما قرره
نفذه؛ فصنع إنساناً، ولأجله بنى
هذا العالم الرائع، فالأرض مكانه،
وأعلنه سيداً، و، يا للعار!
جعل في خدمته كل مراتب الملائكة،
وأقام من الملائكة وزراء للحراسة ومراقبة
مهمتهم الأرضية: وأنا أخشى يقظة هؤلاء،
وأن يلمحوني هكذا ملفعاً بضباب
بخار منتصف الليل متسللاً بخفاء، مختبئاً

(1) فكرة الأسلاب تذكرنا بأسلاب الإسرائيليين في مصر عندما هربوا من فرعون. والقصة موجودة في (تكوين ٣).

في أي عليقة أو أجمة، حيث أحظى بالعثور
على الأفعوان نائماً، فأختبئ في طياته
المحيّرة، وأخبئ معي مقصدي القاتم.
أي انحطاط كريه! أنا من كنت أصارع
الله لأجلس في الأعلى، أتقلص الآن
وأدخل في حيوان، وأختلط بطين حيواني،
وهذا تجسد[1] وحيوانية،
فقد كنت أهفو إلى أعلى الإلوهية؛
ولكن أي طموح وانتقام لا يستدعيان
الهبوط؟ فمن يطمح عليه أن يهبط في الأدنى
كما يحلق في الأعلى، فأولاً وأخيراً
يهبط إلى أدنى الأشياء. والانتقام، وإن كان في البدء حلواً،
لكنه مرّ يرتد قريباً على ذاته؛
ليكن؛ فلا يهمني، لقد تحدد ما هدفت إليه
منذ أن سقطت من الأعالي بمدة قليلة، على
التالي الذي أثار حسدي، هذا المحبب

---

(1) تلميح إلى تجسد المسيح في إنسان، بينما يتجسد هو في حيوان. وهذا نوع من المحاكاة المعاكسة.

إلى السماء، هذا الإنسان الذي من طين، ابن القهر،
الذي لمزيد من قهرنا، جعله صانعه
من التراب: فالقهر بالقهر أفضل تعويض.
هكذا تكلم عبر كل أجمة رطبة أو يابسة
راح يزحف منبطحاً مثل ضباب اسود، فتابع
بحثه في منتصف الليل، حيث بسرعة عثر على
الأفعوان: فوجده نائماً نوماً عميقاً
في متاهة من عدة لفات حول الذات،
ورأسه في الوسط، وفيه اختزن حيله الماهرة:
لم يكن بعد يهرع إلى الظل أو الجحر الكئيب،
كان بريئاً، وعلى العشب الأخضر
ينام لا يخاف ولا يخيف: في فمه
دخل الشيطان، وفي إحساسه الحاد،
في القلب أو السمع، فامتلكه وألهمه
الذكاء فيما يفعل: ولم يزعجه نومه
فانتظر متخفياً اقتراب الصبح.
والآن عندما النور المقدس بدأ يشرق فجراً
في عدن على الزهر الندي، الذي يتنفس

شذى صباحه، حين كل الأشياء التي تتنفس، صعّدت
من مذبح الأرض العظيم تسبيحها الصامت
إلى الخالق، وتملأ منخريه
بالرائحة الزكية، خرج الزوجان البشريان
ومعاً رتلا العبادة الصوتية لحزمة
المخلوقات التي لا صوت لها، وبعد الصلاة، شاركا
الفصل الأفضل في حلاوة الروائح والأنسام:
ثم تحادثا كيف في ذلك اليوم ينجزان عملهما
في أعمال الزراعة على خير ما يكون: فعملها أكبر
من عمل أيدي اثنين في حدائق بهذا العرض.
كانت حواء أول من بدأ الحديث مع زوجها.
آدم، ربما نعمل طويلاً في الاعتناء بهذه
الجنة، من اهتمام بالزرع والعشب والزهر، وهو
عمل مبهج يفرحنا، ولكن حتى يأتي المزيد من الأيدي
لمعونتنا، فإن العمل سيزداد بكدنا،
ويزدهي كلما أوقفناه؛ فما نقطعه في النهار
أو نشذبه أو نسنده أو نربطه، ينمو
في ليلة أو ليلتين نمواً فاجراً فيسخر

منا بميله إلى الوحشية. لذلك انصح أو
استمع إلى ما خطر على عقلي من أفكار أولى،
لنقسم العمل فيما بيننا، فأنت حيث تختار
تذهب، أو حيث تجد ضرورة، سواء لتجدل
صريمة الجدي حول هذه الشجرة، أو لتعرش
اللبلاب المتشابك حيث يتسلق، بينما أنا
هناك في أجمة الورود المختلطة مع
الآس، أجد ما يمكن إصلاحه حتى الظهيرة:
فعندما يكون واحدنا قرب الآخر كل النهار
فإن المهمة التي اخترناها، لا عجب إذا اقتربت
من التدخل بالاعتراض والابتسامات، أو يسبب
شيء جديد نقاشاً مستمراً، فيتقطع
عمل يومنا ولا ننجز شيئاً، وإن بدأنا
باكراً، وتحين ساعة العشاء ولا نكون فعلنا شيئاً.

وعلى هذا ردّ آدم بلطف ملتفتاً:

حواء الوحيدة، أليفتي الوحيدة، محبتك
وراء أي مقارنة مع كل المخلوقات الحية،
نعْمَ ما اقترحت، نعْمَ ما طرحت من أفكار

كيف يجب أن ننجز على خير وجه عملنا
الذي حدده الله لنا، ولن أنسى أن
أمتدحه: فلا شيء يوجد في المرأة أجمل
من الاهتمام بالمنزل اهتماماً جيداً،
وتعمل لحض زوجها على التقدم.
ولكن سيدنا لم يفرض العمل بمثل
هذا التشدد، كأن يحرمنا عندما نحتاج
أن ننعش أنفسنا، إما بالطعام أو بالمحادثة،
فالطعام للعقل، أو هذا الوصال العذب
بالنظرات والابتسامات، لأن البسمة من العقل تنبع،
وعن البهيمة محجوبة، وهي طعام الحب،
والحب ليس الغاية الدنيا للحياة البشرية.
لا لنضجر من الكدح، بل لنسر به
صنعنا الله، والبهجة تنضم إلى العقل.
لا تشكي في أن هذه الممرات والعرائش تحتاج أيدينا معاً
فنحميها من الوحشية بسهولة، ونحن نقضي حاجتنا
من المشي بعيداً فيها، حتى تتوافر الأيدي الأفتى
فتساعدنا: أما إن كان التحدث قد

يتخمك، فلأغب عنك فترة قصيرة.
فقد تكون الوحدة أحياناً خير صاحب،
والاستراحة القصيرة تثير حلاوة الاستئناف.
ولكن شكاً آخر تملكني، فقد يصيبك
أذى إنْ عملت بعيداً عني؛ فأنت تعلمين
التحذير المعلن لنا، وأي عدو خبيث
يحسدنا على سعادتنا، ومن شدة يأسه
يسعى لأن يسبب الألم والعار
بهجمة ماكرة؛ في مكان ما قريب
جداً يراقب، ولا شك، بكل جشع حتى يجد
ضالته وفائدته الكبرى، إن ابتعدنا،
ولا أمل له في تطويقنا معاً، حيث كل واحد يسرع
إلى جانب الآخر ويقدم له ما يحتاج؛
سواء كان تصميمه الأول أن ينزع منا
إخلاصنا لله، أو يفسد
حبنا الزوجي، وربما لا تكون بركة
مبهجة تثير حسده أكثر من بركة حبنا؛
أو هذا، وهو الأسوأ، لا يدع الجانب الإيماني

الذي وهبك وجودك، ولا يزال يظلك ويحميك.
فالزوجة، حيث يكمن الخطر أو العار
يكون الأسلم والأصح أن تبقى قرب زوجها،
الذي يحرسها، أو يتحمل السوء معها.
وعلى هذا ردت حواء البريئة بجلال،
مثل العاشق الذي لا يلقى اللطف،
وباتزان صارم جميل أجابت،
يا وليد السماء والأرض، وسيد كل الأرض،
سمعنا بمثل هذا العدو، الذي يسعى
إلى دمارنا، وقد علمت ذلك منك،
ومن الملاك الذي غادرنا سمعته بالتفصيل
حين وقفت خلف ركن ظليل،
وكنت رجعت للتو عندما نامت أزهار المساء.
ولكنك تشك في ثباتي لله
أو لك، لأن لنا خصماً
قد يغوينا، وهذا ما لم أتوقع أن أسمعه.
فلا تخش عنفه، لأننا نحن
بكياننا غير قابلين للموت أو الألم،

فأي منا يمكن ألا يتلقاه أو يمكن أن يطرده.
فخدعته هي خوفك، الذي يسهل التدخل
بمقدار خوفك أن إيماني الثابت وحبي
يمكن بخديعته أو غوايته أن يهتزا؛
فكيف وجدتْ هذه الأفكار مستقرها في صدرك
يا آدم، فأسأتَ الحكم على من هي عزيزة عليك؟
وبكلمات شافية أجاب آدم.
يا بنت الله والإنسان، حواء الخالدة،
لأنك هكذا، بريئة من الخطيئة والعار:
لا لعدم ثقتي بك أقنعك
بعدم الغياب عن ناظري، بل تجنباً
للتجربة نفسها، الذي ينوي عليها خصمنا.
فإن الغاوي، وإن عبثاً أغوى، على الأقل يأتي
بالذم على من جرب مع الفساد الذليل، وافتراض
عدم فساد الإيمان، ليس حجة
ضد الإغواء: فأنت نفسك باحتقارك
وغضبك ستمتعضين من الخطأ الذي يقدم لك،
وإن لم يكن هناك أي تأثير: فلا تسيئي الظن

إن أنا عملت على تجنيبك
أن تكوني وحدك، فإذا هاجمنا كلينا فجأة
عدونا، وإن كان شجاعاً، فلن يجرؤ،
أو يجرؤ فيهاجمني أولاً، ولن يؤثر فيّ.
فلا تزدري بخبثه ومكره المخادع،
فلا بد أن يكون فطناً من أغوى الملائكة
من غير أن يفكر في مساعدة الآخرين.
أنا أتلقى من تأثير نظراتك
الكثير في كل فضيلة، في نظرك
أنا أكثر حكمة ورقابة وقوة، إن كان ثمة
حاجة إلى قوة خارجية؛ بينما العار، وأنت تنظرين،
هو أن أغلب أو أتراجع
فترتفع قوتي العظمى، وتزداد وحدتنا[١].
فلماذا لا تشعرين بالإحساس نفسه في داخلك
عندما أكون حاضراً، وتختارين التجربة
معي، فأكون خير شاهد على فضيلتك المجربة.

---

(1) المقصود بكلام آدم أنه عندما يغلب أو يتراجع وهما معاً، فإن قوته تزداد لأنه تعلم خبرة، ولكن الأهم أن قوته تأتي من وجودهما معاً.

هكذا تكلم آدم الأليف في اهتمامه
وحبه الزوجي، ولكن حواء، التي فكرت
أنه استخف بورع إيمانها،
أجابت بلهجة عذبة متجددة.
إن كانت هذه حالتنا، فنقيم هكذا
في دائرة ضيقة محاصرين من عدونا،
بالذكاء أو العنف، فإننا إن لم ندافع كل
بمفرده، حيث تصادفه التجربة،
فكيف نكون سعداء، ونخاف الأذى دائماً؟
لكن الأذى لا ينطلق من الخطيئة: خصمنا وحده
يجربنا ليذلنا بتقديره الأحمق
لكمالنا: تقديره الأحمق
لا يغرز العار في جباهنا، ولكن ينقلب
الحمق عليه؛ فلماذا إذن نهرب أو نخاف
منه؟ بالأحرى علينا أن نحوز الشرف مضاعفاً
من كذبه المزيف، فنعثر على السلم في داخلنا،
وتؤيدنا السماء، وهي شاهدنا على الحدث.
فما الإيمان والحب والفضيلة وحدها بلا اختبار

ومن دون تقديم دعم خارجي؟
علينا ألا نشك إذن في حالتنا السعيدة
التي تركت ناقصة من قبل الصانع الحكيم
ولا ضمان لا للفرد ولا للمجموع.
هشة هي سعادتنا، إن كان الأمر هكذا،
وعدن ما كانت عدناً هكذا مكشوفة[1].

بحماسة رد آدم على ذلك.

أيتها المرأة، كل الأشياء هي الأفضل كما
أراد الله الذي قضى بذلك، فيده الخالقة
لا تترك شيئاً غير كامل أو فيه عطل
من كل ما خلق، وبالأخص الإنسان،
أو في أي شيء يضمن له سعادته،
يضمنها من القوة الخارجية؛ ولكن الخطر
يكمن داخل نفسه، كما أنه يكمن في قوته؛
فلا يمكن أن يتلقى أذى خارج إرادته.
ولكن الله ترك إرادتنا حرة، لأن كل ما يطيع

(1) أي إن الصانع الخالق لم يحصن السعادة فجعل عدن مكشوفة أمام تجارب الشيطان.

العقل هو حر، والعقل مصنوع من الصواب
ولكن أمَرَهُ أن يكون متيقظاً، ويبقى منتبهاً،
وإلا فوجئ بالجميل في مظهر الخير
فيملي الخطأ، ويقدم للإرادة معلومات مغلوطة
لتعمل ما منعها الله من عمله،
فعندها ليس عدم الثقة، بل الحب اللطيف يأمر
بأن عليّ أن أحذرك، وتحذريني.
إننا نعيش ثابتين، ولكن يمكن أن ننحرف،
ما دام من غير المستحيل أن يواجه العقل
بعض الأشياء الزائفة التي يغرينا بها العدو،
فيقع في الخديعة غير منتبه،
فلم يحتفظ بالرقابة الصارمة، كما جرى تحذيره.
فلا تبحثي عن الغواية إذن، بل تجنبيها
فذلك أفضل، والأفضل جداً إن أنت
لم تنفصلي عني: فالتجربة تأتي من دون سعي.
فإن أردت إثبات إخلاصك فأثبتي
أولاً طاعتك؛ فمن يقدر أن يعرف الإخلاص
من دون رؤيتك في التجربة، ومن يصدقك؟

ولكن إن اعتقدت أن التجربة التي لا نبحث عنها
تجدنا ونحن في غاية الأمن أكثر مما يبدو تحذيراً،
فاذهبي؛ فغيابك أفضل من حضورك بلا حرية؛
اذهبي في براءتك الأصلية، واعتمدي
على ما تملكين من فضيلة، واجمعي الكل،
لأن الله عمل كل ما عليه تجاهك، فاعملي ما عليك.
هكذا تكلم أبو البشرية، ولكن حواء
أصرت، وإن بخضوع، أن تردّ، ويكون آخر ردّ.
عن إذنك إذن، وقد حذرتني
بشكل رئيسي بالكلمات العقلية الأخيرة التي
تقول إن تجربتنا، عندما نطلبها بأقل ما يمكن،
يمكن أن تجدنا كلينا أقل استعداداً،
فإرادتي أن أذهب، لا تعني أني أتوقع
عدواً متعجرفاً يبحث عن الأضعف فينا،
فإن همّ، فالمزيد من العار يلحق خيبته.
هكذا قالت حواء، ومن يد زوجها سحبت
يدها برقة، ومثل حورية الغاب أو

الأرياد أو الدرياد[١] أو حاشية الديليا[٢]،
وهي تذهب إلى الأجمات، بل تقول إنها ديليا نفسها
وهي تتخطى البوابة تحمل معالم الإلوهية،
وإن لم تكن هي بتسلحها بقوسها وكنانتها،
بل بأدوات الجنة حيث كانت بدائية الصنع،
صنعت بلا نار، أو أحضرتها الملائكة
لباليس[٣] أو بومونا[٤]، مزدانة برسوم جميلة،
وحواء أجمل منها، كرسوم بومونا عندما هربت
من فيرتومنوس، أو رسوم سيريس[٥] في روعتها
مع أنها ولدت العذراء بروسربينا من جوف.
عين آدم تابعت حواء طويلاً بنظرة غيورة
مبتهجاً، ولكن رغبته الأشد هي أن تبقى معه.

---

(1) الأرياد والدرياد حوريات الجبال.
(2) الديليا هي ديانا ربة الغابات العذراء وسميت ديليا نسبة إلى مسقط رأسها في جزيرة ديلوس. وتتألف حاشيتها من الحوريات اللواتي نذرن العفة وأقمن على خدمة الغابات.
(3) Pales ربة القطيع والمراعي.
(4) Pomona ربة البساتين أو الثمار وفيرتومنوس عشيقها.
(5) Ceres عند الرومان هي نفسها ديميتر اليونانية، ربة القمح والأرض وبرسيفوني (بروسربينا عند الرومان) هي ابنتها التي اختطفها رب العالم السفلي.

كرر عليها أمره بالعودة السريعة
وكررت هي له اهتمامها
أن تعود في الظهيرة إلى العريشة،
وكل شيء سيكون في أفضل حال للدعوة
إلى طعام الظهيرة، أو راحة ما بعد الظهر.
مخدوعة جداً وفاشلة جداً أنت يا حواء البائسة،
في عودتك المفترضة! إنه حادث انحراف!
منذ تلك الساعة في الفردوس لن



صار اقرب، وماشياً قطع الكثير
من الملاجئ الفخمة والأرز أو الصنوبر أو النخيل (٩: ٤٣٤...)

تجدي لا الوجبة الطيبة، ولا الراحة الهنيئة؛
ما دام الكمين كامناً بين الأزهار والظلال الجميلة
منتظراً بحقد جهنمي اقترابك
ليعترض طريقك، أو يرسلك عائدة
وقد جردت من البراءة والإيمان والبركة.
والآن، ومنذ إطلالة الفجر جاء الشيطان،
على هيئة أفعوان صرف[1]،
وتابع بحثه، حيث وجد أجمل ما يمكن
وجد زوجين من البشر فقط، ولكن فيهما
كل العرق البشري، فريسته المنشودة.
بحث في العريشة والحقل، وأينما بدت مجموعة
أشجار أو حديقة صغيرة أكثر جمالاً من غيرها،
وكل ما دل على عناية أو غرس للبهجة،

---

(1) يستخدم ملتون صيغة المذكر فيقول الأفعوان، بينما في التصور الشعبي وحتى النصوص التوراتية وردت كلمة الحية، فدائماً حواء مرتبطة بالحية وليس بالأفعوان. والملاحظ أن ملتون لا يعتقد أن الغواية تتم بين «الحية» المؤنث و«حواء» المؤنث« بل يجب أن يكون هناك طرف مذكر، فجعل الشيطان يدخل الأفعوان وليس الحية، تجسيداً لقناعته.

قرب ينبوع أو نهر ظليل
بحث عنهما كليهما، ولكن رغب أن يجد
حواء وحدها، رغب، ولكن بلا أمل
في هذه المصادفة النادرة، فإذا هو في رغبته
وراء أي أمل، يرى حواء وحيدة،
خمارها غيمة من الشذى، حيث وقفت،
نصف متوارية، فكان الورد حولها كثيفاً
مشرقاً عليها، وهي تنحني لتدعم
كل زهرة ضامرة الساق، فحتى لو كان رأسها
يبتهج بالقرنفل والأرجوان واللازورد وترقيش الذهب،
وتدلى مطوّحاً دعمتها حواء وأسندتها
بلطف بباقة من الآس، ناسية، للحظة،
نفسها، وهي أجمل زهرة غير مدعمة،
فقد ابتعدت عن أعظم سند، واقتربت من العاصفة.
صار أقرب، و ماشياً قطع الكثير
من الملاجئ الفخمة والأرز أو الصنوبر أو النخيل،
فتقلب متموجاً حيناً منكشفاً حيناً مختبئاً حينا، وحينا يرى
بين الأشجار الكثيفة المتشابكة والأزهار

التي تزين كل ضفة، بيد حواء:
بقعة ألذ من تلك الحدائق الوهمية
لأدونيس القائم من الموت، أو ألسنتوس[1]
الشهير، مضيف ابن العجوز لايرتس
أو تلك الحدائق غير الخيالية، حيث الملك الحكيم[2]
داعب فيها زوجته المصرية الجميلة.
وبمقدار ما أعجب بالمكان أعجب بالشخص أكثر.
ومثل من يكون حبيس مدينة مكتظة لمدة طويلة،
حيث البيوت كثيفة والمجاري تزعج الهواء،
فخرج في صباح يوم صيفي ليتنفس
بين القرى والمزارع الجميلة القريبة
منها، من كل شيء يلقى بهجة،
رائحة الحبوب، أو العشب الندي، أو الماشية

---

(1) ابن لايرتس هو أوديسيوس الذي يزور حدائق الملك ألسينوس في الأوديسة النشيد السابع.

(2) هو الملك سليمان وقد تزوج أميرة مصرية وجاء بها إلى حديقته «حبيبي نزل إلى جنته إلى خمائل الطيب ليرعى في الجنّات ويجمع السوسن (نشيد الأنشاد ٦: ٢)

أو المجابن وكل منظر ريفي، وكل صوت ريفي؛
فإذا شاءت الصدف ومرت عذراء جميلة تشبه الحورية،
فأي سرور يشعر به أكثر من مرورها الآن،
فقد جلبت له أعظم سرور، فجمعت في هيئتها كل بهجة.
هذا السرور جعل الأفعوان ينظر
إلى المكان المزهر، مكان استراحة حواء الجميل
فعادت مبكرة، وحيدة؛ بهيئتها الملائكية[1]،
ولكنها أكثر نعومة وأنثوية، في
براءتها الجميلة في كل إشارة
وفي أي عمل تقوم به مما أرهب
مكره، وبكل هدوء وعذوبة سحب
وحشيته من الغرض الوحشي الذي جاء لأجله:
في ذلك المكان وقف الشرير وقفة مجردة
من شره، ومكث مدة
في طيبة الأبله، بلا سلاح عداوة
ومكر وكراهية وحسد وانتقام؛

---

(1) ملتون يستخدم صيغة المؤنث للملاك في وصفه جمال حواء. ويعتقد أن الملاك يمكن أن يتخذ أي شكل ذكراً كان أم أنثى.

ولكن الجحيم الحامية التي تتدلع دائماً فيه،
حتى في وسط السماء، قضت على سروره،
وعذبته الآن أكثر، كلما رأى أن
المسرة لم تكتب له: وبسرعة
جمع الحقد الوحشي، وكل أفكاره
السيئة، ففرح بما أثاره.
أيتها الأفكار، قدتني إلى هنا، وما أجمل
طردك لنشوتي فأنسى ما الذي
أتى بنا إلى هنا، إنه الكراهية لا الحب ولا الأمل
في الفردوس بدل الجحيم، الأمل هنا هو تذوق
المتعة، ولكنها متعة تدمير كل متعة،
عدا متعة التدمير، وكل بهجة سوى ذلك
مفقودة. إذن لن أدع الفرصة
تمرّ وقد سنحت لي الآن، فأرى المرأة
تمرّ وحدها، فرصة لكل محاولاتي،
وأرى زوجها بعيداً، وليس قريباً،
وفكره الأعلى هو ما أتجنبه،
وأتجنب قوة شجاعته العالية، وأطرافه

بقوة بطولية، مع أنها من الطين مصنوعة،
إنه خصم ليس سهلاً، وأنا عدا الجراح[1]،
لست كذلك، فقد أضناني الجحيم وأضعفني
الألم، فلم أعد كما كنت في السماء.
جميلة هي، جمالها إلهي، تليق بحب الآلهة،
لا ترهب، وإن كان الإرهاب في الحب
والجمال، لا تقترب عن طريق الكراهية القوية،
فالكراهية أقوى، لكن بمظهر الحب سوف آتيها،
وهو الطريق الذي أسلكه الآن لتدميرها.
هكذا تكلم عدو البشرية، مختفياً
في الأفعوان، سجين السوء، ونحو حواء
أخذ طريقه، ولكن لم يزحف زحفاً متموجاً،
على الأرض، كما يفعل، وإنما على مؤخرته،
قاعدة دائرية من اللفات فوق الأرض، ترتفع
حلقة فوق حلقة في متاهة متلاطمة، ورأسه
يعلو بعرفه، وبعينيه العقيقيتين؛

(1) هذا يناقض ما اكتشفه الشيطان من ألم أثناء معركته في السماء، كما في الكتاب السادس ٣٢٧.

عنقه يبرق بذهب أخضر، ينتصب
وسط طياته، فيعوم على العشب
عالياً: شكله ممتع،
وجميل، ليس هناك أجمل منه في
النوع الأفعواني، ولا تلك الأنواع الأليرية
التي غيّرت هرمونيا وقدموس[1]، أو الرب
في إبيداروس[2]؛ ولكن ليس الذي تحول
إليه جوف الأموني أو الكابيتولي، الذي شوهد
مع أوليمبيا، وهذا مع من حملت
بسيبيو عظيم روما[3]. وبطريق منحرف
أول الأمر مثل من يبحث عن مدخل، ولكنه يخاف

---

(1) إشارة إلى قصة أوفيد عن تحول قدموس وزوجته هرمونيا إلى أفعوانين. التحولات ٤: ٥٦٣- ٦٠٣.

(2) يقال إن الرب أسكولابيوس ظهر على شكل أفعوان في معبده في إبيداروس.

(3) روايات عن الآلهة التي ضاجعت النساء على شكل أفعوان فجاءت بالعظماء، من أمثال جوبيتر الذي ضاجع أم الاسكندر أوليمبيا، وكاد زوجها فيليب أن ينفصل عنها، لو لم يقل له العرافون إنها ستلد عظيماً... وهكذا بقية الأمثلة التي يأتي بها ملتون.

أن يعترضه أحد، فيشق طريقه من الجانب.
ومثل سفينة حين الربان الماهر يديرها
بالقرب من ثغر الأنهار أو البرزخ، حيث الريح
تتغير كثيراً، فيغير اتجاه الدفة، ويغير أشرعتها؛
هكذا هو نوّع، ومن ذيله المتعرج
جدل عدة لفات شهوانية على مرأى من حواء،
ليغري عينيها؛ فقد كانت منشغلة بسماع صوت
حفيف الأوراق، ولم تفكر، كعادتها
بهذا المرح أمامها في الحقل، من
قِبل أي حيوان، فهو أكثر طاعة لندائها،
من النداء السيرسي للقطيع الكريه[1].
تشجع الآن أكثر، ومن دون نداء وقف أمامها؛
ولكن حالما حدقت به أعجبها: فأحنى
عرفه البرجي، وعنقه الأملس الطري،
متملقاً، ولاحساً الأرض التي مشت عليها.
تعبيره الأصم اللطيف جعل عين حواء

(1) سيرسي عرافة ساحرة حوّلت الرجال إلى قطيع خنازير شديد الإذعان لأوامرها.

أخيراً تلتفت لتلحظ لعبه؛ وسرّ
من حصوله على اهتمامها، وبلسان أفعواني
شهواني، أو اندفاع هواء صوتي
بدأ إغواءه المخادع.
لا تعجبي، أيتها السيدة الحاكمة، لو
استطعت العجب، يا من أنت وحدك العجب، قللي من
سلاح معالمك، معالم اللطف السماوي، قللي من
ازدراء استيائك، أنني اقتربت منك وحدقت
بنهم، وأنا وحدي، لا أخاف
جبينك الرهيب، والأكثر رهبة حين يستريح.
يا أجمل من تشبه خالقها الجميل،
كل حي فيك يحدق، وكل الأشياء وهبت
لك، وتعبد جمالك السماوي
تنظر إليك مفتونة، وأفضل ما تراك
حيث يتجلى فيك الجمال الكوني؛ ولكن هنا
في هذه البرية المسيجة، ووسط هذه الوحوش،
ينظرون بفجاجة، وهم سطحيون لا يهتمون
بنصف ما فيك من جمال، فهل من يشاهدك،

سوى رجل واحد؟ (وما هو الواحد؟] يجب أن تظهري
ربة بين الأرباب، يعبدها ويخدمها
الملائكة الذين لا عد لهم، كحاشيتك اليومية.
هكذا اضطجع الشيطان، وهو يلحن أغنيته؛
واتخذت كلماته طريقها إلى قلب حواء،
وقد أدهشها كثيراً الصوت؛ أخيراً
تكلمت مجيبة وهي في أشد دهشتها.
ماذا يعني هذا؟ تنطق بلغة بشرية
من لسان بهيمة، وتعبر عن إحساس إنساني؟
كنت أظن أن اللغة محرمة
على الوحوش، التي يوم خلقها الله
خلقها بكماء لكل صوت واضح؛
أما الإحساس فأشك فيه، لأن في الهيئة
الكثير من العقل، وفي أفعالها يظهر.
وأنت أيها الأفعوان، أذكى حيوانات الحقل
أعرفك، ولكن لا أعرف أنك وهبت صوتاً بشرياً؛
فكرر هذه المعجزة وقل،
كيف انتقلت من الخرس إلى التكلم، وكيف

نمت صداقتك معي أكثر من كل
أنواع البهائم، التي أمام بصري يومياً؟
قل فهذه المعجزة تثير الانتباه.
وهكذا أجاب الشيطان الماكر.
يا إمبراطورة هذا العالم، يا حواء الرائعة،
إن من السهل عليّ أن أخبرك بكل
ما تأمرين وأنا رهن طاعتك:
كنت أول الأمر كالوحوش الأخرى التي ترعى



وعوداً إلى الأجمة تسلل الأفعوان الماكر (٩: ٧٨٤...)

الأعشاب المداسة، بأفكار خسيسة ووضيعة،
كما كان طعامي، فليس عليّ القيام به سوى الطعام
والجنس، ولا أستوعب أي أفكار أعلى من ذلك:
إلى أن كنت أطوف الحقل في أحد الأيام، فصادفت
شجرة طيبة ظهرت من مسافة بعيدة
مثقلة بأجمل الثمار ذات الألوان المختلطة
من أحمر وذهبي: فاقتربت أكثر وحدقت؛
فإذا من الأغصان تفوح رائحة الشذى،
تستحبها الشهية ويستعذبها الإحساس،
رائحة أشد عذوبة من الشمرة أو حلمات
ثدي النعجة أو العنزة وقد درّت الحليب مساءً
ولا يرضعه الحمل أو الجدي، لانشغاله باللعب.
وحتى أشبع هذه الرغبة الحادة رحت
أتذوّق تلك التفاحات الجميلة، وقررت
ألا أتلكأ؛ ودفعة واحدة بدا الجوع والعطش،
بقناعة قوية، أسرعت بها رائحة
تلك الثمرة المغرية، فحرضتني تحريضاً شديداً.
وحول جذع الشجرة الطحلبي التففت بسرعة،

فالغصون عالية عن الأرض وتتطلب
منك أو من آدم مد الأيدي إلى الأقصى: وحول الشجرة
كل الوحوش رأتني، وفيها مثلي رغبة
متشوقة فوقفت تحسدني، ولكنها لا تستطيع الوصول.
ولما وصلت إلى منتصف الشجرة، حيث المدلى الوفير
المغري بات قريباً، رحت أقطف وآكل متخماً
لا أوفر شيئاً، فمثل هذه المتعة حتى تلك الساعة
لم أجد مثيلها لا في الطعام ولا في الشراب.
وأخيرا شبعت، وبعد قليل أدركت
تغيراً غريباً فيّ، فأولاً في درجة
العقل في تقواي الداخلية، ومن ثم الكلام
لم يتأخر طويلاً، مع أني بقيت محتفظاً بهذا الشكل.
ومنذ ذلك الوقت أحرك في تأمل إلى الأعلى أو الأعمق
أفكاري، وبعقل مقتدر
فكرت بكل الأشياء المرئية في السماء، أو الأرض
أو ما بينهما، كل الأشياء جميلة وطيبة؛
ولكن كل ما هو جميل وطيب موجود في شبهك
الإلهي، وفي جمالك شعاع سماوي

أراه يوحدها؛ فلا جمال يساوي
جمالك أو يليه، وهو ما أجبرني
على هذا، ومع أني قد أكون مزعجاً، فإني
أتيت وحدقت فيك حتى أعبدك، أنت بحق
حاكمة المخلوقات وسيدة الكون.
هكذا تحدث الأفعوان الماكر بروحه؛ وحواء
تزداد دهشة وإرباكاً فأجابت.
أيها الأفعوان، مبالغتك في المديح تشكك
في ميزة تلك الثمرة، وأنت أثبت ذلك أولاً:
ولكن قل، أين تنمو الشجرة، وكم تبعد من هنا؟
فكثيرة هي أشجار الله التي تنمو
في الفردوس، وهي مختلفة ومجهولة
لنا، ونحن نختار من هذه الوفرة،
كما نترك مخزوناً كبيراً من الثمار لا نقطفه،
فيبقى معلقاً لا يفسد، إلى أن يتكاثر البشر
لهذا الاحتياط والمزيد من الأيدي
تساعد الطبيعة على تخفيف عبء الولادة.
رد الأفعوان المحتال بمرح وسرور.

أيتها الإمبراطورة، الطريق جاهز، فلا تتأخري،
خلف صف من الآس، على المنبسط،
تمرّين بنبع، وبأجمة صغيرة
من أشجار المر والبلح المزهرة؛ فإن قبلت إرشادي،
فإني آخذك إلى هناك بسرعة.
قالت حواء، دلني. فدلها سريعاً
في التفافاته، وجعل المعقد يبدو مستقيماً،
مسرعاً إلى الأذى. تصاعد الأمل، والفرح
يشرق في عرفه، مثلما حين نار تائهة
تندمج مع بخار زيتي، يكثفه
الليل، وحولها جوّ بارد،
فيشتعل بالتحريض لهباً،
يقولون إن بعض الأرواح الشريرة تصاحبها
مرفرفة ومتقدة بضوء كاذب،
فتضل هائم الليل المحتار عن طريقه
إلى الأوساخ والمستنقعات، فيقع في بحيرة أو بركة،
فتبتلعه ويضيع، ولا منقذ.
هكذا توهج الأفعوان اللئيم، وبالخديعة

قاد حواء أمنا الساذجة، إلى الشجرة
المحرمة، أصل كل بلائنا؛
وعندما شاهدتها، تكلمت وقالت لدليلها.
أيها الأفعوان، ليتنا وفّـــرنا المجيء إلى هنا،
فهي بلا ثمر بالنسبة لي، مع أن الثمار مفرطة هنا،
وحساب ميزتها يقع عليك،
[٦٥٠] مدهشة حقاً، إذا أحدثت هذه التأثيرات.
ولكن يجب ألا نتذوق أو نلمس هذه الشجرة؛
هكذا أمرنا الله، وترك هذا الأمر كأنه
ابنة وحيدة لصوته؛ والباقي نعيشه
بحسب ناموس[١] لأنفسنا، فعقلنا قانوننا.
[٦٥٥] وعلى هذا رد الشيطان بمكر.
حقاً؟ هل قال الله من ثمر هذه الشجرة
من بين كل أشجار الجنة لا تأكلا،
مع أنكما كما أعلن تسودان الأرض والهواء؟
فردت حواء التي لا تزال بلا خطيئة. نأكل

(1) جاء في رسالة بولس إلى أهل رومية ٢: ١٤ «فهؤلاء إذ ليس لهم ناموس هم ناموس لأنفسهم».

من ثمار كل أشجار الجنة
ولكن من ثمر هذه الشجرة الجميلة وسط
الجنة، قال الله، لا تأكلا
منها ولا تلمساها، وإلا موتاً تموتان.
ما كادت تنطق، وأن باختصار، حتى صار
الشيطان أجرأ، وأبدى الغيرة والحب
للإنسان، مظهراً سخطه على هذا الخطأ،
فيضع لنفسه دوراً جديداً، كأنما تحركه عاطفة،
فيتلوى منزعجاً، وبوسامة ينهض
عاليا، كأن حدثاً جللاً على وشك أن يقع.
وكما عندما يقفز خطيب في
أثينا أو روما الحرة، يوم كانت البلاغة
مزدهرة، وصمتت منذئذ، ليطرح قضية عظيمة
يستجمع نفسه ويقف، بينما كل جزء
وكل حركة وكل فعل يجذب المستمعين قبل اللسان،
وأحياناً يبدأ من الأعلى، حتى لا يتأخر
لا يبدأ بالمقدمة نظراً لغيرته على الحق.
فيقف ويتحرك، أو يشرئب إلى أعلى

هكذا الشيطان بدأ محركاً العواطف.

أيتها النبتة المقدسة الحكيمة مانحة الحكمة،
أم المعرفة، الآن أشعر بقوتك
فيّ واضحة، ليس فقط لمعرفة
الأشياء في أسبابها، بل أيضاً لمتابعة طرق
العوامل العليا[1]، مهما بدت حكيمة.
يا ملكة هذا الكون، لا تصدقي
تلك التهديدات الصارمة بالموت؛ فلن تموتي:
كيف تموتين؟ بسبب الثمرة؟ إنها تمنحك الحياة
للمعرفة، عن طريق المهدد، أنظري إليّ،
فها أنا لمست وذقت، وكلانا حيّ[2]،
وأعيش حياة أكثر كمالاً مما يفرضه
القدر، وأحقق أعلى من نصيبي.
فهل هذا ممنوع على الإنسان، بينما للوحش

---

(1) ربما يقصد الشيطان بالعوامل العليا الله، فيكون غرضه إخضاع الله للمناقشة الفكرية وبذلك ينتقم لنفسه.

(2) المهدد هو الله. وقوله كلانا حي أي هو والله لا يزالان أحياء، بمعنى أن الذي هدد لا يستطيع شيئاً.

مسموح؟ أم أن الله يشتعل غضبه
بسبب هذا الخرق الصغير، ولا يمتدح
فضيلتكما الشجاعة، التي هددها بعذاب
الموت، مهما كان هذا الموت،
فلم تتراجعا عن تحقيق ما يمكن أن يؤدي
إلى الحياة السعيدة ومعرفة الخير والشر؛
الخير، من يحكم؟ الشر، إن كان ما هو شر
واقعاً، فلماذا لا يعرف، ما دام بسهولة نتجنبه؟
لذلك لا يستطيع الله أن يؤذيك، بل يكون عادلاً؛
إن لم يكن عادلاً، فلا إله ولا خوف ولا طاعة:
خوفك نفسه من الموت يزيل الخوف.
لماذا إذن حرّم هذه؟ لماذا إلا ليرعبكما،
لماذا إلا ليحتفظ بكما في الدرك الأسفل والجهالة،
كعباد له؛ إنه يعرف أنكما في اليوم
الذي تأكلان، سوف تبصر أعينكم أوضح،
إنها معتمة، وسوف تكتمل
وتنفتح وتتضح، وسوف تكونان مثل الآلهة،
تعرفان الخير والشر، كما يعرفون هم.

سوف تكونان إلهين، ما دمت أنا كإنسان،
كإنسان داخلياً، لست إلا بحسب النسبة،
فأنا إنسان حيواني، وأنتما ربان إنسانيان.
قد تموتان، بنزع البشري
وارتداء الإلهي، فالموت رغبة
وإن كنتما مهددين، فليس هناك أسوأ منه.
من هم الآلهة الذين يمكن للإنسان أن يصبح
مثلهم، يشاركهم الطعام الإلهي[1]؟
لقد خلق الآلهة أولاً، وهذه ميزة تستخدم
لإقناعنا أن كل شيء ينطلق منهم؛
وأنا أشك، لأن هذه الأرض الجميلة التي أراها،
تدفئها الشمس، وتنتج كل شيء،
فهم لا شيء: فإن كانوا هم كل شيء، فمَنْ حجز
معرفة الخير والشر في هذه الشجرة،
بحيث كل من يأكل منها يحصل
على الحكمة من دون إذنهم؟ وأين تكمن

(1) وهذا ما قاله رفائيل مشترطاً لذلك الطاعة فقط، في الكتاب الخامس ٤٩٦- ٥٠١.

الإساءة، في محاولة الإنسان أن يعرف؟
وأي أذى يصيبه من معرفتكما، أو صارت هذه
الشجرة المعرفة ضد إرادته إن كان كل شيء له؟
أم أنه الحسد، فهل يمكن أن يسكن الحسد
الصدور السماوية؟ هذه الأسباب وكثير غيرها
تستدعي حاجتكما لهذه الثمرة الجميلة.
أيتها الربة البشرية، مدي يداً وتذوقي بحرية.
انتهى من كلماته الممتلئة مكراً
وبسهولة وجدت مدخلاً إلى قلبها:
ركزت على الثمرة تحديقها، ويكفي النظر
وحده للإغراء، وفي أذنها الصوت
لا يزال يرن بكلماته المقنعة، وقد لقحت
بالعقل، عندها، وبالحقيقة؛
كانت ساعة الظهيرة تقترب، فأيقظت
رغبة جامحة، سببتها رائحة
الثمرة العذبة، التي برغبة،
تزايدت الآن لتدفعها إلى القطف والتذوق،
تأمرها عينها التواقة؛ ومع ذلك في أول الأمر

تريثت برهة، وهكذا قالت لنفسها.

[٧٤٥] عظيمة مزاياك، ولا شك، يا أعظم الثمار.

ومع ذلك حجبت عن الإنسان، وتستحقين الإعجاب

يا من مذاقك، الذي حرمنا منه طويلاً، منذ أول تجربة

منح الخطابة للأبكم، وعلم

اللسان غير الناطق أن ينطق بمديحك،

[٧٥٠] كما أن من حرم تعاطيك يمدح فيك،

ولا يخفى هذا عنا، مسمياً إياك شجرة

المعرفة، معرفة كل من الخير والشر؛

فمنعنا من التذوق، ولكن منعه

يطريك أكثر، بينما يدل على الخير

[٧٥٥] الذي تقدمين، وتلبين رغبتنا:

لأن الخير المجهول لا نملكه، أو إن

ملكناه، ومع أنه مجهول، فكأننا لا نملكه البتة.

وبلغة واضحة، كل ما حرمه علينا هو أن نعرف،

حرم علينا الخير وحرم علينا أن نكون حكماء؟

[٧٦٠] هذه التحريمات لا تقيدنا. ولكن إن كان الموت

يقيدنا بقيود بعد الحياة، فما الفائدة إذن

من حريتنا الداخلية؟ في اليوم الذي نأكل من
هذه الثمرة الجميلة، فإننا ندان، وسوف نموت.
كيف يموت الأفعوان؟ لقد أكل ولا يزال حياً،
ويعرف، وبتكلم، ويفكر ويفهم،
وحتى ذلك الوقت كان جاهلاً، أمن أجلنا فقط
اخترع الموت؟ أم يحرم علينا
هذا الطعام العقلي، لصالح الوحوش فقط؟
إنه للوحوش على ما يبدو: ومع ذلك فوحش واحد
تذوقها، لا يحسد، بل يأتي مع الفرح
وحل عليه الخير، وله سلطة ظاهرة،
صديق للإنسان، بعيد عن الخداع أو المكر.
فلماذا أخاف، أو بالأحرى ماذا أعرف عن الخوف
تحت هذه الجهالة بالخير والشر،
أو الله أو الموت، جهالة بالقانون أو العقاب؟
هنا تنمو لتعالج كل شيء، هذه الثمرة المقدسة
التي تسر النظر، وتدعو إلى تذوقها،
من ميزتها أنها تجعلك حكيماً: فما العائق إذن
من قطفها لتغذية كل من الجسد والعقل؟

قالت هذا ودفعت يدها في ساعة شر
لقطف الثمرة، فقطفت وأكلت:
شعرت الأرض بالجرح، والطبيعة من مكانها
تنهدت عبر كل أعمالها وقدمت علامات الكرب،
بأن كل شيء ضاع. وعوداً إلى الأجمة تسلل
الأفعوان الماكر، وبسرعة، لأن حواء
متجهة كلياً إلى تذوقها، لا تهتم بشيء
آخر، فلم تشعر بهذه المتعة من قبل، كما بدا،
في أي فاكهة تذوقتها، لا في الحقيقة
ولا في الخيال، عبر أملها بالمعرفة
العليا، ولم يغب التشبه بالله عن فكرها.
بشراهة التهمت بلا تحفظ،
ولم تعرف أنها تلتهم الموت: أخيراً شبعت،
وانتشت كأنها شربت خمراً، وبفرح ومرح،
هكذا بدأت مغتبطة تحدث نفسها.
أيتها الملكة الفاضلة الأروع من كل
أشجار الفردوس، مبارك عملك لإنتاج
المعرفة، فحتى الآن كنت غامضة وسيئة السمعة،

وثمارك الجميلة تتدلى، كأنها لم تخلق
لغاية؛ ولكن من الآن سوف أرعاك منذ الصباح،
ليس بلا أغنية، كل صباح، وتقديم التسبيح
إليك، وسأخفف من عبئك
على أغصانك المثقلة وأقدمه للجميع مجاناً؛
حتى أتغذى منك فأنمو ناضجة
في المعرفة مثل الآلهة الذين يعرفون كل شيء؛
مع أن الآخرين يحسدون ما لا يستطيعون تقديمه؛
فلو كانت الهبة منهم، لما كانت هنا
نمت هكذا. التجربة إليك مدينة بها،
فهي أفضل مرشد؛ فلو لم أتبعك، لبقيت
في جهالة، لقد فتحت طريق الحكمة،
ومنحت مدخلاً، مع أنها متوارية خفية.
قد أكون أنا خفية؛ فالسماء عالية،
عالية ونائية فلا تظهر من هناك مسافة
كل شيء على الأرض، وربما اهتمام آخر
قد يحول دون متابعة مراقبة
محرمنا العظيم، إلا مع جميع أنواعه

الذين حوله. ولكن بالنسبة إلى آدم بأي هيئة
سوف أظهر؟ هل أتركه يعرف
كل ما عراني من تغير، وأقدم له فيشاركني
كامل السعادة، أم لا،
ولكن لمَ لا احتفظ بفضيلة المعرفة وحدي
بلا شريك؟ وهكذا أضيف ما ينقص
الجنس الأنثوي، فأنتزع حبه أكثر،
وهذا يساعدني في مزيد من المساواة، وربما،
في شيء غير مرغوب، وهو نوع من
التفوق: وهل هناك متخلف يكون حراً؟
قد يكون هذا حسناً: ولكن ماذا لو أن الله رآني
وفرض الموت عليّ؟ فلن أكون موجودة بعد ذلك،
وسيزف آدم إلى حواء أخرى،
وسوف يعيش معها فرحاً، وأكون قد فنيت؛
الموت هو التفكير. قررت إذن أن أثبت،
وسوف يشاركني آدم في البركة أو الكربة:
وبمقدار ما أحبه، فإني سأحتمل الموت
معه، ومن دونه لا أعيش الحياة.

قالت هذا، وابتعدت عن الشجرة،
ولكن أولاً انحنت راكعة، كما لسلطة
تسكن في داخلها، ظهرت في اختلاطها
بالسائل الذي يهب المعرفة، مأخوذة
من النكتار، شراب الآلهة. وكان آدم أثناء ذلك
ينتظر متلهفاً، وكان قد نسج
من روائع الزهر إكليلاً ليزين به
ضفائرها، ويتوج أعمالها الريفية،
على عادة الحصادين في تكريم ملكة حصادهم.
انتظر فرحاً عظيماً لأفكاره، وعزاء جديداً
في عودتها، وقد تأخرت كثيراً؛
ومع ذلك فإن قلبه، المتنبئ بشيء ما سيئ،
يعكر صفوه، فشعر أنه يتصدع؛
وحتى يلاقيها ذهب، في الطريق الذي سارت
فيه صباحاً عندما انفصلا؛ قرب شجرة
المعرفة لا بد أن تمرّ، وهناك التقاها،
وكانت للحظتها تغادر الشجرة، وفي يدها
أغصان من أجمل شجرة يفوح زغبها،

جمعتها حديثاً، ومنها فاحت الرائحة الأمبروزية[1].
إليه أسرعت، وفي وجهها اعتذار
عن تأخرها الطويل، اعتذار يحثها،
ويمدها بالكلمات التي سوف تدلي بها إليه.
ألم تدهش، يا آدم، لتأخري؟
اشتقت إليك، وفكرت أني تأخرت، محرومة
من حضورك، إنه ألم الحب الذي حتى الآن
لم أشعر به، ولن يتكرر ثانية، لأنني أبداً
لن أحاوله، هذا التهور بلا تجربة، فأتحمل
ألم الغياب عن بصرك. ولكن غريباً
كان السبب، ويدهشك أن تسمعه:
هذه الشجرة ليست كما خبرونا عنها، شجرة
ذات مذاق خطر، ولا تفتح طريقاً أمام
شرّ مجهول، وإنما ذات تأثير إلهي
تفتح العيون، وتجعل مَنْ يتذوقها آلهة؛
وقد ثبت هذا المذاق: فالأفعوان الحكيم

---

(1) النكتار والأمبروز طعام الآلهة وشرابها.

إما لأنه لم يكبح نفسه كما نفعل، أو لأنه عصى،
أكل من الثمرة، فتحولت حاله،
لم يمت، ، كما هددنا، بل منذ ذلك الحين
وهِب صوتاً بشرياً وكذلك إحساساً بشرياً،
والعقلانية المدهشة، وبالنسبة إليّ
سيطرت عليّ قناعة بأن عليّ
أيضاً أن أذوقها، وقد لمست أيضاً
تأثيرها مطابقاً لما وصف ففتح عينيّ اللتين
كانتا معتمتين، وزادت معنوياتي، ووسعت قلبي،
واقتربت من الإلوهية؛ فعنك بحثت
في الدرجة الأولى، فبدونك لا يوجد سوى الازدراء.
والبركة عندي، حالما انفصلت، هي بركة
تافهة إن لم تشارك فيها، وتصبح قبيحة بسرعة،
لذلك تذوقها أيضاً، فالحصة المتساوية
قد تجمعنا، فنتساوى في الفرح، كما في الحب؛
وإن لم تتذوقها فالدرجة المختلفة
تفرقنا، وعندها أتخلى أخيراً عن
الإلوهية من أجلك، والقدر لن يسمح بذلك.

هكذا بسيماء الفرح روت حواء قصتها؛
ولكن في خدها توهجَ اعتلال.
والطرف الآخر، آدم، حالما سمع باقتراف
حواء للخرق المميت عجب، ووقف
مندهشاً وخاوياً، بينما سرت رعدة الرعب
عبر عروقه، وارتخت كل مفاصله؛
وإكليل الغار لحواء من يده الواهنة
سقط، ووقعت كل الورود الشاحبة:
وقف شاحباً لا ينطق بكلمة، إلى أن أخيراً
كسر صمته الداخلي أولاً.

يا أجمل الخلق وآخره وأفضل عمل
من بين كل أعمال الله، يا مخلوقاً تفوقين
كل ما يقع عليه النظر أو يفكر فيه العقل،
من إلهي أو مقدس أو خير أو صداقة أو جمال!
كيف ضعت، كيف ضعت هذا الضياع المفاجئ،
فتشوّهت وفضت بكارتك والآن للموت كُرّسْتِ؟
بل كيف استسلمت لانتهاك
التحريم الصارم، وكيف خرقت

التحريم المقدس للثمرة! هناك خدعة لعينة
من عدوّ أوقعك فيها، لا أعرفه،
وأنا وأنت دُمّرنا، لأني معك
تأكد قراري أن أموت؛
فكيف أعيش من دونك، وكيف أمتنع
عن الحديث العذب والحب الحلو معاً،
وأعيش مرة أخرى في الغابات البرية مهجوراً؟
ولو خلق الله حواء أخرى، وأنا
قدمت ضلعاً آخر، فإن خسارتك
لن تغادر قلبي؛ لا أبداً، أشعر
برابط الطبيعة يشدني: يشد الجسد إلى الجسد،
والعظم إلى عظمي الذي هو أنت، ومن حالتك
لن تنفصل حالتي أبداً، إما البركة أو الكربة.
قال هذا لنفسه، مثل مَن مِن الرعب
الحزين يتعزى، وبعد أفكار مشوشة
يسلم أنها تبدو بلا علاج، وجّه
بمزاجه الهادئ كلماته ملتفتاً إلى حواء.
لقد فعلت عملاً جريئاً، يا حواء المغامرة

وخطراً عظيماً أثرْتِ، يا من تجرأت
ولو لاشتهاء العين فقط
على تلك الثمرة المقدسة، مقدسة للتعفف،
فذقتها مع أن لمسها محرم علينا.
لكن من يسترجع الماضي، أو يفعل ما لم يفعل؟
لا الله الكلي القدرة، ولا القدر، ومع ذلك
ربما أنت لا تموتين، ربما العمل
لا يكون شائناً الآن، فالثمرة سبق تذوقها،
فقد دنست أولاً من قبل الأفعوان، هو أولاً
أشاع ذلك وأبطل القداسة قبل تذوقنا؛
وليست مميتة فلم يمت؛ لا يزال حياً،
فهو حي كما قلت، وارتقى إلى أن يعيش كإنسان
درجة أعلى من الحياة، وهذا تشجيع قوي
لنا، فنتذوقها مثله ونحصل
على ارتقاء نسبي، لا يمكن أن يكون
إلا أن نكون آلهة، أو ملائكة، أنصاف آلهة.
لا أستطيع التفكير أن الله، الخالق الحكيم،
وإن هددنا، سيحرص على تدميرنا

نحن المخلوقات الأولى، فأكرمنا جداً
وسلطنا على كل مخلوقاته، التي بسقوطنا،
وهي التي من أجلنا خلقت، لا بد أن تسقط معنا،
فهي مخلوقات تابعة؛ وهكذا سوف يزيل الخلق،
ولكنه يحبط، يفعل، ولا يفعل، فيتفكك العمل،
إن الله لا يقتنع بذلك، ومع أن قوته
على الخلق يمكن أن تكرر الخلق، فإنه يمقت
القضاء علينا، وإلا فإن الشيطان
ينتصر ويقول؛ تحولت حالتكما يا من يفضلهما
الله، فلا أحد يمكن أن يرضيه طويلاً؛ لقد
دمرني أولاً، والآن البشرية، فمن التالي؟
قضية سخيفة، لا يقدم عليها حتى الخصم،
على أي حال أنا وأنت في نصيب واحد،
قررت أن ألقى المصير نفسه، فإن رافقك
الموت، فإن الموت بالنسبة إليّ كالحياة؛
إني أشعر بقوة في قلبي
برابط الطبيعة يشدني إلى ما يخصني،
ما يخصني فيك، فما هو فيك هو لي؛

لا يمكن لحالتنا أن تنفصل، فنحن واحد
جسد واحد؛ ففقدانك فقدان نفسين.
هكذا تكلم آدم وهكذا أجابته حواء.
أي اختبار مجيد للحب الفائق،
برهان ساطع، مثال رفيع!
إنه يدعوني للمحاكاة، ولكن أنا أقل
من كمالك، فكيف أصله،
يا آدم، وافتخاري أنني من جنبك العزيز انبثقت،
وبسرور أسمعك تتحدث عن اتحادنا،
قلب واحد ونفس واحدة في كلينا؛ برهاناً طيباً
قدمت في هذا اليوم وهو إعلانك عن تصميمك
أن الموت أو ما هو أقوى من الموت رعباً
لن يفصلنا، فقد ربطنا الحب العزيز،
فتخضع معي لذنب واحد، لجريمة واحدة،
إن كان تذوق هذه الثمرة الجميلة جريمة،
التي بفضلها، لأن الفضل يصدر من أصحابه،
مباشرة أو مصادفة أظهر
هذا الاختبار السعيد لحبك، ولولاها

لما عرف هذا الحب بهذا الوضوح.
لو فكرت أن الموت المهدد سيكون نتيجة
تجربتي، لكنت قاسيت وحدي
هذا السوء، ولما كنت أقنعتك، فالموت
وحدي، أفضل من توريطك في جريمة
تقضي على سلامك، وعلى الأخص أني
تأكدت مؤخراً بوضوح من حبك الحقيقي والعميق،
الذي لا مثيل له؛ ولكني أشعر بناحية أخرى مختلفة
للحادث، ليس الموت، بل الحياة التي اتسعت، وفتحت
العيون والآمال والأفراح الجديدة،
إن التذوق إلهي، فقد كان عذباً قبل
أن يلامس إحساسي، وخافتاً ولاذعاً يبدو عند هذا.
وعلى تجربتي يا آدم تذوق بحرية،
والخوف من الموت سلمه للرياح.
قالت هذا وعانقته، ومن الفرح
بكت بكاء لطيفاً، وربحت ربحاً كبيراً أن حبه
بلغ من النبل أنه اختار أن يجلب
الغضب الإلهي من أجلها، أو الموت.

ومكافأة (لأن مثل هذا الإذعان الكريه
يستحق مثل هذه المكافأة) من الغصن
قدمت له تلك الثمرة المغرية الجميلة
بيد سخية: فلم يتردد في أكلها
ضد معرفته الجيدة، فلم يخدع
بل لولعه تغلب عليه سحرُ الأنثى.
ارتجت الأرض حتى أحشائها، كما لو عادت
الآلام، وأصدرت الطبيعة صرخة ثانية،
وتدنت السماء، وغمغم الرعد، وبعض قطرات حزينة
بكت حزناً على الخطيئة المميتة
الأصلية؛ في حين لم يفكر آدم،
فأكل ملء فمه، ولم تكف حواء أن تردد
خوفها من خرقها السابق، حتى تهدئه
بحبها المتضامن، فكأنهما
سكرا بخمرة جديدة
فسبحا في الغبطة، وبالخيال شعرا
أن القدسية داخلهما أخرجت أجنحة
بها احتقرا الأرض: ولكن الثمرة الزائفة

تبرز تأثيرها الأول
على شكل رغبة شهوانية ملتهبة، فبدأ آدم
ينظر إلى حواء بعينين فاسقتين، وتنظر هي إليه
بردٍ شهوانـي؛ وفي الشهوة احترقا:
إلى أن راح آدم يستدرج حواء إلى حركة مداعبة،
الآن يا حواء أرى أنك دقيقة الذوق،
أنيقته، ومن الحكمة حصتك غير قليلة،
ما دمنا لكل معنى نطبق نكهة،
ونسمي التذوق حكمة؛ فإني أرفع إليك
المديح، فاليوم زودتنا جيداً.
متعة كبيرة أضعناها، عندما منعنا
من هذه الثمرة البهيجة، فلم نعرف حتى الآن
المتعة والتذوق الحقيقي؛ ولو مثل هذه المتعة
كانت في الأشياء المحرمة علينا، فنتمنى
لو أن هذه الشجرة الواحدة المحرمة كانت عشراً.
لكن هلمي، فقد انتعشنا، والآن هيا لنلعب،
كما يكون اللقاء، بعد هذا الطعام اللذيذ؛
فجمالك لم يكن أبداً منذ اليوم

الذي رأيتك أول مرة وتزوجتك، مزيناً
بكل هذا الكمال، فألهبت إحساسي
بالحماسة حتى أمتعك، وأنت الآن أجمل
من أي وقت، وجمالك من هذه الشجرة الفاضلة.
قال هذا ولم يدخر نظرة أو عبثاً
من النية العشقية، ففهمتها
حواء، التي رمته عينها بنار معدية.
أمسك يدها، وإلى الرصيف الظليل
الكثيف المغطى بسقف أخضر معرش
قادها دون امتعاض؛ الفراش كان زهراً
من البنفسج والزنبق والريحان،
والهايسنت، وأنعم وأطرى ما في الأرض.
اكتظا هناك من الحب ومن عبث الحب
أخذا الكثير، وختما ذنبهما المتبادل،
تعزية عن خطيئتهما، إلى أن أيقظهما
ندى النوم، متعبين من لعبهما العشقي.
وبسرعة كما لو من قوة تلك الثمرة الوهمية،
التي ببخار منعش لذيذ نسج

حول روحيهما، وبقوة عميقة
اقترفا الخطأ، قد تبخر، والنوم الفظيع الذي
ينتجه دخان غير طبيعي، بأحلام الخطيئة
معاق، قد تركهما الآن، فنهضا
كما لو نهضا من إزعاج، ونظر كل في الآخر،
وبسرعة وجدا عيونهما مفتحة، وعقليهما
معتمين؛ البراءة، التي كانت حجاباً
يعتم على معرفتهما الشر، قد ولت،
ومعها الثقة الصادقة والاستقامة الأصيلة
والشرف من حولهما، فتركا عاريين
للإثم والعار فراح يغطي، ولكن ثوبه
كشف العورات أكثر، وهكذا نهض الداني[1] القوي
شمشون الهرقلي من بيت المومس
دليلة الفلسطينية، واستفاق مجرداً
من قوته، حرما وجردا
من كل فضيلة: صامتين، وكل في وجه
الآخر جلس طويلاً مرتبكاً كأنهما أصمّان، إلى أن

(1) نسبة إلى قبيلة دان العبرية.

قال آدم، مع أنه ليس أقل من حواء خجلاً،
ونطق بهذه الكلمات بلا تكلف.
يا حواء، في ساعة شر قدمت أذنك
إلى ذلك الأفعوان المزيف، ومِنْ أحدهم تعلّـــم
تقليدَ صوتِ البشر، فتسبب حقاً في سقوطنا،
وكذب في وعدنا بالارتقاء؛ فمنذ أن فتحنا
عيوننا نجد فعلاً، أننا نعرف
كلاً من الخير والشر، ضاع الخير، وبقي الشر،
إنها ثمرة المعرفة السيئة، فإن كان هذا ما نعرفه،
وهو ما يتركنا عاريين هكذا، خاليين من الشرف،
ومن البراءة، ومن الإيمان، ومن النقاء،
وهي زينتنا المعتادة، التي الآن لطخت واتسخت
وفي وجهينا برهان علامات من
الاشتهاء المنحط؛ حيث مخزن الشر؛
وحتى الخجل، وهو آخر الشرور؛ ومن الشر الأول
تأكدنا إذن... فكيف أتطلع منذ الآن في
وجه الله أو الملاك، وأستمع بفرح
وغبطة وأنا أتطلع؟ هذه الأشكال السماوية

سوف تذهل الآن بصري الأرضي، بتوهجها
بنور مؤلم. فهل أعيش هنا في
عزلة حياة وحشية، في فسحة الغابة
المخفية، حيث ترتفع غابات لا يخترقها
نجم أو نور شمس، فتفرش ظلها عريضاً،
فيعتم مثل المساء: فغطيني يا صنوبر،
وأنت يا أرز، بأغصان لا حصر لها
خبئني، حيث لا أرى تلك الأشكال السماوية.
ولكن دعينا الآن، في هذه الورطة السيئة، نبتكر
ما يخدمنا حالياً في إخفاء
أعضاء الواحد عن الآخر، فهذا يبدو
شنيعاً ويظهر ما يجب أن يخفى، فلنجمع من
بعض الشجر الأوراق العريضة الناعمة
ونحزم بها أردافنا فقد تلف وتغطي
تلك الأجزاء الوسطى، فلا يجلس القادم الجديد،
الخجِل، ويوبخنا على قذارتنا.
هكذا أشار، وكلاهما ذهبا
إلى الغابة الكثيفة، وهناك اختارا بسرعة

شجرة تين، ليست من النوع المشهور بالثمر،
بل من النوع الذي يسمى في هذه الأيام تين البنغال
المشهور في مالابار أو ديكان فأغصانها
تمتد عريضة وطويلة، حتى أنها إلى الأرض تحني
[١١٠٥] فروعها فتضرب جذراً، فتنمو بنات لها
حول الشجرة الأم، وظل ممتد



ليس دموعاً فقط
هطلت من عيونهما، وإنما في داخلهما رياح عاتية
بدأت تهب (٩: ١١٢١...)

يعلو كثيراً، ويلعب الصدى بينها؛
وإلى هناك من وهج الحرارة يأوي الراعي الهندي
ملتجئاً إلى البرودة، ويراقب قطعانه التي ترعى في الفجوات
المقتطعة في الظل الكثيف: تلك الأوراق
جمعاها، عريضة مثل درع أمازوني،
وبالمهارة التي يملكون، خاطاها معاً،
لتحزم خصريهما، إنها لا تغطي شيئاً إذا كان
المقصود تخبئة ذنبهما وعارهما الرهيب؛ إنه لا يشبه
عريهما الأول المجيد. وهذا مؤخراً
وجده كولمبوس عند الهندي فيغطي
وسطه بنطاق ريش، تاركاً الباقي عارياً وبرياً
يعيش بين الأشجار على الجزر أو الشواطئ الحرجية.
هكذا تسيجا، واعتقدا، أن عارهما غطي في قسم منه
ولكن لم يسترح أو يهدأ العقل،
فقد جلسا أرضاً يبكيان، ليس دموعاً فقط
هطلت من عيونهما، وإنما في داخلهما رياح عاتية
بدأت تهب، بانفعال شديد وغضب وكراهية،
وعدم ثقة وارتياب وشقاق وألم يهز حالة عقليهما

الداخلية، وهو إقليم كان هادئاً من قبل
ومفعماً بالسلام، والآن يلتهب ويهتاج:
فلم يعد الإدراك يتحكم، والإرادة
لا تصغي للخبرة، كلاهما يخضعان الآن
للشهوة الحسية، التي على تدنيها
اغتصبت العقل الحاكم معلنة
أنها السلطة الأعلى: من هذا الصدر الضعيف،
حديث آدم، الغريب المظهر والمتغير
الأسلوب، تقطع وهو يجدد كلامه لحواء.
ليتك سمعت كلماتي وبقيت معي،
كما توسلت إليك، حين تلك الرغبة
الغريبة اجتاحت هذا الصباح البائس،
لا أدري متى اجتاحتك؛ كنا بقينا وقتها
سعداء، وليس كما الآن، فقد سلب منا
كل خير، فخجلنا وعرينا وابتأسنا.
يجب ألا يبحث أحد عن سبب نافل لإثبات
الإيمان الذي يملكونه؛ وعندما يحرصون على بحث
هذا البرهان، والاستنتاج، فإنهم يفشلون.

بسرعة وقد حركت حواء تهمة العار تدحرجت
الكلمات على شفتيها، يا آدم القاسي
عزوت ذلك إلى تقصيري، أو
تجوالي، كما تسميه أنت، فمن يدري
فقد يقع الشر وأنت بالقرب مني،
أو ربما يقع لك نفسك: لو كنت هناك،
أو كانت التجربة هنا، فلن تستطيع التقاط
الخدعة في الأفعوان، وقد تكلم ما تكلم؛
وأساس العداء بيننا مجهول، لماذا هو
يريد أن يجعلني خاطئة، أو يسعى إلى الأذى.
فهل علي ألا أنفصل عنك؟
فالخير النامي لا يزال هناك ضلعاً بلا حياة.
وجوده كوجودي، فلماذا وأنت الرأس لم
تأمرني جازماً ألا أذهب،
أذهب إلى خطر كما تقول؟
متساهلاً جداً كنت وقتها فلم تخالف،
كلا، بل سمحت واستحسنت، وأذنت بالانصراف.
لو كنت مصراً وتشبثت برفضك،

لما اقترفت ولما اقترفت معي خطيئة.
ولأول مرة يرد آدم عليها غاضباً
أهذا هو الحب، أهذه هي المكافأة
لي منك، يا حواء الجاحدة، عبرت
عن الثبات عندما ضعت، ولست أنا،
الذي كان في قدرته أن يعيش ويتمتع بالبركة الخالدة،
ومع ذلك بكل إرادته اختار أن يموت معك:
فهل ألام الآن، كسبب
للاقتراف؟ لم أكن صارماً بما يكفي، على ما
يبدو، في كبحك: وماذا أستطيع أكثر؟
حذرتك، نصحتك، تنبأت لك
بالخطر، وبالعدو الكامن
الذي يكمن منتظراً؛ فلم يبق سوى العنف بعد هذا،
العنف على الإرادة الحرة التي لا مكان لها هنا.
ولكن الثقة حملتك قدماً، ضامنة
أنك لن تواجهي خطراً؛ وربما
أنا أيضاً بالغت في الإعجاب جداً
بما بدا فيك من كمال، حتى أني اعتقدت

أنه لا شر يجرؤ فيجرب معك، ولكني الآن
نادم على هذا الخطأ، الذي صار جريمتي،
وأنتِ المتّهمِ. وهكذا سوف يقع لمَنْ
يثق في النساء ثقة مفرطة
فيسمح لإرادتها بالتحكم؛ بلا قيد،
ويسلمها نفسه، فإن نتج شر عندئذ،
فسوف تتهم أولاً تسمحه الضعيف.
وهكذا في الاتهامات المتبادلة
أمضيا ساعات بلا جدوى، ولكن لم يدن أحد
نفسه، وبدا أن نزاعهما بلا نهاية.

* * *

الكتاب العاشر

الخلاصة:

يعرف حراس الفردوس من الملائكة بهذه الخطيئة، فيصعدون إلى السماء لإثبات يقظتهم، ويقبل ذلك منهم، ويعلن الله أنهم لا يستطيعون منع دخول الشيطان. يرسل ابنه ليحكم على الخاطئين، فيهبط ويصدر الحكم المناسب؛ ثم يشفق عليهما فيلبسهما الثياب، ويعود إلى السماء. حتى ذلك الوقت كانت الخطيئة والموت جالسين فقط عند بوابة الجحيم، ينظران بحماسة إلى نجاح الشيطان في هذا العالم الجديد(١)، وقد ارتكب الإنسان الخطيئة، فقررا ألا يجلسا أطول من ذلك متقيدين بقواعد الجحيم، بل يتبعان الشيطان سيدهما إلى الأعلى إلى مكان إقامة الإنسان: حتى يجعلا الطريق أسهل من الجحيم إلى هذا العالم وبالعكس، أقاما طريقاً سريعاً عريضاً أو

---

(1) يطلق ملتون «العالم الجديد» على ما اكتشفه الشيطان خارج مملكته، في مسعى لضمه إلى مملكة الخطيئة والموت، واستخدام «العالم الجديد، تعريض نقدي لمكتشفي العالم الجديد من أمثال كولمبوس بأنهم يلحقون العالم المكتشف البريء بعالم الخطيئة والموت.

جسراً فوق الكاوس، بحسب المجاز الذي وضعه الشيطان أول مرة؛ ثم استعدا للذهاب إلى الأرض، فالتقيا به مزهواً بنجاحه في طريق عودته إلى الجحيم؛ فتبادلا التحية. ثم يصل الشيطان إلى البانديمون، وفي اجتماع عام يسرد بافتخار نجاحه ضد الإنسان؛ وبدلاً من التصفيق يسمع فحيحاً عاماً من كل المجتمعين، وقد تحولوا كلهم معه فجأة إلى أفاع، بحسب الحكم عليه في الفردوس؛ ثم يخدعون بمنظر الشجرة المحرمة تنبثق أمامهم، فيمدون بشراهة أيديهم إليها لقطف ثمارها، فلا يظهر سوى الغبار والرماد اللاذع. فانطلقت الخطيئة والموت؛ ويتنبأ الله بالنصر الأخير لابنه عليهما، وتجديد كل الأشياء؛ ولكنه أصدر أوامر فورية لملائكته بأن يجروا عدة تغييرات في السموات والعناصر. آدم يدرك أكثر فأكثر حالة سقوطه الثقيل فيندب ويرفض العزاء من حواء؛ ولكنها تستمر إلى أن تهدئه أخيراً: ثم حتى تمحو اللعنة التي حلت على ذريتهما تقترح على آدم طرقاً عنيفة[1] لا يستحسنها، ولكن يؤمن بالأمل، ويذكرها بالوعد الذي أعطي لهما بأن ذريتهما ستنتقم من الأفعوان، وينصحها بالبحث معه عن المصالحة مع الله؛ بالتوبة والضراعة.

* * *

---

(1) المقصود بالطرق العنيفة «الانتحار» فهو طريقة سريعة جداً للخلاص من الخطيئة، ويرفض آدم حتى لا يكون الانتحار تقليداً تسير عليه الذرية.

أثناء ذلك، الفعل الشائن والشنيع
الذي فعله الشيطان في الفردوس، وكيف،
على شكل أفعوان، أغوى حواء،
وهي أغوت زوجها، لتذوق الثمرة المميتة،
انتشر في السماء، فمن يهرب من عين
الله التي ترى الجميع، أو يخدع قلبه
العليم، الذي هو عادل وحكيم في كل الأشياء،
فلم يمنع الشيطان من امتحانه لعقل
الإنسان، المسلح بقوة لا حد لها، وإرادة حرة،
القادر على الاكتشاف والرفض
مهما كانت أحابيل العدو، أو من يبدو صديقاً.
لا يزالان يعرفان، ويجب أن يتذكرا
الوصية العليا بألا يذوقا الثمرة،
مهما كانت الغواية؛ فلم يطيعا، فحلّ
عليهما العقاب الذي يمكن أن يتجنباه،
وتضاعفت خطيئتهما، وحقّ السقوط عليهما.
إلى السماء من الفردوس بسرعة
صعد الحرَس الملائكي، صامتين وحزانى

على الإنسان، لحالته في ذلك الوقت الذي عرفاه،
فدهشوا كيف تسلل العدو الذكي
من مدخل غير مرئي. وبسرعة وصلت الأخبار
البغيضة من الأرض إلى بوابة السماء، فاستاء
كل من سمع، ولم يوفر الحزن القاتم في
ذلك الوقت الوجوه السماوية، وقد امتزج
بالشفقة، من دون أن تخرق بركتهم.
وحول الواصلين الجدد، بحشود غفيرة
هرع الملائكة، ليسمعوا ويعرفوا
كيف حصل هذا: ونحو العرش الأعلى
قدموا حسابهم بسرعة حتى يظهر
صدق الادعاء، ومدى يقظتهم،
فدافعوا عن أنفسهم بسهولة؛ بينما الأب
الأبدي الأعلى من غيمته السرية،
وسط الرعد أطلق صوته.
أيها الملائكة المجتمعون، أيها القوات العائدون
من مهمتكم الفاشلة، لا تخافوا،
ولا تنزعجوا من هذه الأنباء القادمة من الأرض،

فعنايتكم الحريصة لن تمنع ما حدث،
ولن تتنبأ بما سوف يقع فيما بعد،
حين يحدث الإغواء الأول القادم من خليج الجحيم.
أخبرتكم عندها أنه سوف يسود وينجح
في مهمته الشريرة، وينساق الإنسان للغواية
ويطريه الجميع فيصدق الأكاذيب
على صانعه؛ فلم يصدر قرار مني
متزامن مع حتمية سقوطه،
أو يمس ولو بأخف وزن كفة
إرادته الحرة، التي تركت لنزوعها
في ميزان متساو. ولكنه سقط، والآن
لم يبق سوى إصدار حكم الموت
عل خرقه فيعلن الموت في ذلك اليوم
الذي افترض أنه عبث ولا وجود له[1]،
لأنه لم يسدد، كما كان يخاف،
بضربة مباشرة؛ ولكن سريعاً سوف يجد

(1) عندما اقترف آدم الخطيئة ولم يمت ظن أن الموت لا وجود له، وما هو سوى عبث.

أن الإحجام ليس تبرئة قبل نهاية اليوم.
والعدالة لن تنتج من ازدراء النعمة.
ولكن من أرسل حتى يحاكمهم؟ من سواك
أيها الابن الوكيل، فإليك نقلت
كل حكم سواء في السماء أو الأرض أو الجحيم.
قد يكون سهلاً أنني نويت
جمع الرحمة بالعدالة، وأرسلك
صديقاً للإنسان ووسيطه، والمعد له
كلا من الفدية والفادي من تلقاء نفسك،
وقررت أن يحكم الإنسان نفسه على سقوط الإنسان.
هكذا تكلم الأب، وأفرد الإشراق
نحو المجد الذي على يمينه، على الابن
فتجلت الإلوهية بكاملها؛ فهو يمثل تماماً
كل ما يعبر عنه تجلي أبيه،
وهكذا بإلوهية أجاب.
أيها الأب الأبدي، إليك القرار
وأنا في السماء والأرض أعمل مشيئتك
العليا، فأنت فيّ أنا ابنك الحبيب

الذي به سررت. أذهب لأحكم
على الأرض على تلك الخروق، ولكنك تعرف
مهما كان القاضي، سأتحمل الأسوأ الذي يقع عليّ،
حين يستحقّ الوعد، لأني بهذا تعهدت
أمامك؛ ولست نادماً، لأن هذا بالحق
أحصل عليه، فأنا قد أخفف مصيرهم
بتجسدي ومع ذلك سوف أتقوى
بالعدل مع الرحمة، حتى يتضح
أنهما تحققا بالكامل، وأنك هدأت.
لا حاجة إلى حاشية، ولا طاقم،حيث لا أحد
يظهر في المحاكمة، سوى المحكوم،
هؤلاء الاثنان[1] فقط؛ الثالث[2] يدان غيابياً،
مدان لفراره، وتمرده على كل قانون،
أما الأفعوان فغير مدان.
قال هذا ناهضاً من مجلسه المشع
من المجد العالي المباشر؛ ومعه أصحاب العروش

---

(1) آدم وحواء.
(2) الثالث هو الشيطان.

والقوات والأمراء وأصحاب السيادة والوزراء
رافقوه حتى بوابة السماء، ومن هناك
ظهرت عدن وكل الشاطئ المتوقع للمجيء.
[٩٠] بسرعة هبط إلى الأسفل؛ وسرعة الآلهة
لا تحسب بالزمن، مع أنها تقاس بالدقائق الزمنية.
الآن كانت الشمس تنحدر في الأفق الغربي
من الظهيرة، وبلطف هبّ الهواء في تلك الساعة
يُمَرْوِح على الأرض الآن، ودخل في



ومنه واريا نفسيهما بين الأشجار الكثيفة (١٠: ١٠٠...)

بروودة المساء، حين برد غضبه أكثر
فحضر القاضي اللطيف والشفيع معاً
ليحكم على الإنسان: فسمعا صوت الله[١]
الآن يمشي في الجنة، عن طريق أنسام ناعمة
وصلت إلى أذنيهما، بينما يميل النهار، فسمعا،
ومنه واريا نفسيهما
بين الأشجار الكثيفة، الإنسان وزوجته، إلى أن
اقترب الله وصاح بآدم بصوت عال.
آدم أين أنت، اعتدت بالفرح
تستقبلني حالما تراني من بعيد؟ اشتقت لك،
لست مسروراً، هكذا تتسلى بعزلتك،
حيث من قبل قمت بواجبك من دون أمْر:
أم تراني جئت متخفياً، أم أن تغيراً
واراك، أم المصادفة احتجزتك؟ اخرج.
خرج ومعه حواؤه، أشد اشمئزازاً، مع أنها
أول من أذنب، ساخطين متوانيين؛

---

(1) استخدام الوكيل مكان الأصيل بعد أن تم الاتفاق بين الأب والابن على الحكم في السماء والأرض والجحيم.

ليس في معالمهما حب، لا لله
ولا أحدهما للآخر، لكن الذنب ظاهر،
والعار، والاضطراب واليأس،
والغضب والمكابرة والكراهية والإثم.
بعد أن طال تردد آدم كان جوابه مختصراً.
سمعتك في الجنة ومن صوتك
خفت، فكنت عارياً، فخبأت نفسي. وعلى هذا
أجاب القاضي الكريم من دون عتاب.
طالما سمعت صوتي، ولم تخف
وكنت تفرح، فكيف صار صوتي الآن
مخيفاً لك؟ أنت عارٍ، فمن
تراه أخبرك بعريك؟ هل أكلت من الشجرة
التي قلت لك ألا تأكل منها؟
ورد آدم على هذا وقد أحاط به الألم.
يا للسماء! ضيّقٌ في الشر هذا اليوم الذي أقف
فيه أمام من يقاضيني، إما لأتحمل
وحدي كل الجريمة، أو لأتهم
نفسي الأخرى، شريكة حياتي؛

التي سقطت، ولم يبقَ سوى إخلاصها لي،
عليّ الإخفاء، حتى لا تلام
بسبب اتهامي؛ لكن الضرورة القصوى
تجبرني، والردع الفاجع
على رأسي يثقله بالخطيئة والعقاب،
ومهما كان غير محتمل، فليتحول
كله إليّ؛ مع أنه علي الاحتفاظ بهدوئي، وأنت
لا بد أن تتحرى بسهولة ما أخفيه.
هذه المرأة التي صنعتها حتى تساعدني،
وقدمتها لي كهدية مكتملة، وكانت طيبة،
مناسبة، مطواعة، ومقدسة إلى درجة
أني لا اشك بشر يأتيني من يدها،
وما فعلته، مهما كان في نفسه،
بدا لي فعلاً مبرراً؛
أعطتني التفاحة وأنا أكلتها.
وعلى هذا رد الحضور الحاكم هكذا.
هل كانت إلهك، حتى تطيعها
قبل أن تسمع صوته، أو هل جعلت نفسها مرشدتك،

حاكمتك، أو مساوية لك، حتى أنك إليها
تخليت عن رجولتك، وعن المكان
الذي أجلسك الله فيه فوقها، وهي التي صنعت منك،
ومن أجلك، أنت الذي تفوقها كمالاً
في كل ما هو مكرم حقاً: كانت مزينة
فعلاً، وجميلة تجذب إليها حبك،
وليس خضوعك، ومواهبها تظهر
جيدة في حال كانت محكومة،
سيئة في حال كانت حاكمة، فهذا دورك[1]
وشخصيتك، لو عرفت نفسك جيداً.

بعد أن قال هذا نظر إلى حواء:

قولي يا امرأة، ما هذا الذي فعلت؟
وبخجل سيطر عليها قالت حواء الحزينة،
وقد اعترفت بسرعة، ولكن لم تبد أمام قاضيها
شجاعة أو ثرثرة، وهكذا أجابت خجولة.

خدعني الأفعوان فأكلت.

---

(1) الدور والشخصية كمفهوم مسرحي، كأنما هي إشارة إلى الفن الذي يجب أن تعالج به ليجندة آدم.

وعندما سمع السيد الرب هذا، بسرعة
أطلق الحكم على الأفعوان
المتهم مع أنه بهيمة، عاجز أن ينقل
الذنب إلى من جعله أداة
للأذى، ونجساً حتى نهاية
خليقته؛ بحق عندها يـلُعن،
كمفسد في الطبيعة: والمزيد من المعرفة
ليس للإنسان (ما دام لا يعرف كثيراً)
فلا تغيّر عدوانه؛ ومع ذلك فإن الله أخيراً
يطبق حكمه على الشيطان أولاً في الخطيئة
وإن بكلمات غامضة، فيحكم وقتها بصورة أفضل:
وعلى الأفعوان حلت لعنته.
لأنك فعلت هذا، فأنت ملعون[1]
فوق كل الحيوانات، وكل وحوش الحقل؛
زحفاً على بطنك تزحف،
ومن تراب الأرض تأكل كل أيام حياتك.

---

(1) لا يزال ملتون يعامل الحية معاملة المذكر، مع أنها تعامل معاملة المؤنث في الكتاب المقدس.

بينك وبين المرأة أضع
عداوة، وبينك وبين ذريتها؛
ذريتها تسحق رأسك، وأنت تسحق الأعقاب.
هكذا أفصح عن نبوءته، التي تحققت
عندما يسوع ابن مريم، وهي حواء الثانية،
رأى الشيطان يسقط مثل البرق من السماء[١]،
سلطان الهواء[٢]؛ ثم قام من قبره
وجرد الرئاسات والسلاطين وظفر
بهم وأشهرهم جهاراً[٣]، وبصعوده إلى العلاء
سبى سبياً[٤] عبر الهواء،
مملكة الشيطان نفسه التي اغتصبها طويلاً،
وسوف تحت أقدامنا ندوسه؛
حتى هو الذي تنبأ بسحقه المميت[٥]،
إلى المرأة التفت وقال حكمه.

---

(1) لوقا ١٠: ١٨.
(2) أفسس ٢: ٢.
(3) كولوسي ٢: ١٥.
(4) أفسس ٤: ٨.
(5) رومية ١٦: ٢٠.

سأضاعف أحزانك
بالحبل؛ وستلدين أطفالاً
بالألم، وإلى زوجك سوف
تخضعين، وعليك هو سوف يحكم.
وأخيراً أعلن حكمه على آدم.
لأنك أصغيت إلى صوت زوجتك
وأكلت من الشجرة التي نبهتك
قائلاً: لا تأكل من هذه الشجرة، لذلك
ملعونة الأرض بسببك، وسوف تعاني الحزن
وتأكل منها كل أيام حياتك؛
أشواكاً وحسكاً سوف تنبت لك
دون أن تسألها، وأعشاب الحقل سوف تأكل،
وبعرق جبينك سوف تأكل خبزك،
إلى أن تعود إلى الأرض، لأنك
من التراب جبلت، فلتعرف مولدك،
وإلى التراب تعود.
هكذا حكم المبعوث قاضياً ومخلصاً على الإنسان،
وشجب الضربة الفورية للموت في ذلك اليوم

فأرجأها كثيراً؛ ثم أشفق عليهما وهما يقفان
أمامه عاريين في الهواء، فعليه الآن أن
يعاني التغيير، فلم يتوان عن البدء
من شكل الخادم ليأخذ على عاتقه،
مثلما حين غسل أقدام خدمه كذلك الآن،
عمل والد أسرته فغطى
عريهما بجلود الحيوانات، إما التي قتلها،
أو التي تغيّر جلدها مثل الأفعوان في صباه؛
ولم ينس أن يلبس أعداءه:
لم يلبس خارجهم فقط بجلود
الحيوانات، بل ستر عريهم الداخلي، وهو الأشد
ازدراء، بثوبه الذي هو ثوب الحق،
وقد كساهما على مشهد من أبيه.
وبسرعة عاد وصعد
مستعيداً حضنه المبارك،
بمجد كما في القديم[1]، وكان كل شيء

(1) أي كما جاء من حضن الأب استعاد حضنه كما قبل أن يأتي.

مرضيا، مع أن الكل يعرف ماذا مرّ بالإنسان
فكرره وخلط معه وساطته الجميلة.
أثناء ذلك وقبل الحكم على الخاطئين في الأرض،
وداخل بوابات الجحيم جلست الخطيئة مع الموت،
كل مقابل الآخر داخل البوابات، التي فتحت
الآن على مصراعيها، متجشئة لهباً
تقذفه بعيداً في الكاوس، منذ أن مرّ به العدو، والخطيئة
أول من فتح البوابات، فباشرت الحديث مع الموت،
يا بنيّ لمَ نجلس هنا كل ينظر في الآخر
متكاسلين، بينما الشيطان، خالقنا العظيم ينجح
في العوالم الأخرى، وقد قدم مكاناً سعيداً
لأننا ذريته العزيزة؟ لا بدّ
أن النجاح حالفه؛ فلو حدث
قبل هذا لكان عاد، غاضباً يدفعه
منتقموه، ما دام لا مكان مثل هذا
يناسب عقوبته، أو انتقامهم.
بدا لي أنني أشعر بقوة جديدة تشب في داخلي،
نبتت لي أجنحة، واتسع نطاق سيادتي
بعد هذه الحفرة؛ ومهما كان الدافع،

إما العاطفة وإما القوة الداخلية،
طاقة بمساحات بعيدة تتحد مع
الأشياء الموائمة السرية المشابهة لنوعها
بتواصل سري. وأنتَ ظلي
لا تنفصل عني، ومعي تبقى إلى الأبد:
فلا قوة تفصل الموت عن الخطيئة.
ولكن قد تكون صعوبة العودة
أخرت عودته ربما فوق هذا الخليج
الذي لا يعبر، والمحصن، فلنحاول
القيام بعمل مغامر، فبقوتك وقوتي
وإن كانتا غير مختلفتين، نجد طريقاً
فوق هذا الكاوس من الجحيم إلى العالم الجديد
حيث يسود الشيطان الآن، فنحرز ذكرى
من الاستحقاق الرفيع على كل حشود الجحيم،
فنسهل ممرهم هنا، ليجيئوا ويذهبوا،
أو تكون هجرتهم دائمة، حسبما تقودهم حظوظهم.
لا يمكن ضياع الطريق، فهو مرسوم بقوة
بهذا الشعور الجذاب وبهذه الغريزة.

وعلى هذا أجاب بسرعة الظل الهزيل.
اذهبي حيث القدر والهوى القوي
يقودانك، وسوف أتثاقل خلفك، لن أخطئ
الطريق، فأنت تقودينني، وإني لأشم اقتراب
مجزرة، وفرائس لا حصر لها، وأتذوق
نكهة الموت من كل الأشياء التي تعيش هناك:
والعمل الذي تقومين به أنت لن
أتوانى عنه، بل أقدم لك مساعدة مساوية له.
قال هذا وهو بابتهاج يشمشم رائحة
التغيير القاتل في الأرض. كما عندما سربٌ
من الطيور الشرهة، وإن كانت نائية فراسخ،
متوقعة يوم المعركة، إلى الميدان الذي
يعسكر فيه الجيشان، تأتي طائرة، تغريها
رائحة الجثث الحية المهيأة
للموت، في اليوم التالي، في القتال الدموي.
هكذا شم الشكل القاتم، ورفع
منخاره واسعاً في الهواء المعتم،
مستبصراً رائحة طريدته من كل هذا البعد.
ثم كلاهما من بوابات الجحيم إلى الفوضى

الواسعة للكاوس المعتم والقاتم
انطلقا طائرين، وبقوتهما (وقوتهما عظيمة)
رفرفا فوق المياه؛ وما لاقياه
من مواد صلبة أو موحلة، مثل بحر غاضب
يعلو ويهبط، اجتمعا معاً ودفعاها
من كل جانب أكواماً أكواماً إلى الجحيم.
وحين تهب رياح القطبين متعاكسة
فوق البحر القطبي، معاً يدفعان
جبال الجليد، التي تسد الممر الشمالي
خلف بتسورا[١] إلى الشرق، إلى شاطئ
قطاي[٢] الغني. والتربة المتجمعة
ضربها الموت بصولجانه المتحجر[٣]، والبارد والجاف[٤]،

---

(1) نهر في سيبيريا.
(2) اسم كان يطلق على مملكة في الشمال الصيني، خلف السور العظيم.
(3) يجعل الموت يحمل صولجاناً متحجراً فهو يسخر من البابا الذي كان صولجانه يسمى بالمتحجر نسبة إلى بطرس (كلمة بطرس باليونانية تعني الحجر) زعماً منه أنه وريث بطرس، الذي قال له المسيح عليك سأبني كنيستي، ملمحاً إلى اسمه باليونانية.
(4) يعتقد ملتون أن ربه خلق العالم من شيئين البارد والجاف.

كضربة حربة ثلاثية، ثبتت كما ثبتت
جزيرة ديلوس[١] العائمة ذات مرة؛ وفي الباقي
نظر إليه بقسوة غورغونية[٢] فلا يتحرك،
وبطين اسفلتي[٣]؛ عريض مثل البوابة،
عميق حتى أساس الجحيم هو الشاطئ المتجمع
الذي ربطوه، وأقاموا الأعمدة الضخمة وعليها
نصبوا فوق الهوة المزبدة قنطرة عالية، جسراً
بطول هائل يدعم السور الخارجي
الثابت لهذا العالم الذي لا سياج له الآن
تحت إمرة الموت؛ ومن هناك ممر عريض،
ناعم، سهل، مسالم، يصل في الأسفل إلى الجحيم.
وهكذا، فإن قورنت الأشياء الكبيرة بالصغيرة،
قارنا بإكسيرس[٤]، قامع حرية اليونان،

---

(1) كانت ديلوس جزيرة عائمة وبعد أن ولدت عشيقة جوبيتر توأميها أبوللو وأرتيميس جعلها ثابتة.

(2) نسبة إلى الغورغونات الثلاث، ومنهن ميدوزا التي كانت نظرتها تحوّل الناظر إلى حجر.

(3) يقال إن أرض الجحيم عبارة عن طين إسفلتي أي ملتهب مثل الجمر.

(4) عاهل الفرس.

من سوسة عاصمته ومن قصره الممنوني[1] العالي
جاء إلى البحر، وفوق الهلسبونت[2] نصب
جسراً وجعله طريقه، فضم أوروبا إلى آسيا،
وساط بضربات كثيرة الأمواج الساخطة.
والآن أقاموا العمل بفن مدهش
بونتيفيكال[3]، سلسلة من صخرة متدلية
فوق قمة الهاوية، تابعت أثر
الشيطان، إلى المكان نفسه حيث
طار إليه أول مرة بجناحه، وحط بسلام
من خارج الكاوس حتى الجانب الخارجي المكشوف
لهذا العالم المستدير: وبرواسي أدمنتية[4]
وسلاسل ربطوا فيما بينه، ومكنوا الربط قوياً

(1) ممنون هو ابن تيثونوس من ربة الفجر أورورا، وهو مؤسس سوسة العاصمة الشتوية لملوك الفرس.

(2) مضيق بين البحر الأسود والبحر الإيجي يفصل أوروبا عن آسيا.

(3) Pontifical في الأصل بناء الجسور، ولكن هذه الكلمة صارت تعني البابوية لتضمنها صلابة صخرة بولس، فيكون ملتون قد جمع البابا مع الخطيئة والموت والجحيم وغزوهم للعالم.

(4) الصخر الصم.

وصار متيناً؛ والآن في فراغ صغير
التقت حدود سماء الإمبريوم[1]
وهذا العالم، والجحيم إلى اليسار
مع امتداد طويل معترض؛ ثلاث طرق مختلفة
تظهر للعين، وكل طريق يقود إلى هذه الأمكنة الثلاثة.
والآن طريقهم إلى الأرض بات معروفاً،
حين اتجها إلى الفردوس أولاً، شاهدا
الشيطان متشبهاً بملاك مشرق
بين برجي الرامي والعقرب يتخذ
سمته، بينما الشمس ينهض من برج الحمل:
جاء متنكراً، ولكن ابنيه العزيزين
عرفا بسرعة والدهما، مع أنه متنكر.
بعد إغواء حواء، تسلل إلى الطريق المعاكس
ودخل الغابة الملاصقة، وغيّر شكله
ليراقب النتيجة، فرأى فعلته النكراء
تظهر على حواء، مع انه لا أحد انتبه، وثانياً

---

(1) السماء العليا، أعلى طبقات السماء.

على زوجها، ورأى عارهما الذي جعلهما يبحثان
عبثاً عن ستر؛ ولكن حين رأى هبوط
ابن الله ليحاكمهما خاف
ففرّ، غير آمل بالنجاة، ولكن تجنباً
لحضوره، خشية أن يصيبه على ذنبه
غضبه فيقع عليه فجأة؛ فاجتاز الغابة، وعاد
في الليل، واستمع إلى حيث جلس الزوجان
التعيسان في مناقشتهما الحزينة، وشكواهما المؤلمة،
ومن هناك عرف مصيره الخاص، ففهم أنه ليس
فورياً، بل في الزمن القادم. وبفرح
وأخبار مشحونة كان الآن عائداً إلى الجحيم،
وعند حافة الكاوس، بالقرب من
سفح هذا الجسر الجديد العجيب، ومن دون أن يتوقع
قابل من جاء لمقابلته، إنهما ولداه العزيزان.
فرح بهذا اللقاء، ولدى رؤية
هذا الجسر المدهش تضاعفت فرحته.
وقف طويلاً معجباً إلى أن الخطيئة، ابنته
الجميلة الفاتنة، كسرت الصمت.

أبتاه، هذه أعمالك العظيمة، هذه
نصبـــُك التذكارية، تراها كأنها ليست لك،
أنت خالقها ومهندسها الأول:
لأني تنبأت من قبل في قلبي،
قلبي، الذي بتوافق منسجم لا يزال
يتحرك مع قلبك، مجتمعين في رباط جميل
بأنك على الأرض نجحت، كما أن مظهرك
الآن أيضاً يثبت، ولكني حقاً شعرت
مع أن المسافة عنك بينها العوالم،
أن علي أن أتبعك مع ابنك هذا؛
فهذه العلاقة المصيرية توحدنا نحن الثلاثة:
الجحيم لا تستطيع أن تحملنا طويلاً في حدودها،
ولا هذا الخليج الغامض الذي لا ممر فيه
يؤخرنا عن تقفي آثارك اللامعة.
أنت حققت حريتنا، فقد حبسنا
داخل بوابات الجحيم حتى الآن، أنت قوّيتنا
حتى نبلغ هذا المدى، وشيّدنا
هذا الجسر النذير فوق الهوة المظلمة.

لك الآن كل هذا العالم، ونالت قوتك
ما لم تبنه يداك، واكتسبت حكمتك
بالنزاع ما ضاع في الحرب، فانتقمنا كاملاً
لاندحارنا في السماء؛ هنا سوف تحكم ملكاً،
أما هناك فكلا، هناك لا تزال له سلطة المنتصر،
كما حكمت المعركة، أما من هذا العالم الجديد
فلينسحب، فحكمه هو الذي أبعده،
ولذلك معك الملكية على
جميع الأشياء المتاخمة لحدود الإمبريوم،
وهي ربعاته[١]، المنفصلة عن عالمك الدائري،
أو حاول الآن أن تكون خطراً أكبر على عرشه.
وعلى هذا ردّ أمير الظلام مسروراً.
بنيتي الجميلة، وأنت يا بني ويا حفيدي معاً،
برهان كبير قدمتما الآن أنكما عرق
الشيطان (وأفتخر بالاسم الذي يعني

(1) السماء مقسمة إلى أربعة أرباع وكل ربع له جيشه وأنظمته ومهماته... الخ.

خصم[1] ملك السماء الجبار)
فلديكما الكثير من صفاتي، وصفات
إمبراطورية الجحيم، فقرب باب السماء
التقى نصرٌ بنصرٍ،
نصري ونصر كما المجيد، فجعلتما بعملكما
الجحيم وهذا العالم مملكة واحدة، قارة واحدة
يسهل السفر بينها. لذلك بينما
أهبط إلى الظلمة، على الطريق الذي أشدتماه
بسهولة لقواتي المتآزرة، حتى أعلمهم
بهذه النجاحات، وأفرح معهم،
عليكما معاً سلوك هذا الطريق من بين كل المدارات
وهي من صنعكما، والهبوط في الفردوس؛
هناك تقطنان وتحكمان في البَرَكة، ولذلك على الأرض
تمارسان السيادة وفي الفضاء،
وبالأخص على الإنسان، الذي أعلنه ربه سيد الجميع،

---

(1) يستخدم ملتون كلمة Antagonist (الشخصية المعارضة في المسرحية التي تقف ضد البطل) تعبيراً عن خصومة رب السماء.

تأكدا أولاً من استعباده، وأخيراً اقتلاه.
بديلين عني أرسلكما، وأجعلكما
نائبين عني على الأرض، بقوة لا تضاهى
صادرة مني: وعلى قوتكما المشتركة الآن
تعتمد هذه المملكة الجديدة،
فعبر الخطيئة والموت تظهر مآثري.
فإن سادت قوتكما المشتركة، فشئون الجحيم
لا خوف على مصيرها، فاذهبا وتشجعا[1].
قال هذا وأطلقهما، وبسرعة
شقا طريقهما عبر المجرات الكثيفة
ناشرين خرابهما؛ وبدت النجوم شاحبة،
والكواكب، وتأثيراتها والكسوف الحقيقي
عانى منهما. وهبط الشيطان في الطريق الآخر
وهو الطريق المعبد إلى بوابة الجحيم؛ وعلى كل
جانب اشرأبّ الكاوس فوق البناء مندهشاً،
وبموجة عارمة هاجم الأعمدة،
فازدرت بسخطه: وعبر البوابة،

(1) يسخر مما ورد في التوراة (تثنية ٣١: ٧).

التي فتحت واسعاً وبلا حراسة، دخل الشيطان،

[٤٢٠] فوجد كل ما حوله مقفراً؛ لأن المعينين

بالوقوف هنا، تركا مهمتهما،



والآن يتوقعون في كل ساعة مغامرهم العظيم أن يعود

من طوافه العوالم الأجنبية (١٠: ٤٣٩..)

وذهبا إلى العالم الأعلى؛ والباقي كانوا

قد تراجعوا إلى الداخل، حول أسوار

الباندیمونیوم[1]، المدینة العاصمة التي یفتخر
بها لوسیفر، وھو الاسم الذي أطلق علي
ذلك النجم المضيء تشبیھا بالشیطان.
وھناك حافظا على حراسة الأقالیم، بینما كبراء
الساقطین عقدوا مجلساً، وھم قلقون عما یمكن
أن یكون قد أخر إمبراطورھم، حتى أنه
أمرھم بالتراجع، فأطاعوا.
كما عندما التتار من وجه الخصم الروسي
قرب أستراكان[2] على السھول الثلجیة
تقھقروا، أو الشاه الفارسي من قرني
الھلال التركي، یترك كل الخراب خلف
مملكة أرمینیا، في تراجعه
إلى تبریز أو قزوین. ھكذا أولئك الحشود الذین
عاقبتھم السماء، ھجروا كل الجحیم تقریباً
وقطعوا الفراسخ الطویلة، لیقوموا بالحراسة الحریصة

(1) عاصمة الشیطان. ولوسیفر ھو اسم نجم مضيء كان یطلق على الشیطان قبل سقوطه.

(2) عاصمة التتار على الفولغا.

حول عاصمتهم، والآن يتوقعون
في كل ساعة مغامرهم العظيم أن يعود
من طوافه العوالم الأجنبية: لكنه في الوسط دون أن يلحظوه
وعلى شكل ملاك محارب من العامة،
من أدنى رتبة، مرّ؛ ومن باب
ذلك الجحيم البلوتوني[1]، دون أن يراه أحد
اعتلى عرشه الرفيع، الذي تحت سرادق
من أنفس نسيج حيك، وطرفه الأعلى
وضع في نور ملكي. جلس برهة،
ورأى ما حوله دون أن يُرى:
أخيراً كما لو من غيمة ظهر رأسه المشع
وشكله كنجم براق، أو سطع متدثراً
بالمجد المسموح له منذ سقوطه
فسمح له بالسطوع الزائف: دهش الجميع

(1) نسبة إلى بلوتو رب العالم السفلي في الميثولوجيا اليونانية.

لدى توهّجه في الازدحام الستيجي[١] فجأة
فالتفتوا احتراماً، ورأوا من يحبون،
فقد عاد إليهم رئيسهم الجبار: عالياً كان الهتاف:
وهب إليه أقرانه المستشارون الكبار بسرعة،
ونهضوا من ديوانهم المظلم، وبفرح
اقتربوا منه محيين، فرفع يده فساد
الصمت، وبهذه الكلمات أثار اهتمامهم.
أصحاب العروش والسيادة والإمارة والفضيلة
والسلطة فأنتم تملكون الألقاب ليس بموجب الحق وحده
بل لأني أناديكم بها وأعلنها الآن، لقد عدت
بنجاح يتخطى المأمول، لأقودكم قدماً
نحو النصر خارج هذه الحفرة الجهنمية
الكريهة اللعينة، منزل الكروب،
وقبو طاغيتنا: الآن تملكون

(1) نسبة إلى نهر ستيكس وهو أعظم الأنهار في العالم السفلي عند الإغريق.



مرعباً كان ضجيج الفحيح عبر القاعة، المزدحمة الآن كثيراً
بالوحوش الملتفة رأساً وذنباً (١٠: ٥٢١..)

أيها اللوردات، عالماً رحيباً، ينقص قليلاً
عن سمائنا الأصلية، بفضل مغامرتي القاسية
حققته لكم بمخاطرة عظيمة. أحتاج طويلاً
لأخبركم بما فعلت، وما عانيت من ألم
في رحلتي إلى هوة ضخمة لا حد لها

من الفوضى المرعبة، على الطريق
العريض الذي عبدته الخطيئة والموت وصار
الآن ممهداً للقيام بحملتكم المجيدة؛ ولكني
جهدت في أن أعبر ممري الخفي مضطراً
أن أركب الهوة التي لا تسبر، وأغوص في رحم
الليل الأبدي والكاوس الوحشي،
وقد خشيا على أسرارهما، فعارضا بشدة
رحلتي الغريبة، بضجيج صاخب
معترضين على القدر الأعلى؛ لذلك وجدت
العالم الجديد المخلوق، الذي عرفت السماء
بشهرته منذ زمن طويل، عبارة عن نسيج عجيب
من الكمال المطلق، وفيه الإنسان
الإنسان، يسكن في الفردوس، وصار سعيداً
بسبب نفينا: هو نفسه بالخديعة أغويته
من خالقه، وحتى أزيد من دهشتكم
أغويته بتفاحة؛ وهناك هاجمه الله
وهو يستحق ضحككم، فقد قدم
كلاً من حبيبه الإنسان وكل عالمه،

فريسة للخطيئة والموت، وبالتالي لنا،
من دون مخاطرة ولا عمل ولا ذعر،
حتى نجوب فيه، ونسكن، ونسيطر على الإنسان
ونحكمه، ونستولي على كل ما يحكمه.
والحق أني أنا أيضاً حكم عليّ، أو بالأحرى
لم يحكم علي، بل على الأفعوان الذي بشكله
خدعت الإنسان: فهو ينتمي إليّ، فحكم
بالعداوة التي ستكون بيني
وبين الجنس البشري؛ فأنا أسحق عقبه؛
وتسحق ذريته رأسي، حسبما فهمت:
فمن لا يشتري عالماً بسحقة[1]،
أو ما هو أشد ألماً؟ لقد سمعتم رواية
ما حققت: لم يبق، أيها الآلهة،
سوى أن تنهضوا وتدخلوا الآن إلى البركة الكاملة.
قال هذا ووقف لحظة، متوقعاً
صياحاً عاماً وتصفيقاً مدوياً

(1) السحقة أو الرضة يستخدمها الشيطان حتى لا يقول إنه سيفنى بعد أن يرسل الأب ابنه الفادي، حسب اعتقاد المسيحيين، الذي صوره ملتون.

يملأ أذنه، بينما يسمع العكس
من كل جانب، من ألسنة لا عد لها
وفحيحاً عاماً كئيباً، صوت
الازدراء الشعبي؛ فدهش ولكن بعد قليل
سكن، ودهش من نفسه الآن أكثر؛
فقد شعر أن محياه حاد وهزيل،
والتصقت ذراعاه بأضلاعه، والتفت ساقاه
كل واحدة بالأخرى، إلى أن تخلف وسقط
أفعواناً وحشياً على بطنه يزحف،
قاوم، ولكن عبثاً: قوى عظمى الآن تتحكم
فيه، وتعاقبه في الشكل الذي اقترف الخطيئة فيه،
وفقاً للحكم عليه: تمنى لو يتكلم،
ولكن الفحيح يرد على الفحيح بلسان مشعب
على لسان مشعب، فجميعهم الآن تحولوا
إلى أفاع كتابعين له كلهم في
تمرده الجريء: مرعباً كان ضجيج
الفحيح عبر القاعة، المزدحمة الآن كثيراً
بالوحوش الملتفة رأساً وذنباً،

من العقرب حتى الصلّ وأفعوان الرأسين الرهيب
والمقورن وأفعوان الماء والأفعوان السيفي المخيف،
والأفعوان المعطش (لم تكن بهذه الكثافة منذ أن
تلقت التربة قطرات دم ميدوزا، أو جزيرة
أفيوزا[١]) ولكنه لا يزال الأعظم في الوسط،
الآن كبر تنيناً، أكبر من الذي خلقته
الشمس في وادي بيثيا من الوحل،
بيثون[٢] الضخم، وسلطته لم تقل
على البقية الباقين معه؛ فكلهم اتبعوه
خارجين إلى الحقل الفسيح،
حيث كل من بقي من تلك الهزيمة كل الساقطين
من السماء، يحرسون أو يصطفون للعرض،
هبوا متوقعين أن يروا
زعيمهم المجيد يخرج منتصراً،
ولكنهم بدلاً من ذلك رأوا حشداً

(1) جزيرة مليئة بالحيات، وأفيوزا الاسم القديم لرودس ولعدة جزر أخرى.
(2) أفعوان خلقته الشمس في تفاعلها مع الطين. قتله أبوللو وأقيمت باسمه ألعاب تسمى «الألعاب البيثية»

من الأفاعي البشعة؛ ملأتهم بالرعب،

[٥٤٠] والعطف المرعب؛ لأن ما رأوه،

أشعرهم بأنفسهم أنهم يتغيرون؛ فتهدلت أذرعتهم

وسقطت رماحهم وتروسهم، وانبطحوا بسرعة،

وتجدد الفحيح، والشكل المرعب



قال هذا ولجأ كل منهما إلى طرق مختلفة (١٠: ٦١٠...)

اكتسبوه بالعدوى، فأشبهوهم في العقاب،

[٥٤٥] وفي جريمتهم. وهذا هو معنى التصفيق،

المتحول إلى فحيح منفجر، والنصر إلى عار
يحل على أنفسهم من أفواههم. وهناك انتصبت
أجمة كبيرة قريبة، انبثقت مع هذا التغير،
مشيئة من يحكم الأعالي، أن يشدد
توبتهم، فتثقلها الثمار مثل تلك
التي نمت في الفردوس، مغرية حواء
التي استخدمها الشيطان: وعلى ذلك المشهد
الغريب ثبتوا نظرهم، متخيلين
بدلاً من الشجرة المحرمة الواحدة حشداً من أمثالها
ينمو، ليجعلهم في كرب أكبر أو عار أشد؛
ومع ذلك عانوا من العطش القاتل والجوع المميت،
ومع أنها أرسلت لخداعهم، فلم يحجموا عنها،
بل تكوّموا حولها بحشودهم وتسلقوا الأشجار
وجلسوا وقتها بأشد كثافة من الضفائر الأفعوانية
المجدولة في ميغيرا[1]: وبشراهة قطفوا
الثمار الجميلة في النظر، كتلك التي نمت

(1) شقيقة ميدوزا، الغورغونة الشهيرة.

بالقرب من بركة البحر الميت حيث سادوم الملتهبة؛
هذه أكثر خداعاً، ليس في اللمس، بل في الذوق
المضلل؛ فقد ظنوا بسذاجة أنهم يهدئون
[٥٦٥] شهيتهم، وبعصف الريح، بدلاً من ثمرة،
راحوا يمضغون رماداً مريراً، يرفضه الذوق
وينثره بصخب: وأعادوا الكرة مراراً،
وكبحوا الجوع والعطش، وتقيئوا كثيراً،
وبكراهية ممجوجة رفضته أفكاكهم المتألمة
[٥٧٠] بكل وسخه وجمره؛ وهكذا وقعوا كلهم
في الوهم نفسه، ليس كوهم الإنسان
الذي انتصروا عليه بوثبة واحدة. وهكذا أصيبوا
بالبلاء وأمضهم الجوع، ولم يتوقف فحيحهم،
إلى أن استعادوا شكلهم الضائع، بعد أن سمح لهم،
[٥٧٥] ويروي بعضهم أنهم في كل عام يخضعون
لهذا الإذلال السنوي أياماً عدة،
لكبح كبريائهم، وقمع ابتهاجهم بإغواء الإنسان.
على أي حال إن بعض الروايات التي نشروها
بين الوثنيين عن المطاردة التي قاموا بها،

وكيف أن الأفعوان، الذي يسمونه
أفيون مع يورينومي[1]،
هاجم حواء، وحكم أولاً
على الأوليمب العالي، ولذلك طرد ساتورن
وأوبس[2]، قبل أن يولد جوف الديكتايوني[3].
أثناء ذلك كان الاثنان الجهنميان في الفردوس
وكانت الخطيئة ذات سلطة من قبل،
تفعل من الخارج، ولكنها الآن في الجسد، حتى
يعتاد عليها فتسكن فيه، ومن خلفها الموت
الذي يتبعها خطوة فخطوة، ولم يكن امتطى بعد
حصانه الشاحب: فخاطبته الخطيئة قائلة.
يا ثاني أبناء الشيطان، أيها الموت قاهر الجميع،
ماذا تقول الآن في إمبراطوريتنا، على الرغم من

---

(1) أول ملك وملكة على الأوليمب؛ أفيون تعني «الأفعوان» ويورنيمي تعني «الحكم الواسع». وفي ملحمة «الأرغونوتيكا» لأبوللونيوس الروديسي، تفصيل قصتهما في الكتاب الأول ٤٩٦- ٥١١.

(2) هي ذاتها ريا زوجة ساتورن.

(3) نسبة إلى جبل دكتايوس الذي ولد فيه جوف.

صعوبة الرحلة، ألسنا أفضل كثيراً
من بقائنا نحرس في بوابة الجحيم المظلم،
[٥٩٥] بلا اسم، ولا نخيف أحداً، وكنت تتضور جوعاً؟
بسرعة ردّ الوحش ابن الخطيئة عليها
أنا، الجائع الأبدي،
مثلك في الجحيم، أو الفردوس أو السماء،
هناك أفضل، حيث أصادف الكثير من الفرائس؛
[٦٠٠] أما هنا، برغم الوفرة، فإن كل شيء يبدو هزيلاً
لملء هذا البلعوم، وهذا الجثمان الذي لا جلد يحدده.
ردت عليه أمه المسافحة(١).
لذلك عليك بهذه الأعشاب والثمار والأزهار
تغذ عليها أولاً، ثم على كل حيوان وسمك وطير،
[٦٠٥] إنها ليست كسرات منزلية، ومهما كان الشيء
فإن منجل الزمن يحصده، ويفترسه،
إلى أن استقر في عرق الإنسان، في أفكاره،
في نظراته، في كلماته وأفعاله فأفسدها،

(1) سافحت أباها الشيطان فولدت الموت.

وفي النهاية أعده لك فريسة طيبة وأخيرة.
قالت هذا ولجأ كل منهما إلى طرق مختلفة،
كلاهما يخربان، أو يصنعان الفناء
من كل الأنواع، ويهيئان للخراب
عاجلاً أم آجلاً؛ أمام مرأى الجبار،
من مقعده العالي بين القديسين، قال
بصوته لأولئك أصحاب المراتب العليا:
أنظروا بأي حرارة يتقدم هذان الكلبان من الجحيم،
ليتلفا ويخربا هذا العالم هناك، العالم الذي
خلقته طيباً وجميلاً، ولا يزال يحتفظ
بتلك الحالة، لولا حماقة الإنسان
التي سمحت لربات الانتقام، اللواتي يلصقن
الحماقة بي، تماماً مثل أمير الجحيم
وأتباعه، حتى أنني بسهولة
عانيت من دخولهما وامتلاكهما
مكاناً سماوياً كهذا، وبدا تغاضيّ عنهم
إرضاء لأعدائي المزدرين بي،
حتى أنهم يضحكون، كما لو جرفتهم

العاطفة، كأنني تخليت عن كل شيء،
وبعشوائية استسلمت لحكمهم الأرعن؛
لم يعلموا أني أنا الذي دعوتهما وجلبتهما إلى هناك
إلى حدودي الجحيمية، حتى يلحسا الفضلات والنجاسة
التي لوثت خطيئة الإنسان الكريهة بالقذارة فانسكبت
على ما كان نقياً، فيتخمان ويغصان، وقريباً ينفجران
بالنفايات والقذارات التي أكلاها، بضربة واحدة
من ذراعك المظفرة، أيها الابن الذي به سررت،
فكلاهما: الخطيئة والموت والقبر الفاغر أخيراً
سوف يرمون في الكاوس، فتنسد فوهة الجحيم
إلى الأبد، ويختم على فكيها الشرهين.
وتتجدد السماء والأرض وتكونان نقيتين
بالقداسة التي لن تتلقى تلوثاً:
وحتى ذلك الوقت ألفظ باللعنة على كل منهما.
أنهى كلامه، وبصوت عال رتّـــل سكان
السماء هاليلويا، مثل صوت البحار،
عبر الحشود تنشد: هذه هي طرقك،
فالحق أمرت في كل ما صنعت؛

فمن يستطيع تقليصك؟ وبعده، إلى ابنه،
المقدر له أن يجدد البشرية، والذي بواسطته
ستظهر سماء جديدة والأرض تكون مدى الدهور،
أو أنها تهبط من السماء[1]. هكذا كانت أنشودتهم،
أثناء ذلك كان الخالق يدعو بالاسم
ملائكته الجبابرة ويكلفهم بمهام مختلفة،
تتناسب تماماً مع الأشياء القائمة. فالشمس
أمرها أولاً أن تتحرك، وأن تسطع،
وتؤثر في الأرض برداً وحرارة
بالكاد تتحملهما، وأمر الشمال أن يستدعي
الشتاء الشديد، وأمر الجنوب أن يحضر
حرارة الصيف الشمسية. وأمر القمر الأبيض
بمهمة محددة، وحدد للكواكب الخمسة الأخرى
حركاتها الكوكبية ومنحدراتها
بدرجات الستين والتسعين والمئة والثمانين،
بتأثير مؤذ، ومتى تنضم

---

(1) جاء في رؤيا يوحنا أن أورشليم، المدينة المقدسة، تهبط من السماء. رؤيا ٢١.

في تأثير نافع، وعلم النجوم الثابتة
تأثيرها الخطير ومتى تمطر،
سواء من أشرق مع الشمس، أو غاب،
لا بد من أن يقدم الجو العاصف: وللرياح
حددت زواياها، متى تهب لتواجه
البحر والهواء والشاطئ، ومتى يرعد الرعد
مرعباً عبر القاعة الهوائية المظلمة.
يقول بعضهم إنه أمر ملائكته أن يميلوا
قطبي الأرض بمقدار عشرين درجة وأكثر
عن محور الشمس؛ بالعمل تندفع
منحرفة عن الكرة المركزية: وبعضهم يقول إن الشمس
أمرت أن تحرف أعنتها[1] عن طريق الخط المعتدل
بمثل عرض المسافة عن برج الثور مع الأخوات
السبع، بنات أطلس، ومع التوأمين الإسبارطيين[2]
حتى مدار السرطان؛ ومن هناك هبوطاً لتمر

(1) هذه الصورة من الميثولوجيا اليونانية حيث يقال إن أبوللو حرف مدار عربته (الشمس) عن المسيرة بهذا المقدار الذي أورده ملتون.
(2) برج الجوزاء.

في برج الأسد والعذراء والميزان،
وعميقاً حتى مدار الجدي، لإحداث تغيير
الفصول في كل جو؛ وإلا ظل الربيع
يبتسم دائماً على الأرض بزهوره الخضراء،
فيتساوى الليل والنهار، إلا في تلك
الواقعة خلف الدوائر القطبية؛ فالنهار هناك
يشرق بلا ليل، بينما الشمس المنخفضة
حتى تعوّض هذه المسافة، تبدو لهم
كأنها لا تزال تدور في الأفق، ولا يعرفون
الشرق أو الغرب، وامتنع الثلج عن
بلاد إستوليلاند[١]، والجنوب حتى
تحت مضيق ماجلان[٢]. وبتذوق الثمرة
فانحرفت الشمس، كما حدث في مأدبة ثستيس[٣]

(1) بلاد وهمية.

(2) مضيق في أمريكا الجنوبية.

(3) ثستيس أغوى زوجة أخيه أتريوس. وحتى ينتقم أتريوس قتل أولاد أخيه وقدمهم في مأدبة، فقيل إن الشمس اشمأزت وانحرفت عن مسارها حتى لا ترى هذا المشهد المرعب.

وغيرت طريقها عمداً؛ وإلا كيف استطاع العالم
المسكون، مع انه بلا خطيئة، أكثر من الآن
أن يتجنب البرد القارس، والحرارة الحارقة؟
هذه التغيرات في السماء وإن كانت بطيئة، أنتجت
تغيراً مماثلاً في البحر والبر، من تأثير النجوم
وبخار عواصف الشر والضباب والزفير الحار،
والفساد والوباء: حيناً من الشمال
وحيناً من كندا، وحيناً من الشاطئ السيبيري
فحطمت قبوها النحاسي[١]، المسلح بالجليد
والثلج والبرَد والريح العاصفة وانفجرت،
ريح بورياس وكاسياس وأرجستيس[٢] عالية
والريح التراقية طلبت الغابات والبحار؛
بعواصف معاكسة قلبتها من الجنوب
إلى الشمال وتندفع سوداء مع غيوم مرعدة
من سيراليون؛ وتصدت لهذه الرياح بقوتها

(1) يقال إن أيولوس يحتفظ بالريح في كهف مغطى بالجبال إلى وقت الحاجة. الإنياذة ١: ٥٦– ١٢٣.

(2) كلها أنواع من الرياح.

واندفعت عنيفة الرياح الشرقية والغربية
يوروس وزفير[1] مع ضجيجهما الجانبي
والرياح الجنوبية الشرقية والجنوبية الغربية. وهكذا بدأ
الغضب من أشياء بلا حياة؛ ولكن الشقاق[2] أول
ابنة للخطيئة، بين الأشياء غير العقلانية،
وتقدم الموت من خلال البغضاء: ونشبت
الحرب بين الحيوان والحيوان، والطير والطير،
والسمكة والسمكة؛ وتركت العشب الذي ترعاه،
وافترس واحدها الآخر؛ لا يوقفها خوف
من الإنسان، بل تهرب منه، أو بمظهر متجهم
تحدق فيه وهو يمرّ: وهذه كانت من حيث
لا يوجد بؤس، مما رآه آدم
من قبل جزئياً، مع أنه اختبأ في ظل معتم،

---

(1) من أنواع الرياح.

(2) هي في الميثولوجيا الإغريقية إيريس Eris ربة كل غايتها أن تبذر الشقاق كما فعلت عندما دحرجت التفاحة الذهبية وكتبت عليها للأجمل فتنازعت هيرا وأثنيا وأفروديت، وأعطاها باريس لأفروديت فحصلت حرب طروادة.

ليهجر الحزن، ولكنه شعر في داخله بالأسوأ،
وفي بحر مضطرب راح يتقلب ألماً،
وهكذا حتى يخفف من ألمه بث شكواه الحزينة.
يا بائس السعادة! أهذه هي النهاية
لهذا العالم المجيد الجديد، ولي أيضاً وكنت
مجد هذا المجد، الذي صار الآن
ملعوناً لا مباركاً، خبئني من أمام وجه
الله، الذي حين كنت أراه أكون في قمة
سعادتي: لا بأس إن كان هذا سوف
ينهي بؤسي، فأنا أستحق، وسوف أحمل
استحقاقاتي الخاصة؛ ولكن هذا لا يخدم في شيء؛
كل ما آكل أو أشرب أو أنسل،
هو لعنة انتشارية[1]. يا صوتاً سمعته

---

(1) الفكرة مأخوذة من كتاب الأخلاق لأرسطو 1147b وهي أن الأكل والشرب والجنس هي لعنة انتشارية بمعنى أنها في حالة انتشار دائم، فلا الأكل ولا الشرب ولا الجنس يتوقف عند حد. ومن هنا كلام المسيح «الآباء يأكلون الحصرم والأبناء يضرسون» بحيث تمتد اللعنة من جيل إلى جيل.

مرة بفرح يقول أثمروا واكثروا[1]،
الآن أسمع الموت! فكيف أتكاثر
أو أثمر، سوى اللعنات على رأسي؟
من يعقبني في كل العصور، ويشعر
أن الشرّ عليه جلبته أنا، فسوف يلعن
رأسي، شراً فعل جدنا الفاسد،
فعلى هذا قد نشكر آدم؛ ولكن شكره
سيكون اللعنة؛ فإلى جانب
لعناتي الخاصة التي تقيم فوقي، كل ما يخرج
مني سوف يتقهقر بعنف ويرتد إليّ،
وعليّ، كما لو أني مركزها الطبيعي،
وإن كانت أخف في مكانها. أيها الفرح الهارب
من الفردوس، غالياً اشتريتك بالكرب الدائم!
أنا لم أطلب منك، أيها الصانع، أن تصوغ
من الطين إنساناً، ولم أتوسل إليك
أن تخرجني من الظلمة، أو تضعني هنا

---

(1) تكوين ١: ٢٨.

في هذه الجنة الشهية؟ فمشيئتي
لا تطابق كينونتي، فمن الحق
والإنصاف، أن تعيدني إلى طيني،
فأنا ميال إلى الاستقالة، لأعيد
كل ما تسلمته، أنا لا أقدر على تنفيذ
شروطك القاسية جداً، التي تفرض عليّ
أن أحمل الخير الذي لا أسعى إليه. وفقدانه
يفرض عقاباً كافياً، فلماذا أضفت
الإحساس بالكرب الذي لا نهاية له؟ مستحيلة
تبدو هذه العدالة؛ والحقيقة أنها جاءت متأخرة،
ولذلك أنازعها؛ ثم هل رفضت
تلك الشروط مهما كانت، عندما طرحت:
ولكنك[1] وافقت عليها؛ ألم تتمتع بالخير،
ثم عارضت الشروط؟ ومع أن الله
صنعك بلا إذن، ماذا لو ابنك
أعلن عصيانه، فكبحته، فرد بحجة معاكسة

(1) هنا يعود آدم إلى مخاطبة نفسه.

لماذا أنجبتني؟ أعتقد أنك لن
توافق على هذا الازدراء بك
بذلك العذر الوقح؟ ومع ذلك ليس اختيارك
بل الضرورة الطبيعية هي التي أنجبته.
لقد صنعك الله باختياره الخاص، ومن اختياره
أن تخدمه، ومكافأتك كانت من فضله،
فعقابك إذن بإرادته عقاب عادل.
ليكن ذلك، لأني أخضع، ودينونته منصفة،
فأنا من التراب وإلى التراب أعود:
مرحباً بالساعة متى حلت! لماذا تتأخر
يده على تنفيذ قراره
المثبت[1] في هذا اليوم؟ لماذا أستمر في العيش،
ولماذا يسخر الموت مني، وتتحول حياتي
إلى ألم بلا موت؟ كم أنا سعيد لو قابلت
الفناء المحكوم به، فأكون أرضاً
بلا إحساس، وكم أنا سعيد لو دفنت

---

(1) جاء في التكوين ٣: ٣ أنه في اليوم الذي يأكل آدم وحواء من الثمرة المحرمة موتاً يموتان.

كما لو في حضن أمي! هناك أستريح
وأنام بأمان؛ فلا يعود صوته المخيف
يرعد في أذني، ولا أخاف من الأسوأ
لي ولذريتي فيعذبني
بالترقب الجائر. لكن هناك شكاً
لا يزال يلاحقني، وهو ألا أموت كاملاً
فيبقى نـــفَـــسٌ من الحياة، من روح الإنسان
التي وضعها الله، لا يمكن أن تتلاشى مع
هذه الكتلة الجسدية؛ ثم في القبر،
أو في مكان آخر كئيب من يدري
أني سأموت وأنا حي؟ أي فكرة
مرعبة، إن صدقت! لكن لماذا؟ ليست سوى نفس
من حياة أخطأت فيها؛ ماذا يموت وماذا يحيا
وماذا يخطئ؟ الجسد لا يملك شيئاً من هذا.
كل ما فيّ سوف يموت إذن: فليهدئ هذا
شكي، ما دام الإنسان لا يعرف أكثر من ذلك.
ومع أن رب الجميع غير نهائي،
فهل غضبه كذلك؟ ليكن، ولكن الإنسان ليس كذلك،

وإنما محكوم عليه بالفناء. كيف يمكنه ممارسة
الغضب بلا نهاية على إنسان لا بد أن ينهيه الموت؟
هل يستطيع أن يجعل الموت لا يــُميت؟ ذلك يعني جعل
التناقض غريباً، حتى لله نفسه
يستحيل أن يكون، كدليل
على الضعف وليس القوة. فهل يفعل، فيحوّل،
بسبب غضبه، المحدود إلى غير المحدود
في عقاب الإنسان، ليشبع قسوته
التي لا تشبع؛ وذلك يعني توسيع
حكمه إلى ما وراء التراب وقانون الطبيعة،
الذي به كل الأسباب الأخرى تعمل طبقاً
لتلقي فعلها المادي،
وليس امتداداً لمجالها الخاص. ولكن قل
إن الموت ليس ضربة واحدة، كما أفترض،
فينتزع الإحساس، وإنما بؤس بلا نهاية
من هذا اليوم فما بعد، وأشعر به ابتدأ
فيّ، ومن دوني، وهكذا يستمر
إلى أبد الآبدين؛ آه مني، ذلك الخوف

يعود مرعداً مع ثورة مخيفة
على رأسي العاجز عن الدفاع: فالموت وأنا
نؤسس الأبدية، وكلانا في جسد واحد،
فلست من طرفي مفرداً، ففيّ جميع
الذرية تقف ملعونة: ميراث جميل
عليّ أن أتركه لكم أيها الأبناء؛ ليتني أقدر
أن أتلفه كله بنفسي، ولا أترك لكم شيئاً!
فإذا لم ترثوا فكم سوف تباركونني
الآن وأنا لعـنْتكم! آه، لماذا البشرية كلها
بسبب خطيئة إنسان واحد تدان وهي بلا ذنب،
إن كانت لم تذنب؟ ولكن مني ماذا يمكن أن يصدر
سوى كل فساد، فالعقل والإرادة منتزعان منـي،
فلن تعمل البشرية مثلي فقط، بل تريد الشيء
نفسه الذي أردته؟ كيف يمكنهم أن يبرئوا أنفسهم
أمام الله؟ إنني بعد كل هذه الخصومات
مضطر أن أسلم بعدله: كل مراوغاتي عبث وكل
تعليلاتي، ومع ذلك عبر المتاهات لا تقودني
إلا لإدانة نفسي: أولاً وأخيراً

عليّ، وحدي، وحدي فقط، كمصدر ومنبع
كل فساد، يقع كل عار فعلاً؛
وهكذا الغضب. يا للأمنية المثيرة! ألا تستطيع
أن تدعم ذلك العبء الأثقل من الأرض وأثقل
من العالم كله، ومع ذلك مقسم بيني
وبين تلك المرأة السيئة؟ هذا ما ترغبه
وما تخافه، تحطيم كل أمل
في ملجأ، وتستنتج بؤسك
وراء كل ماض ومستقبل،
فأنت لا تشبه سوى الشيطان في الجريمة والإدانة.
أيها الضمير في أي هوة من الخوف
والرعب أوقعتني؛ خارجها لا أجد
طريقاً، فأنا من عمق إلى أعمق أغوص!
هكذا رثى آدم نفسه بصوت عال
في الليل، الذي هو الآن غير ما كان قبل سقوط الإنسان،
كان صحّياً وبارداً ورقيقاً، صار يصاحبه هواء
أسود، مع رطوبة وعتمة مخيفة،
كل الأشياء تتمثل لضميره المذنب

برعب مضاعف: على الأرض
الواسعة استلقى، على الأرض الباردة، وكما
لعن خليقته، لعن الموت لأنه
تأخر في التنفيذ، منذ إعلان
يوم خطيئته قال، لمَ لا يأتي الموت،
بضربة ثلاثية أتقبلها
لينهيني؟ فهل الحق فشل في الحفاظ على كلمته،
والعدالة الإلهية لم تعد عدلاً؟
لا الموت يأتي بدعوة، ولا العدالة الإلهية
بالصلوات أو الصراخ تصلح خطوتها البطيئة.
يا غابات ويا ينابيع وتلال ووديان وعرائس،
بصدى آخر ما علـّمْت ظلالـَك
أن تجيب، وتردد أغنية أخرى.
تأثرت حواء الحزينة حين رأته،
وهي في عزلتها حيث جلست، فاقتربت،
وبكلمات ناعمة حاولت التخفيف عنه:
ولكنه نبذها بنظرة صارمة.

اغربي عن وجهي، أيتها الحية[1]، فهذا الاسم
أنسب لك لصحبتك معه، نفسك زائفة مثله
ومثله كريهة؛ لا ينقصك شيء، سوى شكلك
فتشبهينه، ولون أفعوانيتك قد يُظهر
خداعك الداخلي، فلأحذرْ كلَّ المخلوقات منك
فلا يغشوا بشكلك السماوي، الذي يخفي
الزيف الجهنمي، وأنت تكمنين لهم. لولاك
لاستمرت سعادتي، لولا أن كبرياءك
وعبثك العجيب، حين كان الأمن ضئيلاً،
رفضا تحذيري المسبق واستخفا بعدم
ثقتي بك، وتقــْـتِ إلى الظهور
ولو مع الشيطان نفسه، المتعجرف،

(1) وفقاً لسياق النص استخدمنا هنا كلمة «حية» بدلاً من أفعوان لأن الكلام صادر من آدم، وفيه تأنيب. وقد قال لها «أيتها الحية» بدلاً من حواء. وكلمة حواء بالفينيقية والآرامية هي نفسها كلمة حية. وتعامل الكلمة على لسان آدم على أنها مؤنث، وليس على أنها مذكر كما عندما نطقت بها حواء. ونلاحظ أن ملتون يعود إلى استخدام المذكر بعد نداء آدم لها باسم الحية.

ليحقق مأربه، ولكن بلقائك مع الأفعوان
خدعك وضللك، وأنا خدعت بك،
ووثقت من طرفي وتصورتك حكيمة
صامدة ناضجة تصدين أي هجوم،
ولم أفهم أن كل هذا كان في سبيل الظهور
أكثر مما هو فضيلة صلبة، لست سوى ضلع
عقفته الطبيعة، ملتو، كما يبدو الآن،
سحب من القسم الأيسر الخاطئ مني،
حبذا لو رمي، كشيء لا لزوم له
ويزيد عن عدد أضلاعي الصحيحة. آه لماذا الله
وهو الخالق الحكيم، الذي ملأ السماء العليا
بالأرواح المذكرة، خلق أخيراً
هذه البدعة على الأرض، هذا النقص الجميل
للطبيعة، ولم يملأ العالم دفعة واحدة
بالرجال كما فعل بالملائكة، من دون أنثى،
أو أوجد طريقة أخرى لخلق
البشرية؟ هذا الأذى ما كان ليحصل
وكثير مما سوف يحصل، ما لا يعد

من المزعجات على الأرض من خلال أشراك الأنثى،
والصلة المباشرة مع هذا الجنس: فإما أن الرجل
لا يجد الزوجة الملائمة، لا يجد إلا ما
يدفعه الحظ السيئ، أو عن طريق الخطأ،
أو من يرغب فيها، وقلما وصل إليها،
بسبب عنادها، ولكنه سوف يراها مع
من هو أسوأ منه بكثير، أو أنها تحبه، فيمانع
الوالدان، أو يكون اختياره الأسعد متأخراً
جداً، وتكون ارتبطت من قبل وتزوجت
بخصم معاد، فيلاقي كراهيته أو عاره:
فأي كارثة كبيرة سوف يسبب هذا
للحياة البشرية، ولأسس السلام المنزلي.
لم يضف شيئاً، فازور عنها، لكن حواء
لم تبرح، وبالدموع التي لا تتوقف عن التدفق،
وبجدائلها المضطربة، على قدميه
انحنت، وعانقتهما، وتوسلت
تطلب رضاه، وباشرت في شكواها.
لا تهجرني يا آدم، ولتشهد السماء

أي حب عميق وأي احترام في قلبي
أكنه لك، فقد أخطأت بلا قصد،
وخدعت خداعاً بائساً؛ بضراعة
أرجوك، وأمسك ركبتيك؛ لا تتكلني،
فبك أحيا، فنظراتك اللطيفة ومساعدتك
ومشورتك في هذا الكرب العظيم،
هي قوتي الوحيدة وسبب وجودي: إن أنت
هجرتني فأين أذهب؟
ما دمنا نعيش، عدا ساعة قصيرة ربما،
فليحل السلم بيننا، ونجتمع معاً
نجتمع في الضراء، وعداوة واحدة
ضد الخصم الذي يتقصدنا بحكم القدر،
وهو الأفعوان الظالم: فعلى تجربتي
لا يكون حقدك لهذه السقطة البائسة،
فأنا قد ضعت، وأكثر من نفسك
نفسي بائسة؛ وكلانا أخطأنا ولكن أنت
ضد الله فقط، وأنا ضد الله وضدك،
وإلى مكان قرار الحكم سوف نعود،

وهناك بصرخاتي أزعج السماء، حتى كل
قرار الحكم قد أزيحه عن رأسك وأضعه
علي، فوحدي سببت لك كل هذا الكرب،
وحدي أنا فقط من يقع هذا الغيظ عليه.
أنهت كلامها باكية، وورطتها
لا تتزحزح حتى تحصل على السلم من خطئها
الذي أقرته وتوسلت، فرثى لها آدم؛
وعلى الفور ندم قلبه
نحوها، وهي حياته وبهجته الوحيدة،
وعلى قدميه تذللت بحزن
مخلوقة جميلة تسعى لمصالحته،
وأزعجه أنها رفضت مشورته ومساعدته؛
وكمن يبقى بلا سلاح، هكذا تلاشى غضبه،
وبكلمات السلم أنهضها بسرعة.
تغفلين وتندفعين بقوة، كما من قبل
كذلك الآن، إلى ما لا تعرفين، يا من ترغبين
أن يقع العقاب كله على نفسك؛ ويلاه،
تحملي عقوبتك أنت أولاً، فلن تقدري تحمّل

غضبه الكامل وما تشعرين به هو أوله،
وقد انفجر امتعاضي بقوة. فإن كانت الصلوات
تغير الأحكام العليا، فسوف إلى ذلك المكان
أسبقك، ويكون صوتي أعلى،
بأن يقع على رأسي كل ما يمكن،
وأسامح جنسك الهش وغير الثابت،
فأنا اقترفت وأنا أتحمل.
لكن انهضي، ولا نتخاصم، ولا يلُـــم
أحدنا الآخر، فسوف نلام في مكان آخر، ولنسع
بشعائر الحب، كيف يخفف واحدنا
العبء عن الآخر ونحن نشترك في الكرب؛
منذ هذا اليوم أعلن الموت، فإن صدقت رؤيتي
فإنه لن يأتي فجأة، وإنما هو شر يسير ببطء،
وموتنا تطول أيامه ليزيد ألمنا،
وإلى ذريتنا (يا للذرية البائسة!) ينتقل.

وعلى هذا ردت حواء التي استعادت جأشها.

يا آدم أعرف بتجربتي الحزينة
كم هي طافية كلماتي عندك،

فهي خاطئة، لذلك فإني لهذا الحدث فقط
وجدت سوء الحظ، على أي حال،
لقد أعدتني، آثمة كما أنا، إلى مكان
قبول جديد، أملاً في استعادة
حبك، الاطمئنان الوحيد لقلبي
حياً أو ميتاً، ومنك لن أختبئ
مهما كانت الأفكار في صدري المضطرب جياشة
تريد التخفيف من تطرفنا،
أو من الخاتمة، على حدتها وبؤسها، والتي نحتملها،
على كثرة خطايانا، وهي اختيارنا الأسهل.
فإن كان الاهتمام بذريتنا يربكنا جداً،
فلا بد أن يولدوا في بعض الكرب، ويفترسهم
الموت أخيراً، ومن البؤس أن تكون
للآخرين سبب البؤس،
لنسلنا الخاص، ونحن دفعناهم
في هذا العالم اللعين عرقاً حزيناً،
فبعد حياة البؤس لا بد أخيراً
أن يكونوا طعاماً للوحش، ففي طاقتك

يكمن، فتمنع الحمل لتحول دون
العرق البائس، الذي لم ينجب بعد.
أنت بلا أطفال، وبلا أطفال ابق:
وهكذا نخدع شراهة الموت، وبنا نحن
يضطر أن يشبع فكّـــه الشره.
فإن رأيت أن ذلك صعب وقاس،
فنعيش كالأزواج في النظر والحب ونزهد
في طقوس الحب، وفي العناق الزوجي العذب،
وبرغبة في الذبول بلا أمل،
أمام الموضوع القائم[١] الذاوي
برغبة مماثلة، تكون بؤساً
وعذاباً لا يقل عما أرعبنا،
لذلك نحن وذريتنا حالما نتحرر
مما يخيفنا نحن وهم، فلنقم بالاختصار،
ولنبحث عن الموت، أو إن لم يوجد، فلنعمل
بأيدينا على القيام بمهمته على أنفسنا؛

(1) أي أمام حواء نفسها.

فلماذا نقف طويلاً مرتجفين تحت المخاوف،
التي تظهر أنه لا نهاية سوى الموت، ونملك القدرة،
بطرق كثيرة أن نموت بأقصر اختيار،
فندمر الدمار بالدمار.
أنهت كلامها، أو اليأس العنيف
قطع البقية؛ وبكثير من الموت أفكارها
تسلت، حتى شحب خداها.
ولكن آدم بهذه المشورة لم يتأثر أبداً،
فعقله يفكر بآمال أفضل
يقوم بالعمل لها، وهكذا رد على حواء.
حواء، ازدراؤك بالحياة واللذة يبدو
أنه يناقش في داخلك شيئاً أكثر رفعة
وأسمى مما يحتقره عقلك؛
ولكن الدمار الذاتي الذي تبحثين عنه يرفض
الفكرة السامية فيك، ويتضمن
ليس احتقارك، بل بالغم والندم
على فقدان الحياة واللذة المفرطة.
أو كنت تشتهين الموت، كنهاية أخيرة

للبؤس، بحيث تفكرين بتجنب
العقوبة المعلنة، فإنك لا تشكين بأن الله
قد سلح بحكمة غضبه المنتقم بحيث
يعلن مسبقاً؛ أخاف أكثر لو الموت
اختطفنا سيستثنينا من العذاب
الذي قضي علينا أن ندفعه؛ وهذه الأعمال
من العصيان سوف تثير الأعلى
إلى جعل الموت يعيش فينا: إذن دعينا نبحث
عن حل أسلم، وبدا لي أنني
أمسكت به، وأنا أتذكر وأنتبه
إلى جزء من الحكم علينا، بأن ذريتنا ستسحق
رأس الأفعوان؛ وهو إصلاح مشفق، ما لم
يعن، وهذا ما تأملت فيه، خصمنا الكبير
الشيطان، الذي دبر حيلة الأفعوان
ليستخدم هذه الخدعة ضدنا: فسحق رأسه
يعني الانتقام الفعلي؛ وهو انتقام يضيع
إذا جلبنا الموت على أنفسنا، أو قررنا
عدم إنجاب الأطفال، كما اقترحت أنت؛ وعدونا

يفلت وقتها من عقابه المفروض، ونحن بدلاً
من ذلك نضاعف مبكراً العقاب علينا.
لا إشارة بعد الآن إلى العنف
ضد أنفسنا، وإلى تصميم العقم،
فذلك يقطع أملنا، ولا ينقذ سوى
الضغينة والكبرياء، ونفاذ الصبر واليأس،
والنفور من الله ومن نيره العادل
الموضوع على عنقينا. تذكري ذلك الطبع
اللطيف والكريم الذي به سمع وحكم
من دون غضب أو شتم؛ وكنا نتوقع
الانحلال الفوري، الذي اعتقدنا أنه يعني
الموت في ذلك اليوم، فإذا هو لك، يا للعجب،
الآلام فقط في الحمل الذي تنبأ به،
وفي الولادة، وهذه آلام يعوضها الفرح،
تعوضها ثمرة بطنك: أما عليّ فقد وقعت اللعنة
أن أحدق في الأرض، وبالعمل أكسب
خبزي؛ فما الضرر؟ إن الكسل أسوأ؛
وعملي سوف يعينني؛ وإلا فإن البرد

أو الحرارة تؤذينا، فعنايته المناسبة
من غير أن نطلب تدخلت، ويداه
ألبستانا الثياب التي لا نستحقها، مشفقاً وهو يحكم؛
ماذا أكثر من ذلك، إن نحن صلينا فسوف تكون أذنه
مفتوحة، ويكون قلبه مفتوحاً للشفقة،
ويعلمنا أكثر طرق وقاية
الفصول العاصفة، من مطر وجليد وبرّد وثلج،
التي بدأت تلوح الآن في السماء بوجهها المختلف
لتظهر في هذا الجبل، بينما الرياح
تنفخ رطبة لاذعة، تبعثر الضفائر الجميلة
لتلك الأشجار المنتشرة الرائعة؛ التي تجعلنا نبحث
عن ملجأ أفضل، عن دفء أفضل للإبقاء
على أطرافنا المخدرة، قبل أن غياب هذا النجم النهاري[1]
تاركاً الليل بارداً، وكيف نجمع الأشعة
المنعكسة، ربما نسلطها على المواد الجافة،
أو نصدم جسمين صلبين بشحذهما

(1) الشمس.

فيشعل الهواء النار، كما رأينا مؤخراً السحب
تصطدم أو تدفعها الرياح العنيفة للاصطدام
فيظهر برق مائل، تندفع لهبته إلى الأسفل
فتشعل اللحاء الصمغي في التنوب أو الصنوبر،
وترسل حرارة ملائمة من بعيد،
يمكن أن تقوم مقام الشمس: هذه النار نستخدمها،
ونصلح ما يمكن إصلاحه، أو نعالج
الشرور التي أنتجتها أفعالنا السيئة،
وهو يعلمها لنا في صلاتنا، والنعمة
نطلبها منه، بحيث لا حاجة إلى الخوف
لعبور هذه الحياة مرتاحين، مدعومين
من قبله بكثير من السلوان، إلى أن ننتهي
في التراب، راحتنا الأخيرة ومنزلنا الأصلي.
خير ما نفعله هو العودة إلى المكان
الذي أصلحناه حيث حكم فيه علينا، وننبطح
أمامه بتقوى، وهناك نعترف
بأخطائنا بكل تواضع، ونعتذر متوسلين، بدموع
تروي الأرض، وبتنهدات تملأ

الهواء، مرسلة من قلبين تائبين، دلالة
على الحزن الصادق والتواضع الوديع.
ولا شك أنه سوف يرق ويترك
استياءه؛ ففي نظرته الهادئة،
حين غضب وبدا في أشد غضبه، هل
رأينا سوى العطف والنعمة والرحمة تظهر؟
هكذا تكلم أبونا التائب، ولم تشعر
حواء بأي ندم: وفوراً إلى المكان
الذي أصلحاه وصدر فيه الحكم انبطحا
أمامه بإجلال، واعترف كلاهما
بخطاياهما بكل تواضع، واعتذرا متوسلين، بدموع
تروي الأرض، وبتنهدات تملأ
الهواء مرسلة من قلبين تائبين، دلالة
على الحزن الصادق والتواضع الوديع.

* * *

الكتاب الحادي عشر

الخلاصة:

يقدم ابن الله إلى أبيه صلوات أبوينا الأولين التائبين الآن، ويشفع لهما: يقبل الله منهما، ولكنه يعلن أنهما يجب ألا يسكنا في الفردوس طويلاً؛ فيرسل ميخائيل مع عصبة من الشيروبيم لإخراجهما؛ ولكن أولاً يكشف لآدم الأشياء القادمة: فيهبط ميخائيل. يظهر آدم لحواء بعض الدلالات المشئومة؛ ويشاهد ميخائيل يقترب، فيخرج لملاقاته: فيخطره الملاك بالمغادرة. نواح حواء. أدم يتوسل، ولكنه يخضع: يقوده الملاك إلى هضبة عالية، ويخبره بما سيحدث حتى وقوع الطوفان.

* * *

هكذا في ورطتهما الدنيئة وقفا تائبين
يصليان، ومن مقعد الرحمة[١] من الأعلى
تهبط النعمة الممنوحة[٢] وقد أزاحت
التحجر من قلبيهما، وجعلت لحماً جديداً
حياً ينمو مكان السابق، وخرجت تنهدات الآن
غير منطوقة، استلهمتها روح الصلاة،
وطارت بها إلى السماء بأسرع من طيران
أعلى الصلوات المنطوقة: ومع ذلك وضعهما
ليس وضع اثنين وضيعين، فتوبتهما لا تقل
أهمية عن توبة الزوجين القديمين
في الحكايات القديمة، وأقل قدما منهما
وهما ديوكاليون وبيرها الطاهرة[٣] لتجديد

---

(1) مقعد الرحمة هو الغطاء الذهبي الذي يوضع فوق تابوت العرش، ويقيم فيه الله الذي منه يكلم موسى.

(2) في اللاهوت الكالفيني هي النعمة التي يعطيها الله من غير سؤال، فهو الذي يختار لمنحته من يريد.

(3) معنى ديوكاليون «بحار الكرمة الجديدة» وهو ابن بروميثيوس Prometheus وكليميني Clymene. عندما عاقب زيوس Zeus البشرية لقلة احترامها للآلهة بإرسال الطوفان، كان ديوكاليون وزوجته بيرها Pyrrha (وهي ابنة عمه =

عرق البشرية الذي غرق، أمام مقام
ثيمس فوقفا خاشعين. وصعدت صلواتهما
إلى الأعلى، ولم تخطئ الطريق، والرياح الحسودة
هبت متشردة أو محبطة: فعبرت منها
بلا أبعاد، عبر الأبواب السماوية؛ ثم تجلببت
بالبخور، حيث المذبح الذهبي يدخن،
وبشفيعهما العظيم، ظهرت عياناً
أمام عرش الأب: وقدمها الابن الفرحان
وهكذا بدأت شفاعته.

أنظر أبي أي ثمار أولى انبثقت من الأرض
من نعمتك التي زرعتها في الإنسان، فهذه التنهدات

= إيميثيوس) الناجيين الوحيدين. وما أنقذهما سوى تقواهما. وقد نصح بروميثيوس ابنه أن يبني فلكا ويبقى فيه ريثما تغيض الأرض المياه. وعندما رست الفلك أخيرا على قمة البرناس Parnassus رفعا قرابين الشكر إلى زيوس واستشارا وحي تيميس Themis كيف يملأان الأرض ثانية بالبشر. فكان الجواب أن يلقيا بعظام أمهما خلف كتفيهما وعندها سوف يظهر عرق بشري جديد. وعرف ديوكاليون أن الأم هي الأرض، فراحا يرميان الحجارة (عظام الأرض) فتتشكل بشرية جديدة. كل حجر رماه ديوكاليون كان يصير ذكرا وكل حجر ترميه بيرها يصير أنثى.

والصلوات، التي في هذه المبخرة الذهبية، اختلطت
بالبخور، وأنا، كاهنك، أمامك أحضرها،
ثمار المخلص الذي به سررت من بذورك
التي بذرت بالتوبة في قلبه، ثم تلك التي
سمّدتها يده فظهرت أشجاراً
في الفردوس وكادت تنتج، قبل السقوط
من البراءة. والآن أمل أذنك إلى
الضراعة ، واسمع تنهداته وإن صامتة؛
فهو غير ماهر بكلمات الصلاة، فدعني
أفسرها لك، أنا المدافع عنه
وأنا كفارته، وكل أعماله عليّ تقع
خيراً كانت أم لم تكن، فتطعَّم، وميزتي سوف
تكملها، ومن أجل هذا أدفع موتي ثمناً.
اقبلني، واقبل فيّ من هذين
رائحة السلام تجاه البشرية، فدعه يعش
أمامك متصالحاً، على الأقل مدة أيامه
المعدودة، وإن كانت حزينة، حتى الموت، مصيره
(الذي أنا أناشدك التخفيف، وليس التشديد)

وإلى حياة أفضل دعه يعبر، حيث معي
كل الذين حرروا يسكنون في فرح وبركة،
ومعي يكونون واحداً، كما أنا معك واحد.
وعليه ردّ الأب بهدوء ومن دون غيمة[1].
كل التماسك للإنسان أقبله يا بني،
وكل ما طلبته كنت قد أمرت به:
ولكنه لا يستطيع أن يسكن الفردوس طويلاً،
فالقانون الذي منحته للطبيعة يمنعه:
فتلك العناصر النقية الخالدة التي لا تعرف
الفظاظة، ولا فساد الخليط غير المنسجم،
ترفض تلوثه الآن، وتطهره منه
كسوء مزاج، فهو فظ يتنفس فظاظة،
والطعام الفاني، وهو ما يعده جيداً
للانحلال الذي صنعته الخطيئة، فأولاً
يفسد كل الأشياء، ومن الفساد
يفسد. منحته منذ البداية هديتين جميلتين

(1) العادة أن يظهر الله عند اليهود في غيمة أو دخان، أما هنا فإن ملتون يظهره للمسيح من دون غيمة.

وهبتهما له حين خلقته، وهما السعادة
والخلود: أضاع السعادة بحماقته
ولم يخدمه الخلود إلا في خلود الكرب؛
حتى قدمت له الموت؛ وهكذا يصبح الموت
علاجه الأخير، وبعد الحياة التي
يعيشها في محنة حادة، وينقيها
بالإيمان والأعمال الإيمانية[١] إلى حياة ثانية
فينهض مع إحياء الأبرار،
ويدع نفسه مع السماء الجديدة والأرض الجديدة.
فلندع إلى سينودس[٢] كل المباركين
عبر حدود السماء العريضة؛ ولن أخفي عنهم
أحكامي، وكيف فعلت بالبشرية، وكيف
فعلت بالملائكة الخاطئين كما شاهدوا مؤخراً؛
وفي حالتهم، على ثباتها، ظلوا متشبثين.
أنهى كلامه، فأشار الابن إلى أعلى

(1) يقول لوثر إن الإيمان وحده يكفي، بينما ملتون يرى أن الإيمان يجب أن يقرن بأعمال تجسده.

(2) المجمع أو المجلس أو الهيئة.

إلى الوزير المشرق الذي يحرس، فنفخ
في بوقه، وربما سمعوه في جبل حوريب
حين نزل الله، وربما ينزل مرة أخرى
لينفخ معلنا يوم الدينونة. وتردد النفير الملائكي
في كل الأقاليم: من ظل عريشة الأمارانت[1]
المباركة، ومن النبع أو العين،
بمياه الحياة، حيث أقاموا من قبل
في صحبة الفرح: فأسرع أبناء النور
واستجابوا للدعوة العليا،
وأخذوا مقاعدهم؛ إلى أن من عرشه الرفيع
أعلن الجبار مشيئته الحاكمة.
أبنائي، كواحد منا صار الإنسان
يعرف كلاً من الخير والشر، منذ ذاق
تلك الثمرة المحرمة؛ فلنتركه يتباهى
بمعرفته الخير المفقود، والشر الموجود،
كان الأسعد لو اكتفى بمعرفة

(1) اسم لوردة خيالية ترمز إلى الخلود.

الخير في ذاته، ولم يعرف الشر البتة.
الآن حزين وتائب ويصلي نادماً،
حركاتي فيه، تحركه منذ طويل الأمد،
أعرف قلبه، وكيف يتقلب ويغتر
لو ترك وذاته. وحتى يده الجريئة الآن
لا تقطف من شجرة الحياة، فيأكل،
ويعيش إلى الأبد أو يحلم على الأقل أنه يعيش،
إلى الأبد، قررت أن أطرده،
وأخرجه من الجنة حتى يحرث
الأرض الذي جبل منها، فهي التربة الأنسب.
يا ميخائيل، أسند إليك وصيتي،
خذ معك من بين الشيروبيم المحاربين
المتحمسين المختارين، وإلا فإن الشيطان
إما باسم الإنسان، وإما حتى يغزو
ممتلكات داشرة فيثير متاعب جديدة:
فأسرع ومن فردوس الله
غير آسفٍ اطرد الزوجين الخاطئين،
من الأرض المقدسة إلى الأرض غير المقدسة

وأبلغهما ولذريتهما من هناك
العقاب الأبدي، وحتى لا يضعفا
لدى سماع الحكم الحزين المنفذ بقوة،
لأني أراهما قد ضعفا وبالدموع
يندبان تفريطهما، فاخف كل أدوات الرعب.
وإن أطاعا الأمر بصبر،
فاطردهما بلا تعزية؛ واكشف
لآدم ما سوف يأتي في الأيام الآتية،
وكما أفهمتك، امزج مع الأمر
ميثاقي الذي يتجدد في ذرية المرأة؛
هكذا تخرجهما بسلام، وإن بحزن،
وعلى الجانب الشرقي من مكان الجنة،
حيث المدخل الأعلى الأسهل تسلقاً،
أقم الشيروبيم حراساً، وسيفاً من لهب
يتحرك واسعاً فيخيف من بعيد كل من يقترب،
ويحرس كل ممر إلى شجرة الحياة[1]:

---

(1) «وأقام شرقي جنة عدن الشيروبيم ولهيب سيف متقلب لحراسة طريق شجرة الحياة» (تكوين ٣: ٢٤).

وبهذا لا يكون الفردوس مطمعاً
للأرواح الشريرة، فتستبيح كل أشجاري،
ويخدع الإنسان بثمرها مرة أخرى.
أنهى كلامه؛ فأعد الملاك الرئيس
العدة للهبوط السريع، ومعه الجماعة المتحمسة
من حارس الشيروبيم، لكل واحد منهم أربعة
أوجه، مثل جانوس المضاعف[١]، وكل أشكالهم
تتلألأ بعيون أكثر عدداً من تلك التي في
أرغوس، وأكثر يقظة منها ضد النعاس،
الذي يجلبه المزمار الأركادي، القصبة الرعوية،
لهرمس[٢]، أو عصاه المخدرة. وأثناء ذلك

---

(1) رب الطرق والبوابات والأعتاب، له وجهان: واحد للماضي وآخر للمستقبل. وقوله «المضاعف» أي إن وجوه الشيروبيم.
هي ضعف وجهي جانوس. وأطلق الرومان اسم إلههم على أحد أشهر السنة: جانيوري (يناير).

(2) أرغوس وحش بمئات العيون كلفته هيرا بحراسة إيو، عشيقة زوجها زيوس، فأرسل زوجها هرمس ليتخلص منه ويحرر إيو، فاستخدم هرمس شبابة مصنوعة من قصب أركاديا، وبلحنه الهادئ الطويل نامت عيون أرغوس فقتله.

عادت لتحية العالم بالنور المقدس ليوكوثيا[1]
المستيقظة، وبالندى الطري رطبت
الأرض، حين كان آدم وحواء الأم الأولى
أنهيا صلوات الصبح، ووجدا
قوة مضافة من الأعلى، وأملاً جديداً انبثق
من اليأس، إنه فرح، ولكن ظل مرتبطاً بالخوف؛
فجدد كلمات ترحيبه بحواء.
حواء، من السهل قبول الإيمان، فكل
الخير الذي نتمتع به، يهبط من السماء؛
ولكن لا يمكن نحن أن نصعد إلى السماء
بحيث ننفشى حتى نقلق عقل
الله صاحب البركة العليا، أو ننحني لإرادته،
يبدو صعبا تصديق هذا؛ لكن تفعل فعلها هذه الصلاة،
أو تنهيدة قصيرة واحدة من الأنفاس البشرية، تصعد
فتصل إلى مقعد الله. فمنذ أن اعتمدت
الصلاة لتهدئة الإله المستاء،

---

(1) ربة الفجر عند الرومان توحدت مع الماغنا ماتير (الأم العظمى) ويقال إنها ربة الفجر.

وركعت وأمامه تواضعت من كل قلبي،
أعتقد أني رأيته يرق ويلين،
ويميل بأذنه؛ وزادت قناعتي في داخلي
أنه سمعني متعاطفاً؛ فقد عاد السلام
إلى صدري، وعاد وعده إلى
ذاكرتي، وهو أن نسْلَــكِ سيسحق رأس عدونا؛
وهو الوعد الذي لم نفكر به أثناء هياجنا، ولكن الآن
تأكد لي أن مرارة الموت هي
من الماضي، وسوف نحيا. فالسلام عليك،
حقاً تسمين حواء، أم جميع الأحياء،
أمّ كل الأشياء الحية، ما دام منك
يحيا الإنسان، وكل الأشياء تعيش لأجله.
على هذا ردت حواء بسلوك حزين رزين.
لست جديرة بمثل هذا اللقب الذي تنسبه
إليّ أنا العاصية، الذي خلقني
لأساعدك، فصرت شركاً أوقعك؛ فحقّ اللوم
عليّ ، والحنق وكل الهجاء:
ولكن القاضي كان غفوراً بلا حدّ،

فأنا أول من أحضر الموت للجميع، كرمني
وجعلني مصدر الحياة؛ وفضّلني من بعدك،
إنه يشرفني بهذا اللقب
وهو أبعد من أن أستحقه. ولكن حقل
العمل يدعونا الآن بعرق جبيننا المفروض،
مع أننا أمضينا ليلاً ساهراً؛ فانظر إلى الصباح،
إنه لا يهتم أبداً بقلقنا، ويبدأ
بضحكته الوردية، دعنا نخرج،
ولن أنحرف أبداً عن جانبك،
مهما يكن عمل يومنا، وإن أمرنا الآن بالجهد
المشترك، حتى ينتهي النهار؛ ما دمنا نسكن هنا،
ثم ماذا يكون الكدح في هذه الممرات الممتعة؟
لنعش هنا، راضين، وإن في حالة السقوط.
هكذا تكلمت، حواء المتواضعة، لكن القدر
لم يشاركها رغبتها؛ فقدمت الطبيعة أولاً إشارات
ظهرت في الطير والوحش والهواء، ففجأة كسف الجوّ
بعد توهج الصباح القصير؛ وبالقرب منها

طائر جوف[1]، ينقض من برجه الجوّي،
على طاووسين[2] بريشهما المدهش وهما يهربان منه:
ومن الهضبة هبط الوحش[3] الذي يحكم في الغابة،
صار صياداً لأول مرة، فطارد زوجين لطيفين؛
أجمل من كل حيوانات الغابة، ظبي وظبية؛
مباشرة إلى البوابة الشرقية وجّها هربهما.
لاحظ آدم ذلك وبعينه لاحق
الصيد، ومن دون أن يتحرك هكذا تكلم مع حواء.
يا حواء، إن تغيراً أساسياً ينتظرنا قريباً،
تظهره لنا السماء بهذه الإشارات البكماء
كسوابق لغرضه، أو لإنذارنا
بأننا ضمنّا بفرح عميق هربَنا من
العقوبة، لأننا هربنا من الموت

---

(1) هو النسر.
(2) الطاووس هو الطائر المفضل عند هيرا زوجة جوف. ولهذا الكلام رمزيته.
(3) هو الأسد وفي قصة الخلق لم يكن قبل السقوط يفترس بقية الحيوانات.

بضعة أيام، كم تطول، وكيف نمضي حياتنا،
ومن يدري، أو يعرف أكثر من هذا، فنحن تراب
وهناك نعود ولكن لن نكون شيئاً.
لماذا يقع هذا الموضوع المضاعف أمام بصرنا
من الهرب، من الملاحقة في الجو وفوق الأرض
بالطريقة ذاتها وفي الساعة نفسها؟ ولماذا في الشرق
تحدث ظلمة قبل منتصف النهار، والصبح يسطع
أكثر في الشرق في الغيمة الغربية التي تلقي
فوق الجلَد الأزرق تألقاً أبيض،
وتهبط ببطء، مع شيء مشحون من السماء.
لم يخطئ، فالعصابات السماوية
هبطت من سماء العقيق[١] وحطت الآن
في الفردوس، وتوقفت فوق هضبة،
شبح مجيد، ولا شك فيه
وخوف جسدي في ذلك النهار أعتم عين آدم.

(1) تعبير مأخوذ من الرؤيا ٤: ٣.

لا يقل مجداً عن ذلك اللقاء حين الملائكة
قابلوا يعقوب في محنايم، حيث رأى[١]
الحقل نصبت فيه سرادق بحراسه المشرقين؛
ولا عن ذاك الذي ظهر على الجبل الملتهب
في دوثان، مغطى بمعسكر من نار،
ضد الملك السوري، الذي حتى يفاجئ
رجلاً واحداً، شن حرباً خفية كأنه سفّـاك،
حرباً غير معلنة. رئيس الملائكة ميخائيل
في موقعهم المشرق، ترك قواته تحاصر
وتستولي على الجنة، وحده،
حتى يعثر على مكمن آدم، شق طريقه،
ولم يغفل آدم عن هذا، ولكنه اتجه إلى حواء،
بينما الزائر الكبير يقترب، وكلمها هكذا.
يا حواء، أتوقع الآن أخباراً عظيمة، ربما
تقرر مصيرنا حالاً، أو تفرض

---

(1) تكوين ٣٢: ١- ٢.



فالعصابات السماوية تهبط من
سماء العقيق إلى الفردوس (١١: ٢٠٨)

علينا قوانين جديدة علينا تطبيقها؛ فأنا ألمح
من تحت الغيمة الملتهبة التي تحجب الهضبة
[٢٣٠] أحد الحشود السماويين، ومن مشيته
يظهر أنه ليس وضيعاً، إنه عاهل كبير
أو من أصحاب العروش، فهذا الجلال

يغلف قدومه؟ ولكن لا شيء يرعب،
حتى أخافه، وليس هو لطيفاً،
مثل رفائيل، حتى أثق به،
ولكنه وقور ومتسامٍ، لن أهاجمه،
بكل احترام سأقابله، وعليك أن تتواري.
أنهى كلامه؛ وبسرعة اقترب رئيس الملائكة،
ليس في شكله السماوي، بل كرجل مرتدٍ
ثياباً يقابل رجلاً؛ وفوق ذراعيه الساطعين
رداء عسكري من الأرجوان يفيض
حيوية أكثر من الأرجوان الميليبياني[١]، أو منمنمات
صيداء، التي يرتديها الملوك والأبطال القدامى
في زمن الهدنة؛ إن آيريس[٢] هي التي صنعته؛
وخوذته ذات النجوم محلولة البزيم فأظهرت أصله
إنه في الرجولة وقد تخطى سن الشباب؛ وبجانبه
علق سيفاً، كأنه في السمت السماوي البراق،
يخافه الشيطان خوفاً شديداً، وبيده رمح.

---

(1) مدينة في شاطئ تيساليا اشتهرت بصناعة الأرجوان.

(2) رسولة الآلهة ويشخصونها بقوس قزح.

انحنى آدم، ولكنه بملوكيته لم يغير من
حالته، وإنما أعلن الغاية من قدومه هكذا.
يا آدم، الوصية العليا للسماء لا تحتاج إلى تمهيد:
فقد وصل ما يكفي من صولاتك المسموعة، والموت
حكم عليك به حين اقترفت الخطيئة
وتأخرها لأيام عديدة
منحة لك من النعمة، قد تتوب في أثنائها،
وعمل سيء واحد يحتاج الكثيرَ من الأعمال الحسنة
حتى يُمحى: وربما عندها يهدأ غضب ربك
فيعتقك تماماً من مطالبة الموت السريع بك
ولكن مدّة أطول من هذه السكنى في الفردوس
غير مسموح بها؛ ولإخراجك جئت،
وأبعدك عن الجنة حتى تحرث
الأرض فالتربة التي أخذتَ منها أنسب لك.
لم يزد شيئاً، لأن آدم سمع الأخبار
التي يرتجف القلب منها فأمسك به الحزن،
وكبلت كل أحاسيسه؛ حواء التي كانت متخفية

سمعت بكل شيء، فراحت تعول ناحبة
ففضحت بسرعة مكان مخبئها.
يا ضربة غير متوقعة، أسوأ من الموت!
لا بد من مغادرتك أيها الفردوس؟ هكذا أتركك
يا تربتي الأصلية، وممراتك وظلالك السعيدة،
أهي لزيارة الآلهة؟ حيث كنت أمضي، وإن
بحزن، بقية ذلك اليوم
الذي يجب فيه أن نفنى كلانا. أيتها الزهور
التي لن تنمو في أي مناخ آخر،
يا أول زياراتي المبكرة، وآخر زياراتي
المسائية، بيدي تعهدتك
من البرعم المتفتح الأول، وأطلقت عليك الأسماء،
من يعتني بك الآن ليعرضك للشمس، أو يرتب
أصنافك، ويسقيك من النبع الأمبروزي[1]؟
ثم إنك عريشة زواجي، زينتها
بكل ما هو جميل للنظر أو الرائحة؛ فعنك

(1) الأمبروز شراب الآلهة الذي يضمن لهم الخلود.

كيف أنفصل، في أي مكان أتجول
في عالم أقل سموّاً، عالم مظلم
وبري، فكيف نتنفس في هواء آخر
أقل نقاء، وقد اعتدنا الثمار الخالدة؟
قاطعها الملاك بلطف وهكذا كلمها.
لا تنوحي يا حواء، بل تحملي بصبر
ما ضاع منك بحق؛ ولا تجعلي قلبك
هكذا يتعلق، بما ليس لك؛
أنت لا تخرجين وحيدة، معك يذهب
زوجك، فأنت ملزمة بأن تتبعيه؛
وفكري حيث يسكن، فهناك تربتك الأصلية.
استفاق آدم من ذهوله،
واستعاد روحه المبعثرة،
وبكلماته المتواضعة أعلن لميخائيل.
أيها السماوي، سواء من أصحاب العروش، أو
في مرتبة أعلى منهم، لأن مثل هذا الشكل قد يبدو
أمير الأمراء، بلطف أبلغتنا
رسالتك، ولو بغير ذلك لجرحتنا،

وقضى علينا تنفيذها؛ فإلى جانب
الحزن والكآبة واليأس اللواتي أضفن
إلى ضعفنا، أحضرت خبرك في
أمر مغادرتنا هذا المكان السعيد، راحتنا
الجميلة والعزاء الوحيد المألوف
لعيوننا، فكل الأماكن الأخرى
وحشية تبدو ومعزولة،
لا تعرفنا ولا نعرفها: ليتني بالصلاة
الدائبة آمل أن أغيّر مشيئة
القادر على كل شيء، ولن أكف
عن إزعاجه بصرخاتي المستمرة:
بيد أن الصلاة ضد قراره المطلق
لا تجدي أكثر مما تجدي نفخة في وجه الريح،
فترتد وهي كظيمة إلى من نفخها:
لذلك إني أخضع لدعوته العظيمة.
إن هذا يؤثر فيّ كثيراً، وبالتالي فإن رحيلي،
لأني سأختبئ من أمام وجهه، سوف يحجب
عني طلعته المباركة؛ وسوف أتردد إلى هنا،

بالعبادة، وأرحل من مكان إلى مكان حيث يعطف
عليَّ بحضوره المقدس، فأروي ذلك لأبنائي؛
فعلى هذا الجبل ظهر، وتحت هذه الشجرة
وقف مرئياً، ومن بين الصنوبر سمعت
صوته، وهنا معه عند هذا النبع تحدثنا:
سأقيم له المزارات العظيمة
من أرض عشبية، وأراكم كل حجر
يلمع من الجدول، ذكرى،
أو نصباً للعصور، وهناك
أقدم الصمغ والثمار والأزهار:
ولكن هناك في العالم السفلي الأقل أين أبحث
عن ظهور المشرق، أو أتحرى آثار أقدامه؟
ومع أني هربت من غضبه، فقد دعاني
إلى حياة أطول ووعدني بسلالة، فأنا الآن
بسرور أنظر إليه ولكن بأثواب من
المجد، وأعبد خطواته المرتقبة.

وعلى هذا رد ميخائيل بكل لطف.

يا آدم، أنت تعرف أن السماء له، وكل الأرض.

ليس هذه الصخرة فقط؛ فقدرته تملأ
البر والبحر والجو، وكل نوع من أنواع الحياة،
جعله ينسجم مع الطبيعة بقوته وأدفأه:
كل الأرض أعطاك لتملكها وتحكمها،
وهي عطية لا يزدرى بها؛ فلا تظن أن
حضوره محدود بهذا النطاق الضيق
للفردوس أو عدن: ربما كانت هذه
مستقرك الرئيسي، الذي من هناك تنتشر
كل الأجيال، وتأتي من
كل أطراف الأرض، لتحتفل بك
وتبجل جدها الأعظم.
ولكن هذه المكانة السامية فقدتها، فدُفعت
أن تسكن في الأرض العادية الآن مع أبنائك:
لذلك لا تشك فحتى في الوديان والسهول
الله موجود كوجوده هنا، وكذلك ستجد
حضوره كحضوره هنا، وعلامات كثيرة لحضوره
لا تزال تتبعك، وتوجهك إلى
الخير والحب الدائم، وسيترك

وجهه وخطواته الأثر الإلهي.
فعليك أن تصدق، وكن على يقين
قبل أن تغادر هذا المكان، وتعرف أنني أرسلت
لأريك ما سوف يمرّ في الأيام القادمة
عليك وعلى نسلك؛ فتوقع أن تسمع الجيد
والرديء، فالنعمة الإلهية راضية
عن خطيئة البشر؛ حتى يتعلموا
الصبر الحقيقي، وحتى يدعموا الفرح بالخوف
والحزن التقي، ويتحملوا
بالاعتدال كل حالة،
مزدهرة كانت أم مفتقرة: وهكذا عليك أن تقود
بأمان حياتك، وأن تعد نفسك جيداً
لممرّك الفاني عندما يستحق. اصعد
هذه الهضبة: دع حواء (لأني أسدلت جفنيها)
نائمة هنا ريثما تنفتح بصيرتك،
كما نمْتَ مرة، بينما كانت هي تُخلق للحياة.
وأجاب آدم على هذا بكل احترام.
اصعد أنت وأنا أتبعك، كدليل آمن، في الطريق

الذي تقودني فيه، وليد الخضوع السماوي،
مهما كان عقابها، وللشر أدير
صدري الهش، متسلحاً للنصر
بالمعاناة، وأكسب الراحة بالعمل،
إن حصلت على ذلك. وهكذا صعد الاثنان
في رؤى الله: إنها هضبة
الفردوس العليا، من قمتها
يظهر نصف الكرة الأرضية أوضح
يمتد واسعاً حتى أبعد مشهد.
ليس أعلى من تلك الهضبة ولا أعرض حولها،
حيث لسبب مختلف أخذ الشيطان
آدمنا الثاني[١] إلى البرية،
ليريه كل ممالك الأرض ومجدها.
فعينه تستطيع هناك أن ترى المدينة
القائمة لحواء القديمة والحديثة، وموقع
الإمبراطورية الأقوى، من

---

(1) المسيح.

كامبالو، وموقع خان قاطاي وسمرقند
القريبة من نهر أكسوس، وعرش تيمورليك،
حتى بكين ملوك سانيان، ومن هناك
إلى أكرا ولاهور عاصمة المغول العظيمة
نزولاً إلى مالاقا وتايلاند، أو حيث
جلس الفارسي في أكباتان، أو بعدها
في أصفهان، أو حيث القيصر الروسي
في موسكو، أو السلطان في بيزنطة،
الذي ولد في تركستان؛ ولا تستطيع عينه
أن ترى إمبراطورية النجاشي حتى أبعد ميناء
أركوكو وأقل منهم ملوك البحر في
مومبازا وكيلا وميلاند في كنييا وسوفالا التي
يظنونها أوفير في موزامبيق؛ حتى مملكة
الكونغو، وأنغولا في أقصى الجنوب؛
أو من فيضان النيجر حتى جبل أطلس
ممالك المنصور وفيز وسوسة،
ومراكش والجزائر، وتلمسان؛
ومن هناك إلى أوروبا، حيث روما تحكم

العالم: وبالروح ربما رأى أيضاً
مكسيكو الغنية موقع موتيزومي،
وكوسكو في البيرو، الموقع الأغنى
أتاهوالبا وغينيا التي لم تكن قد نهبت،
التي يسميها أبناء جيريون[1]
إلدورادو: ولكن نحو المناظر الأنبل
أزال ميخائيل الغشاوة عن عيني آدم
اللتين زعمت الثمرة المحرمة أنها تجلي بصرهما
فزادته غشاوة؛ ثم طهر بأعشاب الإيوفراسي[2] وبالندم
العصب البصري، حتى يرى كثيراً؛
وقطر من بئر الحياة ثلاث قطرات.
فنفذت قوة هذه العناصر إلى العمق،
حتى إلى المكان البعيد للرؤيا العقلية،
بحيث اضطر الآن آدم أن يغلق عينيه،
سقط أرضاً وصارت كل قواه الروحية مخدرة:

---

(1) في «الكوميديا الإلهية» يستخدم دانتي الوحش جيريون كرمز للخديعة، ويستخدمه سبنسر في «ملكة الجن» تشخيصاً للاضطهاد الأسباني.

(2) يقال إنها نوع من الأعشاب الخاصة بعلاج الإبصار.

ولكن الملاك اللطيف بسرعة مدّ يده
وأنهضه، وهكذا استعاد انتباهه.
يا آدم، افتح الآن عينيك، وانظر أولاً
التأثيرات التي تركتها جريمتك الأولى
في بعض من تنجبهم أنت، الذين لم يلمسوا
الشجرة المحرمة، ولا مع الأفعوان تآمروا،
ولا اقترفوا خطيئتك، ومع ذلك من تلك الخطيئة
نشأ الفساد لينتج المزيد من أعمال العنف.
فتح عينيه فرأى حقلاً،
قسماً زرع وحرث، وفيه هناك أغمار
حصدت حديثاً، والقسم الآخر فيه أغنام تمشي وزرائب[1]؛
في الوسط قام مذبح كعلامة برية انتصبت
ريفية، من التربة العشبية؛ وحالاً من هناك
ظهر حاصد يتصبب عرقاً من الحراثة يحمل
الثمار الأولى، والسنابل الخضراء، والحزم الصفراء،

---

(1) هنا تبدأ قصة قايين وهابيل، الأول مزارع والثاني راعي، فقبل الله ذبيحة اللحم ولم يقبل الأعشاب... إلى آخر القصة.

غير مختارة، كما وصلت إليها اليد؛ ثم جاء راع
أكثر وداعة مع أبكار قطيعه
المختارة والأفضل؛ ثم ضحى ووضع
الأحشاء ودهنها، مع بخور معطر،
[٤٤٠] على الخشب المشقوق، ونفذ كل الشعائر.
وبسرعة نزلت نار بشارة من السماء على قربانه
والتهمته بلمح البصر، فتصاعد دخان الشكر؛ أما
القربان الآخر فلم تأكله النار، لأن صاحبه لم يكن باراً؛
فاستلقى غاضباً وعندما تحادثا،
[٤٤٥] ضربه بحجر في بطنه
تلك الضربة التي أودت بحياته؛ فسقط ومات شاحباً
وأنت روحه وهي تخرج مع دمه المراق.
أثر هذا المشهد في آدم حتى أعماقه
فارتاع وبسرعة صاح بالملاك.
[٤٥٠] يا معلم، لقد حدث أذى عظيم
لذاك الرجل الوديع، الذي ضحى وقبل القربان؛
أهذا جزاء الورع والعبادة النقية؟
كان ميخائيل متأثراً فأجاب.

هذان أخوان، يا آدم، وسيأتيان من
صلبك؛ فغير البار قتل البار
حسداً لأن قربان أخيه لم يجد
من السماء قبولاً؛ ولكن العمل الدموي
سيجر الانتقام له، وإيمان الآخر يقدر
ولن تضيع مكافأته، مع أنك تراه هنا ميتاً،
يتضرج بالتراب والدم. فرد أبونا.
يا للحسرة على الفعل وعلى النتيجة!
ولكن هل رأيت أنا الآن الموت؟ أبهذه الطريقة
عليّ أن أعود إلى التراب الأصلي؟ يا لمشهد
الرعب، مخيف وبشع النظر إليه،
مرعب للفكر وكم هو مرعب للشعور!
ورد ميخائيل عليه. شاهدت الموت
في شكله الأول على الإنسان؛ ولكن هناك أشكالاً
من الموت، وكثيرة الطرق التي تقود
إلى قبره المظلم، وكلها كريه؛ ولكن الإحساس
أشد رعباً في المدخل من الداخل.
بعضهم، كما رأيت، يموتون بضربة عنف،

بالنار، بالطوفان، بالجوع، بمزيد من الإفراط
في الأكل والشرب، الذي سيجر على الأرض
الأمراض الأليمة، الذي منه يظهر حشد
هائل أمامك؛ بحيث تدرك
أي شقاء جره شره حواء
على البشر. وعلى الفور ظهر مكان
أمام عينيه، حزيناً ضاجاً مظلماً،
فظهر مشفى المجذومين، وحيث استلقى عدد
من جميع المصابين، وجميع الأمراض
من الانقباضات الشنيعة، أو عذاب الخلع،
إلى وخز ألم القلب المريض، وكل أنواع الحمى،
والتقلصات والصرع والتهابات التنفس الشديدة،
وحصى الأمعاء والقرحة، وآلام المغص،
والجنون الشيطاني[1]، والاكتئاب المغم

(1) ظل أطباء القرن السابع عشر يؤمنون أن الأمراض العقلية يسببها الجني أو الشيطان، ولا بد من استخدام طرق لإخراج الأرواح النجسة التي تسبب هذه الأمراض، وهناك أمثلة في الأناجيل عن الروح الشيطانية ودخولها بدن الإنسان. كما كانوا يؤمنون بالأمزجة، كالدموي والبلغمي...الخ.

وجنون ضربة القمر، والضمور المهلك
والطاعون المتلف الوبائي
والاستسقاء والربو وروماتيزم المفاصل.
كان تقلبهم مرعباً، وأنينهم عميقاً ويأسهم
يجعل المرض ينتقل من فراش إلى فراش؛
والموت المنتصر يقف فوقهم وهو يهز
سهمه ولكنه يؤخر الضربة، على الرغم
من طلب المرضى، كإجراء جيد وكأمل أخير.
أي قلب من حجر يرى هذا المنظر المشوه ويبقى
طويلاً ينظر بعين ناشفة؟ لم يستطع آدم، بل بكى،
مع أنه غير مولود من امرأة؛ لكن الشفقة سحقت
رجولة الإنسان، وأسلمته للدموع
مدة، إلى أن أفكاره الثابتة كبحت تفريطه،
وبالكاد استعاد كلماته فتجددت شكواه.
يا للبشرية البائسة، إلى أي درك
انحططت، وأي حالة تعيسة تحتفظين بها!
أفضل نهاية عدم الولادة. لماذا تمنح الحياة
لتكون هكذا تعيسة لنا؟ والأجدر أن نسأل لماذا

أقحمت علينا هكذا؟ فواحدنا إن عرف
ما يتلقاه، إما أن يرفض
الحياة المقدمة، أو بسرعة يتوسل أن يتركها،
ويكون سعيداً لو غادرها بسلام. هل يمكن
لصورة الله في الإنسان التي خلقت ذات مرة
خيّرة منتصبة، وإن أخطأ وقتها، تنحط
إلى هذه المعاناة التي لا مثيل لها،
تحت وطأة الآلام غير الإنسانية؟ لمَ لا يكون
الإنسان، المحتفظ بعد بالشبه الإلهي
جزئياً، متحرراً من هذه التشوهات،
يستثنى منها من أجل صورة خالقه؟
رد ميخائيل، صورة الخالق إذن
تتخلى عنهم، عندما يأثمون في
خدمة شهوة طائشة، ويتخذون
صورة من يخدمونه، وهو الخطيئة البهيمية،
التي تؤدي عموماً إلى خطيئة حواء.
لذلك فإن هذه الدناءة عقابهم،
حتى لا يشوهوا شبه الله، ولكن شبههم الخاص،

أو ما يماثله، يواجهونه بأنفسهم
حين يمنعون الصحة الطبيعية النقية من التحكم
في المرض الشنيع، فهم يستحقون ذلك ما داموا
لم يحترموا صورة الله في أنفسهم.
قال آدم، هذا عدل وأخضع له.
ولكن إن لم تكن هناك طريقة أخرى، بجانب
تلك الممرات المؤلمة، فكيف يمكن أن نمضي
إلى الموت ونختلط بترابنا الذي منه طبيعتنا؟
قال ميخائيل، لو لاحظت جيداً، هناك
قاعدة عدم الإفراط، عن طريق تعلم الاعتدال
بحيث تأكل وتشرب، سعياً إلى
ضمان الغذاء، وليس متعة الشراهة،
إلى أن يمر على رأسك الكثير من السنوات:
وهكذا تعيش إلى أن تنضج الثمرة فتسقط
في حضن أمك، أو بسهولة
تجمع جمعاً، ولا تقطف بصرامة، لأن الموت أنضجك:
هذه هي الشيخوخة؛ ولكن وقتها عليك أن تخلع
صباك وقوتك وجمالك، فيتغيرن

إلى ضعف ذابل وإلى شيب، وحواسك
تصبح متبلدة، ويتخلى عنك تذوق اللذة،
وتكتفي بما لديك، وبدلاً من هواء الشباب
والأمل والمرح، سوف تحل في دمك
رطوبة كئيبة من البرودة والجفاف
لترخي معنوياتك، وتستنفد حتى النهاية
بلسم الحياة. فرد جدنا على ذلك.
لهذا لا أهرب من الموت، ولا أطلب
طول حياة، بل الأحرى سأتدبر بكل هدوء
وحق وبساطة هذه المهمة المرهقة،
التي عليّ أن أحتفظ بها حتى اليوم المعين
لاستدعائها، وأسهر صابراً حتى
يحين انحلالي. فأجاب ميخائيل.
لا تحب حياتك ولا تكرهها؛ بل اقض أيامك
جيداً، مهما كان سماح السماء طويلاً أو قصيراً:
والآن جهز نفسك لمشهد آخر.
نظر فرأى سهلاً واسعاً، عليه نصبت
خيام من شتى الألوان؛ بقرب بعضها قطعان

من الأبقار ترعى: الأخرى، سمع منها صوت
آلات بإيقاعات منسجمة،
من القيثارة والأرغن؛ والذي يتحكم
بمماسكها وأوتارها ظهر لآدم: لمسته سريعة
بغريزته يعزف كل النغمات المنخفضة والعالية
فتطير تلاحق أصوات الفيوغ[1] الرنانة.
في قسم آخر وقف عند الكير أحدهم
يعمل، وقطعتان ضخمتان من الحديد والنحاس
صهرهما (إما وجدهما حيث سببت النار
حريقاً في الغابات على الجبل أو في الوادي،
عميقاً في عروق الأرض، ومن هناك انزلقتا
حارتين إلى بعض مداخل الكهوف، وإما جرفهما نهر
من تحت الأرض) فجفف المعدن السائل
وأعده في قوالب مناسبة؛ منها شكل
أولى أدواته الخاصة؛ وبقية الأدوات

(1) الفيوغ تأليف موسيقي يتناول موضوعاً أو أكثر وقد استخدمت موسيقى الفيوغ في القرن السابع عشر في القداس الإلهي وفي الخدمات الكنسية الأخرى.

كانت بالسكب أو بالحفر بحماسة. وبعد هؤلاء،
ولكن من الجانب الآخر، نوع مختلف
من التلال المجاورة، التي كانت مقرهم،
هبط قوم إلى السهل: هيئتهم تدل أنهم
قوم أبرار، كما يظهرون لهم[1]، وكل همهم اقتصرت
على عبادة الله عبادة صحيحة، ومعرفة أعماله
غير الخفية، وليس تلك الأشياء التي قد تحفظ
السلام والحرية بين الناس: فعلى السهل
تاقوا أن يمشوا، حين من الخيام رأوا
شلة من النساء الجميلات، مرحات يتزيّنّ
بأحجار كريمة ولباس لعوب؛ فأنشدن على القيثارة
بعض أغاني الغرام، ثم انخرطن في الرقص:
مع أن الرجال متزنون، لمحوهن، وتركوا عيونهم
بلا قيد عليهن؛ إلى أن اصطادتهم شبكة
الحب، فتحاببوا، واختار كل من يحب؛

---

(1) أي كما ظهروا لآدم ولأي بشري آخر. والقصة هنا تدور حول العماليق وهي قصة يعتمدها ملتون من سفر التكوين: الإصحاح السادس ويسمونهم «النيفليم» أي الجبابرة.

والآن تبادلوا الحب حتى ظهر نجم المساء
نذير الحب؛ ثم بحماسة
أشعلوا مصباح الزواج، ودعوا متوسلين
هايمن[١]، وهو أول مرة يدعى لشعائر الزواج؛
وضجت الخيام بالاحتفال والموسيقى.
هذا المشهد السعيد والحدث الجميل
للحب والشباب لم يفته من أغان وأكاليل وأزهار
وسيمفونيات[٢] ساحرة أسرت قلب
آدم، وبسرعة تقبل الفرح واعترف به،
نزعة للطبيعة؛ وهذا ما عبر عنه[٣].

أنت الفاتح الحقيقي لعيني، أيها الملاك المبارك،

---

(1) الكلمة تعني غشاء البكارة، لكن الاسم يشار به هنا إلى إله الزواج عند الإغريق، وهو ابن أبوللو من كليوبي، ويقال بل ابن ديونيسيوس. وهو الذي يثير الفتاة ويدفعها إلى الزواج، ومن هناك أطلق اسمه على غشاء البكارة.

(2) كانت السيمفونية في القرن السابع عشر عبارة عن قطعة موسيقية بسيطة تستخدم للرقص والطرب، وعلى الأخص في فرنسا.

(3) في اعتقاد ملتون أن الحب الروحي موجود قبل السقوط، قبل الإحساس الجسدي، وربما قصد هنا اعتراف آدم بهذا النوع الناجم عن الطبيعة الروحانية التي دخلت الجسد عند التكوين.

هذه الرؤيا أفضل كثيراً وأكثر أملاً
من الأيام السلمية التي تنبأت بها، ومن الاثنين اللذين
مرا؛ وهما الكراهية والموت، أو الألم وهو أسوأ منهما،
هناك تبدو الطبيعة وقد تحققت في كل أهدافها.
رد ميخائيل على هذا. لا تحكم على
الأفضل من اللذة، وإن كان يلبي الطبيعة،
فهو مخلوق، مثلك، لغاية أنبل
من القداسة والنقاء، والانسجام مع الله.
تلك الخيام التي رأيتها بهيجة كانت خيام
الشر، حيث يسكن عرق ذاك الذي
قتل أخاه، ويظهرون مهتمين بالصناعات
والحياة الممتعة، إنهم مبتكرون نادرون،
لا يفكرون بخالقهم، مع أن روحه
علمتهم، لكنهم لم يعترفوا بعطاياه.
ومع ذلك سوف ينسلون نسلاً جميلاً؛
ففصائل النساء الجميلات اللواتي شاهدت، يظهرن
كأنهن من الربات، سعيدات ناعمات فرحات،
ولكنهن فارغات من الخير الذي يوجد

في الشرف المنزلي للمرأة، وهو الصفة الأولى لها؛
نشأن واكتملن فقط على تذوق
المتعة الشهوانية، على الغناء والرقص
والملبس وطول اللسان، ومتعة العين.
إليهن هفا ذلك العرق الرصين من الرجال، الذين
حياتهم الدينية أهلتهم للقب أبناء الله،
وسوف يتخلون عن فضيلتهم وسمعتهم
بكل خسة، لمصائد وابتسامات
أولئك الفتيات الملحدات، والآن يسبحون في الفرح،
(وسريعاً سوف يسبحون طويلاً) ويضحكون؛ وبسببهن
سريعاً يبكي العالم عالماً من الدموع.
حُرم آدم من فرحته القصيرة فأوجز.
يا للشفقة والعار، إن الذين دخلوا الحياة جيداً
انحرفوا وتنحوا جانباً
عن الطريق المباشر، أو ضعفوا في منتصف الطريق!
ولكني ما زلت أرى أن فحوى مصيبة الناس
ما تزال كما هي، تبدأ من المرأة.
يبدأ من التواني الأنثوي للناس،

قال الملاك، ومكانه لا بد أن تحل
الحكمة، والمواهب العليا الممنوحة:
ولكن الآن جهز نفسك لمشهد آخر.
نظر فرأى بعيداً أرضاً ممتدة
أمامه، مدناً ومشاغل ريفية،
مدن البشر ببوابات وأبراج شاهقة،
مواجهات عدائية مسلحة، أنواع من التهديد بالحرب،
عمالقة بأجسام جبارة، وأعمال شجاعة؛
قسم استخدم السلاح وقسم ألجم الخيل المزبدة،
فرداً أو جمعاً انتظموا للمعركة
خيالة ومشاة، ولم يحتشدوا متكاسلين؛
اختارت عصبة منهم طريقاً واحداً لتدفع إلى العلف
قطيعاً من الأبقار، من الثيران والماشية الجميلة،
من أرض الحقل الخصبة؛ أو قطيع الغنم،
من نعجات وحملان ثاغية فوق السهل، لتكون
غنيمة؛ لم يهرب الرعاة خوفاً على حياتهم،
بل طلبوا المساعدة، فحدثت مشاجرة دامية؛
واجتمع للمبارزة فرسان الربعات؛

وحيث كانت القطعان ترعى مؤخراً، الآن صرعت



وشرع يبني سفينة ضخمة جداً (١١: ٧٢٩)

وتبعثرت مع الجثث والسلاح في الحقل الدامي

[٦٥٥] المهجور: آخرون فرضوا على المدينة القوية

حصاراً بمعسكرهم؛ وبالمدفعية والسلالم والألغام،

هاجموا، وآخرون دافعوا من على السور

بالنبل والرماح، وبالحجارة ونار الكبريت؛
وفي كلا الجانبين وقع قتلى وأحداث ضخمة.
وفي قسم آخر دعا أصحاب الصولجان
إلى مجلس في بوابات المدينة: وفوراً
عقد الشيوخ والحكماء، مع المحاربين المتقاتلين،
اجتماعاً، وألقيت الخطب، ولكن بسرعة
ظهر الشقاق، إلى أن أخيراً
برز رجل في منتصف العمر[١] وقام بتصرف
حكيم، وتكلم الكثير عن الصواب والخطأ،
عن العدالة والدين، عن الحق والسلام،
والحكم السماوي: فقام الشيوخ والشبان
يصرخون ويسخرون، وكانوا سيطالونه بأيد عنيفة
لو لم تنزل غيمة وتخطفه من هناك
دون أن يراه أحد من بين الحشد: هكذا العنف
انطلق والاضطهاد وقانون السيف
في كل السهول ولم يعد هناك ملجأ.

---

(1) المقصود أخنوخ.

غرق آدم في الدمع، وإلى مرشده
التفت نائحاً وبحزن شديد قال، يا لهؤلاء
وزراء الموت، ليسوا بشراً، من يجلبون الموت
للبشر من دون شفقة، وحشود من
عشرات الآلاف يضاعفون خطيئة من قتل
أخاه؛ إذ من سقط في هذه المجزرة
سوى إخوتهم، بشر من بشر؟
ولكن من هو ذلك الرجل البار، الذي لو لم
تخلصه السماء، كان سيضيع بكل تقواه؟
فرد ميخائيل. هؤلاء هم نتاج
تلك الزيجات المريضة التي رأيتها:
حيث اختلط الطيب بالخبيث، وهم أنفسهم
يكرهون الزواج؛ وبالاختلاط المتهتك،
أنجبوا أولاداً فاسدي الجسد والعقل.
هكذا كان العمالقة، رجالاً بشهرة كبيرة؛
إذ في تلك الأيام بالقوة وحدها كانوا يعجبون،
بالشجاعة وإلى الفضيلة البطولية يدعون؛
التغلب في المعركة، وإخضاع الأمم

والعودة بالغنائم والأسلاب بعد
مجزرة بشرية، هي القمة العليا
للمجد البشري، لأن المجد يتحقق
بالانتصار، وبذلك يكون الغزاة الكبار
قادة البشرية والآلهة وأبناء الآلهة،
والجدير أن يسموا مدمري البشرية وأوبئتهم.
هكذا سوف تتحقق الشهرة وتتجدد في الأرض،
وأما أعظم المزايا للشهرة فتظل مختفية صامتة.
لكن جيلك السابع، الذي تراه الآن
هو البار الوحيد في عالم فاسد،
ولذلك هو مكروه، ولذلك يهاجمه
الأعداء لشجاعته أن يكون باراً وحده،
وينطق بالحقيقة المكروهة، وسيأتي الله
ليحاكمهم مع قديسيه: وقد رفعه الله
وقد لفّـــه بغيمة عطرية تجرها خيول مجنحة
كما شاهدت، ليمشي مع الله
في السماء محرراً وفي مناخ البركة،
إلا من الموت؛ وحتى أريك المكافأة التي تنتظر

الطيبين والعقاب الذي ينتظر البقية
وجه مباشرة عينيك وأنظر حالاً.
نظر فرأى وجه الأشياء قد تغيّر؛
فالحلقوم البرونزي للحرب توقف عن الهدير،
فالجميع الآن تحولوا إلى الفرح واللعب،
إلى الرفاهية والتمرد، إلى الولائم والرقص،
يتزوجون أو يدعرون، كما حدث،
من اغتصاب أو زنى، حيث تمر الجميلة
فتغويهم؛ فينتقلون من الكأس إلى المشاجرة.
أخيراً سيد محترم[١] حضر بينهم،
وأعلن نفوره من أفعالهم،
وشهد ضد طرائقهم؛ وتردد على
اجتماعاتهم، حيث يلتقون،
في الانتصارات أو الاحتفالات، فوجه إليهم
حديثه ولومه، كأنه يكلم نفوساً
في سجن أحكامه الوشيكة الصدور:

---

(1) هو نوح، وهو البار الثاني في ترتيب الرجال الأبرار عند ملتون. وقصة نوح موجودة في سفر التكوين الإصحاح السادس.

لكنهم لم يأبهوا: وعندما رأى هذا توقف
عن جدالهم، وابتعد بخيامه عنهم؛
ثم من الجبل قطع أشجاراً طويلة،
وشرع يبني سفينة ضخمة جداً،
[٧٣٠] قاس بالذراع الطول والعرض والارتفاع،
وطلاها بالقار، وفي جانبها ابتكر



وغمر الطوفان كل المساكن، فجرفها مع فخامتها إلى الأعماق فغاصت في المياه (١١: ٧٤٨)

باباً وأودع فيها مؤناً بكميات ضخمة
للإنسان والحيوان: فيا للغريب المدهش!
إذ من كل وحش وطير وحشرة صغيرة
فأدخل فيها منها سبعاً فسبعاً من ذكر وأنثى،
متبعة نظامها؛ ثم دخل السيد مع أبنائه الثلاثة
مع زوجاته الأربع؛ وأغلق الله الباب.
ثم هبت ريح الجنوب، وبأجنحة سوداء
رفت وامتدت، وتجمعت كل الغيوم
المندفعة من السماء؛ وأمدتها الهضاب
بالبخار وهواء الغسق والرطوبة،
وأرسلتها بسرعة فصارت السماء الآن كثيفة
مثل سقف مظلم: وراحت تمطر
بعنف، واستمرت حتى لم تعد
الأرض ترى؛ وعامت السفينة الطافية
على وجه المياه؛ وبأمان بمقدمتها الحادة
راحت تتهادى فوق الأمواج، وغمر
الطوفان كل المساكن، فجرفها مع فخامتها
إلى الأعماق فغاصت في المياه؛ والبحر غطى بحراً

والبحر صار بلا شاطئ، وفي قصورهم،
حيث ساد الترف، صارت وحوش البحر تلد
وتأوي؛ ومن البشرية، التي كانت عديدة،
لم يبق أحد، إلا الذين في المركب الصغير السابح.
كم كنت تحزن يا آدم وأنت ترى
نهاية كل ذريتك هذه النهاية الحزينة،
فلا يبقى ساكن؛ وطوفان آخر
من الدموع والحزن أغرقك أيضاً،
وغار بك كما فعل بأبنائك؛ إلى أن رفعك
الملاك، وعلى قدميك انتصبت أخيراً،
بلا عزاء، كما حين يحزن أب
على أولاده، وقد دُمروا دفعة واحدة؛
وبالكاد تهمس إلى الملاك بفجيعتك.
يا لرؤيا النبوءات السيئة! آه لو أنني
عشت جاهلاً المستقبل، وهكذا يولد
جزئي الشرير فقط، ففي كل يوم له نصيب
من الشر يكفيه؛ أما ما عرض الآن فهو
عبء الكثير من العصور، على كتفي ألقيت

دفعة واحدة، فعرفت مسبقاً الولادة
والإجهاض فجلبت لي الألم قبل أن يوجد،
فأفكر بما لا بد أن يكون، فليدع الإنسان البحث
من الآن وصاعداً عن التنبؤ بما سيحدث
له أو لأبنائه، فقد يتأكد من الشر،
الذي لا يمكنه بمعرفته المسبقة أن يتجنبه،
وشر المستقبل سوف لا يتأخر بأن
يدركه في جوهر شعوره بأنه أشد
وطأة من أن يتحمله: ولكن هذا الاهتمام مضى،
والإنسان ليس هو من تحذره: وأولئك القلة
الناجون من المجاعة والألم سوف أخيراً يهلكون
تائهين في الصحراء المائية: كنت آمل
أن يتوقف العنف، والحرب على الأرض،
كل الأمور وقتها تسير جيداً، ويتوج السلمُ
بالأيام السعيدة (الجنسَ) البشري؛
ولكني كنت فسدت؛ وأرى الآن
فساد السلم لا يقل عن فساد الحرب.
كيف حصل هذا؟ أكشف أيها المرشد السماوي،

إن كان الجنس البشري سوف ينتهي هنا.
فرد عليه ميخائيل. هؤلاء الذين رأيتهم أخيراً
منتصرين مرفهين، هم الذين
رأيتهم أولاً يعملون بشجاعة بارزة
[٧٩٠] ومآثر عظيمة، ولكنهم في حقيقتهم فارغون:
الذين أراقوا دماً غزيراً، وفعلوا فساداً خطيراً
مخضعين الأمم، ولذلك عندما حققوا
الشهرة في العالم، والألقاب العالية، والضحية الغنية،
تغيرت طريقتهم ومالوا إلى الملذة والسهولة والتراخي،
[٧٩٥] والبطنة والتبذل، فإذا الخلاعة والكبرياء
يستخرجان من الصداقة أفعالاً عدوانية في السلم.
كما أن المغزيين والمستعبدين في الحرب
سوف يفقدون بحريتهم كل فضيلة
وخشية الله، وقد خلت منهم الشفقة في
[٨٠٠] الصراع الحاد للمعركة فلم يلقوا مساعدة
ضد خصومهم؛ لذلك بردت حماستهم
لذلك سوف يمارسون العيش بأمان،
عيشاً دنيوياً أو فاسقاً، بمقدار ما يسمح

لهم أسيادهم من المتعة؛ وسوف تحمل الأرض
أكثر من الكفاية، ويحاولون الاعتدال:
لكنهم سوف ينحطون وتنتزع منهم
العدالة والشجاعة وينسون الحق والإيمان؛
عدا إنساناً واحداً، ابن النور الوحيد
في عصر الظلام، كمثال للخير،
ضد الإغواء والعادات وعالم
مهان، وبشجاعة يلومهم ويحتقرهم
أو يعنفهم، ومن الطرق الشريرة
يحذرهم، ويطرح أمامهم
طرق الخير، وكيف أنها تحقق الأمن
والسلام الكامل، معلناً الغضب الآتي
على عدم توبتهم؛ وسوف
يسخر منهم، ولكن الله لاحظ
الرجل البار الحي؛ فبأمره سوف
يبني فلكاً عجيباً، كما رأيت،
لينقذ نفسه وأهل بيته من وسط
عالم مكرس للدمار الكوني.

ولم يكد هو ومن معه من البشر والحيوانات
المختارة لحياته في الفلك يصعدون
ويأوون إلى السفينة، حتى تدفقت كل شلالات
السماء وبقيت تنهمر على الأرض بقوة
وتمطر نهاراً وليلاً، حتى انفجرت كل ينابيع
المياه العميقة، وطغى المحيط عالياً
متجاوزاً كل الحدود حتى غمر رؤوس
الجبال العالية: وسوف جبل الفردوس هذا
بقوة الأمواج يتحرك
من مكانه، فيدفعه الطوفان المتدفق خارج
هذا المكان، فيتلف كل أخضر فيه وتتجرف
الأشجار مع النهر العظيم إلى الخليج الهائل، وهناك
جزيرة من ملح مكشوفة، تضرب بجذورها، ويتردد
عليها كلاب البحر والأركات[1]، وزعيق النوارس.
حتى تتعلم أن الله لا يمنح المكان
أي قداسة، إن لم يتردد إلى هناك

(1) الأرك Orc حيوان بحري هائل خيالي استخدمه إيسوب وبعض الكتاب بعده، يقال إنه يفترس الرجال والنساء.

البشر أو يسكنون فيه.
والآن أنظر ماذا سوف ينتج.
نظر فرأى الفلك على الغمر طافياً
وقد انخفض الآن، لأن الغيوم ولّتْ،
تدفعها ريح الشمال الشديدة، حتى أنها جففت
وجه الغمر المتغضن، كأنه صار متفسخاً؛
وظهرت الشمس صافية على المرآة المائية الكبيرة
وهي تحدق، وأخذت الموجة الجديدة تنسحب،
كما ينسحب العطشان بعد الارتواء، مما قلص التدفق
عن البحيرة فتحولت إلى جزر مرتحلة، سرق
قدمه الناعمة نحو المحيط، الذي أوقف الآن
قنواته، حالما أغلقت السماء نوافذها. لم يعد
الفلك الآن يعوم، بل ظهر على الأرض
واستقر على قمة جبل عال.
وظهرت الآن قمم الجبال كأنها صخور؛
وبصخب بدأت التيارات السريعة
تدفع مدها العنيف نحو البحر المتراجع.
وانطلق من السفينة غراب يحلق

وبعده انطلق الرسول الأكثر تأكيداً،
وهو الحمامة التي أرسلت لتتجسس إن كانت
قد ظهرت شجرة خضراء أو أرضٌ لموطئ القدم؛
وفي المرة الثانية عادت وفي منقارها
أحضرت ورقة زيتون، العلامة السلمية:
وبسرعة ظهرت الأرض الجافة، ومن سفينته
هبط السيد القديم مع كل مرافقيه؛
وبيدين مرفوعتين، وعينين ورعتين،
شكر السماء، التي رآها فوق رأسه
غيمة ندية، وفي الغيمة قوس قزح
يظهر بثلاثة ألوان براقة مفرحة
حاملاً السلام من الله والميثاق الجديد.
قلب آدم الذي كان حزيناً من قبل
فرح فرحاً عظيماً، ودفعه فرحه إلى الكلام.
يا من تستطيع تقديم أشياء المستقبل في
الحاضر، أيها المعلم السماوي، لقد انتعشت لدى
مشاهدتي المنظر الأخير، الذي أكد أن الإنسان
يمكنه العيش مع كل المخلوقات، والحفاظ على سلالتها.

وأنا الآن أخف ألماً على دمار العالم الكامل
من الأبناء الأشرار، ومبتهج
لأن رجلاً وحداً وجدته كاملاً وباراً،
وقد عطف الله وخلق عالماً آخر
منه، ونسي كل غضبه. ولكن
قل لي، ماذا تعني هذه الألوان التي خطّت في السماء،
وامتدت مثل قوس الله الذي ولى غيظه،
أم أنها تستخدم كحد وردي يربط
الأثواب المتدفقة لتلك الغيمة المائية،
حتى لا تنحل وتهطل على الأرض؟
رد عليه رئيس الملائكة. أصبت بدقة؛
فهكذا يهدئ الله غضبه بإرادته،
مع أن توبة الإنسان إليه تأخرت،
فحزن في قلبه، عندما نظر إلى الأسفل فرأى
الأرض كلها امتلأت بالعنف، وكل الناس
فسدت طريقتهم في الحياة؛ فقضى عليهم، ولكن
رجلاً باراً واحداً وجد في نظر الله نعمة،
فإذا هو يرق ويلين، ولا يسحق البشرية،

ويجعل ميثاقاً بألا يدمر
الأرض ثانية بالطوفان، ولا يدع البحر
يتجاوز حدوده، ولا المطر يغمر العالم
وفيه بشر أو وحوش؛ ولكن عندما يرسل
فوق الأرض غيمة، فسوف يضع فيها
قوسه الثلاثي الألوان، فحتى يرونه
ويتذكرون ميثاقه: نهاراً وليلاً، في وقت
البذار ووقت الحصاد، في الحر والزمهرير
سوف يتبع هذه الطريقة، حتى تطهر النار كل جديد
في السماء والأرض، حيث سوف يسكن الأبرار.

* * *

الكتاب الثاني عشر

الخلاصة:

يتابع الملاك ميخائيل سرد ما جرى بعد الطوفان فيقص ما سوف يعقب ذلك؛ ثم في إشارة إلى إبراهيم يتوقف تدريجياً ليشرح، من سيكون ابن العذراء، وهو الوعد الذي قُدم لآدم وحواء عند السقوط؛ ويتكلم عن تجسده وموته وقيامته وصعوده؛ وحال الكنيسة حتى مجيئه الثاني. ويفرح آدم كثيراً ويرتاح للقصص والوعود ويهبط مع ميخائيل من الهضبة؛ وتنهض حواء، التي نامت في هذه الفترة، ولكن بأحلام لطيفة جاءتها براحة البال والإذعان. وبيده قادهما ميخائيل إلى خارج الفردوس، وسيفه الناري يلوح خلفهما، وقد وقف الشيروبيم في أماكنهم يحرسون المكان.

* * *

كما يتوقف المرء في رحلته عند الظهيرة،
مع أنه يريد العجلة، هكذا توقف هنا رئيس الملائكة
بين العالم المدمر والعالم الجديد،
منتظراً من آدم أن يعترض عليه؛
ثم بنقلة جميلة استأنف حديثاً جديداً.
ها أنت شاهدت عالماً واحداً يبدأ وينتهي؛
وكأن الإنسان ينبثق من أصل ثان.
سوف ترى الكثير، ولكن أرى
بصرك الإنساني يضعف؛ إن الأشياء المقدسة
تسبب إضعاف الإحساس الإنساني وإرهاقه:
ومن هنا فصاعداً سأروي لك ما سوف يأتي،
لذلك اسمعني جيداً، وانتبه.
هذا المصدر الثاني للبشر[1] – إذ هم قلة؛
وإذ رعبُ الحكم الماضي يبقى
متجدداً في عقولهم، يجعلهم يخافون الآلهة،
ببعض الاعتبار لما هو حق وبار –
سوف يقود حياتهم إلى سلام عميم،
ويحرثون التربة ويحصدون المحاصيل الوفيرة،

(1) المصدر الثاني هو نوح.

من قمح وكرمة وزيت؛ ومن البهائم أو القطعان
يضحون بالثور المخصي أو الحمل أو الجدي،
مع قرابين خمر كبيرة تسكب ومآدب مقدسة،
ويمضون أيامهم في فرح بلا عار، ويسكنون
زمناً طويلاً في سلام بعائلات وقبائل
تحت حكم أبوي؛ إلى أن ينهض واحد من ذوي
القلوب الطامحة المتكبرة، فلا يرضى
بالمساواة العادلة والحالة الأخوية،
سوف يسيطر بلا حق ولا جدارة
على أخوته، ويلغي تماماً
كل وفاق وكل قانون طبيعة من على الأرض،
ويصطاد (سيكون طراده البشر وليس الوحوش)
بالحرب والإشراك العدائية كل من يرفض
الخضوع لإمبراطوريته الطاغية:
صياد جبار سوف يسلك
أمام الرب، كأنه يخاصم السماء.
أو من السماء أخذ حكمه الثاني؛
ومن التمرد[1] سوف يشتق اسمه،

(1) يتحدث عن النمرود، واسمه يدل على المبالغة في التمرد.

مع أنه بالتمرد اتهم آخرين.
هو مع لفيف، يجمعهم الطموح
معه أو تحت إمرته، سوف يطغون،
فيسيرون من عدن نحو الغرب، وسيجدون
سهلاً[1]، حيث دوامة من الزفت الأسود
تفور من تحت الأرض، ومن فوهة الجحيم؛
من الآجر ومن مواد بناء خام أخرى يبنون
مدينة وبرجاً، تصل قمته إلى السماء؛
ويشتهر اسمهم[2]، وإلا تبعثروا
في البلدان الأجنبية فتضيع ذكراهم،
بغض النظر إن كانت السمعة جيدة أو سيئة.
ولكن الله الذي اعتاد النزول لزيارة الناس
دون أن يراه أحد، يمشي بين مستوطناتهم
ليلحظ أعمالهم، شاهدهم بسرعة
فنزل ليرى مدينتهم، قبل أن يرتفع
البرج فيخفي أبراج السماء، وليسخر منهم
جعل فوق ألسنتهم أرواحاً مشاكسة لتمحو

---

(1) هو سهل شنعار.

(2) الاسم إما بابل أو البابليون الذين اشتهروا في العالم ببناء هذا البرج.

تماماً لغتهم الأصلية، وبدلاً منها راحوا
ينثرون ضجيجاً من كلمات غير مفهومة:
وللتوّ انتشرت ثرثرة عالية
بين البنائين؛ فكل واحد ينادي الآخر
فلا يفهمه، حتى بحوا، وصاروا في غضب،
فسخر من هياجهم؛ وكان في السماء ضحك عظيم
ينظرون إلى الأسفل، ليروا الجلبة الغريبة
ويسمعوا اللغط؛ وهكذا ترك البناء
للسخرية، وسمي العمل البلبلة.
واستاء آدم من هذا كما يستاء الآباء.
أيها الابن اللعين الذي يطمح
فوق إخوته، فجمع لنفسه
سلطة فاسدة، لم يمنحها له الله:
لقد أولانا فقط على البهائم والسمك والطير
سلطة مطلقة؛ وكنا محقين في التمسك
بمنحته؛ ولكن إنساناً يتحكم في الناس
لم يأمر الرب؛ هذا اللقب له فقط
يحتفظ به، فالإنسان متحرر من الإنسان.
ولكن هذا الغاصب تعدت كبرياؤه

الإنسان؛ لقد عمد إلى الله حتى يحاصر
برجه ويعارضه: يا للبائس! أي طعام
سوف يحمل معه إلى هناك ليقيم أوده
وأود جيشه المندفع، حيث الهواء رقيق
فوق الغيوم، سوف تذوي هناك أحشاؤه الشرهة،
ويسلبه نفسَه، إن لم يسلبه خبزه؟
وعلى هذا رد ميخائيل. عدلت في كراهية
ذلك الابن، الذي على حالة الإنسان الهادئة
أدخل هذا الإزعاج، مندفعاً لإخضاع
الحرية الفكرية؛ كذلك عليك أن تعلم
أنه منذ زلتك الأصلية، ضاعت الحرية
الحقيقية، التي كانت دائماً تسكن في العقل السليم
كتوأم له، وعنها لا يمكن أن ينفصل:
فإن غام العقل، أو لم يلب،
فوراً هبت الرغبات المندفعة
والعواطف وأمسكت بالحُكْـم حاجبة
العقل، وأدت إلى عبودية الإنسان الذي ظل
حراً منها حتى الآن. لذلك حين يسمح
داخل نفسه للقوى غير الجديرة بأن تحكم

على العقل الحر، فإن الله في محاكمة عادلة
يخضعه خارجياً لأرباب عنيفين؛
واعتادوا بلا حق أن يأسروا حريته
الخارجية: فلا بد أن يكون هناك طغيان،
مع أنه لا مبرر للطاغية.
مع أن الأمم أحياناً تنحط إلى هذا الدرك
عن الفضيلة، والفضيلة هي العقل، حيث لا خطأ،
بل عدل، وقد علقتهم لعنة ما قاتلة
فانتزعت منهم حريتهم الخارجية،
بعد ضياع داخلهم: أنظر إلى الابن غير المحترم[١]
وهو ابن باني الفلك، الذي ألحق العار
بأبيه، فسمع هذه اللعنة الثقيلة، أي
خادم الخدم، على عرقه الخبيث.
هكذا هذا العالم الأخير كسابقه
لا يزال يميل من سيء إلى أسوأ، إلى أن يتعب
الله أخيراً من شرهم فيسحب
حضوره من بينهم، ويحوّل عنهم

(1) هو حام والد الكنعانيين، ابن نوح الأصغر، عاقبه الله لأنه لم يغط عورة أبيه (تكوين ٩: ٢٠- ٢٧)

عينه المقدسة؛ مقرراً من تلك اللحظة
أن يدعهم لطرقهم الملوّثة الخاصة؛
ويختار أمّة معينة واحدة[1]
من كل الأمم، ويساعدها،
أمة تحدرت من رجل مؤمن واحد[2]:
كان يقيم في جانب نهر الفرات،
وتربى على العبادة الوثنية؛ أولئك الناس
(هل تصدق؟) سيكونون أغبياء جداً،
أثناء حياة هذا الأب، الذي نجا من الطوفان،
ونسوا عبادة الله الحي، ووقعوا
في عبادة أعمال أيديهم من خشب وحجارة
بدلاً من الله! ومع ذلك فإن الله بعطفه الكبير
دعاه بالرؤيا من منزل أبيه،
ومن بين عشيرته والآلهة المزيفة، إلى أرض
سوف يريها له، ومنه سوف تظهر
أمة جبارة، وعليه سوف يغدق

---

(1) إشارة إلى بني إسرائيل كما جاء في تثنية ٧: ٦ «...إياك اختار الرب إلهك لتكون له شعباً أخص من جميع الشعوب الذين على وجه الأرض».

(2) إبراهيم كما جاء في تكوين ١٧: ٥.

بركته، لأنه من سلالته
سوف تتبارك كل الأمم؛ ويطيع فوراً
من غير أن يعرف أي بلاد، لكنه يؤمن إيماناً راسخاً:
أراه، ولكنك أنت لا تراه، بأي إيمان
يهجر آلهته، وأصدقاءه، وموطنه الأصلي
أور الكلدانيين، ويمر فوق عبّارة
إلى حران، ووراءه قطار هائل من
القطعان والمواشي، والكثير من الخدم؛
فلم يتجول فقيراً، بل يثق بأن كل ثروته
مع الله، الذي يدعوه، في بلاد مجهولة.
وصل الآن إلى كنعان، أرى خيامه
تضرب في شكيم والسهل المجاور
لبلوطة مورة؛ هناك تلقى وعداً
أن يمنح ذريته كل هذه الأرض؛
ومن حماة شمالاً إلى الصحراء جنوباً
(أسمي الأشياء مع أنها لم تكن مسماة)
ومن حرمون شرقاً إلى البحر الكبير غرباً،
وجل حرمون، والبحر هناك، وكل مكان يراه
بصرك، كما حددتها؛ على الشاطئ

جبل الكرمل؛ هناك نهر له نبعان هو الأردن،
وهو الحد الحقيقي من الشرق؛ ولكن أبناءه
سوف يسكنون في سينير[١]، تلك السلسلة الجبلية الطويلة.
تأمل هذا، كل أمم الأرض سوف
تتبارك من ذريته؛ وعلى يد تلك الذرية
قصدت مخلصك العظيم، الذي سوف يسحق
رأس الأفعى؛ وما أتحدث عنه حالاً سأكشفه
لك بوضوح أكثر. هذا الأب المبارك،
الذي سوف يدعى إبراهيم المؤمن مدى الزمن،
له ابن، ومن ابنه له حفيد[٢]،
مثله في الإيمان، والحكمة والشهرة؛
الحفيد مع اثني عشر[٣] ابناً أنجبهم، غادروا
كنعان، إلى أرض تليها تدعى
مصر، يقسمها نهر النيل،
أنظر أين يتدفق، ويصب في الفوهات السبع
في البحر: وللإقامة في تلك الأرض

(1) الأرجح جبل حرمون.

(2) الابن اسحق والحفيد يعقوب.

(3) هم أبناء يعقوب.

يأتي بدعوة من الابن الأصغر[١]
في زمن القحط، ابن أفعاله الجديرة
رفعته ليكون الثاني في مملكة
فرعون: وهناك يموت، ويترك عرقه
ينمو في أمة، والآن يظهر
الشك عند الملك التالي، الذي يسعى إلى
وقف نموها، كضيوف نزلاء
زاد عددهم كثيراً؛ ولذلك جعل من الضيوف
عبيداً بجلافة، ويقتل أطفالهم الذكور:
إلى أن يظهر الشقيقان (ويدعيان
موسى وهرون) مرسلين من الله ليخلص
شبعه من العبودية، فعادوا
بمجد وأسلاب قافلين إلى أرضهم الموعودة.
ولكن أولاً لا بد للطاغية عديم القانون، الذي يرفض
الاعتراف بإلههم، أو اعتبار أي رسالة،
لا بد أن يرغم بإشارات وأحكام مرعبة[٢]؛
فإلى دم تحولت مياه الأنهر،

---

(1) هو يوسف.

(2) للوقوف على هذه الأحكام يراجع خروج ٧: ١٥. ففيه قصة الأوبئة العشرة.

ولا بد للضفادع والقمل والذباب أن تملأ قصره
في تطفل كريه، وتنتشر في كل البلاد؛
ولا بد أن تتعفن الماشية وتموت بالطاعون،
وتملأ القروح والبثور جلده كله،
وكل أبناء شعبه؛ الرعد المختلط بالبرَد،
والبرد المختلط بالنار لا بد أن يمزق سماء مصر
ويتدحرج على الأرض، مفترساً كل ما يفترس
وما لا يفترس، من عشب أو ثمر أو حبوب،
سحابة سوداء من الجراد تزدحم هابطة
لتأكل وعلى الأرض لا تدع شيئاً أخضر:
ولا بد أن تظلل الظلمة كل حدوده،
ظلمة كاملة تظل ثلاثة أيام؛
إلى أن في منتصف ليلة، كل الأبكار في مصر
تموت. وهكذا بهذه الجروح العشرة
رُوّض تنين النهر[1] فخضع أخيراً
وسمح للمستوطنين أن يغادروا، فقد لان
وتواضع قلبه العنيد، ولكنه لا يزال مثل جليد
يتجمد بعد الذوبان، إلى أن دفعه غضبه

(1) تنين النهر: فرعون.

إلى ملاحقة من كان سمح لهم،
فيبتلعه البحر مع جنده، ولكن البحر تركهم يعبرون
كما لو على بر بين سورين زجاجيين يسيرون،
منصاعاً لعصا موسى بأن يتوقف
منقسماً، إلى أن وصلوا سالمين إلى شاطئهم:
هذه القوة العجيبة أمدها الله لقديسه،
فتمثل في ملاكه[1]، الذي سوف يذهب
أمامهم في غيمة، وعمود نار،
في النهار غيمة، وفي الليل عمود نار،
ليرشدهم في رحلتهم، ويسير
خلفهم، أثناء مطاردة الملك المتعنت:
كل الليل سيلاحقهم، ولكن الظلام منع
اقترابه وحال بينهما، حتى ساعة الصباح؛
ثم عبر عمود النار والغيمة.
أرعب منظر الله كل الجنود
وصد عجلات عرباتهم: حين أمر
موسى أن يمد عصاه القوية

(1) لم يشأ ملتون أن يحضر الله مباشرة هنا، بل عن طريق ملاك، بينما حضر مباشرة أمام آدم.

فوق البحر؛ فانصاع البحر لعصاه؛
وترتد الأمواج على صفوف محاربيهم،
وتغمرهم بجيشها: ويسلم العرق المختار
ويتقدم نحو كنعان من الشاطئ
عبر برية الصحراء، وهو ليس الطريق الأهون،
حتى لا يدخلوا على الكنعانيين فينذروهم
بحرب يخشونها لعدم خبرتهم، ويخافون
الرجوع إلى مصر، مختارين
حياة المذلة مع العبودية؛ فالحياة
النبيلة وغير النبيلة أجمل لمن
لم يتدرب على السلاح، حين لا يقوده التهوّر.
سوف يكسبون هذا أيضاً في تأخرهم
في البرية الواسعة، فهناك سوف يؤسسون
حكومتهم ويختارون مجلس شيوخهم[1] من
القبائل الاثنتي عشرة، ويحكمون بالشريعة المفروضة:
وسوف يهبط الله إلى جبل سيناء الذي قمته الرمادية
سوف ترتجف، وينزل بنفسه
في البروق وصوت الأبواق العالي

(1) موسى وهرون وسبعون شيخاً شكلوا المؤسسة السياسية والدينية.

[٢٣٠] قسم الشريعة عليهم؛ بعضها يطبق
على العدالة المدنية، وقسم على الشعائر الدينية
للقربان، ويخبرهم بالنماذج



طلبوا من موسى أن يبلغهم مشيئته، فيتوقف الرعب (١٢: ٢٣٦..)

وبالظلال[١]، عن مصير الذرية التي تسحق
رأس الأفعى، وبأي وسائل سوف يحقق

(1) عندما تجلى الله لموسى طلب منه ألا يصنع ما رآه على الجبل، فلا يجوز التقليد المباشر، ومن هنا استخدم ملتون كلمة ظلال.

الإنقاذ للبشرية. ولكن صوت الله
في الأذن البشرية مريع؛ لذلك طلبوا من
موسى أن يبلغهم مشيئته،
فيتوقف الرعب؛ وارتضى ما طلبوه
وأعلمهم أن الله لا يتجلى من غير
وسيط، ومكانته الرفيعة الآن
يحملها موسى في شخصيته، تمهيداً
لوسيط أعظم، سيخبرهم بيوم القيامة،
وكل الأنبياء في عصورهم
بالمسيح العظيم سوف يتغنون. وهكذا تتوطد
الشريعة والشعائر، كأن يفرح الله بطاعة
البشر لمشيئته، ذلك أنه عطف عليهم
بإقامة خيمته،
فالله المقدس يسكن مع البشر الفانين:
وبناء على مواصفات قدمها أقيم المذبح
من الأرز، المطلي بالذهب، وهناك في الداخل
تابوت العهد، وفي التابوت عهده،
وهو سجلات ميثاقه، وفوق هذا
مقعد الرحمة من الذهب بين أجنحة

ملاكين مشرقين من الشيروبيم، وأمامه تشتعل
المصابيح السبعة[1] كما في السمت ممثلة
النيران السماوية؛ وفوق الخيمة سوف تستقر
غيمة في النهار، وضوء ناري في الليل
إلا عندما يرتحلون ويأتون أخيراً،
يقودهم ملاكه إلى الأرض التي
وعد بها إبراهيم وذريته: بقية الأخبار
أطول من أن أخبرك بها، عدد المعارك التي دارت
وكم من الملوك دمرت، وعدد الممالك التي اكتسبت،
أو كيف سوف تقف الشمس في كبد السماء
يوماً كاملاً، وكيف أخر الليل مسيرته، وقد أمرها
بصوت إنساني، يا شمس توقفي في جبعون،
وأنت يا قمر توقف في وادي أيلون،
حتى تنتصر إسرائيل؛ وهكذا يدعى الثالث من
إبراهيم، ابن اسحق، ومنه
كل السلالة، التي ستربح أرض كنعان.
قاطعه هنا آدم. أيها المرسل السماوي،

(1) شمعدان فيه ثلاث شموع في اليسار وثلاث في اليمين، وشمعة في الوسط، كرمز للنيران السماوية السبع.

يا منير ظلمتي، الأشياء الرائعة التي
كشفت عنها، والتي تخص فقط
إبراهيم وذريته: الآن وجدت
عيني مفتوحتين، وقلبي مرتاحاً، بعد أن
كنت محتاراً بفكرة ماذا سيحدث
لي ولكل البشرية؛ ولكن الآن أرى
يومه، الذي به تتبارك كل الأمم،
وهو فضل لا أستحقه، أنا الذي بحث
عن المعرفة المحرمة بوسائل محرمة.
وحتى الآن لم أفهم هذا، لماذا إلى أولئك
من بين الجميع سيشرفهم الله بأن يسكن في
الأرض طويلاً ويمنحهم شرائع؛
فالشرائع الكثيرة تعني الخطايا الكثيرة
بينهم؛ فكيف يسكن الله مثل هذه السكنى؟
رد ميخائيل. لا تشك في أن الخطيئة
ستحكم بينهم، كأولئك الذين منك ولدوا؛
لذلك قدمت الشريعة لهم لكشف
طبيعتهم الوضيعة، بإثارة
الخطيئة حتى تحارب الشريعة؛ فعندما يرون

القانون يكتشفون الخطيئة، ولكن لا يزيلونها،
باستثناء تلك الكفارات الضعيفة،
كدم الثيران والماعز، ويمكن أن يستنتجوا
أن دماء أغلى يجب أن تراق فداء عن الإنسان،
فالبار يفدي غير البار، إذ في هذه الاستقامة
يمكن أن يدخل الإيمان إليهم، وقد يجدون
تبريراً تجاه الله، وراحة ضمير،
لا يمكن للشريعة عن طريق الاحتفالات
أن ترضيه تماماً، ولا يطبق الإنسان القسم
الأخلاقي، فإن لم يطبق فإنه لا يستطيع أن يعيش.
لذلك تظهر الشريعة ناقصة، ولكنها تمنح
بغرض الاستسلام في النهاية
للميثاق الأفضل، فيطاع من أنماط
الظلال حتى الحقيقة[1]، ومن الجسد إلى الروح،
ومن فرض الشريعة الصارمة، إلى القبول الحر
للنعمة الكبرى، ومن الخوف العبودي إلى
الخوف البنوي، ومن الشريعة إلى الإيمان.

---

(1) أنماط الظلال: ما يحدث في الأرض كشيء زائل، أما الحقيقة فتحدث في السماء.

لذلك لن يكون موسى، مع حب الله
الكبير له، سوى وزير
للشريعة، يقود شعبه إلى كنعان؛
لكن يشوع الذي تسميه بقية الأمم يسوع،
يحمل اسمه ومهمته، وهو سوف يسحق
الحية المعادية، ويعيد
عبر برية العالم إنسان التيه الطويل
آمناً إلى فردوس الراحة الأبدي.
في هذه الأثناء يستقرون في كنعانهم الأرضية
يسكنونها زمناً طويلاً بازدهار، ولكن حين
خطايا القوم تفسد سلمهم العام[1]،
يطلبون من الله أن يظهر لهم أعداء:
ثم يخلصهم منهم إذا تابوا على يد
قضاتهم الأوائل، أو تحت حكم ملوكهم؛
الذين ثانيهم، لاشتهاره بالرحمة
والأعمال الجبارة، سوف يتلقى وعداً

---

(1) نظرة ملتون تنسجم مع النظرة المسيحية، فالأرض الموعودة تكون هنا في هذه الدنيا، ولكن مجيء المسيح يغيّر المعادلة وتصبح أرض الميعاد في المملكة السماوية وليس في المملكة الأرضية.

مبرماً، أن عرشه الملكي
سيبقى صامداً إلى الأبد؛ وسوف ينشد
كل النبوءات، بأن الأصل الملكي
لداود (هكذا أسمي هذا الملك) سيظهر منه
ابن من سلالة امرأة[1] وقد أنبئت به،
وأنبئ إبراهيم، وبه سوف تثق
جميع الأمم، وأنبئ به الملوك، فمن الملوك
يكون آخرهم، أما حكمه فلا نهاية له.
ولكن أولاً هناك تعاقب طويل لا بد أن يمر،
وابنه الثاني[2] اشتهر بالثروة والحكمة،
وتابوت الله المظلل بالغيم المتنقل من خيمة
إلى خيمة، يقام له مذبح مجيد في المعبد.
وسوف يتبعونه، كما سوف يسجلون فمنهم
قسم طيب، وآخر رديء، وسجل الرديء أطول،
فوثنياته كانت شديدة، والأخطاء الأخرى

---

(1) أي من سلالة العذراء لأن نسبها يرجع إلى داود. ولا يستطيعون نسب السلالة ليوسف النجار لأنه ليس من نسل داود، ولأنه الأب الأرضي المكلف بالصبي تكليفاً، ولا علاقة له به من حيث النسب.

(2) سليمان الحكيم.

تعود إلى مجموع الشعب، وسوف يبخرون
الله، حتى يتركهم، ويعرض أرضهم
ومدينتهم ومعبده، وتابوته المقدس
مع كل الأشياء المقدسة، سخرية وفريسة
لتلك المدينة المتكبرة، الذي شاهدت أسوارها العالية
تترك للبلبلة، لذلك سميت بابل.
هناك في الأسر سوف يتركهم يسكنون
المكان لسبعين سنة، ثم يعيدهم،
منكراً بالرحمة وبميثاقه الذي قطعه
لداود، ووطده كأيام السماء.
عادوا من بابل بعد إذن ملوك
أسيادهم، بتدبير من الله، إلى بيت الله
فأعادوا بناءه أولاً، ولزمن عاشوا
متواضعين في حالة متدنية، إلى أن نموا
ثروة وعدداً، وتكثر أحزابهم؛
ولكن أولاً نشب الشقاق بين الكهنة،
وهم رجال يلتحقون بالمذبح، وعليهم
أن يحاولوا نشر السلام: فقد لوّث شقاقهم
الهيكل نفسه: ثم استولوا على

الصولجان، دون اعتبار لأبناء داود،
ثم يتركونه لغريب[١] حتى أن الملك
الحقيقي الممسوح وهو المسيّا يولد
عارياً من حقه؛ ومع ذلك في ميلاده نجم
غير مرئي قبل أن تعلن السماء مجيئه،
ويرشد حكماء الشرق[٢]، الذين يبحثون،
عن مكانه، أن يقدموا البخور والمرّ والذهب؛
وعن مكانه يخبر ملاك الرب بتواضع
الرعاة البسطاء، ويحرسه كل الليل؛
فأسرعوا إلى هناك، وقد سمعت مجموعة
من ملائكة الربعات ترنيمة الميلاد التي أنشدها.
العذراء أمه، ولكن أباه
قوّة العليّ؛ وسوف يصعد
العرش الموروث، ويفرض حكمه
على كل حدود الأرض الواسعة، ومجده في السماء.
توقف الملاك وقد لاحظ أن آدم من الفرح
الشديد، كما الحزن الشديد من قبل، فسالت مدامعه،

(1) الحاكم الروماني.
(2) هم المجوس.

وكتم كلماته، لكنه نطق بهذه الكلمات.
يا نبي الأخبار السارة، يا منهي
آخر الآمال! الآن فهمت بوضوح
ما كانت أفكاري تبحث عنه عبثاً،
وهو لماذا الانتظار العظيم يجب أن ندعوه
ابن العذراء: أيتها الأم العذراء، هاليلويا،
عظيمة في محبة السماء، وإن كنت من
صلبي سوف تولدين، ومن رحمك ابن
الله العلي العظيم؛ وبذلك يتحد الله بالإنسان.
لا بد أن الأفعوان الآن سيسحق رأسه
ويعاني من آلام قاتلة: فقل لي أين ومتى يحصل
قتالهما، وأي ضربة سوف تسحق عقب المنتصر.
ورد ميخائيل على هذا. لا تحلم بقتالهما،
على أنه صراع، أو جراح موضعية في
الرأس أو العقب: ليس لهذا يجمع الابن
الإنسانية إلى الإلهية، فبقوة أكبر تهزم
أعداءك؛ وليس هكذا تتغلب على
الشيطان، الذي سقط من السماء، بإصابة أشد قتلاً،
لا تمكنه أن يجرحك جرحاً مميتاً:

ولكنه هو منقذك الآتي سوف يخلصك،
ليس بتدمير الشيطان، بل أعماله فيك
وفي ذريتك: ولا يمكن أن يكون هذا،
وإنما بتحقيق ما تريده أنت،
طاعة شريعة الله، وفرض
عقوبة الموت، ومعاناة الموت،
الذي هو عقوبة على المخترق لك،
وعلى نسلك الذين سيأتون منك:
وبذلك يمكن تطبيق العدالة حقاً.
وسوف تطبق شريعة الله تماماً
في كل من الطاعة والمحبة، مع أن المحبة
وحدها تحقق الشريعة؛ فعقابك
سوف يتحمله بمجيئه في الجسد
ليلوم الحياة ويلعن الموت،
معلناً الحياة لجميع من سوف يؤمنون
بافتدائه، وطاعته تصبح طاعتهم
بالإيمان، وخصاله هل التي تخلصهم،
وليس أعمالهم وإن كانت بحسب الشريعة.
لهذا سوف يعيش مكروهاً، ومجدفاً عندهم،

وينتزعونه بالقوة، ويحاكمونه، ويدينونه بالموت
عاراً ولعنة، وخاصته سوف تسمره
على الصليب، يقتلونه لأنه أحضر الحياة؛
ولكنه على الصليب سوف يسمر أعداءك،
الشريعة التي ضدك، وكل خطايا
البشرية، معه هناك سوف تصلب،
من غير أن تؤذي أولئك الذين يثقون حقاً
بأن هذا يكفيه؛ لهذا هو يموت،
ولكنه بسرعة يقوم، فلا سلطة للموت عليه
تغتصبه لمدة طويلة؛ فقبل أن يعود نور
الفجر الثالث، سوف تراه كواكب الصبح ينهض
من قبره، ندياً مثل ضوء الفجر،
ففديتك دُفعت، ومن الموت تحرر الإنسان،
موته من أجل الإنسان، فمن يقدمون الحياة
لا يهملون، والخير يعانقه الإيمان
وليس الأعمال الفارغة: فهذا العمل الإلهي
سوف يقضي على دينونتك، والموت الذي متّه،
في الخطيئة، سيضيع إلى الأبد من الحياة؛ فهذا العمل
سوف يسحق رأس الشيطان، ويسحق قوته

هازماً الخطيئة والموت، سلاحيه الرئيسيين،
وفي رأسه يشك أشواكهما[١] عميقاً أكثر
من سحق الموت الزمني المؤقت لعقب المنتصر،
أو أشواك من يفديهم، إنه موت يشبه النوم،
انطلاق لطيف إلى الحياة الخالدة.
بعد القيامة لن يقيم طويلاً
على الأرض سوى بعض المرات ليظهر
لتلاميذه، وهم الرجال الذين في حياته
ظلوا يتبعونه؛ وسوف يترك لهم مهمة
تعليم كل الأمم ما تعلموه منه
ومن انعتاقه، وهم الذين سيؤمنون
بالمعمودية في النهر الجاري، إشارة
إلى غسلهم من إثم الخطيئة إلى الحياة
النقية، ويعدهم في العقل كما يجب، ليواجهوا
الموت، فيموتون كما مات محررهم.
سوف يعلمون كل الأمم؛ لأنه من ذلك اليوم
ليس فقط لأبناء عورات إبراهيم

---

(1) فكرة مأخوذة من كورنثوس الأولى ١٥: ٥٥.

سوف يكرز الانعتاق، بل لأبناء
إيمان إبراهيم، أينما كانوا في العالم؛
لذلك في سلالته كل الأمم سوف تتبارك.
ثم إلى سماء السموات سوف يصعد
مظفراً، منتصراً عبر الهواء
على أعدائه وأعدائك؛ وهناك سيفاجئ
الأفعوان، أمير الهواء[1]، والتنين المكبل
عبر كل مملكته، وهناك يتركه مرتبكاً؛
ثم بالمجد يدخل، ويستعيد
مكانه إلى يمين الله، مرتفعاً جداً فوق
كل الأسماء التي في السماء؛ ومن هناك سيأتي
عندما ينضج انحلال هذا العالم،
بمجد وسلطة ليدين الأحياء والأموات
ويحاكم من ماتوا غير مؤمنين، ولكن ليكافئ
مؤمنيه، فيتلقاهم في البركة،
في السماء أو الأرض، لأن الأرض وقتها
سوف تكون فردوساً، مكاناً أسعد بكثير

---

(1) الشيطان.

من عدن، تكون أياماً أكثر سعادة.
هكذا تكلم رئيس الملائكة ميخائيل، ثم
توقف كما لو أنه في عصر العالم العظيم؛ ووالدنا
فاض فرحاً ودهشة فأجاب.
يا طيبة لا تحدّ، يا خيراً عميماً!
كل هذا الخير من الشر ينتج،
والشر يتحوّل إلى خير؛ والمدهش أكثر
أنه عندما انبثق الخلق لأول مرة
خرج النور من الظلمة! فملأني الشك،
حيث يجب أن أندم الآن على الخطيئة
التي اقترفتها ووقعت مني، أو أبتهج
أكثر، أن المزيد من الخير سوف ينبثق منها،
والمزيد من المجد لله، والمزيد من الخير للناس
من الله، وتزداد النعمة أكثر من الغضب.
ولكن قل لي، إذا كان مخلصنا إلى السماء
يصعد ثانية، فماذا سوف يحدث للقلة القليلة
من مؤمنيه، وقد تركهم بين قطيع غير مؤمن،
بين أعداء الحق؛ من عندئذ يرشد

شعبه، ومن يدافع عنه؟ ألا يفعلون مع
أتباعه أسوأ بكثير مما فعلوه معه؟
سيفعلون، قال الملاك: ولكن من السماء
سوف يرسل معزياً إلى خاصته،
وهو وعد الأب، فيجعل روحه تسكن
في داخلهم، وشريعة الإيمان
تعمل من خلال المحبة، وفي قلوبهم سوف تكتب،
لترشدهم إلى الحق، وتسلحهم
بالدرع الروحي، القادر على مقاومة
هجمات الشيطان، وإطفاء سهامه النارية،
كل ما يستطيعه الإنسان ضدها، وإن كان لا يخاف
حتى الموت، أنه يقاوم هذه المظالم
بما يعوض عليه من مكافآت التعزية الداخلية،
ويأتيه عادة دعم سوف يذهل
أشد مضطهديهم صلافة: إذ الروح القدس
نزل أولاً على تلاميذه الذين أرسلهم
ليبشروا الأمم، ثم على جميع
المعمدين، الذين سوف يهبهم هبات مدهشة

فيتكلمون بكل اللغات، ويفعلون كل المعجزات،
كما فعلها معلمهم أمامهم. وهكذا يربحون
أعداداً هائلة من كل أمة ليتلقوا بالفرح
أخباراً تنتجها السماء: أخيراً
نفذوا مهمتهم، وسوف يبدأ السباق،
وخلفوا مبدأهم وقصتهم المكتوبة،
وماتوا؛ ولكن في مكانهم، كما حذروا مسبقاً، تنتج
الذئاب في الحلول محل المعلمين، ذئاب ضارية،
يحولون كل أسرار السماء المقدسة
إلى مصالحهم الآثمة
من الربح والطمع، ويلوثون الحق
بالخرافات والتقاليد،
وإن تركت نقية في تلك السجلات المكتوبة،
مع أنه لا يمكن فهمها إلا بالروح القدس.
ثم يسعون لتمكين أنفسهم في الأسماء
والممتلكات والألقاب، ويجمعون إلى ذلك
السلطة الدنيوية، مع أنهم يدعون أنهم يعملون
بوحي روحي، فيخضعون لمصالحهم

روح الله، التي وعد بها ومنحها
إلى جميع المؤمنين؛ وبذلك الزعم،
يفرضون القوانين الروحية بالقوة المادية
على كل صاحب وجدان؛ وهي قوانين
لا يجدها أحد في السجلات، أو ما نقشته
الروح في الداخل على القلب. فما من سبيل
أمامهم سوى قسر روح النعمة نفسها، وتقييد
الحرية خدين تلك الروح، وما سوى هدم
المعابد الحية، التي بناها الإيمان وأعلاها،
إيمانهم وليس إيمان الآخرين: إذ على الأرض
من مقابل الإيمان والوجدان يسمع
بالمعصوم؟ ومع ذلك كثيرون سوف يدعون:
وحين يظهر الاضطهاد الكبير
على كل أولئك الذين حافظوا في العبادة
على الروح والحقيقة؛ فإن البقية وهم القسم الأكبر
فسوف يعتقدون أنه في الطقوس الخارجية والأشكال
المزيفة يتحقق الدين؛ فيتراجع الحق
وتناله سهام الافتراء، وأعمال الإيمان قلما

يعثر عليها: وهكذا يتابع العالم،
خيّراً مع الخبيث، لطيفاً مع الرديء،
ويرزح من ثقله الخاص إلى اليوم الذي
يظهر فيه مجال للأبرار
وينال الخبثاء الانتقام، عند عودته
حسبما وُعدتَ مؤخراً بأن يساعدك،
وهو ابن العذراء، الذي أنبئت به على نحو غامض،
والآن عرفته جيداً بأنه مخلصك وسيدك،
وأخيراً في الغيوم من السماء يظهر
في مجد الأب، ليبدد
الشيطان مع عالمه الشاذ، ثم يرفع
من الكتلة الملتهبة سماء وأرضاً جديدتين
نقيتين مطهرتين، وتحل عصور بلا نهاية
وتقوم على الحق والسلم والمحبة
فتنتج ثمار الفرح والبركة الأبدية.

أنهى كلامه فرد آدم أخيراً.

ما أسرع نبوءتك، أيها المتنبئ المبارك،
بحسب مقاييس هذا العالم الزائل، في سباق الزمن،

إلى أن يتوقف الزمن: وخلفه تقبع الهاوية،
الأبدية، التي لا يمكن لعين أن تراها.
سوف أغادر من هنا وقد تعلمتُ الكثير.
وإلى السلم يركن فكري، وقد امتلأت
معرفة، بحسب ما يتسع هذا الوعاء؛ وطموحي
الأحمق كان أن طلبت أبعد من ذلك.
لذلك تعلمت، أن الطاعة هي الأفضل،
والمحبة مع الخوف لله وحده،
كأني في حضرته، أرقب أبداً
عنايته، وعليه وحده أعتمد،
رحمته تشمل كل أعماله، وبالخير
نتغلب على الشر، وصغير الأشياء
ينجز كبيرها، والأشياء الضعيفة
تدمر أقوياء العالم، وحكيم العالم
تدمره الوداعة البسيطة؛ فالعذاب من أجل الحق
دعم لأعلى انتصار،
والموت للمؤمن بوابة الحياة؛
تعلمت هذا من مثاله الذي أنا الآن

أقرّ بمحرري المبارك إلى الأبد.
وجاء آخر رد أيضاً من الملاك.
بتعلمك هذا نلت خلاصة
الحكمة؛ فلا تأمل بما هو أعلى، مع أنك
تعرف أسماء كل الكواكب، وكل القوى الأثيرية،
وكل أسرار الأعماق، وكل أعمال الطبيعة،
أو أعمال الله في السماء أو الفضاء أو الأرض أو
وكل ثروة هذا العالم الممتعة،
وكل الحكم، وإمبراطورية واحدة، فقط أضف
أعمالاً إلى معرفتك المسئولة، وأضف الإيمان،
إلى الفضيلة والصبر والتحمل والمحبة
التي ستسمى الإحسان، وهي روح
كل ما تبقى: وسوف لن تكره
مغادرة هذا الفردوس، بل سوف تملك
فردوساً في داخلك، أكثر سعادة.
دعنا نهبط الآن من هذه القمة
التأملية؛ لأن ساعة مغادرتنا هذا المكان
دقيقة جداً؛ وانظر الحرس،

الذين أمرتهم أن ينتشروا حول الهضبة، توقعت
حركتهم، وفي مقدمتهم سيف ملتهب،
إشارة إلى التحرك، يدور مشهراً؛
لن نمكث طويلاً: اذهب وأيقظ حواء؛
فقد هدّأتُها أيضاً بأحلام لطيفة
تنبئها بالخير، فتقوّت روحها
وخضعت بلطف: وفي الوقت المناسب
دعها تشترك معك فيما سمعت،
وبخاصة ما يجب أن تعرفه عن إيمانها،
والهبة العظيمة التي ستخرج من نسلها
(لأنه من نسل امرأة) لكل البشرية.
سوف تعيش وتكون أيامك كثيرة،
كلاكما تجتمعان في إيمان واحد، برغم الحزن،
الذي سببته الشرور الماضية، ومع ذلك تبتهجان
أكثر بتأمل النهاية السعيدة.
أنهى كلامه وهبطا الهضبة؛
هبطا، فأسرع آدم قبله إلى العريشة حيث حواء



ذرفا بعض الدموع البشرية، ومسحاها بسرعة (١٢: ٦٤٥)

نائمة، ولكنه وجدها قد استيقظت؛
فاستقبلته بكلمات غير حزينة.
[٦١٠] أعرف متى عدت وأين ذهبت
لأن الله معي في نومي، وأحلامي أرشدتني،
لمن جاء بالنبوءات، بعضها بخير عظيم
يتنبأ، ومنذ أن أتعبَ قلبي الحزنُ والهمُ
استسلمت للنوم: ولكن لنرحل الآن،

لا تأخير من جانبي؛ فالذهاب معك،
هو البقاء هنا؛ والإقامة هنا من دونك
هو الخروج من هنا وإن كرهاً؛ فأنت لي
كل الأشياء التي تحت السماء، وأنت كل الأمكنة،
يا من عوقبت بسبب جريمتي المقصودة.
وضمنت عزاء أكثر، ما زلت
أحمله هنا؛ مع أن كل شيء ضاع بسببي،
فقد أنعم عليّ بفضل لست جديرة به،
فمني سوف تصلح البذرة الموعودة كل شيء.
هكذا تكلمت أمنا حواء، وسمعها آدم
مسروراً، ولم يجب؛ فقد صار الآن رئيس
الملائكة واقفاً بقربه، ومن الهضبة الأخرى
إلى مكانهما المحدد، هبط صف مشرق
من الشيروبيم؛ وعلى الأرض
انزلقوا شهباً، كضباب المساء
الصاعد من نهر فوق المستنقع،
وتجمعوا في الأرض بأسرع من جري
عمّال إلى بيوتهم. وكان يتقدمهم

سيف الله يلتهب أمامهم،
عنيفاً مثل مذنـّـب متقد الحرارة
وبخار مثل هواء الغبار الليبي،
بدأ بحرق ذلك المناخ المعتدل؛ وقتها
أمسك الملاك المسرع بيدي
والدينا المتثاقلين، وإلى البوابة الشرقية
قادهما مباشرة، وهبطا الجرف بسرعة
إلى السهل العريض؛ ثم اختفى.
تطلعا إلى الخلف، وشاهدا كل الجانب الشرقي
من الفردوس، مكان سعادتهما الأخير،
وظلت تموج النار المعلقة فوقه والبوابة
بحشد الوجوه المرعبة والنار تسلحت:
ذرفا بعض الدموع البشرية، ومسحاها بسرعة؛
العالم كله أمامهما، حيث يختاران
مكان راحتهما، ويجعلان العناية مرشدهما:
يداً بيد وبخطوات تائهة وبطيئة،
عبر عدن شقا طريقهما وحيدين.

* * *

الفهرس

الطبعة الأولى / ٢٠١١م
عدد الطبع ١٠٠٠ نسخة



www.syrbook.gov.sy
مطابع وزارة الثقافة - الهيئة العامة السورية للكتاب - ٢٠١١م
سعر النسخة ٣٨٠ ل.س أو ما يعادلها